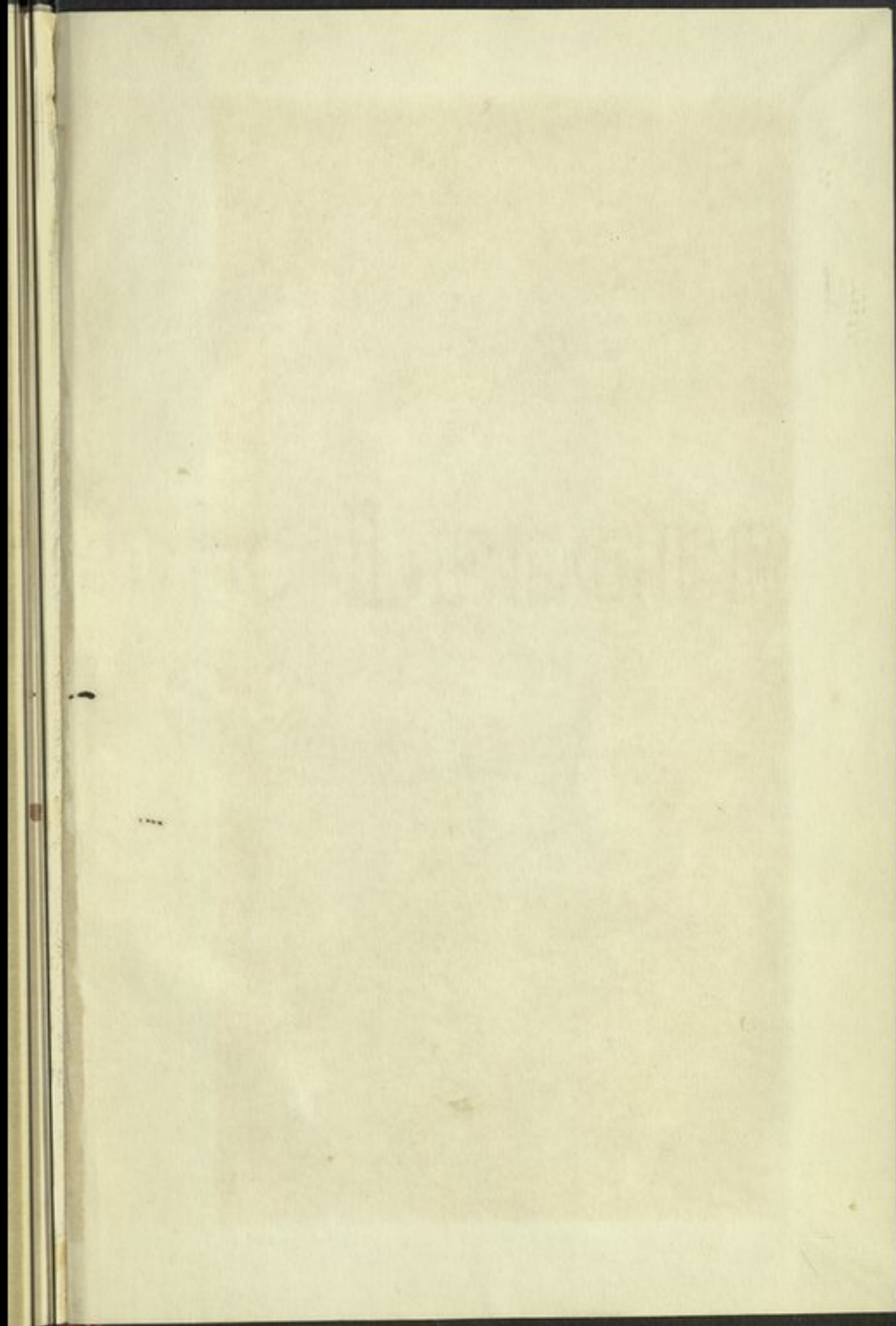


A.U.C. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



F. B. LIBRARY



مُلُوكُ الْعَرَبِ

915.3
R26mA
v.1
c.1

أو

رجلة في البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية أقسام

مزينة بالخرائط والرسوم

تأليف

أمين الرشيداني

الجزء الأول

الحجاز - اليمن - عسير - نجد

والتواحيق السبع المنجسية

الطبعة الثانية

وقد صححها المؤلف وزاد في حواشيتها

مفقون الطبع والنسخة محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا...

ما كنا لنجده لولا...

هدانا...

لولا...

الحمد لله...

الذي هدانا...

لولا...

لولا...

أقدم
هذه الكتاب

للساشنة العربية الناهضة
في كل مكان

أعز
أبي

1871
1872
1873

1874

1875

1876

1877

فهرس الجزء الاول

	صفحة
تقدمة	٠
رحم الله كل من قال شعراً	٥
المقدمة	٦
القسم الاول	
الملك حسين بن علي	
الحجاز	٢٢
الفصل الاول	٢٣
البدو والحضر	
من الضب الى الطب	» الثاني ٢٩
الابداع في الاصلاح	» الثالث ٣٤
تلميذ في البداوة والحكمة	» الرابع ٣٩
قرون السياسة	» الخامس ٤٦
بين الاستانة ومكة	» السادس ٥٤
بين مكة ودوزن استریت	» السابع ٥٩
الوحدة العربية	» الثامن ٦٤

القسم الثاني

الام يحيى بن حميد الدين

اليمن	٧٠
الفصل الاول	٧١
التبليغ في الترويع	
في الطربو الى صنعاء	» الثاني ٨٤
اليمن الاخضر القديم	» الثالث ٩٤

	صفحة
صنعا. اليمن	١٠٦
الضيف المأسور	» الخامس ١١٦
حكم الامام	» السادس ١٢٦
الضرائب والسلاح	» السابع ١٣٥
الشمال القدسية	» الثامن ١٤١
الجو ينجلي	» التاسع ١٤٨
الخيم المنصور	» العاشر ١٥٨
الزبود واليهود	» الحادي عشر ١٦٦
المسئلة السياسية الكبرى	» الثاني عشر ١٧٤
ثمة المفاوضات	» الثالث عشر ١٨٥
المعاهدة	» الرابع عشر ١٩١

القسم الثالث

السيد الادريسي

بلاد الهند او ما يحكمه الادريسي من عسير	١٩٨
الفصل الاول	١٩٩
سطح اليمن	» الثاني ٢١٢
الى الحدود	» الثالث ٢٢٢
نساء تهامة	» الرابع ٢٣٢
الحديدة	» الخامس ٢٤١
اديان واشجان	» السادس ٢٥٢
احمد بن ادريس والتصوف	» السابع ٢٦٧
الادارسة في عسير	» الثامن ٢٧٧
على ظهر الباخرة	» التاسع ٢٨٧
جيزان	

	صفحة
الفصل العاشر بين الامامين	٢٩٦
» الحادي عشر المعاهدة	٣٠٣
» الثاني عشر جوار وسادات	٣١٠
» الثالث عشر تجارة الرقيق	٣٢٣
» الرابع عشر خطوات الى الوحدة	٣٣١

القسم الرابع

لحج والنواحي التسع المحمية

لحج والنواحي التسع المحمية	٣٣٨
الفصل الاول الثالث المادي في عدن	٣٣٩
» الثاني من اجل شركة الهند	٣٥١
» الثالث سلاطين لحج	٣٥٧
» الرابع لحج في الحرب العظمى	٣٦٥
» الخامس التمدن الحديث في لحج	٣٧٠
» السادس النواحي التسع المحمية	٣٨٠
» لائحة الرواتب الشهرية	٣٩٠

فهرس الرسوم و الخارطات

	بين صفحتي
خريطة البلاد العربية (في صدر الكتاب)	
جلالة الملك حسين بن علي	٢٠ — ٢١
حضرة الامام يحيى بن حميد الدين	٦٨ — ٦٩
ثلة من عساكر الامام	١٤٨ — ١٤٩
مناخة	١٤٨ — ١٤٩
حضرة السيد محمد بن علي الادريسي	١٩٦ — ١٩٧
بعض عساكر لادريسي	٢٦٧ — ٢٦٨
سمو السلطان عبد الكريم فضل	٣٣٦ — ٣٣٧
الخوطة عاصمة لحج	٣٥٦ — ٣٥٧
الاسداد في عدن	٣٥٦ — ٣٥٧
سمو السلطان احمد فضل	٣٦٤ — ٣٦٥
جوقة لحج الموسيقية	٣٦٤ — ٣٦٥
خريطة لحج والنواحي التسع المحمية	٣٨٠ — ٣٨١

رحم الله كل من قال شعراً

او لم تكن تدري نوار بانتي
تراك امكنة اذا لم ارضها
وصال عقد حباتل جندامها
او يعتقي (١) بعض النفوس جامها
ليعبده ربيعه

ساعد بارض تكون فيها
ولا تقل اني غريب

اني اهتديت لركب طال سيرهم
في سبب بين ذكداك (٢) واعقاد (٣)
عيبه الابرص

اراعي نجوم الليل وهي كاتها
قوارير فيها زئبق يتخرج
الطارت به هلزه

واني متى اهبط من الارض نلعة (٤)
اجد اثرأ قبلي جديداً وعاقبا
زهبر به ابي سلمى

وقد طوَّفت بالانفاق حتى
رضيت من الغنبة بالاياب
امرؤ القيس

سبدي لك الايام ما كنت جاهلاً
وبائيك بالاختبار من لم تزود
طرفه به العبد

(١) يأنى (٢) الفاظ من الارض (٣) ما تعقد وتراكم من الرمل
(٤) المنخفض من الارض

المقدمة

١

كنت في الثانية عشرة من عمري عند ما سافرت المرة الاولى الى الولايات المتحدة . فلم اكن اعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والفرنسية ، وما كان في ذهني من العرب واخبارهم غير ما كانت تسمعه الامهات في لبنان صفارهن . هس ، جا البدوي ! والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام « بعبعا » تخوف به اولادها .

هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض لمن في عروقي شيء من دمهم . والبغض والخوف مما توأما الجهل .

اما الامة الافرنسية فما كنت اعرف من ام الارض سواها . ولكنها معرفة مطووسة كانت المدارس تنشر اذناها في لبنان : ان فرنسه لا عظم ام الارض ، هي اشرفها واغناها وارقاها . بل هي قطب المدينة ، وعاصمة النور والجمال — هي الطاووس بين الامم .

كذلك كانت مدارسنا مثل امهائنا تسقيننا العلم في كأس التسمويه . الا ان في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرها « لبيع » الامهات . هي كأس الجهل في الحالين ، الجهل الذي يولد الخوف والبغض ، والجهل الذي يولد الحب والاعجاب .

اما اميركم فقد كنت في ما عرفته منها بعيداً عن الام وعن المدرسة . لناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه . ومع ذلك فلم تخل مما امتازت به الكأسان الاوليان . رشفت في نيو يورك الجلام تلو الجلام

من العلوم المشوية وفيها اشياء من الجهل المتلألئ . وما يمازجه من الخوف والاعجاب .

غدوت بعد عشر سنين في اميركه معجبا بنشاط الشعب الاميركي وبحريته في الفكر والقول والعمل ، خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا . وما كان خوفي على الامة الاميركية وانا في ذلك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتمت له وبقطة الدائرة في كل ما ملت اليه .

خفت ان اغلب في ذلك الجهاد ، اشفت على نفسي من ذلك التكالب . ونسيت فرسه الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادني ضعفاً وتردداً في مضمار الحياة . صرقتني عن حقائق الوجود المادية ، وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت في نيويورك كثيراً يحمل كتاباً ، وغاوباً من غواة الفنون يمشي في الجنائن العمومية سهلاً ، فانفتحت امامي ابواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور .

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية واجتماعية ، ارقى من الشعب الاميركي ، او احب الي من كان مثلي . فكان لي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمر ، فلم اتخلق مثل سواي من السوربين هناك باخلاق الاميركيين كلها . والفضل في ذلك علي هو لفيلسوفهم الاكبر امرسون الذي كان دليلي الاول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجايامهم^(١) .

وقد عرفني امرسون الى كز ليل ، وكان كريليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب . اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمداً^(٢) فأحسست لأول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم .

English Traits by Ralph Waldo Emerson

(١) « السجايام الانكليزية »

تأليف رالف والدو امرسون .

Heroes and Hero - Worship by Thomas Carlyle

(٢) الابطال

وتأليه الابطال ، تأليف طامس كريليل وقد ترجمه الى اللغة العربية محمد السيامي .

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم ورافتي الصور فيه . وما كان العنوان لينبئني بشيء اكرهه او احب . قرأت كتاب الالهمبرا^(١) فأدركت ان المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت ان الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث اليّ ، وانا بعيد عنك ، انكليزيا يعرفني الى رسولك واميرك كما بصف لي محاسن ابنائك .

بعد ان قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الاميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت احلم بذلك المجد الماضي احلاماً تمثلني حياً فيه بل تمثله حياً امامي .

عدت الى بلادي كئيباً يحمل كتاباً ، ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب وكتاب . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارتي لخالي . وبيننا انا نتخبط في دباحي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفاً في البصرة والكوفة .

جمعني الله سبحانه وتعالى بابي العلاء المعري بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها مترنماً ورحت افخر بابي من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر ، الجسور ، الحكيم .

٢

عدت الى اميرك استصحب صاحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك . فسافنتني المهنة الى الدائرة الشرقية في دار الكتب العمومية ، فاجتمعت فيها

(١) الالهمبرا تأليف واشنطن Irving The Alhambra by Washington Irving
أرفنغ .

بعدد من المستشرقين الذين صوروا لي الحياة رحلة في الارض دائمة ، وصوروا الارض بادبة عربية نبع فيها محمد بن عبدالله القرشي وامرؤ القيس الكندي ، الشعر والنبوة والدهناء ، والواحات في بحار من الرمال ، والنخيل في الواحات يهمس في اغصانها النسيم ، ويهز جذوعها السحوم ، وصوت الساقية وهي تغني للارض المنعمه في ظلال النخيل ، وبنية البدو تغني لجل الساقية — وماذا في نيو يورك ؟

ماذا في نيو يورك غير الضوضاء والعناء والعياء والبلاء ؟

هذا الرحالة بلغراف^(١) وترجمانه اللبناني الذي صار بعدئذ بطريركاً عظيماً^(٢) يحدثناني عن شمر والقصيم والعارض والرياض . وذاك المستعرب 'بركهارت'^(٣) وقد دخل الى مكة حاجاً ، مسلماً صادقاً تقياً . وهذا العلامة 'برون'^(٤) بقص قصة عجيبة بطلها بزاز من سمرقند قد حمل الكيس — نفتا هندي شاش حرير با بنات ! ليكشف له امرار الحرير . ثم ركب العيس ، وكان دليله ابليس ، فاقتنى اثر 'بركهارت' لغرض في النفس ، ونظم قصيدة كفرة كفرة بها عن كل ماتبه في التلبيس

وهذا خليل^(٥) الذي راح يهول بنصرانته في وجه البدو ، فقاسى في رحلته الاهوال ، ونجا غير مرة من مخالب الاضمحلال . اضطهد في برودة ، وطرد من عنيزة ، وسلب وضرب ، وترك في النفود يهيم على وجهه وليس في

-
- Central and Eastern Arabia by W. G. Palgrave (١) قلب البلاد العربية وشرقها تأليف وليم بلغراف .
 (٢) البطريرك الجرجيري .
 Travels in Arabia by J. L. Berkhart (٣) ساحة في بلاد العرب تأليف جان بركهارت .
 A Pilgrimage to Al-Medina and Mecca by Richard F. Burton (٤) الحج الى مكة والمدينة تأليف رتشارد برتون .
 Wanderings in Arabia by Charles M. Doughty (٥) التجوال في البلاد العربية تأليف شارلس دوغتي وقد اتحل اسم خليل .

جيبه غير خمسة ريالات ، وليس في قلبه ذرة من التديليس والتلبيس . الدرويش خليل ، كأنه كان يهوى الاخطار فيجذبها اليه . خليل النصراني ، جاء بتعصب اسكتلندي يثير في العرب التمسب الاسلامي . خليل النصراني الكافر ! 'فظوا رأسه بالسيف ! ولكن الله اخرجهم من شبه الجزيرة حياً ليكتب كتاباً لا يموت .

وكل هؤلاء من الاجانب يسبحون في بلاد كانت قديماً ولا شك بلاد اجدادي ، ويخاطرون بانفسهم فيها حباً بالعلم ، فيكشون منه الخبايا ، ويحسون المصدأ ، ويقربون البعيد ، ويفربون في اللذيد المقيد . وانا في نيويورك كشيپ يحمل كتاباً ، ويطرق للمحرر الانكليزي المتعطرس باباً . ادب شعره طويل ، وصدرة عليل ، يسرف من ذهب الحياة في تسويد المقالات . آلة كاتبة ، يرقص حولها الهم والامل متخاصرين . اف لها من زوجة ثقافة ، ومن حديدة لباب الشهرة دقاقة ، واية عبودية اشد من عبودية الآلة الكاتبة واخبت . طلقته ثلاثاً ، وعدت الى بلادي اعد العدة لرحلة تبعثني عنها وعن الكتب والمجلات . والادبا والادبيات .

وكان لي صديق في دمشق يجر فيوداً للسياسة ثقيلة فحاول التفلت منها . كسرها ذات يوم فاثار السلطة عليه ، فصنع السلطة وفرّ هارباً الى الفريكة ، فحل فيها اهلاً ونزلاً سهلاً — سهلاً في القلوب ومنهدراً في الوادي . اقام محمد كرد علي عندنا اسبوعاً عددناه من شوارد الزمان . الوادي مهد الحريسة وحصنها الحصين . سمعني صديقي ارد ذات يوم هذه الكلمات فقال : لا اتخدع بالامين . الوادي قريب من دمشق ومن بيروت وفي المدينتين للعبودية عبيد وللظلم اسبياد رعادي . لا بأس بالهمس : والحمد لله ! ولصنك اذا رفعت صوتك تسمعك الصخور فتتم عليك وعلي .

فقلت : صدقت ، وفي نيتي ان اصغر حتى هذا الوادي . في نيتي رحلة الى البادية ، الى البلاد العربية على هجين يبعثني عن كل مظلمة وكل عبودية . فهل صدقتي وقال : نسير سوية . وانفقنا يومئذ ان نستعين بتجار من نجد

في الشام يمهدون لنا السبيل ويزودوننا بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود .
 لكن الايام عدوة الاحلام ، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في القلوب .
 تأثرت السلطة الاثيمة صديقي كرد علي فاضطر ان يتركني وحدي في الفريكة
 ويفر هارباً من سورية . ثم سافر الى اوروبا فذاق من حلو المدينة فيها ما
 استلذه فاستزادها . فقالت له : عد فعاد ، فتعددت رحلاته من المشرق الى بلاد
 المغرب واثرت ثماراً طيبة تجدها في كتابه القيم « غرائب الغرب »^(١) .
 اما انا فقد طوحت بي الاقدار وابدلني ثانية عن الوادي وعن البلاد العربية
 كلها . عادت بي الى نيويورك . ثم نكبت الانسانية بالحرب العظمى فزلزلت
 الارض زلزالها ، فاستعادت ما لها من التراب الذي كان بشراً مسلحاً محارباً ،
 وقضت ، في الكثيرين ممن استبقت ، على جميل الاحلام والامال .

٣

من الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فلا تنفك تزعجه وان
 شاخت ، فتحرضه وتستحسه حتى يسعى في تحقيقها و يفلح في مسعاه .
 رافقت العرب في خروجهم على الترك اثناء الحرب ، رافقتهم في الحملات
 الانكازية والجرائد العربية فكنت اقوم في ما اكتب ببعض الواجب الذي
 يفرضه الحب والاعجاب . وتوقفت في تلك الايام الى زيارة الاندلس
 فتوقفت في الحمراء في الغرفة التي كتب فيها واشنطون ارفين كتابه النفيس ،
 فسمعت اسواتنا لناديني باسم القومية ومن اجل الوطن ، وتدعوني الى مهبط
 الوحي والنبوة .

اصكبت الملك حسيناً الذي استنفر القبائل على الترك وارسل اولاده
 الاسراء الاربعة الى ساحات الوغى . وكان الناس في اميركة بعجبون
 (١) غرائب الغرب . كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي ادبي . طبع في جزئين في المطبعة
 الرحمانية بمصر . تأليف محمد كرد علي رئيس المجلة العلمي بدمشق الشام .

بروزفلت^(١) الذي قدم ثلاثة من ابنائه الى وطنه ، فقلت : ولا يصغر العربي الهاشمي اذا قابلته بالاميركي الكبير . وعندما انتهت الحرب كان الملك حسين اول من صورته الامال ملكاً بفتح لي بابها . وبينما انا افكر في طريقة تحمل اليه امنيتي القصوى ، جاءني مجلة صديقي سليم مر كيس وفيها خبر زيارته لتلك السدة الهاشمية المباركة .

واهم من ذلك يومئذٍ عندي خبر قرأته مدهوشاً مسروراً . جاءني الصديق بصديق آخر ، وهو من الخلان الاولين الذين كانوا يزوروني في الفريكة بعد عودتي الثانية من اميركه ويشجعونني في اقبالهم على رسالتي كتابة وخطابة في سبيل الاصلاح الاجتماعي والتهديب . وهذا الصديق هو قسطنطين بني الذي ابعده عني الحرب العظمى وحرمتني اخباره . نجاء العزيز مر كيس ، كما نرسول العناية الي ، يبشرني بوجوده في خدمة جلالة الملك حسين .

علمت وكبرت . وناولت القلم وكتبت توأ كتاباً الي العزيز قسطنطين فيه بين السلامين مئة سؤال وسؤال ، اولها : هل يأذن جلالة الملك بالزيارة ؟ وآخرها : هل ترافقني انت في هذه الرحلة ؟ وما مضى الشهر الاول واتصف الثاني حتى جاءني منه الجواب وفيه ما يلي :

« اتفق ان وصل كتابك الي وجلالة الملك حسين في جدة فقرأته له كلمة كلمة وتباحثنا ملياً في الموضوع . . . وهو يرحب بك اذا حضرت . ومن رأيه ان لا لزوم للسياحة في جزيرة العرب كلها فهو يساعذك على زيارة الحجاز من اقصاه الي اقصاه ، ويعطيك المعلومات اللازمة ، ويطلمعك على جميع العقود والنصوص والمفاوضات بينه وبين الدول من مطلع النهضة الي اليوم ليكون في استطاعتك تاليف كتاب عن العرب مستوفٍ من جميع ابوابه . ومن رأيه انك متى درست اخلاق قبائل الحجاز تكونت درست اخلاق بقية القبائل لانهم كلهم متقاربون

(١) تيودور روزفلت احد رؤساء الولايات المتحدة .

بالعادات والمشارب . . . اما زيارتك الرياض وابن سعود فهذه مستحيلة
لاستحكام العدا بينه وبين الحجاز . . . والسياسة توافق ان تكون في
فصل الشتاء ولا تستغرق أكثر من اربعة اشهر ولو انتهت في بغداد . . .
واني بكل سرور ارافقك حيث شئت . . . اما الكعبة فلا يؤذن لك
بزيارتها في الوقت الحاضر للأسباب المعروفة . . . والسياسة تكلفك لا
اقل من خمسمئة جنيه . »

في هذه المعلومات يبدو للقاري، شيء من سوالات سألتها ولم اقف فيها
عند حد من حدود التحفظ والمدارة . ولا لوم علي ، وانا بعيد حقيقة وعلماً
عن البلاد العربية ، اذا استنرت بكل ما ينبغي في رحلتي قبل ان اقدم عليها .
ولكن سؤالي عن زيارة الكعبة ، وانا مسيحي ، يليق باميركي لا يعرف من
العالم غير بلاده ، فاذا قيل له انه لا يؤذن للمسيحي بالدخول الى مكة اعتراه
الدهش والعجب .

اما انا فما دهشت ولا اسفت . بل كنت اعلل النفس بتحقيق اميتي بعد
ان اقابل جلالة الملك . كيف لا وهو زعيم النهضة العربية القومية الاصلاحية ،
ومنقذ العرب الاكبر ، كيف لا والمسيحيون السوريون من العرب ، والاخاء
والمساواة ركنان من اركان النهضة . ما اغرب الاحلام التي كنا نحلها في
بلاد الغرائب وما ابدها . لا اظن ان من كان قادماً من القمر او المريخ يحلم
احلاماً اغرب منها واعجب .

وفي معلومات قسطنطين مما استرعي له نظر القاري ، ايضاً قول جلالتة :
« ان لا زوم للسياحة في جزيرة العرب كلها . » ولكنني لم اتقيد بهذا القول
لاني كنت اعرف في الاقل اوليات الجغرافية العربية ، واناكد ان « من يزور
الحجاز من اقصاه الى اقصاه » لا يكون قد زار البلاد العربية كلها ولا جزءاً
كبيراً منها . وهناك غير ما تقدم من المعلومات التي تأكدت بعدئذ الخطأ
او التحفظ او القصد السيامي فيها . وما كان صدقي غير ناقل في اكثرها

كلام جلالة الملك الذي لم يشأ على ما يظهر ان ازور عسير الحجاز . وقد خير قسطنطين ما خبرته في اليمن مثلاً وعسير بخصوص القبائل التي يختلف بعضها عن بعض في الملابس والمشارب والعمادات . وتأكد مثلي ان من يزور الحجاز فقط لا يستطيع ان يؤلف كتاباً عن العرب مستوفياً من جميع ابوابه . وادرك بعد رحلتنا الاولى من جده الى عدن بان نفقات السياحة ستكون ضعف ما ذكر ، وان مدتها قد تتجاوز السنة ولا سيما اذا تمكنت من السياحة في نجد . وما كانت زيارة الرياض وابن سعود ، والحمد لله ، بالامر المستحيل . على اني اذا ما ذكرتها الان اضحك من تلك البساطة التي حملتني على توجيه السؤال بخصوصها الى جلالة الملك حسين . انها لبساطة تدنو من البلاء لان ليس فيها شيء من الخبث .



وهذا الكتاب وفيه ترجمة سبعة من امراء العرب عسير الحجاز بن علي ، وكلهم ملوك وان اختلفت الالقاب مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض ، وجاهلون شخصياً بعضهم بعضاً . فاننا اذا استثنينا الملك حسين وابنه الملك فيصل لا نجد بينهم ، او في الاقل بين الكبار منهم ، من يعرف زهيره الملكي معرفة شخصية خاصة ، او يعرف من الاقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القطار الذي هو حاكمه .

ليس في ملوك العرب اليوم ملك ساج في البلاد العربية كلها ، وليس فيهم من يستطيع ان يقول : انني اعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها واحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لدي من تقارير العارفين واخبار المنزهين عن الاغراض السياسية والتحيزات المذهبية . ولا استثنى من هذا القول الملك حسين او الامام يحيى او السلطان عبد العزيز آل سعود .

قد يكون الملك حسين أكثرهم علماً بأحوال سكان البلاد من بدو وحضر، وبمذاهبهم ونزعاتهم ونعراتهم وعداوتهم وسياسة امرائهم، لأن مركزه المشرف بالكعبة التي يحجها المسلمون من البلاد العربية كافة بل من اقطار العالم الاربعة يساعده على ذلك. وقد يعرف من احوال جاريه الادريسي وابن سعود ما يستطيع ان يستند اليه فينتفعه في سياسته الحجازية، ولا ينفعه بل قد يضره في سياسته العربية. اريد بذلك ان علمه، وان تجاوزه ما يتناول قبائل نجد وعسير وما يستطيع كل من حاكميها ان يجند من الناس ويجمع من المال، ومن لهم النفوذ الاكبر في بلاديهما، فلا يصل ذلك العلم الى عقلية الادريسي مثلاً او الى قوة ابن سعود الشخصية والمعنوية. ان سلطان نجد في ذهن الملك حسين صورتين لا ثلاثة هما. صورة تجسم نبوغه فلا يكثر بها وصورة تنفي ذلك النبوغ فيعمل عليها. فكيف السبيل مع هذا الجهل الى التقاض والولا؟

اما الامام يحيى فلا شك انه يعرف، وهو العالم الاكبر في امراء العرب، اقطار اليمن وعسير وحضرموت وبعض الحجاز معرفة حقيقية تامة. ولكنه يجهل البلاد النجدية وسلطانها وحقيقة حال اهليها من بدو وحضر. او انه لا يكثر بذلك. ولا شك ان السلطان عبد العزيز اكثر ملوك العرب علماً بالقبائل والعشائر في نجد والحجاز وبلاد الشمال وفي مسقط وعمان وما يليها. ولكنه قلما يكثر اذا ذكر اليمن في غير السياسة. فاذا حدثته عن عادات اهل ذلك القطر القديم واحوالهم الزراعية والاقتصادية والاجتماعية فكأنك تحدثه عن شعب ليس عربي فيتنفكه ويستفيد.

لست مبالغاً اذا قلت ان ليس في البلاد العربية اليوم رجل واحد يعرف البلاد العربية كلها. وليس في العالم اليوم ويا للأسف من يحيط طمأً بالاقطار كافة وبشؤونها جماعاً، بحكامها وقبائلها وزراعتها وصادراتها وخراجها وحروبها، ومشايخها وامرائها، وبكل ما يختص بامورها السياسية الداخلية واخارجية غير الحكومة الانكليزية او بالبحري ووزارة المستعمرات فيها. فهي تصدر كتاباً عن

البلاد العربية^(١) مبنياً على تقارير وكلائها السياسيين والسياح العلماء ، تصححه وتعيد طبعه كل بضع سنوات مرة . وهو مع ذلك لا يخلو من الاغلاط اذا نظر في ما يختص بكل قطر منه ابن البلاد العالم بشؤون القطر المذكور كلها . زد على ذلك ان الكتاب لا ينشر لعموم وقلما يرى خارج الدوائر الرسمية . ولا اظن ان من وظيفة الحكومة الانكليزية او من واجباتها ، فضلاً عن ميلها ومصحتها ، ان تعرف ملوك العرب بعضهم الى بعض ، او ان تطلعهم على احوال الاقطار العربية كلها . ولا اظن ان احداً من ابناء العرب يستطيع ان يقوم بهذا الواجب دون ان يرحل الرحلة التي رحلتها .

فها انا اذن في هذا الكتاب ، ولا تغر ولا اعتذار ، اعرف اسيادي ملوك العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات . وليتأكد اسيادي ان ليس في الثناء في ما كتبت تزلف او مداينة ، ولا في النقد تشيع او تحامل . انما غايي القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والخبر اليقين . ولا علم ولا يقين الا في تبديد الاوهام ، وازارة الازهان .

٥

وفي هذا الكتاب من النقص ما ينبغي ان اشير اليه . كان قصدي الاول ، عند ما سافرت من نيويورك ، ان اسوح في الحجاز واليمن ونجد لعلمي ان في هذه الاقطار الثلاثة تجتمع العرب كافة . ففي اليمن قحطان ، وفي الحجاز ونجد فرعا عدناني اي مضر وربيعة . ولكن المشاهدات الاولى غيرت من قصدي فشذبت وتقتت فيه حتى

(١) Manual of Arabia هو كتاب تاريخي احصائي سياسي جغرافي في البلاد العربية تطبعه وزارة المستعمرات وتوزعه على الوكلاء السياسيين والقناصل والسفراء . دولة بريطانيا العظمى فقط .

اصبح يشتمل على كل ما في شبه الجزيرة خارج الحجاز من امارة او شيخخة
مستقلة .

اما الحجاز وان كان اصغر الاقطار الاربعة الاولى مساحة ، واقلها عدداً ،
فهو اهمها مركزاً ، واولها في السياسة الدولية مقاماً . وقد صار بفضل جلالة
الملك محط رحال الوطنيين من العرب المجاهدين في سبيل الوحدة العربية . فقل
من لا يعرف شيئاً عنه . الحجاز كتاب مفتوح . واهم ما في الكتاب اليوم ما عدا
الحرمين هو الفصل الذي عنوانه : الملك حسين والنهضة العربية . فقد اكتفيت
بهذا الفصل ووليت وجهي الاقطار الاخرى ابغى زيارتها كلها .

ولكني لم اتوفق الى ذلك . ازمعت السفر الى حضرموت عندما كنت في
عدن ، فاجتمعت وانا في بيت شركة البواخر الهندية بريان البويخرة التي سافرت
فيها الى جيزان . وكانت هذه المرة تقصد مكلا . ميناء حضرموت فقلت للربان :
اني معك ثانية ، فضحك وقال : لا اظنك تهوى الحياة . فقلت : واي خطر
على الحياة في بحر العرب وفي فصل الصيف ؟ فأجاب الملاح الانكليزي : هو
فصل الموت - فصل الـ « منصون » ^(١) .

ثم قال : وليس لمكلا ميناء نرسو فيه . وقد لا تسمح الانواء بالرسو في
عرض البحر . وانت تعرف باخرتي ، عرفتها في هدأة البحر الاحمر . وماذا
في حضرموت ؟ اقبل نصيحتي الخ .

فانتصحت آسفاً . فجاء هذا الكتاب وليس فيه غير بعض الشيء . عن
حضرموت اخذته عن رجال من ذلك القطر اجتمعت بهم في عدن والحديدة .
وهذا اول تقص فيه .

اما مسقط وهو البلد الاول في شبه الجزيرة الذي دخله الاوروبيون

(١) المنصون Monsoon ربيع تهب في اشهر الصيف من الجنوب الغربي وتجري
في بحري الهند والعرب شرقاً لشمال تحمل الامطار الى الهند وجنوبي اليمن . وهي ربيع
صرصر شبيهة بريح السوم في الصحراء تشتد منها الانواء في الاوقيانوس الهندي والبحر
العربي اشتداداً يروع حتى الملاحين .

والامير كيون^(١) فليظني ان العروبة فسدت فيه لم اعرج عليه وما ملت اليه .
وقد اكون مخطئاً فأتوفى في المستقبل الى تلافى هذا النقص الآخر في الكتاب .
وهناك عمان وقطر ، تلك البلاد التي تمتد من الساحل تجاه البحرين جنوباً
الى مسقط ، وفيها اربع او خمس شيخات مستقلة . فما عذري فيها ؟ اجيب
بكلمة واحدة : العجز .

عندما عدت من رحلتي في نجد رأيتني مرتويماً الى حد يخشى مع الزيادة
الاستسقاء او بالاحرى امسيت وذهني ونفسي كالاسفنجة وقد امتلأت ماء فلا
تحتمل من الزيادة نقطة واحدة . وما رأيت ، وانا في البحرين ، ان ازور
تلك الشيخات في عمان قبل ان ازور سلطان العرب الاكبر في الرياض . فلم
أسف على ما خسرت في جنب ما كسبت . ولكنني لا ازال اعلل النفس بما
فات ، فأضيف في المستقبل ان شاء الله قسماً آخر الى الكتاب او قسمين أفي
فيهما عمان ومسقط وحضرموت حقها .

بقي ذلك القطر الجديد في الشمال الغربي الذي أنشأته السياسة الجديدة
سياسة « بعد الحرب » وأمّرت عليه التجل الثاني من انجال الملك حسين الامير
عبد الله . فما تلك الامارة في اعتقادي من الامارات العربية الثابتة الدائمة .
قد لا تزول في عهد اميرها الاول ، وقد يكون اميرها الاول الحامل غداً لواء
الاتحاد الى ما وراء الاردن او الى ما دون العقبة وتبوك . اما اذا فازت سياسة
التقسيم وثبتت امارة شرقي الاردن فالعذر سلفاً الى سمو اميرها ، والتكفير ولو
مؤخراً اذا ابقانا الله واباه على مسرح الحياة .

(١) في ٢١ ايلول ١٨٢٢ عقدت حكومة الولايات المتحدة بواسطة وكيلها
الخصوصي ادمون روبرتس Edmund Roberts معاهدة ولائية تجارية مع سلطان
مسقط سعود بن سويد .

٦

وفي هذا الكتاب طائفة من الآراء التي تهتم العرب خصوصاً والاسلام
عموماً ، والتي تهتم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ، يجدها القارى . في
سكنها من البحث . اما الذين لا تهتمهم السياسة بقدر ما يهتمهم العلم والادب ،
واخبار الاسفار ، فقد اخصصتهم بقسم مما كتبت . وقد اتخذت في ذلك اسلوباً
يقرب من القارى . ما شاهدت بعيني ، وسمعت باذني ، ولمست بيدي ، فيمثلته ،
اذا تم القصد الفني ، حياً لديه .

وليس في الكتاب ، ادباً كان او سياسة ، وصفاً او تقداً ، الا الحقيقة غير
المجردة ، لان في التجرد ، في العربي ، شيئاً من سوء الادب ، لاسيما اذا كان
المجرد والمجرد في الغربية . ولا ينسى القارى ، عاقاه الله اني جئت الى البلاد
العربية من ارض قضية يكثر فيها التجرد حقيقة ومعنى . ثم سحت في بعض
ارض الهند حيث يستشعر الناس الهواء ولا يلبسون احبانا غير نسيج من الشمس
والضار . فسئمت التجرد . ولكنني لا اخفي الحقيقة في ما ألبسها . وكأني
بالقارى ، يقول : ان في احتجاجك على العربي شيئاً من الدهاء . فاعتذر اليه في
ما قد يعد مكايرة اذا اعترفت بالذنب . نعم ، وفيه كذلك شيء . من تلك الصناعة
التي يندد بها ارباب الدين على الدوام ، وتمارسها على الدوام النساء .

وما الضرر في البسير من المساحيق والالوان ، وفي المهلبل المطرز من الكساء ؟
اذا كانت الحقيقة المجردة جميلة فهي في ثوبها المهلبل اجمل واذا كانت تؤلم فهي
في زينتها ادعى الى الالم والحزن . الا انها في كل حال لا تجالس التعصب ،
ولا تدنو من التشيع والتشنيع . فمن هذه الوجهة لك ان تحسبها ايها القارى .
العزير بمجردة كل التجرد .

وقد تجبني ، في بعض الاماكن ناقصة او مخطنة ، شأن كثير من الامور
والافكار البشرية . ذلك لان النقص في كل ما يرى ويدرك موجود ،

والخطأ لا يستدرك كله . فقد بذلت في التحقيق والتدقيق طاقتي ، ولا عذر مع جهد نناهي .

على اني متيقن ان كل من يطالع الكتاب من الناطقين بالضاد مهما كان علمه في البلاد العربية واهلها يجد فيه بعض الشيء الجديد المفيد . ولاخواني الادباء خاصة ، في سورية كانوا او في مصر واميرك ، اقول : تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى ما ابعدم عنه التفرنج والتأمرك ، الى حقائق لمسنا ظلها في آداب العرب القديمة ، والى حقائق انستنا اياها الايام والغربة ، والى حقائق يجيها كثير من حتى من العرب انفسهم ، والى حقائق نقلها عن علماء الافرنج ملتوية مشوهة .

تعالوا سيحوا معي فاعود بكم الى بلاد عجيبة مهما كان فقرها ، والى شعب كريم مهما كانت آفاته ، والى امة حرة اية مهما كانت ذنوبها . ايها الاخوان الادباء ان في اكثر المدارس السورية اليوم روحاً اجنبياً من شأنه ان يبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان . ولو استطاع لا بعدم كذلك عن اللسان — لقتل فيهم حب اللغة العربية . وفي البلاد اليوم سياسة تعضد المدارس في خطتها فتوسع التلمذة بيننا وبين العرب وبلادهم . أنظل دائماً حيث كنا منذ خمسين سنة ؟

اعود الى الكلمة التي افتتحت بها هذه التمهيدات . ان البغض والخوف توأما الجهل ، ومن الجهل ما يولد الحب والاعجاب . وان الروح الذي يسعى في ابعادنا عن العرب لا يفلح ان شاء الله في مسعاه . فقد بددت الايام تلك الاوهام التي صورت لنا الكمال كله في الامة الافرنسية ، وعسى ان هذا الكتاب يبدد الاوهام التي صورت لنا « البعج » في العرب .

امين
البياتي

الفريكة ، لبنان

في ٢٧ ايار سنة ١٩٢٤ و ٢٣ شوال سنة ١٣٤٣



عبدالله بن محمد



جلالة الملك حسين بن علي

الجزء الأول

القسم الأول

الملك حسين بن علي

الحجاز

حدوده : يحده شمالاً العقبة وامارة شرقي الاردن ، وجنوباً القنفذة
وجبال عسير ، وغرباً البحر الاحمر . اما شرقاً فحدوده مختلف
طبيها وغير معروفة اليوم تماماً

عدد سكانه : نحو ثلاثمئة الف وأكثرهم من البادية

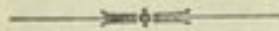
مساحته : نحو خمسة وسبعين الف ميل مربع

اهم قبائله : حرب وعتيبة وجهينة والحويطات وبنو ثقيف وبنو
سفيان

الاسراف : العبادلة (ومنهم البيت المالك) وذوو حسن وقريش

اهم بلدانه : في الداخل : مكة والمدينة والطائف . وعلى البحر : جدة
وينبع والوجه

مذاهبه : السنة : حنفيون وشوافع ، والشيعة : جعفريون وزيديون



الفصل الاول

البدو والحضر

التلفون في الحجاز - عربية لا رطانة فيها - قدوم الملك - رسمه وحقيقة
 حجاب - الديمقراطية العربية - العقال والعمامة - الحضر والترك - تقبيل
 اليد والركبة - المقامات والقبلات - البدو - خشونة الحربة - التاجر
 والقاتل - الملك بين الاثنين - اللغة التي يفهمها البدو - الانكليز -
 العرب والاسلام - السوريون في اميركة - الملك يدعوهم الى الحجاز .

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ (٨ رجب سنة ١٣٤٠) وطلت لأول مرة ارضاً في شبه الجزيرة العربية وقابلت ملكاً ما عرف الغربيون غيره من ملوك العرب . جئت من نيو يورك ازوره وفي قلبي بعض التردد مما تصورته في رسمة الذي نشرته الجرائد ، وجاء من مكة وفي ذهنه صورة وشهرة جسمها لديه صديق لي في خدمة جلالاته ، بل صديقات ، هما قسطنطين بني والشيخ فؤاد الخطيب . وقد اجتمعنا في جده يوم وصلت اليها . وكانت اولي دهشاتي فيها ان محافظ المدينة الذي تفضل فلاقاني على الرصيف بائع جلالة الملك بالهاتف خير وضولي .

الهاتف في مكة المكرمة ! ولكنه مستعرب تماماً . فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها : آوآو . الناس هناك يهتفون ويتحدثون بلغة عربية لا رطانة البتة فيها .
 - مركر ، اعطني مكة .

ولا انتظار ، ولا ابطاء ، ولا تسويق ، ولا مشاقمة .
 - مكة ، محافظ جده يتكلم . الديوان . خير . قل لجلالة الملك . . .

خير . . . خير . . . ابشر .
 ثم كلمني المحافظ قائلاً : سيدنا لم يتأكد قدومكم في هذه الباخرة ، لذلك

لم ينزل لملاقاكنم . ولكنه يجي اليوم .

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول : سيدنا دخل البلد -
ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع فسارعنا الى باب القصر ننتظر قدوم جلالتهم -
وكان قد اجتمع هناك نفر من اعيان جده وعلمائها .

وقفت امام الباب سيارة فخمة فخرج منها ناظر الخارجية ، ثم ناظر المالية ،
ثم الامير زيد ، ثم الملك حسين .

صاحته مسلماً سلاماً عربياً — حي الله مولاي بالخبر . ولا اذكر بآية
كلمة حياني . ولكنني لا انسى اننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ بيدي
لاسير الى جانبه .

دخلنا ردهة الاستقبال في الطابق الثاني ، وهي طويلة تشرف على البحر
غرباً وشمالاً . وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت ، بيت الضيافة ، الذي
انزلت فيه . ان البساطة لتدنو في القصر من النقشف ، فتبدو في السجاد العادي ،
وكراسي الخيزران ، والدواوين المغطاة بقماش من القطن ، والجدران العادية
الخالية حتى من الاباب ، كأنها لتتنازل الى شيء من المدنية اكراماً للزائرين
الاجانب فقط . . ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها التي تروق على
الخصوص القادمين من البلاد الاميركية . وهناك مظاهر اخرى في ظاهر
صاحب الجلالة ، اي في حديثه ، وفي لبسه ، وفي اكرامه الضيف .

من عادة المصورين انهم بصناعتهم يحسنون في بعض الاحايين صور الناس .
ويظهر عفوياً في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم . اما
رسم الملك حسين الذي نشر في اوروبه واميركاه اثناء الحرب فهو لا يشبهه ،
ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد ما زجها شيء من الغم ، ومن الجلال المقرون
باللطف وليس فيه تصنع واعتناء .

وكانت دهشتي الثانية اني اجتمعت بمليك كنت اظنه من رسمه رجلاً
قطوباً جافياً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . اجل ان في محبة

الملك حسين سناء جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب . بل فيه تجلي روحانية شرقية قرنت بالتأدب الغربي . ولا غرو ، وهو من بني نمي من سلالة الرسول ، وقد اقام عشرين سنة في الاستانة . ان لحدثه اذن مصدرين عن الانس والكياسة ، الاول اخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكنتسابي .

وفي وجهه ما يفصح عن الاثنين مما غاب وبالعجب في رسمه . فهو رفيق الادب صافيه ، عدل الانف دقيقه ، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة . وفي ناظره نور يشع من حدقتين عسلتين تحيط بهما هالة زرقاء . وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت اجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز .

اما صوته فالطيف من النور في عينيه . واما انامله فان فيها دليلاً افصح واصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة والشرف الاثيل . وقد كبرت هذه المحاسن في نظري لانها غارية من مظاهر الابهة والجلال . فانك لا تميز الملك عن احد مشايخ العرب اذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير اصفر فوق كوفية اخف اصفراراً منه . وهذا العقال ارث نمي . هو عقال بني نمي ، عقال بيت الشريف ، بل تاج الملك فيه . واذا اعتم الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين احد الاعيان او العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء . هاك في القيافة مظهرأ من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وامرائها .

جلس الملك في زاوية من الديوان واثار الى يمينه فجلست وفي بعض الحياء من التصدر في حضرته . ثم دخل اعيان جده وكبارها مسلمين على صاحب الجلالة ، المنقذ الاكبر ، مهنيته بقدمه السعيد . فانتمت في سلوكهم الديمقراطية . وغدوت حائراً لا ادري ايتدى في الحجاز التترك في البلاد العربية ام ينتهي .

دخل عرب المدينة ، عرب جده ، مطاطئين الرؤوس ، مكنتفين ، صامتين ، خاشعين . فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة ، والاخر مرتين ، والاخر

ثلاث مرات . ومنهم من قبل منها الكف والظهر ، ومنهم من زاد على ذلك فقبل
الركبة الملكية . وكان جلالته يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم .
وقد يسحب يده مانعاً من هم ارفع مقاماً من الجميع ، اي الاشراف العبادلة وهم
اقارب الملك الادنون .

ان التقبيل درجات اذن في الاحترام وفي العبودية . وكل من المقبلين
والمقبولين يعرف مقامه فلا يتعداه ، ولا يتخجل من ان يعرفه سواء . اجل ، ان
بين من يقبل ركبة الملك ومن يقبله الملك في جبينه ، او يمتنع عنه يده ، بوناً
شاسعاً في المقامات لا يخفى على احد من الناس . واذا خفي على عرب البادية ،
على البدو ، فلانهم لا يفهمون هذه الرسميات او لا يكثرثون بها .

يجيى البدوي الى البلد فيقف تحت نافذة القصر وينادي : « يا ابو علي »
وهو سامد الرأس ، صريح الكلمة ، لهجته لهجة الاكفاء والقرناء . قل هي
لهجة ابناء القفار . والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والاجلال من
المتمدنين المتتركين . بل يقبل فروض العبودية من الحضرة باشاً كما يقبل هاشماً
من البدو خشونة الحرية وسماجتها . ولا يتغير في الحالين ، ولا يأمر بتهديب هذا
او بتثقيف ذاك . ابدعشك منه هذا السلوك الملكي النبوي ؟ هو اعلم مني ومنك
بامور ملكه وبدعائم السيادة فيه .

ان الحضري عادة تاجر ، والبدوي غالباً مقاتل . والاثنان لازمان ، فتأخذ
من الاول لنعطي الثاني ، ونذل الاول احياناً لنتمكن من الاخذ والعطاء ،
ولاسيما اذا كان الثاني خشن الخلق ، صعب الشكيمة ، ويحمل فوق ذلك البندقية .
والبدوي لا يفهم غير لغتين ، لغة الدينار ولغة السلاح ، بل لغة القوة التي تشمل
في سلاح امضى من سلاحه وساعد اشد من ساعده . اما جلالة الملك حسين
فلو الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة هي لغة الدينار .
وسنعود في ما بعد الى هذا الموضوع .

— البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون . اقول :
صادقون . وهم يرعون العهود .

في النصف الثاني من كلام جلالته نظر ، بل فيه باب للريب فسيح . الا انه اراد كما علمت بعدئذ غمز قناة الانكناز الذين لا يشبهون البدو في سياستهم وفي عهودهم . وقد عاد الى هذا الموضوع مراراً في المقابلات التالية . انه في احاديثه السياسية كثير الالغاز والرموز ، قلما بصرح بفكره ، وقلما يشرف عدوه بذكره . ولكنه في الجلسة الاولى لمس من الموضوع اطرافه واستعاض عن البحث بذكر الايات ورواية الاشعار . وهو شغف بالاولى وله حافظة لا تزال على سنه قوية .

كان الكلام في العرب والاسلام . وكان جلالته يدعم كل ما يقوله بآية او بحديث شريف او بيت من الشعر — « من اعز العرب اعز الاسلام — اعتصموا جميعاً بحبل الله ولا تفرقوا — الاسلام يا حضرة النجيب لا يقاقل غير من اعتدى عليه — لا تخارب الا دفاعاً عن انفسنا . اقول : دفاعاً عن انفسنا . الاسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات . . . حبذا السوريون لو جاءوا من اميركه واقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون . اقول : ويسعدون فيساعدوننا في تشييد الملك العربي وتعزيز الوحدة العربية » .

وكنت قد رفعت الى جلالته سلام اخوان لي في نيويورك وتحيات بعض العرب والمستعربين في مصر .

— نحن نشكركم على هذه الزيارة ونكبرها منكم . فقد جئتم من اقاصي البلاد واعظمها ، اقول : واعظمها ، الى بلاد متأخرة فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة . ولكنكم جئتم تلبون دعوة القلب . سمعتم ، يا حضرة النجيب صوت الضمير . عدتم بعد هجرة طويلة الى الاصل . بارك الله فيكم .

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت عنده السكامة فيعيدها مثبتاً ممكناً — اقول يا حضرة النجيب — كذلك يتكلم .

وكان اعيان جده وكبارها جالسين على الدواوين وهم مثل التماثيل في معابد المسيحيين لا يفصح عن حالهم غير السكوت والخشوع . ثم نهضوا مستأذنين ،

وقبلوا يد الجلالة مودعين كما قبلوها مسلمين . فنهضت على اثرهم فأشار جلالته
 تليقاً ان اجلس . فعدت الى مكاني . ثم قال ، والاعتذار في صوته وكلامه ،
 صحيح فصيح : ان جياتنا في هذه البلاد غير ما ألفت باليهما العزيز ، وخشونة
 العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة فحاولت ان اباريه في هذا
 الميدان فذكرت التنازل الجميل في مجيئه من مكة ليقابلني . فأسكتني بإشارة من
 يده ، واخمني ، بل زادني خجلاً وعباً ، اذ قال : وهلا تقطع فرسخاً لنساق
 من قطع البحار وتجشم الاخطار في زيارتنا ؟

الفصل الثاني

من الضب الى الطب

التبادل بالمعامد والواجبات — الانكيز — دواء التبيظ — الناظر الجبان
الحشرات والدبابات — الضب — درس في علم الحيوان — اعقد من ذنب
الضرب — قنصل انكتره — انتقام الملك — اضحوكته — افصح المعدنين
والطف الجلساء — الغاز الديوان الهاشمي — التعقيد في السياسة —
شخصية ساحرة — ألباني من قريش — بنو سعد — الطب — الكمي —
« وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد » — مجي . الطيب من مكة —
العلاج .

ان الملك حسيناً ليعتقد ببدء التبادل في المعامد والواجبات ، ان كان
سيف السياسة او في الاجتماعيات . وعنده من الدين على ذلك براهين . لقد
امرنا الله بالصوم والصلاة وتأدية الزكاة ، ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة . هذا
هو التبادل بالمعامد والواجبات . وقد اخذ الانكيز منا عهداً في القتال فاقنا على
العهد ، وقطعوا لنا عهداً بالاستقلال والوحدة العربية ، ولصكهم ويا للاسف
نقضوا العهد .

عندما يذكر جلالتة الانكيز يستحوذ عليه الخفق والغم فينادي احد
نظاره ، الناظر الحضرمي ، ويكون قد دبر له حيلة للتسلية او مغزعة بشرح
لها صدره . والناظر الحضرمي ضعيف العصب ، مربع التأثر من غريب الحركات
والاصوات ، شديد الخوف من الحشرات والدبابات وفي المبادعات . وبكلمة
صریحة هو جبان — الجبان الاول في الديوان الهاشمي ، اما الثاني فهو الناظر
الشاعر . اذ كل شاعر في رأي جلالتة جبان .

اما الملك حسين فلا الاصوات ولا الخيالات ، ولا « ببيع » السياسات
يحدث فيه ما بعد عيباً في الرجال . انه لشديد البأس ثابت الجنان . يوم ضرب
الاتراك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت لا يبالي . اما

الاتراك فهم في نظره مثل الحشرات والديبابات التي يرثي لحالها ويستخدمها احياناً لترويع الناس . فقد علمت انه شغف بها وبدرس اخلاقها وعاداتها . وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته ، لانها بمساعدة الناظر الحضرمي تبدد المهوم الملكية ، وتذبح الغم الاكبر الذي يتولاه لمجرد ذكر الانكليز .

جاء في احد عبيده ذات ليلة يقول : سيدنا بنغيك . فأمرعت اليه فاذا بقنصل بريطانيا العظمى هناك . وبعد ان حدثنا ساعة عن الابل والاهوية في الحجاز ، وعن البدو وعاداتهم ، سألتني قائلاً : أتعرف ايها العزيز الضب ؟ قلت : في الكتب فقط يا مولاي . فقال : سنريك الضب حتى اذا كتبت عنه تحسن الوصف . وضرب كفاً على كف فحضر عبد من العبيد — هات الضب .

نظرت الى القنصل وكان ينظر اليّ ، كأن قد خطر بباله ما خطر ببالي ، فتبادلنا ابتسامة فيها الدهش والاعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار فيها لجلالته استاذاً في التاريخ الطبيعي والحيوان .

دخل العبد ويده حيوان شبيه بالحرباء فأخذه الملك منه ووضعته على الديوان بينه وبينني .

— هذا يا حضرة الفاضل الضب ، وهذا ذنب الضب . قال ذلك وهو يريته بيده . « اعقد من ذنب الضب » ترى ان المثل صادق . وذنبه هو سيفه ودرعه . قال القنصل : انه يشبه الحرباء واظنه هو بعينه . فترجمت كلامه لجلالة الملك فقال : الحرباء غير الضب ، والفرق البين في الذنب .

ثم اوماً الى القنصل ان تقدم والحصه . فنهض ودنا من الضب ، فأخذ الملك بيده ووضعها على الذنب الشوكي وضغط عليها . فبدت في وجه القنصل علامتهم الالم فضحك لجلالته ، واستأنف الحديث — هذا ضب صغير يا حضرة القنصل ، وقد رايت منه ما يزيد طول الباع — كأنه ضب السياسة . والذنب كما ترى هو نصف جسمه ، اذا ضرب به ادمى ، وقد يقتل خصمه بضربتين . اقول : بضربتين . اما هذا الصغير فلا شئ فيه يتقى ولا خير يرجى .

دخل ان ذاك الحاجب ينبيء بقدم الناظر الحضرمي .

فقال الملك : بلى بلى ، فيه خير (اي في الضب) وهو يوارى الحيوانات
تحت جيته .

دخل صاحب الاقبال الناظر الحضرمي ، فأشار الملك الى مجلس قريب منه .
وما كاد يتبوأه حتى مدت اليه يد الجلالة ، وصاحبها دادي . البال ، وفيها
الضب ، وضعت في حجر الناظر المسكين . فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب ،
ووثب على الديوان وثبة جاب فيها الباب ، واصطدم بالحاجب هناك . فقبحه
الملك وكاد يستأقي ، وضحكنا ككنا ضحك الصبيان ، وفتنا الناظر الشاعر الذي
كان جالساً متكئاً على عادته ، وقد كان يحاول اخفاء مروره في ابتسامة
قيدها التأدب . ولكن صيحة الناظر ووثبته فكنا منا القيود فتساوى في فترة
بهبجة الملك والشاعر والعبد المملوك . الا ان جلالاته كان اول من تاب الى
الرزانه فخطب الشاعر موبخاً : لا حق لك انت بالضحك . لا حق لك حتى
تركب الطائرة او في الاقل الخيل . والناظر الشاعر يخاف ركوب الاثني خوف
زميله الحضرمي من الحية والضب .

عند ما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل : هي الد ساعة
قضيتها مع جلالاته . وهو في غير موضوع السياسة افصح المحدثين والطف الجلساء .
فلظننت ذلك من مثله جوراً في الحكم وان كان مصيباً . لان كل من عاج
السياسة رسمياً بتعمد الغموض اسياً في حديثه . ولكنني علمت بعدئذ ما
يقاسيه الوكيل البريطاني في جده من فك الغاز الديوان الهاشمي وكشف الستار
عن رموزه . وخبرت بنفسني اثناء اقامتي هناك ما لجلالاته من القوة في التعقيد ،
والبراعة في التورية والابهام . بل هو يطوف حول قطعة سبع مرات كأنها
الكعبة ولا يلمسها . فيدنو منها اضطراراً في بعض الاحايين ثم يبعد عنها
منقلباً مسرعاً ، وجليسه ، وهو يعدو مبارباً ، وقد اعتراه من التطواف الدوار ،
يدق رأسه بالحائط او يصطدم بباب في هيكل الاسرار ، فيتلفت ليرى اين هو
من صاحب الجلالة فيراه ، وأسفاه ! بعيداً ويقف خجلاً مبهوتاً لا يدري ما
يقول . والمصيبة في السكوت مثلها في النطق . فاذا قال : فهمت يا مولاي كان

من الجاملين . واذا سكت ظن سكوته استهجاناً . فيهب برأسه تخلصاً من الاثنين
وينتظر الفرج من غوامض الحكمة ، في بوارق الختمة .

وظلما استماتني اشارة مولاي اللطيفة فملت بمعقولي الى السر في يديه وبفي
ناظره ، وكنت كالمسحور في فيض من المغناطيس يسيل من انامله ومن
نظراته . وما السياسة ، وما الحقائق ، وما الحكمة كلها ، عند سحر بنسبك
شقشات الناس وخزعبلات الامم .

اجل ، ان لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية ، والغوامض السياسية ، ووقفات
في حديثه تدرى بالفصاحة والبيان ، واشارات تفك طلاسم الكهان ، ونظرات
تقيد منك العقل والجنان . يسطر يديه اشباعاً اذا احس من نفسه انه الخمك ،
ويضمها الى صدره تلطفاً اذا توقع منك جواباً . ويعالج عقاله او يحرك عمامته اذا
راى منك فتوراً او دهوراً . ويغير جلسته على الديوان اذا اوجس فيك الملل .
فماذا تهملك معانيه ومقاصده وهو امامك السحر الخلال مجسداً !

كنت استغتم الفرصة عند ما يفك حبونه او يعقدها فاسأله سؤالاً
لا علاقة له بالموضوع ، ملتصقاً لفعلي العذر في حب العلم وفي السياحة من
اجله .

— نعم ايها العزيز . الباقي من قريش قرب خمسة الاف وهم ثلاثة
اقسام : قريش الاعايد ، وقريش الغميس ، وقريش الطائف . ولا يزال
بينهم وبين السلالة النبوية كثير من الحس والعطف اما بنو سعد ، وهم
الذين ارضعوا النبي ، فدبرتهم قرب الطائف ، وفيهم بيت يحسن اهله الجراحة
ويتوارثونها بعضهم عن بعض هل تعلم يا حضرة النجيب ان الحمى تداوى
بالكي ؟ بنو سعد الجراحون يداوونها بالكي .

وكشف جلالته عن نجاح طريقتهم في نفسه اذ انه مرض مرة بالحمى
واكتوى فاراني اثر الكيين ، واحد في زنده الامين والآخر في ساقه اليسرى .
— السر في مكان الكي . فهم يختارون اماكن في الجسم تتصل بالاعصاب
التي تفتحي بمجموعها عند موضع المرض . لذلك لا يتركون الصكي مفتوحاً

ليخرج منه الصديد كما يفعل غيرهم ، بل يخبثونه حالاً بشيء من الملح ، اقول :
بشيء من الملح ، يذرونه عليه .

وكان قد انتبه جلالته لحركة في يدي تدل على الم فسألني عنها فأخبرته
فقال : وقد بشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد . وبعد يوم وصل الطبيب
من مكة . جاء بأمر جلالته بداويني فسألني ثلاثة سوالات فقط ، ولم يفحصني
والحمد لله فخصاً طبيباً . ثم قال : لا ينفعك الكي . سخن السخن وخذ الثوم دقه
وامزجه فيه وادهن ثلاث مرات كل يوم . وستشفى بإذن الله تعالى وتذكرني
بالخير . قال هذا وودع وانصرف .

وها اني اذكرك بأخذ العرب ، يراعي الاباعر وياطبيب الملوك ، ياخير من
قابله في حياتي من الاطباء . وسأذكر دائماً تلك البساطة فيك ، وذاك النور
في ناظريك ، وتلك العظمة في صوتك ولهجتك وحر كانتك . وسأذكر كذلك
انك لم تصف لي ما هو اصل علاجك كما يفعل الاخصائيون في البلدان
المتمدنة . بل اشركت مع علاجك الله ، فكنت اكبر الحكماء واصدق الاطباء .
سأذكر دائماً ياراعي الاباعر وياطبيب الملوك ، لانني كلما ذكرتك انسى آلامي ،
وهذا لعري خير علاج وانجع دواء .

الفصل الثالث

الابداع في الاصلاح

طريقة عون الرفيق في الاصلاح وطريقة الملك حسين — الحجاج وبشر
 زمزم — المياه المقدسة المعدنية — الاوبئة — قتي الماء في منى — للظاهر
 كل شيء طاهر — والحنفية لا تضر — القضاء على المكروب — المستشفى
 في مكة — تقرير مدير الصحة العام — الحجر الصحي في جزيرة ابوسعاد —
 حجر الطور — معجزة قران — البعثة الطبية لفحص المعاجر الصحية في
 الشرق — المعاهدة الانكليزية الحجازية — اسباب الصحة واسباب الاستيلاء —
 جوقة الموسيقى الملكية — طريقة الملك في اصلاحها — كتاب من جلالته .

ان جلالة الحسين طريقة في الاصلاح تختلف مبدئياً عن طريقة عمه الشهير
 عون الرفيق الذي حمل مرة على الاولياء وشرع في تهديم قبورهم ومقاماتهم .
 اما جلالة الملك فهو اذا حافظ على تقاليد فيها بقية ، او ليس فيها شيء من الخير ،
 يسهى هادئاً ويتخذ الطف الاساليب في اصلاحها او ابطالها .

من مظاهر الحج العجيبة مثلاً ان بعض الحجاج من الهند ، لشدة ايمانهم
 ونفجر بركان اجتهادهم ، كانوا يرمون بانفسهم في بئر زمزم تبركاً واستغفاراً ،
 واعتقاداً منهم انها امرع واسلم طريق الى الجنة . فلم يقل الملك حسين ان هذا
 غلو بل جنون في الدين ، ولكنه امر بوضع شبك من الحديد على فم البئر فقطع
 بها الطريق القصيرة — المقرّبة في لغة اهل اليمن — على المستشهيدين . ولعله
 يقبل اقتراح احد رجاله الجنونين بالبعثات الفنية والمشاريع الاقتصادية جنون
 اولئك الحجاج بالدين فيأذن بوضع مياه زمزم في القناني لتباع للحجاج — ماء
 مقدس ومعدني معاً ! انها لنعمة تشكر وتستنمر ، تستنمر في سبيل الصحة
 العامة . وقد باشر جلالتة بعض الامر المتعلق بها .

ليس من ينكر ان الامراض والاوبئة كانت ملازمة الحجاج في الماضي

ان كان في الاماكن المقدسة او في الطريق منها واليهما . وقد ادرك الملك حسين ذلك واكتشف السبب الاول فيها . ان في الماء في منى مكشوفة والحجاج وهم في بهجات الحج لا يهتمهم المكروب ، هم يدوسونه بارجلهم ، ويرجمونه بالاوساخ ثم يشربونه ويقضون عليه . للطاهر كل شيء طاهر . والملك حسين يقول هذا القول . الا ان الحنفية لا تضر بالطهارة . وكل ما فيه راحة الحجاج وليس فيه ما يمس العقائد الدينية محلل . ومن ذا الذي ينكر في مكة او خارجها ان الشرب بواسطة الحنفية هو اسهل منه عبأ او صبا .

عقد الملك النية على ان يحجب عن الحجاج وجه المياه ، فأمر بان تغطى القني في منى ثم توضع القساطل والحنفيات لشرب الحجاج منها . وهكذا قضى على المكروب او كاد . ثم اسس مستشفى في مكة^(١) مجهزاً بالآلات والادوات الفنية ليتمم مساعيه الشريفة في استئصال الاوبئة ومكافحة الامراض . انه ليبغي سلامة الحجاج وصحة العرب قبل كل شيء .

وهناك في جزيرة ابي سعد في مياه جده محجر صحي يفتخر الملك به ويلفت اليه نظر الانكليز قائلاً :

— وما الفائدة من محجر الطور ومحجر قران وهذا محجرنا كامل الاجزاء ، نظيف الزوايا والارجاء ، ولا يظلم فيه الحجاج ولا يغبنون ! هم ابناؤنا واخواننا ، ولا نظنكم تغارون على صحتهم وراحتهم اكثر منا .

(١) جاء في تقرير بعث به الي الدكتور محمد الحسيني نائب مدير الصحة العام في مكة ، اخذنا في توسيع نطاق المستشفى فجعلنا فيه اربعة اقسام ذات شأن احتوت على مئة واربعين سريراً . قسم منها لتمرير الجنود وافراد الشرطة . وقسم لتمرير الاهالي . وقسم لتمرير النساء . وقسم لتمرير الاطفال . وقد اختص المستشفى الاهالي لتمرير الفقراء المحتاجين اما عدد الذين حضروا الى المستشفى في خلال ثلاثة اشهر مضت فهو كما يلي :

رسم العناية	٣٤٩٥
رسم المعالجة في المستشفى	٠٣٣٠
تغيير القروح	٣٩١٧
الوفيات	٠٠٣٤
عمليات جراحية	٠٠٢١

قد رافقت جلالة الملك الى تلك الجزيرة وكان فيها يومئذ مئة ونيف من حجاج جاوا ، تهافتوا على جلالته وحاقوا بها . فعفروا - ولا استعارة - امامها وجوههم ، وقبلوا اليد والجبة والركبة والرجل الملكية ، ثم التراب ، ثم بدأوا بالشكوى . وقد علمت ان الماء قليل ، وان الخدامين ، وعلى رأسهم رجل تركي ، يتاجرون به ، وان الطعام ردي . واثمائه غالية ، وان غرفة التطهير مقفلة لخلل في عدتها . اما البيوت التي يقيم فيها الحجاج ثلاثة ايام فهي نظيفة لانها خالية خاوية ، بلعب فيها الهواء على الدوام . وهذه لعمرى فضيلة الحجر الصحي الحجازي الوحيدة .

اتهى الينا يوم كنت في جده خبر البعثة الطبية لفحص الحاجر الصحية في الشرق وكانت يومئذ قد وصلت الى مصر . فاقترحت على جلالة الملك ان يدعوها لفحص الحجر في جزيرة ابي سعد لعله يدرك بعد ذلك بعض النقص فيه . فقرأ في اقتراحي غير ما قصدت وامر ناظر الخارجية ان يبعث حالاً نبأ يرفق الى المعتمد الهاشمي في القاهرة بأمره بان يدعو البعثة المذكورة لزيارة الحجر الصحي في جده ونخص اسباب التطهير والصحة فيه .

ولا اظن ان جلالته يعتقد بغير الشمس والهواء تطهيراً . - تأمل يا حضرة التجيب طمع الناس . يأخذون من الحجاج في الطور راتب تطهير فلما يفيد ، ويأخذون راتباً في قران ، ويبغون فوق ذلك مد ايديهم الى ابي سعد لتم لهم السيادة على الحجاج ابنائنا واخواننا . وهذا مستحيل ، اقول : مستحيل .

ان من بنود المعاهدة بينه وبين الانكليز ، تلك المعاهدة التي جاءه بها الكرنل لورنس والمرحوم حداد باشا في شتاء سنة ١٩٢١ فرفضها ، ان يكون لبريطانيه العظمى الحق في تعيين اطباء انكليز في جزيرة ابي سعد . فأبى الملك حسين ، لظنه ان الانكليز في طلبهم هذا يبغون اكثر من معاش بعض الاطباء اطبايهم واكثر من السيطرة على الحجاج . وقد لا يكون لهم في الامرين غرض يذكر ويخشى . الا ان اساليبهم الحديثة تتدخلهم في شؤون البلاد وبسط سيادتهم عليها تشمل الاسباب الصحية كلها ، وقد ننحصر احياناً بها .

والحق يقال ان محجر ابي سعد من الزبادات غير المفيدة بالنظر الى محجر الطور في شمال البحر الاحمر ومحجر قران في الجنوب منه . فاذا امر الملك بافقال ابي سعد يقفل باب الصحة الوهمي الذي يتذرع الانكليز به لتعزيز سياستهم في بلاده ويرجع الى الحقيقة العلمية البارزة في الطور وفي قران فينتفع بها . وقد يتوصل الى اصلاح ابي سعد او بالحري ابطاله في المستقبل على طريقته المخصوصة في الاصلاح وال عمران التي تقدم ذكرها .

والى القارىء مثال آخر منها . ان في مكة جوقة موسيقى ملكية اسمى امرها من التقاليد الهاشمية المقدسة . وهي تضرب امام القصر ثلاث مرات كل يوم وتزعج جلالته كل يوم ضعف الثلاث المرات ، بل تكاد تخرجه من ثوب الحكمة وثوبه . ولصكبتها التقاليد ينبغي احترامها على ضررها ، ثم مداواتها بالتي هي احسن . ومن تقاليد هذه الجوقة ان رجالها لا يعزلون ولا يبدلون فيخدمون فيها مدة الحياة . وعندما يموت احد اعضائها يعين الملك من يخلفه . وهاك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في دفع هذه النكبة واستئصالها .

مات منذ سنتين راعي (صاحب) الدف فلم يعين خلفاً له . ومات في السنة الماضية احد الزماتين فقال الملك : وما الضرر اذا قصت زمراً ؟ ثم مات راعي الطبل فكان مرور الملك عظيماً . وانه بعون الله وعزرائيل ليتخلص تدريجاً من الجوقة كلها .

ابن المصلحون يجيئون مكة طالبين العلم والارشاد ؟ الا انهم اذا كانوا مثلي ومن مثلي فلا يتجاوزون في مسيرهم حدّاً^(١) ولا اظنهم ينالون جزاء سعيتهم اكثر مما نلت .

بعد ان اقام جلالته اسبوعين في جده عاد الى مكة لاشغال هامة وظل

(١) في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي في الجزء الثالث صحيفة ٢٢٩ . حدّاً . بالفتح ثم التشديد والفاء ممدودة واد فيه حصن ونخل بين مكة وجده بسموه اليوم حدّاً . قال ابو جندب الهندلي :

ببيتهم ما بين حداء والحشا واوردهم ماء الامل فعاصما

معي من قبله وزيره الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته ، اي حاشية الشيخ فؤاد ، المؤلفة من امرء القيس والناطقة الديباني والاختل والمنتبي ، وكان الشيخ فسطنطين بني راعي الكاس والقرطاس فلا يدع فرصة نفوت او كلمة من الشعر تموت .

ومع ذلك غدوت كثيراً فكتبت الى جلالته كتاباً اشكو فيه ام الفراق والالام الاخر الاشد من تقليد عقيم بضطره ان يحرمني زيارة ام القرى . فكتب اليّ يعتذر - وتوقيع الملكي في رأس الكتاب - عذراً لطيفاً عذباً يصح فيه ما قيل في الشعر . كتب جلالته :

عزيزي المحترم

« بعد اهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام . بانامل الشوق والتكريم تلقيت رقيحك ، وبقدر ابتهاجي به وما احتوته مباحثه الكريمة كان خجلي من بقائكم في جسده هذه المدة . ومخلصكم جني على نفسه حرمان لذاته واستفادته من فضائلك وكرامتك ، فان مهما جسمت ضرورة اسباب هذا الحرمان لا اجده الا حجة علي . وعلى كل حال فني كالاتك ومداركها ما يعني عن كل بيان . وبها متسع يحيط كل ما هو في معنى ذلك . وليس لي ما يهون تلك الرزية التي احكم بها على نفسي الا اعتقادي بان اسبابها ودواعيها هي مما تهتم لها فضائلكم . والله يحفظك ويمن عليّ بتلافي ما فات عزيزي . »

فهل في مروج الذهب ورياض الجنة الطف من هذا الكلام واعذب ؟
عاد جلالته بعد اسبوع من مكة ليودعني ومعه الضب يراضيني به . وكفي بمجلسه رضوة وسلواناً .

الفصل الرابع

تلميذ في البداوة والحكمة

ضيافة الملوك — الانقلاب — الهدية — البسوي الجديد — تلميذ في البداوة
حقوق « الحوة » والحماية — الضيف السارح — الطنب الساج — رفيق
الجنب — الاستنجد — المحاكمة عند البدو — الجزامون — المخبرون —
الساوون — الطب في جوار مكة — الاوهام — الناقة التي لا ترضع ولد
غيرها — حيلة الاعراب — عسل الحجاز ورمائه — شهادة الخديوي عباس
وشهادة السلطان عبد الحميد — نادي الصلاة — قباياه الثلاث — اعضاؤه
السبعة — جلال الدين الرومي — ناي يحن الى الغاب .

لا حاجة في الضيافة العادية الى صلة بين الضيف ورب البيت . فانك تقبل
ما يقدم لك او ترفضه ، وتطلب او تمنى ما تشاء ، ولا رسول بينك وبين مضيفك
غير رسول الادب والذوق . اما في الضيافة الملكية فالامر غير ذلك . والقاعدة
الاولى فيها هي انه لا يجوز ان ترفض شيئاً يهدى اليك او ينعم به عليك .
وملوك العرب ، على ما يظن فيهم من البداوة وخشونة الذوق ، هم مثل
سائر الملوك في انهم لا يبادهون الضيف فيرتبك فلا يحسن القول او السلوك .
لذلك هم يعينون ، فوق من ينتدبون لخدمته ، رجلاً يقيم معه فيكون له رفيقاً
وسميراً ، ويكون بينهم وبينه رسولاً يحقق البغيات وينبه الى ما فيه تدارك
المزعجات .

كان صديقي قسطنطين بنى هذا الرفيق والسمير والرسول ، فجاء في
اليوم الثالث بعد وصولي يحدثنى بالانقلاب ، فذكرته بايام الفريكة والعزلة في
الوادي ، ثم قلت : ومن يقيم في اميرك عشرين سنة مثلي لا يغير رأيه في
الموضوع . وقد اخبرني بما كان من امر صديقي سر كيس قبلي ، فقلت : وعسى ان

لا اضطر مثله ان ارفض شرفاً هاشمياً . ان امري في يدك باقسطنطين . تدارك
 النعمة قبل حلولها . فقال : والهدايا ؟ فقلت : اقبل كل ما يجيئني منها .
 وجاء في اليوم التالي عبد من عبيد جلالة الملك يحمل اليّ كسوة عربية
 وخنجرًا مكياً ، وقطعة مزر كشة بالذهب من ستار الكعبة . لله در قسطنطين ،
 الرسول الامين ، القائل لجلالته : هذا الريحاني نامك تليق به الآثار المقدسة
 ولا تليق به الالقاب . وفي الحقيقة ان قطعة من ستار الكعبة هي علق من
 الاعلاق لا يجوزها غير المقربين .

لبست القميص البدوية ذات الاردان ، ثم العباءة ، ثم عقال الذهب ،
 وتمنطقت بالخنجر ^(١) ورحت توأ اشكر صاحب الجلالة . فلما رأني في هذه
 الصورة بسط ذراعيه هائفاً : يا حبيبي يا عيني ! وضمني الى صدره وقبلني . فأحسست
 من شدة التأثر بشيء غشي عيني ، فبادرت الى مكان التنديل من ثوبي الجديد ،
 فما وجدت حتى الجيبة فيه ، فمسحت الدمع بردني ، فضحك جلالته وقال : حقاً
 انك بدوي الآن .

وجلسنا نتحدث في السياسة . ثم جاء فنصل فرنسا وبعض التجار مسلمين
 فانتقل جلالته الى البدو — أكراماً لهذا البدوي الجديد التلميذ في البداوة —
 وحدثنا في حقوق الحماية والحقوة .

— ثلاثة لهم حقوق الحقوة والحماية : الضيف السارح ^(٢) والطنب السابح ^(٣)
 ورفيق الجنب ^(٤) واذا دخل الضيف السارح بلدًا او «ديرة» يضيفه اول بيت يمر
 به . له الحق الاول في الضيافة . اقول : الحق الاول . فاذا تجاوزه السارح الى

(١) يدعى الخنجر في الحجاز قديمية ، والقاف تلفظ جيما — جدعية — لانه يحمل
 من قدام ويدعى في اليمن جنية لانه يحمل على الجنب
 (٢) من كان في سفر
 (٣) من دخل الديرة مستنجداً . يراد بالطنب البيت بيت الشعر ، وهو من باب تسمية
 الشيء بحجزه منه . ويراد بالبيت صاحبه وان كان سابحاً سائحاً لا بيت له ولا مقر .
 (٤) اي رفيق السفر

جاره بعدها اهانة فيطالب الجار به — مر الغريب بيتنا قبل ان يمر ببيتكم . واذا كان لا يطالب بهذا الحق ينظر اليه بعين الاحتقار ومن اضاف سارحاً ايها العزيز ، عليه ان يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد ان يرتحل . . . والاستنجد ، نعم له حدود . يرفع العرب الاستنجد الى خمسة اجداد فقط وما وراء ذلك فلا حق فيه لمستنجد . ولا فرق بين العرب والاشراف من هذا القبيل الا في القصاص . حياة الشريف اذا قتل عمداً بجياتين .

وللبدو طرائق في المحاكاة وتقاليد يحترمها حتى اليوم ملوك العرب كلهم . فلا يضطرونهم في كل احوالهم الى الخضوع للاحكام الشرعية . من تقاليد البدو مثلاً ان على كل اعرابي ان يحكم في خصومة اذا رفعت اليه . اما اذا كانت الخصومة بين قبيلتين فتسمع غالباً في ديوان الملك الخاص .

حدثنا جلالته في طريقة المرافعة قال : ينتخب كل فريق اثني عشر رجلاً لا ثبات دعواه ، فينتخب المدعي رجاله من قبيلة خصمه والعكس بالعكس . ويكون من الاثني عشر رجلاً اربعة هم الجزامون ، واربعة هم المخبرون ، واربعة هم المساوون . ويخلفون كلهم اليمين المعظمة قبل ان يشهدوا . يقول الجزام : القضية كذا وكذا . ويقول المخبر : سمعت بما يختص بها كذا وكذا . ويقول المساوي : اذا كان كذلك فينبغي ان يكون كذا وكذا .

اي ان الجزام يسطر الدعوى والمخبر يشهد والمساوي يحكم فيها . وانك لتري في هذه الطريقة البدوية شيئاً من احكام الامم المتقدمة بل فيها ما هو اقرب للحق واضمن للعدل ، لان كلاً من المدعي والمدعى عليه ينتخب رجاله ، اي وكلاءه وشهوده وقضاته ، من قبيلة خصمه . وما اشبه المساوون عند البدو بالـ «جوري» عند الاوروبيين .

قلت ذلك لجلالته فقال : الله سبحانه وتعالى لم يخص الاوروبيين بكل فضيلة . عندنا نحن العرب بعض الفضائل . وانت ايها العزيز النجيب اعلم بذلك . ليس كل ما يجي من اوروبا خالياً من الغش او من الشوه والشين . قد يجهل الاوروبيون اشياء نعلمها ونعالم بها . خذ الطب مثلاً . قد شاهدت ايها العزيز

اعظم الاطباء فلم يشفوك من آلامك العصبية . وعسى ان يشفيك الله بواسطة طبيبتنا ، فتقول لهم اذ ذلك : جاءني الشفاء من جوار مكة من الله .
ثم قال : وقد يكون في ما تشكو منه بعض الوهم ايها العزيز . اقول : بعض الوهم ، والوهم يسطو على الناس كما يسطو على الحيوان . اذكر لك مثلاً في الابل - من النوق ، لمزاج فيهن او لعلة عصبية ، من لا يرضعن ولدانهن فيحمل العرب الولد الذي لا ترضعه امه الى ناقة اخرى . وهذه لا ترضعه لانه ليس بولسها . فيحتال الاعرابي على الناقة ، يسلم عليها الوهم . اقول : يسلم عليها الوهم . وكيف ذلك ؟ انه يضع في حياثها خرقة مطوية او شيئاً آخر يسمونه الدرّجة ثم يشد على عينيها عصابة وعلى انفها اخرى ويترك الناقة كذلك اياماً ، فيأخذها غم كغم الخنازير . ثم يحل الرباط عنها ويخرج الدرّجة ويلطخ بها ولد غيرها فتظن انه ولدها فترضعه .

وكان ينتقل جلالته من موضوع الى آخر وفي كل منها المستغرب من اللذة والبسيط المفيد من الحكم والامثال . وهي تتعلق ببلاد وشعب يعرفها كما يعرف الكتاب الكريم .

— ما حرمننا الله كل فضيلة ايها النجيب ولا حرمننا كل ثمرة من خيراته .
قد انزلناك بواد غير ذي زرع . هذا صحيح . ولكن الحجاز ، على فقره ، يفاخر سائر الاقطار العربية بشيئين ، بعسله ورمانه . عند ما جاء الخديوي عباس حاجاً اكل من عسلنا وكان يقول بعد الشهادتين : واشهد ان لا عسل في العالم مثل عسل الحجاز . اما الرمان ، وهو يجي من وادي ليمه قرب الطائف ، فيصير كبيراً كالحب (البليخ) وهو كبير الحبة خال من البذر . اكبر والدماء في الدنيا . ارسلنا مرة صندوقاً منه الى السلطان عبد الحميد فقال : هذا اجمل رمان جاء من اجمل بقعة في ارض الله . وهو يليق بالهدية . كذلك بنادي بائع الرمان : من وادي ليمه ، للهدية . نعم ايها العزيز في عسلنا ورماننا يرهان ان الله سبحانه وتعالى لا ينسانا نحن العرب ، عرب الحجاز .
وكيف ينسام وفي جده مظهر من مظاهر الورع والتقوى ما شاهدت مثله

في غير مكان . هو نادٍ قليل الاعضاء ولكنهم كلهم حكماء ، صغير الحلقة ولكنها حلقة نور صني ليس فيه خيط واحد من الظلام . هو نادٍ فريد في بابه لا رئيس له ولا بيت ولا قانون ، يجتمع اعضاؤه كل يوم عند الغروب على كتيب رمل قرب البحر خارج البلد ، فيصلون المغرب اولاً ، ثم يبادرون الى الكرة من حديد فيتعمرون ويتبارون في رميها ، ثم يجلسون في حلقة على الرمل ويتحدثون في الأدب والشعر والتاريخ .

انه يدعى نادي الصلاة ، ولكنه في غاياته الثلاث اي رياضة الجسم ، ورياضة العقل ، بعد الرياضة الروحية ، قد جمع بين اطراف الحكمة كلها . لا اظن ان في العالم شرقاً وغرباً نادياً آخر مثله ، ولا اظن ان فريقاً من الناس غير اعضائه ، غريبين كانوا او شريقين ، توصلوا قولاً وفعلاً الى غايات الحياة الثلاث القصوى ، اي المحافظة بواسطة الرياضة على سلامة الروح ، وسلامة العقل ، وسلامة الجسد معاً .

وما اجملها ساعة نذكر الله فيها ، ثم نذكر نعمائه في الاجسام فنسعى دائماً في حفظها صحيحة سليمة ، ونذكر نعمائه في العقول فلا نهملها في الرياضة والتعزير لتساوي الجسد والروح صحة ونشاطاً .

ان نادي الصلاة في جده هو نادٍ لما تسمى من مقاصد الحياة كلها . وبصح ان ندعوه نادي الحكمة العملية المثلثة الزوايا . فان الحكمة كل الحكمة في المساواة والتوازن بين الروح والعقل والجسد .

اما اعضاء النادي فهم كما قلت من صفوة الناس ، كلهم انقياء عقلاء حكماء . وقد شرفوني يوم كنت هناك بان ادخلوني في الحلقة المباركة على تقص وخلل في مثلثة الزوايا عندي . فقد غلبني شيخهم الاكبر في رمي الكرة ، وغابني شيخهم الاصغر في المساجلات الادبية والشعرية . اما في الصلاة فكنت اشاركهم ، دون ان اقف في الصف وراء الامام .

ومن هو الشيخ الاكبر الذي يرمي الكرة كالشباب ومن هو الاصغر ؟ اما اذا ادخلت القارىء الى النادي الفريد في قصده وبيته فينبغي لي ان اتمم العمل

فاعرفه الى الاعضاء ، وعددهم هو العدد السري القسيمي سبعة فقط .
 هذا الحاج زينل علي رضا شيخهم الاكبر يحترمه التجار في الحجاز وفي بيبي
 وتعرفه وتحميه كل الاولاد في جده . ذلك لانه في عيد رمضان يخضهم بقسم مما
 كسب في الاتجار . فيجلس في ايوان داره والى جنبه اكياس من النقود
 الفضية ، ربالات وروبيات ، فيوزعها على الفقراء وخصوصاً على الاولاد . يبرون
 امامه صفوفاً في ذلك اليوم وكثيراً ما يمر الولد الواحد ثلاث مرات فيأخذ قسمته
 ثلاثة اضعاف ، والحاج زينل عالم بذلك ضاحك محبوب .

وهذا اخوه الحاج عبدالله محافظ جده وهو حكيم الحلقة الاكبر وصاحب
 الفكرة في حفظ التوازن بين العقل والروح والجسد . وان عدل الحاج عبدالله
 في الحكم ليجاري البر والحكمة في اعماله الخيرية واهمها المدرسة العمومية
 التي انشئت في جده .

وهذا الشيخ محمد نصيف اديب جده الاكبر وامير الكتب فيها . فان عنده
 مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التأليف لا يقنيها للعرض فقط بل لينتفع وينفع
 بها . يجي الادباء الى دار الشيخ محمد كأنها دار الكتب العمومية فيعبرهم ما
 يشاءون منها ويشترى ما يعرضون من مخطوط او مطبوع . وهو دائرة معارف
 ناطقة يجيب على السؤالات التي توجه اليه ويهدي الى مصادر الثقة في العلوم
 الادبية والتاريخية والفقهية .

وهذا الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية واخوه عبد القادر ، وهما من
 العرب الذين لا يفسدون بنعيم الدنيا في سبيل النعيم السرمدي المنتظر ، بل
 يشركون بين الاثنين ، او بالحري يعملون الواحد مقدمة للآخر . فيلبسون
 الدقس والاستبرق ويتطيبون بعد الاكل وقبل النوم ولا يستكثرون الخمس
 الجنهات يدفعونها ثمن زجاجة واحدة من الروائح الطيبة ، ولا الخمس
 الصلوات يصلونها كل يوم .

وهذا الشيخ محمد الطويل ، اصغر الاعضاء قداً ، وانقهم كساء ، والطفهم
 ميسماً ، واقدروهم في عد الاموال وتصريفها . اجل ان الشيخ الطويل هو المصرف

الهاشمي ، هو خزينة الملك حسين ، هو ناظر الجمارك في القطر الحجازي . وعليه
دفع الكبيرة والصغيرة . فاذا شاء جلالة الملك ان بنعم احداً بمئة روبية يحمله
على الطويل ، واذا شاء شراء باخرة او سرباً من الطيارات فالدفع على الطويل .
ولا نظن ان اخصائياً اوروبياً يفوق الشيخ محمد في علمي الادارة والاقتصاد .
ولا يفوقه يقيناً في النزاهة والاخلاص .

وهذا الملا حسين الشيرازي العالم بامرار الميكانيكيات والتصوف ، يصلح
القناديل وآلات الخياطة ويروي من اشعار مولانا جلال الدين الرومي باللغة
الفارسية فيشدو ولا شدو البلايل . فيجاوبه الحاج زينل بتلك اللغة الفخمة
الشريفة ، ثم يترجم لي بعربية افخم واشرف .
قال مولانا جلال الدين : اني عودٌ قطع من الشجرة وُصنع منه الناي فهو
في صوته يحن دائماً الى الغاب .

واني وان كنت ضيقاً سارحاً احس بانني عودٌ قطع من تلك الشجرة
المباركة شجرة نادي الصلاة في جده ، وُصنع نايًا صغيراً . والناي يحن دائماً
الى الغاب .

الفصل الخامس

قرون السياسة

الضدان والقبلتان — البعثة الفنية ونتيجة اعمالها — النقابة الوطنية — شروط
الامتياز الذي طلبه النعماني — مدرسة الزراعة — المدرسة الحربية — الضغط
على تجار جدة — قصة الاسطول الانجليزي والاسطول الهاشمي — تعليم اولاد
العرب خارج الحجاز — « سيدنا لا يأذن به » — الموسيقى وشرب الخمر — الطيارات
والدبابات — نادي الكأس — مفزعة الحجازيين — شيخ الاسلام وبابا رومه —
البدو جهل مسلح — « الهاشميات » لا تصلح شيئاً — ذوو حسن — بدو
الرويس — البقوم — جاء سيدنا — شيخ حزين — « اتبر من تخارون » —
التساهل في المؤتمرات — فيصل ضمناً وصراحة — وزيد وعبدالله — « ان
ابننا اعداؤنا » .

في كل كبير تجتمع الاضداد . ولكل كبير من العرب اليوم قبلتان ،
قبلة الدين وقبلة الدنيا ، فيولي وجهه الاولى مرة او خمس مرات كل يوم ،
ثم يتطلع الى المغرب بقية يومه . يا قبلي ساعة نلبس ، وساعة نأكل ، وساعة
نركب السيارة . ولكن القبلة الجديدة كثيرة الاسباب ، كثيرة النفقات .
فينبغي لنا اذاً ان نستعين عليها بما بالمعاهدات الدولية ، والقروض المالية ، واما
بالبعثات الفنية والامتيازات . وقد جرب جلالة الملك حسين الطريقتين ولا يزال
يتردد بين معاهدة تقيد وامتياز وطني قد لا يفيد .

منذ خمس سنوات في سنة ١٩١٩ بعث صديقي قسطنطين يني الى سورية
ليبحث له عن اخصائين ، مهندسين واطباء . فعاد قسطنطين الى جدة ومعه
بعثة كاملة من الفنيين ، ابناء العرب النجباء ، المخلصين للقضية العربية ،
والمخلصين كذلك للذهب الوهاج ، كما اتضح بعدئذ . جاءوا مع القسطنطين
راغبين مستبشرين ، فاقاموا في الحجاز سنة ينقبون ويطحشون ، وبقيلون .
ولكن اعمالهم لم تسفر عن شيء مفيد . ولا يعلم جلالاته اليوم اكثر مما كان

يعلمه قبل قدومهم . نعم ، ان في جوار الوجه فقط ينبع على الشاطئ من البحر ، وفي جبال الحجاز نحاساً وطقاً وحديداً ، وفي مكان حول مكة معدناً من الماس ، وليس في البلاد العربية شركة مالية ذات قوة فنية تستثمر هذه المعادن ، فتخلص جلالته من ظل مخالبا الشركات الاجنبية .

اما شركة النعماني ، وفيها لا شك مال وعلم اجنبيان ، فلم تحز الخطوة لدى جلالة الملك . وقد يكون رفض الامتياز الذي طلبته منه ، على شروطه الحسنة المعتادة ، ^(١) لاسباب سياسية تتعلق بالمعاهدة الانكليزية الحجازية التي لا تزال قيد المفاوضات . وقد يكون « لشركة المشاريع العامة » ^(٢) في جده كلمة نافذة لدى جلالته في تفضيل هذا الامتياز فيما بعد على سواه .

قلت ان اعمال البعثة الفنية لم تسفر عن شي مفيد . وما الفائدة من مدرسة زراعية بمكة ، وليس في الحجاز ارض توجب الاهتمام بعلم الزراعة . وقد انزلناك بارض غير ذي زرع .

اما المدرسة الحربية فلا بأس بها لو كان البدو يقبلون عليها . ومعلوم ان اكثر اهل الحجاز من البدو ، وانهم لا يحتاجون الى من يعلمهم القتال وحمل البنادق . وقد يستنكرون ذلك . اما اذا كان لا بد من جيش منظم فالحكومة تضطر على ما نظن ان تدفع للبدو ، بدل ان يدفعوا لها ، راتب التعليم . وليس

(١) من شروط هذا الامتياز الذي يشمل من اجل البحث والتنقيب اراضي الحجاز كلها ، ان صاحبه يدفع للحكومة الحجازية اربعين في المئة من صافي ارباح عمالية الاستثمار ويحتفظ الحكومة بحق الافضلية في شراء خمسة وعشرين بالمئة من البترول المستخرج باسعار تبنى على اساس سوق لندن بعد حسم مصاريف النقل الى حدود اوروبا . وتكفل الشركة باشاء خط حديدي بين جده ومكة وخط ثان بين يثرب والملا لحساب الحكومة وذلك عند مباشرة استثمار البترول . وتسلم هذين الخطين الى الحكومة الهاشمية بكل لوازمها فيصيران ملكاً للحكومة . ثم تستوفي الشركة قبة ما تصرف على ابناء الخطين مع الفائدة القانونية من كامل واردات الاربعين بالمئة العائدة الى الحكومة . ومنى تم استهلاك ما صرف على ابناء الخطين ، تعود اليها الاربعون بالمئة كاملة .

(٢) هي نقابة وطنية ترمي الى تحسين اقتصاديات البلاد من كل الوجوه المشروعة ، يدخل في برنامجها الذي اجازته الحكومة الهاشمية ان لها حق النظر في الامتيازات قدسرتها الحكومة قبل ان تعطي امتيازاً لاحدى الشركات .

جلالة الملك من الموارد الان ما يساعد على القيام بنفقات هذه المدرسة ، التي يرجو منها اعادة الجيش الهاشمي المنظم الى مكائته وقوته قبل وقعة ترّبه (١) وما وقعة ترّبه غير نكبة نكب الحجاز بها ولا يزال متأثراً منها .

فلا عجب اذا كان سيد البلاد يرهق اهله ليعيد اليهم ، بواسطة الجيش النظامي ، عزاً قضي « الاخوان » عليه . ولا غرو انه يخصص التجار بما يستوجه تسايح البدو . فاذا ابوا يستشيظ غيظاً ويسترسل الى نزعة فيه تركية اكتسابية . قد قيل لي انه في ساعات الغضب يخيف هائل وانه اذا استدعى احداً منهم الى مكة ، يريئاً كان او مذنباً ، يكتب الرجل وصيته قبل ان يخرج من بيته .

رمى الاسطول الانكليزي ذات يوم في مياه جده وكان حديث الناس ، فقال احد الظرفاء بل البسطاء ان الاسطول الهاشمي اكبر واعظم منه . ولو لم يكن كذلك لما جاء الاسطول الانكليزي مسلماً موالياً . فوصلت الكلمة الى جلالة الملك ، فطلب الرجل الى مكة ، وأنزل السجن عند وصوله اليها ، فظل فيه اربعة اشهر دون ان يعرف ذنبه ، ودون محاكمة . ثم جيء به الى حضرة صاحب الجلالة المنتقد الاكبر ، فقرصت اليد الملكية اذن ذلك المسكين واسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما بعينه في المستقبل على حسن الكلام في الحكومة الهاشمية او في اسطولها .

حدثت احد وجهاء جده في ولد له ذكي ورغبت اليه ان يرسله — لا الى اوروبه — بل الى مصر او الى سورية ليتلقى العلوم فيها . فقال : وهذه رغبتني ولكن سيدنا لا يأذن بذلك . وقد تأكدت ان في جده غيره من الناس الذين يرغبون بتعليم اولادهم خارج الحجاز — في مصر او في بيروت — ولكن

(١) هي وقعة ترّبة في البلد التي تدعى بهذا الاسم وقعت في ربيع ١٩١٩ بين عرب نجد « الاخوان » وجيش الامير عبدالله المنظم الذي كان محاصراً المدينة والتي لم ينج منها غير الامير وبضعة من رجاله . راجع تاريخ نجد الحديث الفصل ٢٧ صفحة ٢١٩

سيدنا لا يأذن به .

الا هو الشرع ، لنعد الى الشرع والى الكتاب والسنة . وان كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم ، قولاً او عملاً ، وكل ما فيه شيء . يطلق في المسلم حرية قد نخرجه عن المشروع والمنقول ، بل كل ما فيه جرثومة علم قد تكون تبيحتها ، ولو بعد جيلين ، حيوان كافر كبير ، فهو من الولايات التي يحاربها المشرع الحكيم والحاكم العادل ، البعيد النظر . اجل ، انه يحاربها قبل ان تظهر الى عالم الوجود .

وجلالة الملك حسين من ملوك العرب الذين يهيمهم فوق كل شيء . سعادة المسلمين الدائمة السرمديّة . وهذه السعادة التي نص عليها النبي ووصفها الله في كتابه وصفاً جميلاً لا تقوم بالموسيقى ، او بالرقص ، او بشرب الخمر ، او بكسب المال ، او بالتعلم في المدارس الاجنبية .

واذا ما تساهل جلالته في امور لا تمس « السعادة السرمديّة » بضر ، كالطيارات مثلاً او الدبابات ، التي يعدها للزحف على « الاخوان » او كآلة لتصفية الماء ، الذي جعله الله في ارضه المقدسة مالحة ، او كمعمل لصنع الثلج ، فهو لا يتساهل قطعاً في ما يبلبل الازهان ، وبفسد الاخلاق ، ويخرج العرب ولو قيد قتر عن دين هو كنزهم الثمين في الدنيا وفي الآخرة .

— لا يلزمنا نحن العرب من العلم ، يا ايها النجيب ، غير ما يوافق حالنا وبلادنا ، ويمكننا ضمن حدود الدين ، اقول : ضمن حدود الدين ، من الانتفاع بالكمالات .

ان في جده افاضل من التجار والعلماء ساحوا في العالمين ، عالم المادة وعالم الفكر ، وخبروا الزمان ، ولم يفقدوا كنز الايمان . وهم يرون في التعلم ، حتى في مدارس الاجانب ، غير ما يراه صاحب الجلالة . ولكنهم

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت اليقين اطلت هممي
وفي جده اناس فيهم ما في غيرهم من اصناف الناس من النزوع الى الكيف ، فيطربون لصوت العود ، وبتتهجون بتلك التي تشعشع في الكأس ويحسون لعب

ال « بوكر » ولكنهم ، اذا جاء المعلم ، يتأدبون واذا غاب يلعبون . يكفي ان اقول ان في جده غير نادي الصلاة . فيها نادي الكأس ايضاً ، ولكن اعضاءه الذين لا يتجاوزون العدد المقدس اي سبعة لا يجتمعون الا مثل الفوضو بين سرراً . حدثني احدهم وكان الاخرى به ان يستعمل ضمير الجمع الحاضر بدل الغائب ، قال :

— عجيب يا استاذ امر الناس في هذا البلد . ولا تستغرب قولي ان في جده خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر . فترام عندما يشرف البلد كأنهم في مأتم ، وعندما يعود الى مكة يعيدون . فيخرجون من الصناديق ، الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل ، مسترسلاً في التهليل . هذا الشيخ قاسم يشهد على ما اقول :

فقال الشيخ قاسم ، وهو البارح الحاذق في افانين الحديث ، فيغير الموضوع دون ان ينتقل منه او ان يسي : عندما كنت في الاستانة كنت اقول لزميلي سليمان البستاني : لا يصاح هذا الكون الا بامرين ، ان اصير انا بابا رومه ، وتصير انت شيخ الاسلام .

فقال الضابط : لا يصلحه الا السيف .

فأجابه الشاعر : قد كان السيف بيدكم وما اصلحتموه .

فقال التاجر : مصيبتنا البدو . البدو مشكل لا يحله الا الله .

فأجابه الحكيم : جهل مسلح يزيله علم مسلح .

— احسنت احسنت . وهذه المدرسة الحربية الهاشمية قد اسست لهذه

الغاية .

— اقول لك بحرية ان « الهاشميات » كلها لا تصلح شيئاً . يظل ذوو حسن^(١) الى آخر الدهر لصوصاً عصاة ، وبدو الرويس^(٢) لا يتغيرون ولا

(١) هم اشراف ذوي حسن يقبون بين اللب وجده يقطعون الطرق برأ وبحراً فيسلبون وينهبون ولا تستطيع الحكومة الهاشمية تأديبهم .
(٢) بدو الرويس مثل ذوي حسن الاشراف ، ولكنهم يمارسون مهنتهم في الشمال بين ينبع وجده .

يصلحون . والبقوم ^(١) يتذبذبون وينافقون ولا بدعونون الا للقوة وانتم — صل —
على النبي .

بينما نحن في هذا الحديث جاء الامير زيد ينبئني بان جلالة الوالد قادم
لزيارتي . فارفضت الجلسة وبعد دقائق دخل عبد يقول : سيدنا . نخففنا الى
استقباله ووقفنا في الباب نتظره حتى نزع نعلنا من رجله يلبسه فوق حذائه
ودخل مجلس في كرسي الى جنب الديوان الذي خصني به . ثم جاء الخادم بالقهوة
وجاء عبد جلسته بالفنجان الملكي الخاص الذي يحمله في بيت من حرير
مزر كش بالؤلؤ الثمين .

وكان للكآبة يومئذ خيال على جبينه العالي ، بل ظل في وجهه الصافي
الاديم . وكان الحديث في السياسة ، وفي النهضة ، وفي مؤتمر فرساي ، وفي
الانكاز ، وفي فيصل .

— لا تظنني اشكو يا ايها العزيز النجيب . اقول : اننا ثابتون في خدمة
البلاد مهما تسببت الاسباب وتعددت الصعوبات . ولا نبغي غير عز العرب .
والسوريون من صميم العرب . فاذا سعدنا في الكمالات ، وبعدنا عن مفساد
المفسدين ، ودسائس النفعيين ، ولا استثنى اقرب الناس الي — اقول : اقرب
الناس الي . يخونون او يخطئون — فالحجاز يتبع سورية . وانا يا حضرة
الفاضل اتبع من تختارون للخدمة وللزعامة . اقول : اتبع من تختارون . . .
وكان الكاتب الاول في الديوان الهاشمي الشيخ احمد السقاف وهو كاتب سر
جلالته يحمل حقيبة فأمر بفتحها ففتحها وقدمها للملك فاخرج منها اوراقاً
رسمية اطلعني عليها .

— ما جئتك شاكياً يا ايها النجيب العزيز ، ولكنها العهود ، وحقوق الاب
على بنيه . . . ان احقر البدو لا يخون عهداً يعاهد به . ولو اتبعوا نصيحتي ، لو

(١) البقوم عشيرة تسكن تربة والحرممة وفيها من الاشراف الذين « دينوا » اي
اعتنقوا المذهب الوهابي . فالملك حسين يدعي رعايتهم لانهم من بني لؤي اشراف
الحجاز . والسلطان عبد العزيز آل سعود يدعي ذلك لانهم وهاييون . وقد فصل السيف
سيف نجد بينها في وقعة تربة .

امتثلوا امرى ، لما كان ذلك التساهل والتذبذب في المؤتمرات . فتحوا للفرنسيين باب سورية ، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية .

قد علمت بعدئذ من شرح المتن لجلالته ، ان الضهير في «اتبعوا» «وامتثلوا» «وفتحوا» هو عائد الى من كان يمثله في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الامير فيصل . وعلمت كذلك ان جلالة الملك حسيناً كان يرغب بالقدوم الى سورية ، وبان يمثل العرب في مؤتمر السلم الاول . اذن هو ناقد على فيصل . وقد قيل لي انه يوم عاد الامير آخر مرة من اوروبه الى الحجاز لم ينزل جلالة الوالد ليلاقيه في جده كما كان يفعل سابقاً .

انها لمن المحزنات . اما الحقيقة في القضية ، الحقيقة كلها : فهي مقسمة لا تجتمع لواحد من آل هذا البيت الشريف . فلو مثل الملك حسين العرب في باريس ولندن ايام المؤتمرات لكان الامر ولا ريب اثبت في يديه ، ولكانت النتيجة احسن للعرب . ولكن وجود الملك حسين في الشام ، في سورية ، بضيع ما قد يكون كسبه في مفاوضة الاحلاف بباريس . ذلك لان السوريين كانوا اميل الى فيصل منهم الى والده لعلهم انه عصري ، رحب الصدر ، دمث الاخلاق .

فالصلاية التي تُفيد في لندن وباريس لا تُفيد في الشام . ومهما قيل في الملك حسين ، ومهما تعددت مناقبه الشريفة ، فهو في صفته الدينية لا يُعزَّز زعماً كان او مليكاً ، في بلاد تعددت ادبائها ، واشتدت من جراء ذلك النعرات والنكبات .

ولكننا اذا ما نظرنا الى القضية من وجهة الملك الابوية نرى ، في حقوق تقضي عليها الحوادث ويمحو اثرها الزمان ، مأساة بشرية في قلبها شيخ جليل نبيل . وهو مع ذلك ثابت في عزمه ، وفي ديوانه ، وفي جريده . يهز على اعدائه السيف والبراع ، ولا يهجمه من الملك ما ضاع ، او ما لا يعطى منه ولا يباع . فهو ، ما دامت له قوة ، يطالب به على الدوام ، ولا يرضى بغير «ملك للعرب» لقباً ، وان كانت سيادته لا تتجاوز الطائف شرقاً والقفنذة جنوباً ،

رضي امراء العرب او لم يرضوا .

ملك مغبون ، وشيخ في بيته محزون ، لا بشكو الزمان ، ولكن في قلبه من
الزمان جمة حامية . ولا يلوم العربان ، وفي صدره من العربان دملة دامية .
ولا يتقدم على ما تقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب . فهو النهضة اولاً
وآخرأ ، وهو لا يزال باذن الله قوباً عصياً ، مها كان من امر « فيصلنا »
و « زيدنا » وعز يزنا في شرق الاردن . قد قال بلذالك « ان ابناؤنا اعداؤنا » .
وما اصدقها كلمة ولا سبها على الاسر الشريفة المالكة .

الفصل السادس

بين الاستانة ومكة

أكبر ملوك العرب واضعهم - ملك الحجاز وملك العرب - فضله الاكبر
 الثورة على الترك - نشر الدعوة في اوروبه - سيرة الملك حسين - اقامته
 في الاستانة - رجوعه الى مكة - هون الرفيق - قبر امناحوا - في
 ظل الشريف هون - الرجوع الى الاستانة - عضو في مجلس شورى
 الدولة - امير مكة - الحالة في الحجاز مدة امارته - اعلان الثورة -
 منشور الاستقلال - سورة البقرة - العرب غير المسلمين - الدين في
 النهضة - الاصلاح التركي - انتصار الترك - عبد الحميد الصغير -
 مكة وفروق - السجن والسفور

ان الملك الحسين اذن لا كبر ملوك العرب سناً، واظهرهم جلالاً، وارفعهم
 من الوجهة الدينية مقاماً، وانضمهم في السياسة مسلماً، واضعهم اليوم
 سلطة، واشدهم كرباً ونمماً. هو ملك الحجاز في المعاهدات الدولية، وملك
 العرب في الجريدة الرسمية، والمنقذ الاكبر في عين اولئك الذين لا يعرفون من
 البلاد العربية غير الحجاز. وليس من ينكر انه كان منقذاً في برهة من
 الزمان لا اظن التاريخ يعيدها، او الاقدار تسمح بتعميد اسبابها، فتتمكن
 الملك حسين من تحقيق امال المتحمسين وآماله الوطنية، بل احلامه
 الهاشمية.

ان فضله الاكبر لني ثورته على الاتراك، وان كانت المصلحة والمساومة فيها
 مرعية أكثر من المبادئ التي اعلنت من اجلها. ثم في نشره الدعوة العربية في
 اوروبه، وان كان ذلك ضمناً في سبيل آل البيت الخاص. ثم في الثبات المدهش
 في مطالبته بمقوق العرب وان كالت عمومية الى حد الابهام.

ان في النهضة العربية بجد الملك حسين وانجاليه البواصل الذين حاربوا في
 سبيلها، وان في الوحدة العربية المفازات التي ضاعت فهلك فيها كل امالمهم.

ومن المسؤول في ذلك؟ ان في سيرة الملك حسين ما يجعل غوامض الموضوع ظاهرة جلية .

واليكها بالايجاز . هو حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون^(١) ولد سنة ١٢٧٠ هـ في الاستانة وجاء في السنة الثانية من سنه الى مكة مع والده وجده ، ثم عاد والده الشريف علي الى فروع واقام فيها الى ان توفاه الله سنة ١٢٨٧ هـ وكان في خلال تلك المدة عضواً في المجلس الاعلى ثم صار وزيراً وعين عضواً في مجلس شورى الدولة . فزاره ابنه الحسين وكان لا يزال في طور الفتوة ، فنشأ هناك في بيئة تركية عربية .

ثم عاد الى الحجاز بعد وفاة والده فأقام في كنف عمه الشريف عبد الله بضع سنين وتزوج بابنته عبديه خاتم^(٢) كان الشريف عبد الله يومئذ امير مكة . وهو مثل اكثر كبار الاشراف ربيب الاستانة التي اكتسبته شيئا من الكياسة الاسلامبولية واشياء من السياسة التركية .

وكان للحسين اعمام آخرون تولوا الامارة بعد عبد الله ، منهم الحسن الصالح ، الذي قتل في جده ، وعون الرفيق المصلح الذي كان يميل في عقيدته الى الوهابية . فحمل حملته المشهورة على الاولياء ، فأمر بهدم القبور والمقامات ، وكان جهاده يذهب حتى بقبر « امنا » حوا لولا تدخل القناصل وقولهم للشريف عون : لك ما تشاء في الاولياء ، ولكن حواء ام الناس اجمعين ، ونحن نحتج على

(١) في ما تسمى الطبقة الرابعة ممن تولوا سدانة الكعبة ، التي تبدأ سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) وتستمر الى يومنا هذا ، فروع من البيت الهاشمي اسس كل فرع منها رجل كبير بنغ في قومه . فالفرع الذي اسسه في مطلع القرن الماضي في زمن ابراهيم باشا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون سلف الشريف حسين هو صنو آل زيد الذي تطلب عليه . وهذان الفرعان اللذان كانا يتنازعا على الامارة وسدانة الكعبة هما من بني حسن الذين بنغ فيهم جد الاشراف الاكبر محمد بن ابي نمي . ويتصل نسب ابي نمي بكبير آخر في السلالة الهاشمية هو فتادة ابن ادريس . وقناة من ولد موسى الجون . وموسى هذا هو ابن حفيد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب وابن بنت الرسول .

(٢) هي ام الاميرين علي وهداية والملك فيصل . وبعد وفاتها تزوج الملك حسين بتركية من اسر الاتراك الكبرى هي ام الامير زيد .

هدم مقامها . فافتتح الشريف بما قالوا وعفا عن ذلك المقام الاكبر (١)
وفي ايام الشريف عون ظهرت مواهب ابن اخيه الحسين فتسللاً ذكاً
واشتد عزمه وكان في شعوره ومساعدته عريياً كريماً ، غيوراً على قومه وبلاده ،
لجوجاً متهوساً . ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الاعلى . فرأب
الاستانة امره ، فاستدعي اليها سنة ١٣٠٩ هـ ليكون ضيف البادشاه واسيره
مثل من تقدمه من الاشراف ، فأشرب هناك روح السيادة العالية ومبادئ
السياسة التي اشتهر بها المابين .

صعد الشريف حسين في الدواوين الى مقام المقربين من السلطان واستندت
اليه رتبة الوزارة مثل ابيه ، وعين مثله عضواً في مجلس شورى الدولة ، فاستمر
في وظيفته الى سنة ١٣٢٦ هـ اي اول سنة الدستور العثماني وكانت مدة اقامته
هذه المرة في الاستانة سبع عشرة سنة . ثم عاد الى ام القرى اميراً عليها ،
وظل مخلصاً للدولة او متظاهراً بالاخلاص حتى السنة الثانية من الحرب العظمى
عندما اعلن الثورة وشهر الحرب على الاتراك .

ان ما يستغرب من امره في مدة امارته هو ان الحجاز في تلك الايام ايام
راغب باشا السودان ، كان نهياً للتناهبين ، ومحط رحال السفهاء من الاتحاديين ،
فتعددت من فوضى الاحكام المظالم ، وغدا العدل شريداً ، والامن طريداً ،
فكان الحجاج والمطوفون يسلبون حتى في ظل البيت الحرام في راحة النهار .

(١) هذا المقام او القبر هو في جده ، طوله خمسة وسبعون قدماً ، وامنا حواء مدفونة
فيه . وقد شاهدت في البلاد العربية القبور الاخرى للعائلة الاولى البشرية وكل واحد
منها يعد مئات الامبال عن الاخر . قد يكون قايين فر هارباً بعد ان قتل هابيل فجاء
البلاد التي تسمى اليوم عدن ، ومات ودفن هناك . فان الصبايين يدلونك على كهف
عال في الجبل الى اليمين وات سائر من التوامي الى عدن القديمة — هذا قبر قايين !
اما قبر ابوه آدم فقد سمعت به في النجف بل هو هناك وقل من يعرف ذلك من غير اهل
الشيعة الذين يزورون المشهد اي مقام الامام علي . فهم اي الزوار ، عندما يقفون تحت
القبة المباركة امام ضريح الامام ، يسلمون قائلين ، السلام عليك يا علي وعلى ضجيعك آدم
ونوح . ابونا آدم مدفون اذن مع علي في النجف ، وبين النجف وجده حيث قبر امنا حواء
ما يزيد على السبعين ميل . لا بأس بالاساطير اذا كانت تنير . اللهم لا تشق هذه
الامة العربية وان كثرت ذنوبها كما شقت العائلة البشرية الاولى .

ومع ذلك فلم يُغضب الشريف حسين ثم من مآثم الترك يومئذ أكثر من خروجهم ، وهو في نظره الأثم الأكبر ، على التقاليد الإسلامية البالية . أنها العمري فضيلة فيهم يستحقون من أجلها احترام الأمم المتعدنة .
 أما الملك حسين فسجلها عليهم في رأس المفاسد والآثام . وقد عدد منها في منشور الاستقلال الذي أصدره في ٢٧ حزيران سنة ١٩١٦ و ٥ رمضان سنة ١٣٣٤ هـ فقامت قسمين ، قسماً نشأ مع الدستور وكان ملازماً له فصر جلالتة ثماني سنوات دون ان يحرك ساكناً عليه ، وقسماً نجم عن الحرب العظمى والسياسة التركية الجديدة . وقد ذكر من الذنوب الأخيرة في منشور الاستقلال « مخالفة نصوص الشرائع الإسلامية » و « اهانته النبي » و « التبديل في شريعة الوراثة الشريفة » و « المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل » و « اعفاء الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من المحافظة على الصوم » و « اصدار الاحكام التي فيها مخالفة صريحة لنصوص سورة البقرة » وبعد ذلك احتج على اعدام الاحرار في سورية .

ومنشور استقلال العرب هو اساس الوحدة العربية ! أفما حان لنا ، أو لا يحق لنا ، ان نتساءل نحن العرب غير المسلمين : ماذا يهمننا من نهضة اساسها سورة البقرة ؟ واي دخل لنا في ثورة اعلنت في ذلك السبيل ولتيك الاسباب الدينية ؟

على انه اذا انعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهاء وغريب اساليب السياسة نتأكد انه اتخذ الدين او العاطفة الدينية في العرب سبيلاً الى تحقيق مقاصده .

لست انكر اخلاصه في احتجاجه على ما يعتقد بدعة في سلوك الاتحاديين . الا ان الحكمة في سياسته قصرت دون المراد . قال : النهضة العربية عززوها ، وهو عالم بان احد ركنيها مسيحيو سورية الذين لا يستحسنون الصبغة الدينية فيها ، والركن الثاني مسلمو سورية ، واكثرهم يعطفون على الاتراك ويستحسنون

الاصلاحات الدينية التي يسعى الحزب الرافعي منهم الى ادخالها في الاسلام . ليس في ما يجلبو الحقائق مثل الايام ، ولا في ما يظهر كامن الشعور مثل الحوادث . ولعمري ان ملوك العرب لا يفلحون ، لا يفوزون فوزاً تحسن نتائجه وتدوم ، ما زالوا يتخذون الدين وسيلة لتأييد سيادتهم ، وتحقيق مقاصدهم ، وتعزيز العصبية فيهم . والملك حسين ، في فوزه وفي خيبته ، برهات شريف على ما اقول .

انه ليصعب على من نشأ بين الاتراك ، وتشرب روحهم ، ومارس سياستهم عشرين سنة ونيف ، ان يتجرد تمام التجرد من آفاتهم ، او ان يجاربههم بسلاح هم اعلم به منه واقدر على استعماله . ولا يفوتك ان الاتراك حاولوا مراراً ان يعلنوا على اوروبا به الجهاد ولم يفلحوا . فهل يفلح جهاد فريق من المسلمين على اخوانهم في الدين وفي هذه الايام ؟ انها لمن المحزنات . ومهما كانت من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سورية باسم الدين اولاً فان انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها انما هو رأس الخيبة والفشل في سياسته كلها .

بدعوته عبد الحميد الصغير . ولعمري اذا صح التشبيه فالتصغير لا يجوز ، لان الامور تقاس ببيئاتها والاشياء كلها نسبية بما فيها من خير او شر . ان مكة في نظر المسلمين لاعظم من فروع ، وقد قيل لي ان سجنها اظلم من اعماق البسفور . فما قول اهل جده وقد شاهدت بعيني ولمست بيدي ذلك الخوف المستولي عليهم ؟ الخوف من رجل مكة الظالم ، ومن سجن مكة المظلم ، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم . هي وحشة لا يتخللها بصيص من الرحمة او المعروف .

الفصل السابع

بين مكة ودونن استريت

رسول اللورد كيتشر — التجنيد في الحجاز — الشريف يعتزل السياسة —
الفظائع في سورية — احتجاج الشريف وجواب جمال باشا — فيصل في الشام —
حيلة الشريف في اتقائه — رجوع فيصل الى المدينة — رسل الانكليز
والمفاوضات — الشروط الخمسة — التأهب للوثوب — كتاب من السر آرثور
مكماهون — الشريف يطلق بندقيته — اعلان الثورة — تسليم الحاميات في
مكة وجده والطائف — الشريف حسين ملك الحجاز — اعتراف الاحلاف
به — تهنة الاميرال الافرنسي — كتاب من مندوب بريطانيا العظمى في مصر
السر روجينلد وثقات .

بينما كان جلالة الملك ونجله الاميران عبد الله وزيد جالسين ظهر يوم من
الايام الى المائدة في الطائف دخل الحاجب يقول : غريب في الباب يعني سيدنا .
وكان الرجل رسولا خفياً جاء الحجاز متذرعاً بالحج وهو يحمل الى الشريف
حسين من مندوب بريطانيا العظمى في مصر اللورد كيتشر دعوة للانضمام الى
مصاف الاحلاف . فابي يومئذ الشريف . ثم كتب اليه خلف اللورد كيتشر
السر آرثور مكماهون في الموضوع نفسه فتردد وتودد .
وكان لا يزال محافظاً على ولائه للعرش العثماني مع انه لم يحضر الى المدينة
ليسلم على انور وجمال عند ما زاراها في طلائع سنة ١٩١٦ . وقد كان نصيح
الاتراك ان لا يدخلوا في الحرب العظمى ، ولكنه بعد دخولهم عرض عليهم
المساعدة بشروط منها العفو عن المسجونين السياسيين في سورية والعراق ، واعطاء
البلدين نوعاً من الاستقلال اي انشاء حكم لامركزي فيهما . وعندما رفض
الترك طلبه والحوا عليه — رغم ذلك — بالتجنيد في الحجاز راح الى قرية
خارج مكة يعتزل السياسة الى حين .
ثم حدثت الفظائع في سورية ، ورأسها شتى احرار العرب ، فانارت غضب

الشريف فكتب الى جمال باشا يمتنع على اعماله القاسية ، فأجابه جمال ان
 يتقي نفسه بدل ان يدافع عن سواه . وكان الامير فيصل في الشام يومئذ يخاف
 الملك عليه واحجم عما كان يدبره من امر الثورة الى ان يخلص ابنه من
 الخطر هناك . فكتب الى جمال باشا يقول انه مهتم بالتجنيد وسيشترك العرب
 مع عساكر الدولة وحليفها المانية في الزحف على ترعة السويس . اللهم اذا
 امرع فأرسل الامير فيصلاً الى الحجاز لهذه الغاية . تجاوزت الحيلة على
 جمال باشا وجاء الامير فيصل الى المدينة ومعه عشرة آلاف ليرة واربعة
 آلاف بندقية .

وكان الانكليز في اثناء ذلك يواصلون مفاوضاتهم السياسية مع الشريف
 المتردد المتوحد ، فأرسلوا اليه المستر ستورس الذي صار بعدئذ حاكماً على القدس
 والكرنل هوغارث ثم الكرنل لورنس فاسفرت المفاوضات كلها عن الشروط الخمسة
 التي تم الاتفاق عليها في الشهر الاول من ١٩١٦ وهذه هي :

اولاً : تعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل
 معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، حدودها شرقاً خليج فارس ،
 وغرباً بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الابيض ، وشمالاً حدود ولاية
 حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات وبحتمعة مع الدجلة الى مصبيها في
 خليج فارس ، ما عدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود .
 وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمفاولات التي اجرتها بريطانيا
 العظمى مع اي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بانها تحمل
 محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع اربابها امراء كانوا او
 من الافراد .

ثانياً : تعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها
 من اي تدخل كان باي صورة كانت في داخليتها ، وبسلامة حدودها
 البرية والبحرية من كل تعدٍ ، اياً كان الشكل ، حتى لو وقع فتنة داخلية

من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة . وهذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة اي الى حين ثم للحكومة العربية تنظيماتها المادية .

ثالثاً : تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانية العظمى الى ان يتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية . ويعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابلة تلك المشارفة مبلغ من المال يراعى فيه حالة الحكومة العربية .

رابعاً : تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج اليه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب .

خامساً : تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين او من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها .

وظلى الشريف حتى بعد هذا الاتفاق الذي تم في كانون الثاني من سنة ١٩١٦ بعد ويسوف الانكليز وبعد العدة مرأ للعمل الخطير ، يتأهب للوثوب . وكان قد كتب الى المندوب السامي في مصر كتاباً يعلمه بذلك فاجابه السر آرثور مكماهون في كتاب مؤرخ في ١٠ اذار سنة ١٩١٦ (٦ جمادى الاولى ١٣٣٤ هـ) يقول :

« قد تلقينا رقيمكم المؤرخ في ١٤ ربيع الاخر ١٣٣٤ عن يد رسولكم الامين . وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تتخذها وترونها موافقة للاحوال الحاضرة . ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تجيزها . و يسرفيان اخبركم بان حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم وان كل شيء رغبت بالاسراع فيه وفي ارساله هو مرسل مع رسولكم حامل هذا . وستحضر الاشياء الباقية بكل مرعة ممكنة . فتبقى في بورت سودان تحت امركم الى حين ابتداء الحركة واعلامنا رسمياً بها . وقد انتهت الينا

اشاعات مؤداها ان اعداءنا باذلون الجهد في اعمال السفن ليبتثوا بواسطتها
الانغام في البحر الاحمر ، ولا لحاق الضرر بمصالحنا هناك . فترجوكم ان
تسرعوا باخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم » .

مرت اربعة اشهر على الاتفاق الانكليزي العربي قبل ان يطلق الشريف
حسين بندقيته من قصر الامارة بمكة . وكان الحجاز يعاني من شدة الحرب
واهوالها اكثر من سواه من الاقطار العربية . فسدت ابواب البحر ، واقطع
الحجاج عن الحج ، ونقد القليل مما كان في البلاد من زاد ، فضجت الناس وهلك
مئات من الجوع . وقد قال جلالة الملك انه ظل واهل منزله سنتين يأكلون
الدخن .

مرت الاربعة الاشهر وكان قد اصبح الامير فيصل في مأمن من الاعداء ،
ولديه فوق ذلك من مالههم وسلاحهم ما لا يستهان به . وكانت الذخائر
والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق بورت سودان من المصدر الذي لا تنفذ
عداته وقواته .

فتوكل الشريف على الله . ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان
سنة ١٣٣٤ هـ (٢ حزيران ١٩١٦ م) قبل الفجر ويده بندقيته اطلقها
طلقة واحدة كان لدويها صدى في جده والطائف والمدينة . أعلنت الثورة في
مكة وجده في اليوم الاول ، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني . وكان ما
لديه من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها ، فحاصر الامير زيد بجنوده قلعة
« اجياد » بمكة ، وهجم الامير عبد الله على الطائف ، وكان الشريف محسن
قائداً في جده ، والاميران علي و فيصل ، وقد خرجا من المدينة ، يجتمعان العربان
ليحاصروا الترك فيها .

وقد يرهن ابناء الشريف خصوصاً صغيرهم الامير زيد على بسالة فيهم
اظهرها القتال ، وعززها الجلد في النضال . ولم يمر شهر على حصار قلعة « اجياد »
التي كانت نصب نارها على مكة ، وخصوصاً على قصر الامارة فيها ، والشريف
في غرفته الخاصة في ذلك القصر يدير الحركة ولا يبالي بشظايا القنابل التي كانت

تخترق السقوف والجدران ، فلم يمر شهر حتى كالى الحصار بالنصر .
سلمت « أجياد » في ٤ رمضان . ثم استولى الامير عبد الله على الطائف
في ٢٦ ذي الحجة من تلك السنة .

وفي ٢ محرم ١٣٣٥ هـ (١٦ تشرين الثاني ١٩١٦ م) يويم الشريف
حسين بالملك ، وفي الشهر التالي اعترفت به دول الاحلاف الكبرى ، اى
انكلترة وفرنسه وايطاليا ، ملكاً على الحجاز ، وجاء الاسطولان الانكليزي
والافرنسي الى جده يحملان الى جلالة الملك تهاني . تلك الدول احلافه ، فخطب
في حضرته اميرال الاسطول الافرنسي ودعاه باعظم امراء العرب .

قد بنسى الملك حسين تلك الخطبة وذلك الاطراء من الاميرال الافرنسي
ولكنه لا ينسى ما خط على الورق وما لديه من الرسائل التي كانت يحملها
كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يوم شرفني بزيارته في دار الضيافة .
هوذا كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر المتسدوب السامي السر
ردجينلد ونجت ، مؤرخ في ١٩ نيسان سنة ١٩١٧ م و ٢٧ جمادى الثانية
١٣٣٥ هـ وفيه ما يلي :

« فاؤمل ان لا يهرح من بال جلالتم ان الحكومة البريطانية هي التي
تتكرم المعاهدات وهي حامية ذمار الحق والعدل ، والحليفة الوفية التي لا
تخون اليهود . »

الفصل الثامن

الوحدة العربية^(١)

رأس البلية فيها - معاهدة سيكس بيكو - كتاب السر ادوارد غراي الى سفير
فرنسه في لندن - بشرط ان تكون المدن الاربع، حمص وحماه والشام وحلب .
العرب - تنازل الملك عن جزء من سورية - وماذا في شبه الجزيرة - قبلة
العرب الفاتحين - الاهتمام بسقف البيت قبل الاساس - فضل الحسين قبل ان
صار ملكاً - طموحه - عداؤه لامراء العرب - الخطل في سياسته ونياته
فيهما - امانه وامال ملوك العرب - الشرط الثاني من الشروط الخمسة -
حلفاء بريطانيا العظمى - خداع وكلائها او جهلهم - سداجة العرب -
دولة سورية هاشمية - تنازل الملك وانسحابه - « لا ابيها » .

انه ليصعب على من امعن النظر وكان منصفاً ان يقول من هو رأس
البلية في القضية العربية . واذا ما بعينا الحقيقة كل الحقيقة في الموضوع ، اي
موضوع الفشل ، يبدو امامنا في اربعة اجزاء تجسدت في انكساره وفرنسه ،
ومن تولى الزعامة من العرب ، ثم العرب انفسهم . رأس البلية اذن اثنين ذو
اربعة رؤوس .

ولكن هناك عامل واحد يعد من اسباب الخيبة والفشل يشترك معه عامل
اخر . الا هو السياسة الدولية السرية . لنجتنب التعميم . ان المعاهدة
السرية - التي كانت سرية - بين فرنسا وانكلترا ، اي معاهدة سيكس
بيكو ، هي من اهم اسباب الفشل في تحقيق الوحدة العربية .

وقد تم عقد هذه المعاهدة في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ اي قبل ان اعلن
الشريف حسين الثورة على الترك بسبعة عشر يوماً . فبينما كانت السر
ارثور مكماهون يفاوض مكة ويقطع للعرب العهود كان المسيو بيكو والكرنل
سيكس قد اتما عملهما المشؤوم فقسما البلاد السورية الى مناطق سياسية

(١) لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب في اخر الجزء الثاني

اقتصادية ، زرقاء وحمراء وسمراء ، وهي كلها اليوم اذا اعتبرت مصلحة البلاد
بمناطق سوداء .

على ان الحكومة الانكليزية لم توافق على تلك المعاهدة دون تردد او
دون شرط وقيد . فقد كتب السر ادوارد غراي ناظر الخارجية يومئذ الى سفير
فرنسة في لندن المسيو كمبون كتاباً مؤرخاً في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ يقول فيه ان
حكومة جلالة الملك توافق على المشروع (مشروع التقسيم) اكراماً لمصالح
الاجلاف العامة بشرط ان يشترك العرب بالحرب و يكون لهم المدن السورية
الاربع اي حمص وحماء وحلب ودمشق .

وكان جلالة الملك حسين قد طلب من الانكليز البلاد السورية كلها ، ثم
لنازل عن مرسين واسكندرونه ، واستمر يطالب بالمدن الاربع والسواحل ايضاً .
ثم اعترف للانكليز كما يظهر من الشرط الثالث في الشروط الخمسة بالمشاركة
— وقد ترجمها ترجمان الديوان الهاشمي بالاشغال — على ولاية الموصل . نعم ان
الشرط ينص حرفياً على الاستيلاء . مشاركة كان ام اشغالا . والاستيلاء يبدأ
غالباً بالشروط وينتهي بالاطلاق .

ايحوز ان تقول اذن انه لولا المعاهدة السرية بين فرنسة وانكلترة التي
تقدمت المعاهدة بين انكلترة والشريف ، لكنت تحققت اليوم الوحدة العربية ؟
ليس من ينكر ان تلك المعاهدة قضت على القضية في الشمال ، في سوريا وفلسطين .
ولكنها لم تصل بكل اسبابها المدمرة الى شبه الجزيرة . وافي في هذا القول لا
انطق بغير نصف الحقيقة .

اما نصفها الآخر فهو ان الشريف لم يكن ليهتم بشبه الجزيرة يومئذ اهتمامه
بسورية وفلسطين ، ولا جزءاً من ذا الاهتمام . وماذا في شبه الجزيرة ، اذا مال
بوجهه اليها ، غير الامراء الاعداء ، والقبائل المتحردة ، والصحاري والقنار ؟ اما
سورية وفلسطين ، قبلة العرب الفاتحين ، فينبغي ان تكونا جزءاً من الحجاز
او يكون الحجاز جزءاً منهما . لا فرق عند الشريف . وفي ذلك الانضمام لتحقق
الوحدة العربية .

افلا ترى في هذه الخطة ان صاحبها يهتم بسقف البيت قبل اهتمامه بالاساس ؟ وليس الاساس ايها العربي الغيور في سورية وفلسطين ، بل هو في نجد واليمن وعسير ، في الامراء الاعداء والقبائل المتسردة . فلو تمكن الملك حسين من ضم كلمتهم الى كلمته ، وجمع شتاتهم تحت رايته ، لكانت له سيادة نذل عندها عقبات الشمال ، وتزول الوان المناطق السياسية كلها . ولكنه ، وقد فشل في سورية وفلسطين ، امسى ولا نفوذ له يذكر في شبه الجزيرة .

اقول هذا وانا عالم بما لجلالته من الفضل في سبيل القضية قبل ان صار ملك الحجاز . وانه في ثباته ومضائه ، وفي دهائه وابائه ، عندما كان يهد السبيل الى العمل الخطير ، ذاك العمل الذي لم يقدم عليه الا بعد ان نال من دول الاحلاف مطالبه المادية كافة ، من سلاح وذخيرة ومؤونة ومال ، واخذ منهم الوعود بتحقيق مطالبه السياسية كلها ، انه ، وان كان مبدأ المساومة ، لجدير بالاعجاب والاحلال . ولكنه بعد ان صار ملك الحجاز طمع بان يكون ملك العرب . ولم يكن في اساس عمله ما يميز مثل ذا الطمع . فهو فوق احتقاره امراء العرب الحاكمين اصغر لهم العداء كما يظهر من الشرط الثاني في الشروط الخمسة . ومما كان من عزمه وثباته في الدفاع عما يعتقد حقا ، فان الخطل في سياسته العربية تقدم السداد في ثورته الحجازية .

وما الفائدة اليوم من ضجة تملأ الدوائر السياسية احتجاجا ، وقد انكشف الستار ولم يعد في القضية سر يستثمره الدهاء ؟ انه لو لم قديم طلي بذهب حلم جديد ولكن الملك حسين اصلب ساسة الارض اليوم رأيا وابسهم عودا . فهو وان شابت الاوهام ، وهرمت الاحلام ، لا يطوي العلم ولا يكسر الحسام . وقد يموت شاهرا سيف السياسة والدهاء على اعدائه الحقيقيين والوهميين في سبيل المجد الهاشمي ، والوحدة العربية . ما اعظمها وما اجملها ثقة ، تلك الثقة بالنفس .

اجل ، ومن يطلب ما طلبه الملك حسين من دولة بريطانيا العظمى غير رجل طماح ثقته بنفسه اعظم من ثقة الانكليز بانفسهم ؟ ومن من امراء

العرب الذي يعرف بعض الشيء عن زملائه واخوانه في الجزيرة بعلل النفس بتحقيق تلك الاماني ، اماني الشريف ، واماني الملك ، واماني المنتقد الاكبر ؟ وهي كلها واحدة لا تتغير .

ولكنها لا تتفق مع اماني الآخرين . قلت انه اضمر لهم العدا في الشرط الثاني من شروطه الخمسة . فقد جاء فيه ان « لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الاعداء او من حسد بعض الامراء » نتعهد بريطانيا العظمى ان تساعد « مادة ومعنى » عليهم . ولا ريب ان ابن سعود والادريسي كانا في ذهن الملك عند ما امر وزيره ان يكتب هذا الشرط . ولا ريب ان معتمد بريطانيا العظمى كان يدرك ذلك لما بين الملك وابن سعود والادريسي من العدا القديم . ولكن سلطان نجد وسيد عسير من اصدقاء بريطانيا العظمى واحلافها ، فكيف يمكنها ان توافق على شرط قد يوجب عليها محاربتهم من اجل الملك حسين ؟

وكيف يستطيع الانكليز ان يقوموا اليوم بشروط اتفاق نسخته معاهدة سيكس بيكو ؟ ان تلك الصفقة لصفقة بائس مستهتر . وان في تلك الشروط دليلاً على سذاجة في المنتقد الاكبر مهما كان دهاؤه السيامي . وان في قبول بريطانيا العظمى بها دليلاً على جهل في معتمدها ، او حماقة في رسلها ، او خدعة في حكومتها مهما كانت من قول رجالها في برها بالوعود ومحافظتها على العهود .

قد أدرك جلالة الملك حسين حتى قبل انتهاء الحرب وعودة المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية ، يريد اولا سورية ، وقد لا يريد الا هاشمية . فكشبت قبل انتهاء الحرب بثلاثة اشهر الى نخامة نائب الملك في مصر كتاباً يقول فيه : « فمتى اضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم علي الانسحاب من الامر والتنازل عنه » . ثم قال وهو لا يزال بصر على الشروط الخمسة : « فاذا كان لا بد من التعديل فما لي سوي الاعتزال والانسحاب . . . وانها (اي بريطانيا العظمى) لا ترتاب في اني

واولادي اصداقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم واخلاصهم ٠٠٠ ثم تعينون البلاد التي يستحسن اقامتنا فيها للسفر اليها في اول فرصة ٠ «
ولا تزال هذه لهجة الملك ولا يزال هذا قصده منذ ذلك الحين الى يوم
تشرفت بمقابلته في جده ، وقد قال لي يوم ودعته ٠ وهو يقبض على لحيته :
« اني لا ابغياها (اي الزعامة) لا ابغياها ٠ ليتفق امراء العرب عليها وانا اعتزل ٠
ليتفقوا على تأييد الوحدة العربية فانسحب اذا شاءوا واثاركم بما يتفقون
عليه تابعا كنت او متبوعا ٠ اقول ، يا حضرة النقيب ، تابعا كنت او
متبوعا ٠ »

وهذا ما وُطد في يومئذ احد المقامد من رحلتي ، فشجعتني في رسالتي
الوطنية العربية ، وحبب اليّ خدمة جلالته في تمهيد السبيل الى التفاهم بينه
وبين امراء العرب ٠^(١)

انتمى القسم الاول

(١) في تاريخ نجد الحديث للمؤلف ، صفحات ٢٠٣ - ٢١٦ تمة تاريخ الملك
حسين .





حضرة الامام يحيى
في طاقية الشغل
تصوير المؤلف
راجع صفحتي ١٥٩ و ١٦٠ من هذا الجزء

نمينا

القسم الثاني

الامام يحيى بن حميد الدين

المتوكل على الله

اليمن

حدوده : جنوباً خط يمتد من الخفا على البحر الاحمر الى تعز فماويه فقه طبه -
شمالاً خط يمر في بلاد خولان وبني بشر الى نجران . غرباً البحر
الاحمر من الشيخ سعيد الى ميدي وشرقاً البحر السافي او
الربع الخالي .

الوحدات : لواء صنعاء ولواء الحديدة ولواء تعز ولواء صعدة .

عدد سكانه : نحو مليوني نفس ونصف مليون ٢,٥٠٠,٠٠٠

مساحته : نحو اربعين الف ميل مربع .

اهم قبائله : حاشد وبكيل وحمدان والحوارثة وذو محمد وذو حسين وبنو اسلام،
و بنو مطر والمكارمه .

اهم بلدانه : صنعاء وذمار وريم واب و تعز وزبيد وبيت الفقيه ومناخه .

مذاهبه : الزيدية والاماعيلية والسنة (شوافع) واليهود .

الفصل الاول

التبليغ في الترويج

« والله نذبحه » — « سفرك الى اليمن مستجبل » — وصولنا الى عدن —
 « بأمر من الحاكم » القنصل الامبركي — وكيل بريطانيا العظمى — المري
 وعمر الحيام — الخطر في السفر الى اليمن — « لا يمكننا ان نحميك » الاشاعات
 والشبهات — سلطان لحج يرحب بنا — زيارة بقبود — الاعتراض على
 رفيقي « الحجازي » — الجواسيس — السياسة في الترويج — وكيل
 الامام يحيى في عدن — اللغة العربية في المهجر — سفير يحمل سيفاً وخنجرأ —
 المفسدون — حبال المعنة — وميض الامل — كتاب من دار الاعمال —
 كتاب من وكيل الامام — الجاسوس التائب .

كنت ذات يوم في ادارة احدى الجرائد النيويوركية حين دخل رجل
 غريب اللهجة لا اللسان يبغي كتاباً يعلمه الحديث في اللغة الانكليزية . فسألته:
 من اين انت ؟ فقال : من اليمن . وكنت يومئذ في اعبة السفر الى بلاد العرب
 فاستأنست بالرجل وبلهجته وقلت ، وانا راغب في الاستفادة : اجلس وحدثني
 عن بلادكم . فقال على الفور : بلادنا طيبة الهواء والماء ولكن اهلها دائماً في
 احتراب . فقلت : ومن يحاربون ؟ فاجاب : حاربنا الاتراك ، وحاربنا القبائل ،
 وحاربنا الادريسي ، ويحارب دائماً بعضنا بعضاً .

— وهل الامام يحيى حاكم اليمن كله ؟

— لا . هو يحكم جزءاً صغيراً منه . نحن اهل اليمن لا نخضع لاحد دائماً .
 نحب الحرية ونحارب من اجلها . نذبح اقرب الناس الينا لنكون مستقلين . نقول
 للامام : هذا الرجل لا نشتهيهِ (لا نريده) حاكماً ، وقيم منا شيخاً علينا ونقول
 له : انت حاكمنا انت امامنا .

قلت : واذا ابى عامل الامام التنازل عن منصبه ؟ فاجاب بلهجة هادئة :
 والله نذبحه .

ثم سأله ما اذا كان من اجاب في اليمن فقال : لا . وانه لا يؤذن لهم لا
بالاقامة ولا بالسفر هناك .

— واذا جاءكم الاجنبي .

— والله نذبه .

— واذا ساح متنكراً .

— اذا عرفناه فوالله نذبه .

— او ما يؤذن للسوري وهو عربي مثلكم ؟

— اذا كان مسيحياً فهو والفرننجي سواء عند اهل اليمن . وقد يحميمه

لسانه او بصرف النظر عنه .

قلت واذا انكشف امره فعرفتموه ؟ فأجاب الرجل دون ان يغير لهجته

الناعمة اللطيفة : والله نذبه . كأنه يقول نضيفه ونكرمه .

سافرت من نيويورك وفي من قصة « نذبه » ما يضحك ويزعج معاً .

ثم روت في مصر . قلت في بيت احد الاصدقاء اني مسافر الى اليمن وكان

الاديب السوري نعم شقيب^(١) حاضراً فقال على الفور : غير ممكن ، فذكرني رحمه

الله بالقصة وحاقت بي اشباح من بلاد « نذبه » . فقلت : ولماذا ؟ هل من خوف

على حياتي ؟ فأجابني ثانية . مستحيل . غير ممكن . ثم صرح بما فيه بعض

الاطمئنان اذ قال : لا يأذن بذلك اولياء الامر .

— ومن هم اولياء الامر ؟

— الانكليز .

— وهل للانكليز سيادة في اليمن ؟

— هم في عدن يرصدون الابواب . مالك واليمن ؟ قد يأذنون بزيارة

سلطان لحج وهذا يكفي . في اليمن حرب اليوم ، والاطار كثيرة زد

على ذلك . . .

(١) له تأليف اديبة وتاريخية منها « تاريخ السودان » وكان قبل وفاته يشتغل في
تأليف « تاريخ لحج »

ولم يزد شيئاً جديداً . سكت فروعاً ثم قال : مستحيل سفرك الى اليمن
مستحيل . ودعاني للعشاء في بيته . فقلت : اني اقبل دعوتك بشرط الا نقول
لي ان سفري الى صنعاء مستحيل . فقبل الشرط رحمه الله وما لمسنا في تلك الليلة
في الحديث حاشية من حواشي اليمن .

جئت الى جدته واجتمعت فيها بصدقي القديم قسطنطين بني . وخطر لي
ان لا بأس بل لا بد في السفر الى جبال اليمن من رفيق فسألت جلالة الملك
حسين ان يأذن لقسطنطين ان يرافقني فاجاب تلفظاً سوياً . فسافرنا متوكلين
على الله ، انا في ثياب افرنجية وعقال احمل جوازاً امير كيا ، وهو في ثوب ملازم
في الجيش الحجازي يحمل جوازاً حجازياً . وكانت العلاقات بين الانكليز
والملك متراخية في ذلك الحين كما اسلفت القول في الفصول الاخيرة من القسم
السابق .

وصلنا الى عدن فاستقبلنا على الرصيف ضابط انكليزي وبعد ان اطلع
على جوازنا احتفظ بها قائلاً : يا امر من الحاكم . فقلت : وهل هو امر عام او
انه يختص بنا فقط ؟ فاجاب : هو امر عام ياسيدي . ثم اخذ عنواننا واعدنا
بان يعيد الجوازات الينا في ذلك اليوم ولكن ذلك اليوم والايام الثلاثة التالية
شهدت على الانكليزي فتيقنا انه لا يبر دأماً بوعده .

وقد كنت احمل كذلك كتاب تعريف من الوزارة الخارجية بواشنطن
فقدمته للقنصل الاميركي وسألته ان يطلب من الحاكم اعادة جوازي . ثم اعلمته
بقصدي فصر مددوشاً ثم قال : وقد يقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك . . .
انصحك الا تسافر — هذا اذا اذن لك . . في البلاد حرب اليوم ، والطرق
غير امينة ، وانا لا اقدر ان احملك .

فقلت وكاد يملكني الغيظ : اسمع يا رجل ، قد ننازلت في العاصمة وفي الوزارة
الخارجية عن حقوقي كلها . ولا اسألك الآن غير كتاب تكتبه الى الحاكم تعرفني
اليه وتقول له اني ابغي مقابله . فكتب القنصل الكتاب في الحال ولكن الحاكم
ابطأ في الجواب كما ابطأ في اعادة الجوازات .

جاءني القنصل صباح اليوم الثالث وفيه بعض الاضطراب يقول : لست ادري ما السبب في التأخير ولكنني اجتمعت في النادي مساء البارح بالمعاون الاول . تعال تزوره الآن . فذهبتنا الى دار الوكالة فاستقبلنا معاوناً قائلاً للقنصل : قد كتب اليك الجنرال وعين هذا اليوم للمقابلة . وتلطف حضرته بان قابلنا في تلك الساعة . دخلنا الى مكتب الجنرال سكوت^(١) وكيل بريطانيه العظمى والحاكم المدني والعسكري في عدن ، فاذا هو كهل طويل القامة طلق الحيا . صالحنا وامر بالجلوس فجلس معنا المايجور ريلي معاونه الاول . وكانت القنصل اول المتكلمين . ثم قال الجنرال يخاطبني : قيل لي انك شاعر . فقلت : صدق من اخبرك . فضحك وتبع الموضوع فكان الحديث في شعراء العرب والعجم . فذكر الجنرال عمر الخيام ، ورجال الجندية يعرفونه ويعجبون به اكثر من سواهم لانه بشير الخمر واللهو والغنا . ثم قال : اما الشاعر الذي ترجمته الى اللغة الانكليزية . . . فساعدته في لفظ اسم ابي العلاء المعري . وقلت كلمة اجابة لطلبه في الفرق بين الشاعرين : فلسفة المعري عقلية وفلسفة الخيام محض حسية .

عجبني من الجنرال انه لم يفاجئني ، فيجبني ، كما يفعل متوظف اميركي ، في الحديث عما ابغى منه . وكان في ذلك اشبه بمتوظف شرقي . ولا عجب وهو من رجال حكومة الهند خدم بلاده هناك عشرين سنة . نظرنا من الشعر الى العقائد الدينية ثم الى السياحة فجهرت بقصدي فقال : او لا تهلك الاخطار ؟ فقلت : هي لذة الاسفار . فقال : ولكن في السفر الى اليمن خطراً اكيداً ، خطراً كبيراً على المسيحيين . ونحن لا نستطيع ان نحميك في ما تجاوز حدودنا . فقلت : باحضرة الجنرال ، هذا انه لي وقد غسل يديه مثل بيلامس في قديم الزمان . وانا راض بذلك . فاذا كنت لا اطلب الحماية من حكومتي أيجوز لي ان اطلبها منكم ؟ . . . اني مسافر الى صنعاء باحضرة الجنرال

(١) Maj. Gen. T. E. Scott, C. B., C. I. E., etc.

وليس لي مهمة سياسية . لا علاقة لي بآية حكومة من حكومات العالم . الا اني احب العرب ، وانا اصلاً منهم ، واحب في سياحتي ان اخدمهم ما استطعت . فاذا تأكدت بعد البحث والمشاهدة انهم في حاجة الى مساعدة انكثرت انصح لهم بالتفاهم واحثهم عليه . واني اجهر امامك وامام قنصل اميرك بذلك لعلني انا كحكومة وكأمة لا يهتنا اليمن ولا مطاعمنا في البلاد العربية . فاذا كنت استطيع ان اخدم انكثرت في ما اعتقده نافعاً للعرب افعل ذلك مسروراً ومجاناً . لا اسأل كمكافأة غير الاذن بالسفر الى صنعاء . واذا مهدتم لي السفر الى نجد كذلك اكون لكم شاكرأ وفي ما فيه مصلحة العرب خادماً اميناً .

فقال الجنرال : لا دخل لحكومة عدن بنجد . اما السفر الى صنعاء فهو كما قلت محفوظ بالاختار وخصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين . فاذا اذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود .

فقلت : وهل تريد ان اكتب لكم صكاً انازل فيه عن حقوقي بل عن حياتي ؟ فضحك ، ثم سكت ، ثم وقف قائلاً : سأنظر في الامر واكتب اليكم قريباً .

وقال القنصل عند خروجنا من دار الوكالة : يظهر ان الجنرال يعرفك وسأبحث لأعرف بعض ما يعرفه او يظنه غير ما سمعناه الآن . وما كان موافقاً او مبطلناً . فأوقفني في اليوم التالي على ما كنت اجهله من غرائب الامور التي اصبحت في البلد حديث الناس .

اولها ، اني رسول الملك حسين السياسي الى الامام يحيى . والبرهان على ذلك رفيقي الملازم في الجيش الحجازي . فكيف يأذن لنا الانكليز بالسفر الى صنعاء . وهم لا يرتاحون الى عقد معاهدة بين الملك والامام .

وثانيها ، اني قادم من اميرك من قبل بعض الشركات المالية ابغني امتيازات من حاكم اليمن . والبرهان على ذلك اهتمام القنصل بامري . فكيف يأذنون بالسفر

الى صنعاء وهم المنافسون ؟ فاذا كان هناك من امتيازات ، فانما يبغيونها لانفسهم ؟
وثالثها ، اني ممثل حزب النهضة العربية في مصر وقد جئت سائحاً في البلاد
ابث هذه الفكرة فاستثير العرب على الانكليز . والبرهان . . . سبقنا في البرق
الى عدن .

فهل يستغرب الترويع بعد ذلك ؟ وهل يستغرب صدور الامر الى ادارة
الشرطة بمراقبتنا انا ورفيقي ؟

ولى الاسبوع وانا انتظر واحاول في الظنون التثبت والانصاف . وكنت
اثنا ذلك طلبت ان ازور السلطان عبد الكريم فضل سلطان لحج واراد القنصل
مراقبتي فقيل لي : ينبغي ان اكتب الى سموه وان استأذن كذلك الانكليز .
فكسبت الى سمو السلطان والى معاون الحاكم فجاءني الجواب من الاول مؤهلاً
مرحباً ، وجاءني ورفيقي بواسطة القنصل اذن من الثاني مصحوب بكتاب يقول
فيه ان الجولان خارج حدود لحج محظور وممنوع . وان السفر بدون حرس
لا يكون ، وان امر الحرس « منوط بهذه الدائرة » اي دائرة الحاكم . اظنه
خاف ان نساخر من لحج بدون اذن منه ونستغني كذلك عن الحرس . على اننا
والحق يقال بننا والخطر الاكيد احب اليانا من الترويع والقيود .

دفع القنصل الكتاب اليّ وحذرتني من اولئك العرب الذين يتكلمون
اللغة الانكليزية : اكثرهم يزورون المايحور رهلي بعد ان يزوروك . ثم قال : ويظهر
ان اعتراض اصحابنا على رفيقك اشد من اعتراضهم عليك . فأكدت له ان رفيقي
صديق قديم وان لا صفة له رسمية في هذه السياحة ، وانني ارفض الاذن بالسفر
اذا صدر باسمي فقط .

بعد ثلاثة اشهر ابي بعد رجوعي من صنعاء عرفت السبب في ابطاء سعادة
الجنرال الحاكم . فقد اضطره امرنا الى مراجعات كثيرة طويلة بعيدة اتصل
بعضها بوزارة المستعمرات بلندن ، وبوزارة الخارجية الاميركية بواشنطن .
ومن هو امين الريحاني ؟ وهل يؤذن له بالسفر الى صنعاء ؟

عند ما رأت الوكالة البريطانية ان لا بد من الاذن اتخذت خطة اخرى
 فسعت بواسطة اصحابها ، ومنهم اولئك العرب الذين يتكلمون اللغة
 الانكليزية ، ان تقنعني بان السفر الى صنعاء من الحديدية هو اسهل طريقاً واقل
 خطراً . وقد ارادت بذلك ان ازور اولاً صديق الانكليز السيد الادريسي
 فاري في تهامة ما قد يقيني عن زيارة خصمهم حضرة الامام . فرفضت بتاتاً
 وكتبت الى معاون الحاكم ، جواباً على ما جاءني في كتابه الى القنصل ، اسأله ان
 يتفضل فيرفقنا بالحرس اللازم الى حدودهم اي الحدود التي تنتهي عندها حمايتهم .
 فجاءني منه جواب يقول فيه : قد كتبت الى سلطات الحج بخصوص طلبكم
 وسأعلمكم بما يجدي .

اف عند هذا الحد في القصة لارجع الى مصدر اخر من مصادرها الغربية .
 بعد ان زرت الوكالة البريطانية رحمت اقصدا الى وكالة اخرى سياسية . يمت
 في ثم البركان ، في عدن القديمة ، ومعني رفيقي فلسطينيين ، بيت القاضي عبدالله
 العرشي وكيل حضرة الامام يحيى وسفيره الى الانكليز في عدن . فلما وصلنا الى
 دار السعادة اليمانية بادر الى استقبالنا عند الباب رجل صغير نحيل في قميص من
 القطن قصيرة ، تحتها قميص اخرى من الصوف زرقاء وفي رجله الخف ، وعلى
 رأسه ، وقد نزع العمامة ، طاقيية بيضاء . هو القاضي عبدالله سفير الحضرة
 الامامية .

جلسنا على سجادة صغيرة في زاوية من غرفة تكاد تكون عارية وكان الى
 جانب مسند القاضي عدد من الجرائد المصرية والسورية وفيها جريدة
 نيويورك اشار اليها فضيلته قائلاً : نعم الغيرة غيرة ابناء العرب في اميركه على
 الوطن واللغة . ولكنني اقف حائراً في مطالعتي هذه الجريدة عند الفاظ فيها
 وتعابير ليست من العربية بشيء . أفلا يقرأون النحو واللغة على اساندة من
 العرب هناك ؟ اما هذه — اشار الى مجلة مصرية ، فاسلوها « ناهي »
 (جميل) . . . ومن الغريب يا حضرة الفيلسوف ان يوم وصلتنا برفيتكم من
 بورت سودان وصلت هذه المجلة وفيها مقال عنكم ، طالعناه والاعجاب بكم يسابق

الشوق اليكم . فشكرنا الله الذي حقق املنا باللقاء ومولانا الامام هو عالم كبير وشاعر مجيد . وعنده مكتبة من الكتب المخطوطة لا مثيل لها في البلاد العربية كلها يوم وصلتنا برفيتكم يا حضرة الكامل اشعرنا بالسلك (تلفراف) حضرة الامام . ومتى جاء الجواب نسارع اليكم به . نحن في خدمتكم . وهذا قليل تجاه من وقف نفسه على خدمة العرب

وفي اليوم التالي جاء فضيلته ، لابسا ثيابه الرسمية ، راكباً السيارة ، يزورني في النزول . وكان في معيته كاتب سره واثنان من العبيد . دخل احدهما عليّ يقول : مولانا القاضي . فلبست عقالتي وخففت الى استقباله . ولولا العبد المبشر بقدمه لما عرفته لاول وهلة . ابن القميص والطاوية والخف من هذه المطارف الفخمة التي جاء يرفل بها . وهذا البرد اليافي المخطط بالاصفر والاحمر وقد طرحه على كتفه كأنه رداء روماني . وهذه العامة العامرة الباهرة الالوان ، والسيوف يحمله بيده ، والجنبية في زناره . هوذا حقاً سفير الحضرة الامامية دام نصرها .

والغريب ان حضرة القاضي كان في تلك الزيارة رسمياً في حديثه كما كان في ثيابه . فما انعش لي املاً ، ولا قال انه زار كذلك صباح ذلك اليوم الوكالة البريطانية . فلا غرو اذا فتحت اذني لرواة الاخبار الذين قالوا انه راح يستشير الحاكم في امري ، وانه لا يقدم على عمل لا يستحسن في دار الوكالة ، وانه يقبض منهم ، لا من الامام ، المشاهرة . وقال بعضهم — بشئ المفسدون — انه يقبض من الاثنيين ، وانهم ، اي الانكليز ، اذا شاءوا ان يمنعوني عن السفر فلا يفعلون مباشرة اكراماً لتفصل اميرك ، ولكنهم يوعزون الى القاضي عبد الله بان يقول لي ان الطريق الى صنعاء محوطة بالاختطار ، فلا يستطيع ان يرفقني بالحرس اللازم ، وغيرها من الاقاويل . لله منسك ياعدن ما اكثرت الدسائس فيك والجواسيس .

جاء في بعد ايام كتاب من فضيلة القاضي « مجدداً للوعاد مؤكداً للوداد » يبشرني فيه بوصول برقية من حضرة الامام محبباً بالايجاب . ثم قال : فاي

وقت تريدون ان تسافروا عرفوني فأرسل معكم احد خاصتي الى امير الجيش في
مازبه^(١) واعطيكم كتاباً اليه فيكرم وفادتكم ويرفقكم بمن يقوم بخدمة تكم وحراستكم
الى السدة الشريفة . انتم منا وعلينا واجب الحب والاكرام . . .

وصلني هذا الكتاب وانا في لحج ضيف سمو السلطان عبد الكريم فضل
انتظر الفرج من الوكالة البريطانية . وكنا ، على جميل ضيافة سموه وحفاوته بنا ،
في حالة تعددت همومها . فقد مرض اولاً الرفيق قسطنطين بالحملى ومرضت
انا بـ « القال والقيل » وكان داء الجدري متفشياً في البلد تخفت ان يكون قد
اصيب رفيقي به . واطلعتني السلطان ذات ليلة على كتاب من الخايم : لا تأذوا
لفلان وفلان ان يتجاوزوا الحدود قبل ان يجيئهم الاذن منا . فاذا تمثل القارى .
تلك الحال ، وقد بقينا اسراء في القصر بلحج ، بدرك شيئاً من مروري بكتاب
القاضي عبدالله العرشي .

اسرعت باعلام القنصل فراح الى دار الوكالة يسألهم البت في الامر . ومرت
خمسة ايام حسبها خمس سنين وانا اجتهد ان اكون محسناً بالانكايظ الظن .
ولكنني سئمت التسويف والمماطلة ، ونفرت من الاثرة في امر اربعة اخماسه بيد
سوامم حقاً وعملاً . ولو كان كله موكولاً اليهم لما كنت ألوم . فها ان صاحب
البلاد يرحب بنا ووكيله في عدن يعدنا بما يلزم من الخدم والحرس في الطريق
من ماويه الى صنعاء . والسلطان عبد الكريم ، رغم رسائل الوكالة ، يرفقنا
ساعة بشاء بحرس الى حدوده . وانا ورفيقي ، وحياننا على كفنا ، مكنتفيا
بهذه الضيافة .

— واذامت بامولاي (كان السلطان عبد الكريم يحاول تسكين خاطري)
اموت والله في حبيكم ، في حب العرب .

(١) هي عند حدود اليمن الجنوبية وعلى مسافة خمسة وسبعين ميلاً من عدن

فضحك سموه وامر لي بمداعة (١) وامر كاتب سره ان يكتب الى الحاكم
في عدن يقول انه مستعد ان يرفقنا يوم نشاء بالحرس الى ماويه . فجا في والحمد
لله بعد يومين الكتاب التالي :

دار الوكالة . عدن . في ٥ نيسان سنة ١٩٢٢ رقم ٣٩٥

الى المستر امين الريحاني -

ايها السيد العزيز :

قد كتب الحاكم الى سلطان الحج يسأله ان يرفقكم انت وقسطنطين
بني بالحرس الى حدود حمايتنا عندما تزمعون الرحيل . ولكنه رغب
الي ان اعلمكم بان البلاد في اضطراب ، وان في السفر فيها خطراً على
المسيحيين ، وانه وان كان قد سأل السلطان ان يرفقكم بالحرس الى الحدود
فلا هو ولا السلطان بضمنان لكم السلامة . وليكن معلوماً لديكم بان
الحاكم غير مسؤول البتة عما يحدث لكم في ما دون حدود المقاطعات
المحمية .
لكم باخلاص

ب . م . م . ر . بيلي

المعاون الاول للحاكم بـعدن

ذكرني هذا الكتاب بالكلمة الاولى التي قالها القنصل لي : قد يقطع رأسك
ولا أحد يسأل عنك . . . وكنت قد تركت عنده من امتعتي ما لا احتاجه في
السفر الى اليمن ، واعطيته عنوانين . في بيروت وفي نيويورك . لينعيني في الاقل
الى اهلي .

لست ادري وانا اعيد ذكرى تلك الايام ما الذي تغلب في على ذلك
الترويع اذا لم يكن ثباتي على احد امرين وهما ثقتي التامة باخواني العرب
وعزمي على انجاز ما باشرته من السياحة العلمية . نعم قد كنت مزوداً

(١) تدعى النارجيلة في اليمن مداعة واظنها تحريف مداعة لفظاً ومعنى . ففي القاموس
المدعاة تفيد الدعاء الى الطعام وفي اليمن المداعة هي الدعاء الى الانس والسرور . وقد
قال الشاعر فيها ،
مداهني انيسي جليستي في وحدني
تقول في كركرها باقة غشني باللي

بكتب التوصية من الملك حسين . وقد رأى القارى ، في ما تقدم ماله من الاعتبار عند الانكليز الذين حارلوا ان يمنعوا صديقي عن السفر لانه في خدمة جلالتهم . واما اولياء الامر من رجال الامام يحيى فسيرى القارى ما لملك الحجاز عندهم من الاحترام .

اما الخطر وان جسمه الانكليز فقد كان والحق يقال في حيز البقين وخصوصاً في بلاد الحواشب ، احدى السلطنات الداخلة في حماية الانكليز ، الكائنة بين الحج واليمن الجنوبي . وكانت عساكر الامام في الزحف تلك السنة على المقاطعات التسع المحمية قد وصلت الى الحواشب ونكبت بهم ، فارسل الانكليز على اليابسين طيارتين رمتهم بالقنابل فتفرقوا وعادوا خامسين لذلك كان العداء لا يزال متمكناً بين الامام والحواشب . ولذلك اطلقوا الرصاص على رجال الوفد الياني عند ما مروا بارضهم قبلنا بشهر واحد في رجوعهم من الحجاز الى صنعاء . فماذا عسى ان يكون حفظنا منهم ونحن قادمون من الحجاز ووجهتنا الحضرة الامامية ؟

قيل لنا اننا اذا اجتزنا سالمين المسيمير ، عاصمة السلطنة الحوشبية ، نكون قد اجتزنا منطقة الخطر الاكبر في طريقنا . ولكن كلمة قالها القاضي عبداًه العرشي في صفته الرسمية — اذا لم يكن الامن موجوداً فنحن نوجده من اجلكم — وكلمة كتبها نظردان كل ما تهافت على آذاننا وتزاحم في قلوبنا من كلمات الترويع والتهويل . اما الكلمة التي كتبها الى حضرة الامام وقد اذن لنا بنسخها فاننا ندونها في هذا السفر لغرضين ، فيطلع القارى ، اولاً على اسلوب المراسلة في اليمن اليوم ثم على مثال من كرم الاخلاق وحسن الظن يندر في رجل لم يعرف عن المؤلف غير ما طالعه في مجلة عربية . قال عافاه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

امد الله مدة مولانا ، ومالك امرنا امير المؤمنين ، والحجة على الخلق
اجمعين ، المتوكل على الله رب العالمين ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته
يردد في كل وقت وحين .

و بعد فصدورها للسلام ، مقبلة بواطن الاكف والاقدام ، وهي لكم
صحبة السيد الماجد . . . امين الريحاني الذي فيه سبق الاشعار من
المملوك اليكم بوصوله الى عدن وقصده الوصول الى حضرتكم الشريفة
للسزاورة والمعرفة وتأدية ما معه من خدمة ونصيحة . وقد وجدته على جانب
عظيم من الحب والمودة للعرب ، ومن اللطف . . . وعرفت ان لا مانع من
توجهه الى حضرتكم . وكتبت في التوصية به وتسهيل سفره وحسن وفادته
الى امير الجيش سي ماوية ، حماها الله . وسيتضح لكم حسن نيته وما هو
عليه من المحبة والمودة للامة العربية كافة عند المواجهة . وربما تستفيدون
منه ومن نصائحه ومعرفته بالاحوال ما يكون فيه نفع الوطن وعمرانه .
وليس لمن مثلي ان يشير الى من مثلكم فقد نوركم الله بمعرفة كل شخص
فتعطونه حقه وفوق حقه . وفي هذا كفاية . والله تعالى يصلح بكم جميع
الامور والسلام عليكم .

في ٨ شعبان المعظم سنة ١٣٤٠
من المملوك
عبد الله العرشي

قبل ان اختم هذا الفصل المؤلم المفكك معاً ينبغي ان اسجل على اولياء الامر
فعلة قد يفيدهم نشر خبرها . عند ما صدر الاذن بسفرنا استخدمت الوكالة
البريطانية رجلاً عربياً ليرافقنا سراً في رحلتنا الى صنعاء فيتمجس اخبارنا ،
ويدون احاديثنا كلها . واعطته الوكالة كتاباً محتوماً ليفضه بعد ان يخرج من
الخج ويعمل بموجبه .

ولكن الرجل تاب في آخر ساعة الى ربه وأبى القيام بتلك المهمة . زد على ذلك انه فض الكتاب في السوق بعدن واطلع بعض التجار على ما احتواه . سمعنا في الحرب العظمى بالغريب الفظيع من اخبار الجاسوسية ، وهذا بعد الحرب الغريب المضحك منها .

الفصل الثاني

في الطريق الى صنعاء

حدود لحج — الحواشب — اجسام العرب — وادي دَبَن — جبل وروء —
 حديث الولد الجندي — الخندق — ابن السلطان بلائنا مرحباً — القصر
 في المسيبر — العشاء — السلطان علي بن مانع — اعداؤه واحزانه — اخلاصه
 للانكليز — راتبه الشهري — « عند الانكليز مال وحكمة » — صباح غير
 مبارك — رمي الفخار على رجالنا وهم يحملون — « هم يطردوننا ، جعلوا
 بالرحيل » — اصلاق البنادق والفتور — السلطنة تكرم الضيف — ماوية —
 الزبود — جيش الامام النظامي — السيد علي بن الوزير امير الجيش —
 مجلس القات — « هل انت حسبي او حسبي ؟ » — وجاءنا الفرج في بيت
 من الشعر — الملك حسين واولاده .

ركبنا قبل انبلاج الفجر سيارة صغيرة وخرجنا من لحج نبغي الدكيم التي
 كانت يومئذ حدود السلطنة للحجبية شمالاً وفيها حامية انكليزية من الهنود .
 وكانت الحملة قد سبقتنا اليها ومعها الحرس يركبون الهجن ، ورسول القاضي
 عبد الله العرشي الى امير الجيش ، وبعض المسافرين الذين احبوا ان يرافقونا .

وكان في الدكيم ايضاً عشرة جنود من جيش سلطان الحواشب علي بن مانع ،
 جاؤوا بامر منه يستقبلوننا ويصحبوننا في بلادهم . والحوشي لا يثقل نفسه بالعدة
 والثياب . ليس في العالم جندي اخف منه حملاً ، وأشد منه بأساً . ولا اظن
 ان في جنود الامم المتعدنة اجساماً مثل اجسام العرب في اليمن الاسفل . هالك
 الحوشي مثلاً وجلده الاسود او الاسمر يلمع في نور الشمس كالنحاس المصقول ،
 وعضلاته الشديدة المقتولة لتخرك كالاجزاء الدقيقة في آلة كهربائية ، وقامته
 المتناسقة الاعضاء تسر بالعري فيكتفي بالفوطه بشدها على وسطه ليستر بها
 عورته — هوذا معرض محاسن من صنع الله تمتع به ناظريك اذ يشب صاحبه ،

والبنديقية على كتفه والامان في قلبه ، كالغزال الشارد امامك .
 من هؤلاء الحواشب ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة مشى الى جنبي وهو ينظر
 الي من حين الى حين كأنه ينبغي الحديث . مرنا في وادي دُين ، وهو طويل
 يتصل شمالاً بمدينة اب ، والشمس حتى في نيسان تشوي الضب . وكنا بدأنا
 في التصعيد ، فترأى لنا خيال اسحم على الافق البعيد ، فوق قنن من الجبال
 كثيرة . فهتف الجندي الصغير قائلاً : هذا وروه - جبل وروه - تراه من
 عدن وستراه غداً من ماويه . لم اتأكد القسم الاول من مقاله لاني لم اهتم وانا
 في عدن بالجبال . ولكنني تأكدت المبالغة في القسم الثاني منه . رافقنا وروه
 يوماً واحداً وغاب عن الابصار . وكذلك الجندي الصغير الذي تأسفت على
 فراقه . كان يحدثنني وهو ينقل البندق لثقله من كتف الى كتف ، ويمشي على
 بؤس حاله سامد الرأس .

— العفو يا امير حضرتك من الشام ؟ اجبته بالايجاب .
 — وهل راضية الشام بالسلطان ؟ اخبرته بان حكم السلطان فيها قد انتهى ،
 فما سره الخبر ، فقال : السلطان رجل طيب يا امير ، ما فيه شر .
 سألته : وهل تحب الاتراك ؟ فهز رأسه وأشار بعينيه ان نعم ثم قال : سعيد
 باشا^(١) رجل طيب . كنا في ايامه مستريحين ، وكانت الظلظ^(٢) كثيرة . اما
 الآن يا امير فلا سعيد ولا ظلظ . انظر الى ذاك الجبل . وراه الصبيحة أشرف
 العرب . وهم دائماً يمتدون علينا نحن الحواشب المحافظين على الامن . الحوشي
 فقير ولكنه منيع ، ورفع بندقيته مشيراً اليها ، ثم قال : سلامة القوافل في يده .

اما الصبيحة يا حضرة الامير فهم يحاربوننا لانهم لا يحبون الامن . ونحن
 نهجر حقولنا ومواشينا ورزقنا لنحمل هذا البندق ، لنوجد في البلاد الامن
 للعباد ، وحضرة الامير - العفو - لا يقدر ان يسافر وحده ، لا والله . بنادقنا
 وحياتنا ملك السلطان ، وهي الآن تحت امر الامير . هل انتم تحكمون في بلادكم ؟

(١) علي سعيد باشا الشركسي كان القائد العام في اليمن اثناء الحرب
 (٢) الظلظ اي النقود الذهبية والفضية

- قلت له ان اسمي امين لا امير ، واني محكوم مثلكم لا حاكم .
 — ومن يحكمك يا حضرة الكامل ؟
 — يحكمني الان الانكليز . هل تحب الانكليز ؟
 — يقول السلطان ان الانكليز ما فيهم شر .
 — وهل الحواشب يحبون سلطانهم ؟
 — اي والله نجبه ، علي بن مانع رجل طيب ، ما فيه شر . ولكن من هو الحوشي وما هي اهميته ؟ البندق على كتفه ، والموت قدامه ، ولا يعرف في الليل اذا كانت تشرق عليه الشمس .
- مرنا في الوادي وادي دُبن والجبال حولنا وامامنا تمنع عنا الهواء ولا تقينا حر الشمس ، فوصلنا الظهر الى الخندق وهي قرية خيامها من القش والغرف ، فيها سمرة^(١) للقوافل والمسافرين . فاسترحنا هناك ساعة الغداء ، وارسلنا هجانا يحمل منا كفة سلام الى سمو السلطان علي وينبئه بقدمنا .
- استأنفنا السير بعد الظهر فالتقينا في نصف الطريق بين الخندق والمسيمير بفرقة اخرى من جيش السلطان ، يتقدمها ابنه الصغير راكباً جواداً رائعاً . جاؤوا من قبله يلاقوننا ، فدوت في ذلك الوادي اصوات البنادق ترحيباً . اطلقوا ثلاث طلقات فاجبناهم بمثلها ، ورحنا وابن السلطان يتقدمنا ، ورجله الخافية في الركاب ، ويده اليمنى على عمامته الكبيرة الرفيعة ، الطويلة الذؤابة الكثيرة الالوان كأنها عمامة العيد ، ترقص فرحاً على رأسه ، وهو على ظهر الجواد اثبت منها .
- وصلنا عند الغروب الى قصر السلطان في المسيمير ، وهي قرية بيوتها من الحجر واللبن قائمة على ربوة خضراء ، ينساب عند سفحها في وادي دُبن سلسبيل فضي ، الى جنبه الحقول المزروعة وهي تشعج حول اكواخ من القش . ان الجمال الذي يجلب المكان لينبيء بالسم القروي ولكنه مفقود . فلا في سلطنة ابن مانع وجدناه ولا في قلبه . ومن المسؤول ؟ سيجيب
- (١) الخان في اليمن يدعى سمرة والقهوة مقهابة

السلطان على سؤالنا . هذه جنوده تطلق البنادق ثانية ولاء لاعداء ، تأهبلاً لا تهويلاً .

دخلنا الى بيت في القصر أعد للضيوف . وبعد قليل جاء سموه للسلام ، يتبعه الخدم وبين ايديهم اطباق الطعام : خبز بسمن وسكر ، ومرق وبرغل ولحم وعسل . فجلسنا في حلقة على الارض نطبخ بايدينا الزاد . وكأنت السلطان ، وهو ينظر الينا ، أعجب بسني البرغل سفاً فقال : انت منا يا امين ! انت والله منا

كان السلطان علي فخيراً كالخيال ، عصبي المزاج ، حاد الطبع ، حمر الكلمة . حدثنا بعد العشاء عن احواله قال : انا بين اربعة يا امين ، والاربعة بقصرون حياتي ^(١) هذا ابني وهذه لحيتي البيضاء . هو ابني الوحيد يا امين ، ولصني اذبحه والله ولا اسلمه رهينة لاحد ^(٢) اما الاربعة فالواحد منهم فوق ^(٣) يشهر علينا الحرب لاننا هادئون ساكتون لا نعتدي على احد . والآخر تحت ^(٤) يغزونا لظنه اننا اغنياء وان خزنة الانكليز تحت امرنا . والثالث هناك ^(٥) لا يخاف الله . والرابع ^(٦) عدونا اليوم ، صدقنا غداً ، لا نعرف والله متى ينقلب ولماذا ينقلب ! وعلينا ان نحاربهم كلهم . وانا والله نحاربهم يا امين ، ونحاربهم حتى نقتلهم او يفتنونا لا والله . لا نأخذ من القوافل الا مجيدياً واحداً على كل حمل . والامام يأخذ مجيديين وصاحب لحج يأخذ ثلاثة .

— وكم تأخذون مشاهرة من الانكليز ؟

نظر السلطان علي اليّ ويده على لحيته ، وثلاثة اصابع من الاخرى مرفوعة ، وقال ثلاثئة روية وهي والله غير كاملة . يدفعونها لنا كل ستة اشهر ولا يدفعون غير الف وستمئة روية . احسبها . وعلينا ان نوّمن للقوافل الطرق ،

(١) قد توفي في السنة الماضية رحمه الله اي عام ١٩٢٣ (٢) يشير الى الرهائن التي يأخذها الامام يحيى من عماله وسبغى ذكرها (٣) اي امام صنعاء الامام يحيى (٤) اي حرب الصيعة (٥) اي عرب الضالم جيران الحواشب شرقاً (٦) اي سلطان لحج

وان نطعم اهلنا ورجالنا ، وعندنا قبائل يذكروننا حين يجوعون وينسوننا حين يشبعون . الانكليز ضرورة يا امين .

قلت : ولو دفع لك الامام مشاهرة مثل الانكليز اتركهم وتواليه ؟
فاجاب على الفور : لا والله . انا متعاهد والانكليز فلا اخلف . وسأبقى صديقهم دائماً . اي والله . الانكليز يا امين يعقلون . عندهم حكمة كما عندهم مال . نعم هم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان . ولكن القلب يعرف الاخ يا امين والسياسة لا تعرف غير الضرورة .

ان الحواشب مثل الشوافع في اليمن وعسير يكرهون الامام ، لا لانه عدوهم في الحرب فقط اي في ضرورات السياسة ، بل لانه عدوهم كذلك في الدين ، وفي المذهب . هو زبدي شيعي ، وهم سنيون .

ودعنا السلطان تلك الليلة شاكرين له حسن الحفاوة والضيافة واعلمناه اننا سننهض باكراً للرحيل ، فلا نكلفه مشقة القيام مثلنا ليودعنا ثانياً . وفهمنا منه انه قبل بذلك . الا اننا في صباح اليوم التالي ، بينما كان المكارون والخدم يحمّلون دهشنا بل ذعرنا لحادث فيه منتهى الغرابة . كنا مقيمين في جناح من القصر قبالة الجناح الذي يسكنه الحريم ، وبيننا الحوش الذي كانت فيه الركائب والخدم ، فسمعنا بقتة ان انا من الفخار تكسر فيه ، فظننا انه وقع من السطح . ولكن انا اخر تبعه — رأينا يرمى من النافذة ولم نر الرامي — فاصاب احد العساكر فرفع صوته شاكياً . ثم جفنة ، ثم قطعة اخرى من الفخار تحطمت بين اقدام البغال ، فعلت الضجة في الحوش وسمعنا رجالنا يصيحون : هم يطردوننا ، عجلوا يا ناس ، هذه ضيافة ابن مانع ، عجلوا بالرحيل .

خرجت وقسطنطين مسرعين فركبنا وصرنا نتقدم الجملة . نزلنا من الجبل الى السهل فالنهر وقلبنا — اقول قلبي ولا انهم رفيقي — يمتلج حنقاً ورعباً . ظننا اننا بعدنا عن الخطر وعن ضيافة صاحب السمو الحوشي عند ما وصلنا الى النهر . ولكننا قبل ان اجتزناه سمعنا اصواتاً لنادي : قفوا ، قفوا . فلم نقف ، فاطلقوا اذ ذاك البنادق طلقات متعددة ، فقلت لرفيقي : هوذا الخطر الذي

نتوقعه . دنت الساعة يا قسطنطين ، قف واشهر سلاحك .
بعد قليل قرب القوم منا فاذا هم خدّم السلطان يحملون على رؤوسهم
الاطباق ومعهم بضعة عساكر . جاؤونا بالفطور ! اي بالله . كيف نساغر قبل
ان نغفر ؟ وكيف نساغر قبل ان نودع السلطان الذي نهض باكراً للوداع ؟

سألناهم عن الفخار الذي رمونا به ، فاخبرونا ان السلطانة ، وهي في خدرها
رأثنا من على السطح في اهبة الرحيل ، فنهضت كذلك باكراً من اجلنا .
فاردت تنبيه الخدم النائمين في الطابق الاسفل ولم تشأ ان نسمعنا صوتها او
ترينا من النافذة وجهها فرمتهم بالفخار تستفيقهم لينهضوا ويهينوا لنا الطعام .
الضيوف ، انهضوا للضيوف ، والحقوم بالفطور ، واطلقوا الرصاص اذا كانوا لا
يقفون .

اكثّر الله ايها السلطانة من فخارك ، وجعلنا السنة فخارك . انك في
الضيافة شاعرة الاقران ، وفي البلاد العربية فريدة الزمان . كيف لا واثق
السيف في اكرام الضيف . تضر بين من اجلنا الكسل ، وتلحقينا بالعلم .
تروعين ايها الحوشبية الاملية ولا تجوعين . قد كنت حديثنا وموضوع
اعجابنا حتى في بلاد الزيود ، التي تسي المرء الحبيب والمعبود . وقد تسي الغربية
الجديدة ، غرائب عديدة ، كما حدثت في ماويه اول بلد من بلدان الزيود^(١)
شمالي عدن .

دخلناها في اصيل ذلك النهار وهي مثل المسمير محتبثة في الجبل وراء الوادي
الذي اجترناه . فشنف اذاننا لما كنا مصعدين اليها صوت كان وقعه جميلاً في
ذاك الوادي الموحش وفي تلك الساعة . فاستأنسنا به ايما استئناس . كنا عند
حدود الامام عدنا الى المدينة والنظام . ولما بلغنا رأس العقبة رأينا على سطح

(١) الزيود ينتسبون الى زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن ابي
طالب وهم وان قالوا في المفرد زيدي لا يقولون في الجمع زيديون بل زيود كما هم
تريدون بذلك ان زيدياً متجسد في كل واحد منهم وان امتهم امة الزيود .

من السطوح صاحب ذلك الصوت ، وهو جندي يسده البرزان (البوق) ينفخ فيه مرحباً بنا باسم امير الجيش .

وكانت فاتحة الاطاف . فلما دنونا من القصر سمعنا الموسيقى العسكرية تعزف بنشيد اليمن الوطني ورأينا فرقة من الجنود النظامية مصطفة خارج السور لاستقبالنا وعلى رأسها ضابط تركي ، فترجلنا نرد السلام ، ودخلنا البوابة الى الحوش بين صفوف من العساكر المسترسلي الشعور ، اللابسي القمصان والعائم المصبوغة بالنيل ، المسلحين بالبنادق والجنديات . وعندما وصلنا الى الباب يتقدمنا كاتب سر الامير واثنان من رجاله ، اوقفنا الحارس هناك ونادى بكلمة حارساً آخر داخل القصر فجاء الجواب مؤذناً بالدخول .

دخلنا وكانت بداية الرعب والكرب ، سعدنا في درج لولبي مظلم ، ذكرتني درجاته بدرجات الهرم الكبير ، كل واحدة منها دكة ، وعلى كل دكة واحداو اثنان من ذوي الشعور الطويلة ، والثياب المنيلة ، التي تفوح منها رائحة النيل الطري السائل كذلك على اجسامهم ^(١) كنت وانا اتلمس طريقاً تمثل القلعة بل السجن في ذلك القصر واتصور نفسي اسيراً فيه ، فجاء الاضطراب مع التقزز يفسد علينا بهجة الاستقبال العسكري ، وماهي الا فاتحة الكرب ، فمندما وصلنا الى الطابق الاخير اوقفنا الحرس ثانية امام باب صغير ، ثم دخلنا فاذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة الا واحدة منها ، ودواؤها وقد امتزج بالدخان كثيف فاسد ، وارضها مفروشة بالقش والحشيش ، والى جانب الاربعة الحيطان عمائم بيضاء كبيرة ، اصحابها جالسون على الارض صفوفاً ملزوزة ، وكأهم في

(١) هم يفسون ثيابهم بالنيل ويلبسونها قبل ان تنشف ليسيل الصباغ على اجسامهم ويدخلها فيسد المسام من الجلد ويقهيم حسب اعتقادهم من البرد . وقد قيل لنا ان عساكر الامام وكثيرين من اهل اليمن يقتبلون لا اتقاء للبرد بل حداً على الحسين . علي ان الوهم في هذه العادة اصح من التقليد كما يظهر لان السادة وهم اولى بالحدا لا يتألمون ثيابهم .

تلك الساعة يمضغون القات بل يخزنون^(١) وفي الزاوية عند منضدة صغيرة ، الى جنبها مداعة ، بين اكمة من الاوراق ورزمة من القات ، رجل صغير المنكب والعمامة حاد النظر واللسان ، ناصع الجبين والبيان ، قدمنا اليه كاتب الاسرار ، فعرفنا انه السيد الامجد علي بن الوزير امير جيش الامام في لواء تعز .

صاحناه وهو جالس كأنه احد ملوك اليمن في الزمن الغابر السعيد ، فاشار الى قتر من السجادة حشرنا فيه بين شيخين هائلين ، وكان كل من اولئك الاجلاء المحترمين بنظر الينا شمرراً كأنه يلتمس لنفسه عذراً من مجرد النظر . وما اظن اننا ظفرنا بشعاع من العطف في تلك العيون ولا فزنا بنظرة واحدة فيها شيء من الارتياح او التساهل .

بعد ان سلحنا على الامير قدمنا له كتاباً من القاضي عبدالله العرشي وفيه

(١) ساعة القات عند اهل اليمن مثل ساعة الشاي عند الانكليز . ولكن القات غير الشاي . القات حشيشهم واقبوسهم والمسكر عندهم وهم يدمونه ادمان الاوروبيين الخ . قال شاعرهم العامي :

زمرداً يقطف الاصحاب اوقانا يصفوه العيش احبائنا واوقانا
يا عاذلي عن حصول القات متكدأ لا تترك القات احباء وامواتنا
وقال في مدحه الشاعر المتصوف :

براك معراج قلبي حين يصعدني جبريل روعي الى اعلى سماواتي
ان في القات علي ما يظهر خاصة الحشيش الاول اي الكيف ، وشيثاً من خاصة الاقيون المغدرة ، وبعض ما في المسكرات مما ينبه الفكر . وبكلمة اخرى هو بطرب النفس ، ويخدر الحواس ، ويشد الذهن . بل يبعث على اعتقاد اهل اليمن ، في صاحبه النشاط فقبوبه على السهر والعمل في الليل . قد تحققت بنفسي انه يؤرق ، ويحدث في المعدة ييوسة واقباشاً وفي الفم جفافاً وعفوسة مثل البلوط فيطلب صاحبه الماء دبيراً . ولكنني لم احس بشيء من الكيف اي خفة النفس . ولم ينبه الفكر الى غير الاوهام التي تستحوذ على الناس فتعمل بحكم التأثير الطويل المتوارث فعل الحقائق المعسوسة . قد يكون هذا وهماً مني لان تأثيره في من يستعمله مرة غير تأثيره في من يستعملونه دائماً . ويفضونه على خبز يومهم .

كل الناس في اليمن ، من رجال ونساء وارلاد ومن اغنياء وفقراء ، يأكلون القات - يخزنون . والتخزين هو ان تمضغ الاوراق مضغاً بطيئاً طويلاً كما يمضغ بعض الامبركيين التبغ ، ويحفظونها تخزينة « اي كتلة » في الفم بجزء ونهسا . ولكنهم لا يصقون مثل الامبركيين الا عند ما تذوب التخزينة فيصقون اذ ذاك في الماء من النعاس ما تبقى منها ويخزنون غيرها . ان يحس القات لا يتم غير اباريق الماء وكؤوس النعاس الجميلة الشكل الشبيهة بالكؤوس الذهبية التي تستعمل في الكنائس وقت القداس . اما الاغرب من ذلك فان اهل اليمن لا يشربون قهوة البن بل يكترون من قهوة قشر البن الذي يفلونه

يعرفه اما خطأ واما تطلقاً ، الى السيد (١) امين الريحاني ، فظنني حضرته مسلماً من اشراف المسلمين و اراد ان يعرف الى اي الفرعين انتسب ، فسألني قائلاً : هل انت حسني او حسيني ؟

وقع السؤال عليّ كالصاعقة ، فلبلب الغاظر مني لاول وهلة وعقل اللسان ، فجالت في ذهني بل جرت كمجرى البرق صور كلها سوداء تنذر بالبلاء . أفلم ينذرنا الانكليز بالخطر على المسيحيين ؟ افلم يحذرننا عرب عدن ولحج من الزيود المتعصبين ؟ وها نحن في مجلس اميرهم وعلماهم ، وفي قلعة ظلمايتها كظلمات السجن او اشد ، وروائحها مثل نظرات اصحاب العائم بل احده ، ولا نزال والحمد لله في بداية الرحلة ، وهل انت حسني او حسيني ؟

جاوب يا فتى . هل تكذب على الامير فتنتسب ، وما الحسن وما الحسين في مثل تلك الساعة ؟ اذ كراني في خمس لحظات غيرت ديني خمس مرات ، فكنت انتقل كالبرق من الحسن ، الى مارون ، الى الحسين ، الى دروين . اما اذا اكتشف الامير بعدئذ حقيقة دينك - اصدقه بالخبر يا رجل ولكن - هل تعلن امام هذا الجمع الزبدي الرهيب مارونيتك او مسيحييتك او دروينيتك ، قديوقفونك فيأسرونك ، يرجعونك الى حيث جئت ، هذا اخف ما في البلية ومن جهة اخرى اشدّها .

كاشاي ، فتنه البايونج لطمه بدون سكر وهو على ما اظن مفيد لانه يقاوم بعض المقاومة مفعول القات ويخفف من اضراره . لا ريب في ان القات مضر بالصحة والنسل . فهو يفقد المرء شهوة الاكل ، ويغسد اسباب الهضم ، ويحدث مثل الاقيونز شللاً في مجاري البول ، ولا يقوي الباه بل يضعفه .

ان اسمه العلمي (*Catha edulis*) وهو نبات شبيه بالطم الا ان شجرته صغيرة ، وورقه مثل ورق العفص ، يزرعه اهل اليمن في البساتين . مثل اشجار التمار ويبيعونه باسعار غالية اذا كان من النوع الجيد اي الرخص الصغير الاوراق . هم يقطفونه اغصاناً و يرسلونه الى المدن رزماً ملفوفة بالحشيش الاخضر ومربوطة بقشر الشجر . ثم يجيئون بالرزم الى المجالس ، مجالس القات ، فيفكونها ويرمون بالقشر والحشيش والفضبان على الارض . ثم يبدأون بالتخزين بعد ان يفتلوا الشبايك ويشعلوا المداعات (التراجيل) فتسفي الترة في تلك الساعة كقهوة الحشاشين في دخانها وكربوها ، وكالاصطبل في فرشها .

(١) لا يدعى سيداً في اليمن غير من كان من السلالة النبوية . وليس هناك غير طبقتين من الناس ، السادة وهم الذين ينتسبون الى الحسن او الى الحسين ، والعرب وهم الفلاحون البدو منهم والحضر .

جالت هذه الصور والسؤالات في نفسي ، جرت مجرى الكهر باه ، وانا اثناء ذلك اسير خوف اشد من خوفي ساعة اطلق الحواشب الرصاص ليوقفونا للفظور . وما خفت على حياتي خوفاً من تعرقل مسعاي — من الفشل ، من الرجوع الى عدن مدحوراً مذموماً . ولكنه سبحانه ، بعد ان غيرت فكري خمس مرات في خمس لحظات ، فتح علي قلبت مجيباً : انا عربي يا حضرة الامير ، احترم كل المذاهب الاسلامية ، واحب كل العرب ، واتمثل دائماً في مثل هذا الموقف بقول الشاعر :
ولكل ربع من ربوعك حرمة وهوى تغفل في صميم فؤادي^(١)
اظن ان الامير استحسّن الجواب او انه احسن امام العلماء المدارة . وكان من رجاله الذين استقبلونا خارج القصر رجل بش لقدومنا بشاشة الصديق فلمسنا القلب منه في سلامه وتبادلنا اياه الثقة والولاء . فقال يعقب على جوابي مخاطباً الامير : حضرته من سادات لبنان .

فبدت منه ، بارك الله فيه ، شارة القبول والاقتناع وغير الحديث دون ان يبعد كثيراً عن الدين . بدأ الامير علي وهو فصيح اللسان بخطبة رأسها النبي والاسلام وذيها اولئك الذين يفسدون بالبدع الدين . يتقربون حباً بالمال او السيادة من الافرنج ويدنسون الشرف النبوي بالنياشين الانكليزية . يوالون الكفار ويفتحون لهم حتى ابواب الحرمين . . . الى ان قال : الايمان بالله رأس الفلاح والصلاح ، والجهاد في سبيل الله واجب على كل مسلم سلم ايمانه . وفي سبيل من يجاهد الملك حسين واولاده ؟ في سبيل الله ؟ استغفر الله .

فتصدى فلسطينيين للدفاع عن الملك وقلت انا كلمة اثبت ما قال الرفيق في ما يختص برفضه المعاهدة مع الانكليز . ثم قلت وانا اتوق الى الهواء : قد يريد الامير ان يصلي المغرب . فاذن لنا بالانصراف وامر كاتب مره ورجاله ان يصحبونا الى المضيف وبعثوا بامرنا . صالحناه مودعين فلم يقف لنا ولا وقف احد من العلماء . في مجالس القات نقل الترهات .

(١) كل مرة اذكر هذه الحادثة اشكر صديقي الشيخ فؤاد الخطيب صاحب هذا البيت الذي فرج عني في موقف حرج جداً .

الفصل الثالث

اليمن الاخضر القديم

الطيارات - الفاتحة - الامام - وادي الذهب - وادي نخلان - قنبل -
 المحرس - نجد الاحمر - رباحين لبنان - جبل بعدان - ساحة الاستقبال
 موكب الزيود - اسماعيل باسلامه عامل ايب - مدينة قديمة عالية -
 وادي المرفد - شجر البن - قنبل سهاره - ثمانية آلاف قدم فوق البحر -
 قاع الحقل - يريم - الرهائن - ذمار - امير الجيش ابن الوزير الثاني -
 خطبته المدعته - « لا فسق في البلاد ولا زنى » - والزانية - حديث
 الجنود وشكواهم - رفيقنا السيد محمد - الغرض من زيارتي الامام - البيوت
 في اليمن وعسير - الوحشة والاستقلال

مشينا من قصر الامير الى قصر الضيافة ، بل الى قلعة اخرى عالية مظلمة ،
 وكل البيوت في تلك الجهات من اليمن قلاع وحصون ، فأزلنا في الطابق الاعلى ،
 في غرفة سقفا واطر ونوافذها ضيقة صغيرة ضاق منها صدري ، فهربت الى
 السطح ونصبت سريري هناك .

وكان كاتب سر الامير الاديب التركي ، الذي ادرك بعض ما في من
 الانقباض والاضطراب ، يحاول تسكين خاطري وتسليني بما قصه علينا من قصص
 الحيوانات المفترسة في اليمن الاسفل . فقلت له ، وانا احس ان الحيوان المسجون
 في تلك القاعة يشتهي القلعة : اننا نرؤم الوصول الى الحضرة الشريفة بامرئ
 ما يمكن ولنتمس من امير الجيش ، وان كان ذلك محلاً باداب الضيافة ، ان بسهل
 امرنا فנסافر في الغد . فوعدنا خيراً .

ثم جاءنا بعض وجهاء البلد زائرين وفيهم احد اقارب الامير يحمل البنا
 هدية من القات . فاستقبلهم الرفيق قسطنطين وحدثهم وناقشوا باهم في موضوع
 الطيارات . فقال ابن الوزير الاير : نحن لا نحشى الطيارات . نقرأ عليها الفاتحة
 فنسقط كالطير المذبوح الى الارض . فاحم القسطنطين ، وبادر الى القات
 شبكتف فيه اليقين . اما انا فاعتصمت بالسطح ابغى العزلة والهواء ، فصحبني

ذاك الفاضل الذي جعلني من سادات لبنان ، فشكالي اموراً وامرأ اخرى :
لا شك ان حضرة الامام رجل كبير قدير ، واكنه ظالم يرهق الرعية بالضرائب
المتعددة ، ولا ينصف السنيين الشوافع في بلاده ، ولا يحسن السياسة مع الانكليز ،
فقد استنزل على جنوده هول طياراتهم ، ولا يفتح المدارس في البلاد ، ولا يعزل
الظالمين من عماله مثل عامل هذا البلد ، ولا يجود بما رزقه الله وهو الغني الاكبر
في اليمن كله .

نمت تلك الليلة وانا افكر بالسلاح الجديد اي الفاتحة ضد الطيارات وبما
عدده الشافعي من سينات حكم الامام . فخلت حلماً غريباً عجيباً ما ذكرت منه
عند ما استفتت غير اني كنت والامام يحبي نظير في طيارة صنعت في انكلتره ،
وكتبت على جناحها فاتحة القرآن ، وتقتت على الواحها سورة التوحيد . فبأي
سلاح يا ابن الوزير تحارب طيارة المؤمنين ؟

سافرنا في اليوم التالي عند الغروب راكبين البغال بدل الطيارات ، مصحوبين
بحرس من جنود الامير المتيكة اثوابهم ، المدهونة بالسمن شعورهم . فتمنا في
ضوء القمر ساعة عادت فيها الي الاحلام ، وانا على ظهر الدابة شطران ،
شطر نائم وشطر يقظان ، فكانت تدور الارض تحتي بما فيها وتمر بي الاشجار
كأنها عرائس من الجن . وكنت اسمع القسطنطين يناديني فاظنه في قارة وانا
في اخرى ، ثم رئيس القافلة : هذه هي الطريق ، ثم احد الجنود : هداك الله
يا مقدم ، فيخيل الي اني في ارض غريبة الظل والسراب ، فيها اشباح لتكلم
كالعرب .

وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل وصلنا الى قرية تدعى الشيخ صلاح ،
فنزلنا هناك والتعب والجوع فينا بساوران النوم . فنام رفقائي في كن صغير لا
يليق في بلاد الله بغير المواشي — ما رأيت اناساً يخشون البرد مثل اهل اليمن —
ونمت انا في القلاة على سطح ذلك الكن ، ساعتين لاغير . ثم نهضنا قبل الطيور
نستأنف السير ، والتعب لا يزال حليف الجوع علينا .

فطرنا عند شروق الشمس ومرنا في ارض خضراء نفوح من ادغالها روائح

النبات الطيبة ، ومررنا بوادي الذهب ولا حيف بالاسم . فهو من اجمل الابدية
واخصبها في اليمن الاسفل ، تجري فيه المياه ، ويزرع ثلاثاً في السنة الواحدة .
رأينا الناس يحصدون عندما مررنا به في شهر نيسان^(١) ثم اجتزنا وادي نخلان
وفيه رأينا لأول مرة سلك التلغراف الذي يوصل تعز بصنعاء ، وصعدنا من
الوادي في تقييل^(٢) المحرس الى رأسه فاشرفنا منه على مشهد بهيج من السهول
المزروعة ، ومن القمم الخضراء والجرداء دون تلك السهول . ثم دخلنا في ما
يدعى « نجد الاحمر » وهي بقعة من الارض الحمراء صخورها تعلو اربعة الاف
قدم عن البحر ، فجف الهواء ، وبرد الماء ، وتعددت حولنا النباتات والرياحين
التي ذكرني بعضها بلبنان . فهوذا البيلسان وذاك اليانسون ، وفي تلك الادغال
شجيرات من البطم والغار .

عندما وصلنا الى اعلى درجات تقييل المحرس تراءى لنا منها جبل بعدان
ووراءه جبل حب اعلى وابعد منه ، وانكشف امامنا مشهد اخر من السهول
والهضاب ، في وسطها ، عند منحدر من جبل بعدان ، مدينة اب القديمة . التي
نساوى في علوها ووادي نخلان ، لاننا بدأنا في النزول اليها فوصلنا بعد ساعتين
الى ساحة تدعى عند اهل المدينة ساحة الاستقبال . هنالك يترجل المسافر اذا
كان معروفاً و ينتظر قدوم المرحبين .

ترجلنا طائعين ، وكان قد تقدمنا احد العساكر بنبي العامل بقدمونا ،
فبينا ننتظر « استقبالاً بليق بنا » كما قال رفيقنا رسول القاضي عبدالله العرشي .
وما عتمت ان تحرك الجموع وخرجت من المدينة ، فشهدنا عسكرياً زاحقاً
الينا وسمعنا اصوات الابواق والطبول . جاء العامل امماعيل باسلامه بخيله
ورجله ، وبجنده وجمعه ، وبنوته واهازيجه ، يستقبلنا ويرحب بنا باسم الامام .
وبعد السلام ركبنا وانخرطنا انا ورفيقي في ذلك الجمع المتيّل المهلل نحسب انفسنا

(١) من مزروعات اليمن الحنطة والشعير والذره والدخن والعدس والبطاطس والورس
والحلبة والقات

(٢) التقييل في اصطلاحهم هو العقبة او الطريق السالكة في الجبال العالية .

في حلم من الاحلام ، او في موكب من مواكب الجنان ، والجنود المسترسلون
الشعور ، المكحلون العيون ، المزينة عمائمهم بالورد والرياحات ، حولنا وامامنا
ينشدون بصوت جبلي رهيب :

يا من يخالف امر مولانا ويعصيه لا بد من يوم تراه
لا بد من يوم يشيب الطفل فيه والطير يرمي في سماء
دخلنا المدينة دخول الفاتحين ونزلنا على الرحب والسعة في بيت من
بيوت العامل اسماعيل ، المشهور في بلاد اليمن ، اعلاها واسفلها ، بكرمه
وقضله وعدله ، فتمتعنا ، بعد ايام من المشقة والشقاء ، بنواعم العيش وطيباته
ومثلا اسرعنا من ماويه ابطأنا في اب ، بلا حياء في الخابن . نجاءنا ونحن
هناك برفية من الامير علي بن الوزير يقول فيها انه محزون لفرافتنا فأخجلنا وعاد بنا
الى ما كدنا نساء من التأدب في الغربية . على ان التأدب في المشقات اجتهاد
يزيد المرء بلاء ، وانجمل في السياحة ولا سيما في البلاد العربية ، يمرض ويميت .
من حسنات اسماعيل بك باسلامه انه لا يخطب في ضيوفه ، ولا يفاخر
بدينه ، ولا يهدد بلاد الكفار بالدمار . هو رجل هادي الخاطر ، وديع النفس ،
غني كريم ، يحب كل من يشتغل في ارضه ، كما يحبه كل من يفي حكمه . وهو
يخلص الى الامام اخلاصا لا يشك الامام به ، ولا يخشى من ثقله . انه العامل
الوحيد على ما علمت الذي لا يأخذ الامام رهينة ^(١) منه . وقد يكون السبب
في تساهله ورحابة صدره انه سني حضرمي . وقد تكون هذه الخلال من فطرته
وصفاء ارومته . على ان المحاسن الروحية والذوقية مثل السيئات تغذي خصوصا
في الشرق بالمذاهب والاديان . ان اول رجل لمس قلبه قلبنا في اليمن هو

(١) سمعت بالرهائن في الحج فاستربتها واستنكرتها ، وكدت انكر صفة ما سمعت .
الا ان اغرب الامور هي اقربها في بعض الاحايين الى الحقيقة . فالامام يحيى يتقاضى كل
موظف من موظفي حكومته الكبار ، الملكيين والعسكريين ، رهينة واحدة ، ابناً او اثناً او
نسيباً عزيزاً ، يبقه في حوزته كقاعة الاخلاص والاستقامة في الخدمة ، وضمانة الصلح والوفاء
في التاجية . وهؤلاء الراهائن — عند الامم على ما قيل اربعة الاف منهم — يقبضون في
المدن المختلفة كل بعد عن اهله ومسقط رأسه . تتعلم الحكومة بعضهم وتأسر البعض وتمنح
الاخرين بكفالة احد وجهاء المدينة ، حرية الجولان فيها .

شافعي ، وأول رجل اضافنا ولم يسب الكفار هو شافعي . على أني اظن ان اسماعيل باسلامه ، ولو كان من عباد الاشجار ، يظل في فضائله الجملة قريب من الله والناس .

جاءنا صباح اليوم التالي يسلم علينا ويده طاقة من ورد نيسان قدمها لي . وزر اياه بساينته التي يزرع فيها من الثمار انواعها ، تلك التي تصلح في الشمال وفي الجنوب ، في المنطقة الباردة والمناطق الحارة ، فأبنا الزيتون ، والموز ، والعب ، والعب ، والتفاح والزمان زاهية كلها زاهرة . ان هذه الاشجار تنمو كلها في اليمن الاسفل ، لان تلك البقعة من الارض تعلق خمسة الاف قدم عن البحر ولا تبعد أكثر من عشر درجات عن خط الاستواء . فستوي فيها لذلك حرارة الهواء والتربة .

اما مدينة اب فمسورة ، وهي وصحة ومزدحمة ، تروق الناظر اليها من الخارج فقط . بيوتها من الحجر واكثرها ثلاث طبقات ، تستخدم الاولى للمواشي والدواب ، والثانية للخدم ، والثالثة لاهل البيت . ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن ، وليس فيها احد من الاطباء ، ولا نقطة ولا حبة من الدواء . ويكثر فيها الجدري والحمل واكل القات . انا كلما صعدنا في اليمن لآرى « التخزين » في ازدياد وصحة النسل في تقص ظاهري لاسيا في الاولاد . فان وفيات الاطفال في اليمن كثيرة ، اذ قلما يعيش للرجل الواحد من عشرين ولداً مثلاً أكثر من سبعة او عشرة اولاد . واطهر ما فيهم التحول ، والشحوب ، وضعف الاعصاب .

قلت ان اب جميلة من بعيد ، فالقادم اليها من ماوية او تعز يراها في السهل وحوله الرابي كأنها حفنة من اللؤلؤ على بساط اخضر ، مفروش في بحيرة جفت مياهها . والقادم اليها من برهم يراها قائمة على رأس الجبل كصخر في مرج او كبرج في جزيرة . ولها ساحة وداع كما لها ساحة استقبال . مشى معنا اليها اسماعيل بك ومعيته ، وارقنا الى دمار بثلاثين من الجنود النظامية على رأسهم ضابط

تركي . فسرنا بعد استراحة يومين في نعيم ضيافته ونحن نخشى ان يزداد عدد الحرس كلما دنونا من صنعاء .

مررنا في طريقنا الى يريم بوادي المرفد الذي يفوق وادي الذهب اجمالاً وخصباً ، وشاهدنا فيه لأول مرة شجر البن الذي يشبه في ورقه وزهره الليمون وشاهدنا كذلك الجوز واللوز والخرنوب . وبساتين غضة من العنب والموز ، تجري في ظلها مياه النهر الذي يتدفق من جبل سماره . وبدأنا بعد الظهر نصل في قبال ذلك الجبل ، وهو اعلى تقبل في اليمن ، فوصلنا الى وسطه عند الغروب ، وبننا تلك اللبلة في قرية تدعى المنزل ، خبزها دون واهلها اشعييون . ولما صلنا الى رأس التقبل في اليوم التالي كانت الرياح شديدة ، والهواء ، على حمو الشمس ، بارداً ، فشعرت بالبرد لأول مرة في اليمن . ولا غرو فكنا قد علونا عن البحر ثمانية الاف قدم اي علو ظهر القضيبي في لبنان . ومن تلك الذروة الهائلة ، المدهشة المنعشة ، رأينا منبسطة امامنا وتحتنا قاع الحقل والى الجنوب منه ظفار^(١) التي كانت مشهورة في العهد الحميري بقصورها وحصونها . ان ذلك القاع في مزروعاته المتنوعة ، وبقاعه المحسودة ، لشبيه بطنافس خضراء وصفراء وبيضاء وسمراء تملأ العين بهجة والنفس سروراً . نزلنا اليه وسرنا معجبين بانتقالنا السريع من منطقة باردة الى ما يدنو من خط الاستواء .

اما استقبالنا في يريم التي كانت تدعى مر'يمه في عهد حمير فقد كان مثل استقبالنا في اب ، وذا مظهر ، فوق ذلك ، فريد . كيف لا وقد خرج لملاقاتنا اولاد المدرسة مع شيخهم الفقيه فاصطفوا الى جانب الطريق ، ينشدون ويهللون مرحبين . ما فهمت من النشيد غير كلمة الله والمسلمين ، والمجاهد الامين . ولكني علمت ان الاولاد هم من الرهائن عند الامام . انه لحكم عسكري قاس شديد ، بل حكم اشتباه وارتياب . فلا عجب اذا اخلص العمال لرئيسهم الاكبر ولكل واحد ولد عنده او اخ او نسيب عزيز .

(١) ولا يزال في ظفار آثار حميرية رأينا من شكلها الحالي الذهبية والتماثيل الرخام عند احد التجار في عدن وكان فيها من قصور اليمن المشهورة كوكبان وبنون وسلحين .

سألنا في سمسرة في الطريق : هل عندكم حليب . فقال صاحب السمسرة :
لا غنم عندنا ولا بقر ولا معزى . ولو كان عندنا فليس من يرعاها . شباننا في
عسكر الامام ، واولادنا هاربون من التجنيد ، والعمال اخذوا اغنامنا كلها زكاة
وضرائب لبيت المال .

ولكننا عندما وصلنا الى ذمار قابلنا امير الجيش فيها ابن الوزير الثاني ، السيد
عبدالله ، صنو ابن عمه في ماويه ، سمعناه يقول : هذه بلادنا وهي بفضل حضرة
الامام بلاد الحق والعدل والدين والصدق والوفاء . الحكم الكامل العادل تراه
عندنا في اليمن ، فلا خمر ولا فسق ولا زنى ، ولا قتل ولا سرقة ، ولا ربا ، ولا
رشوة ولا اغتصاب . كل ذلك لاننا محافظون على ديننا ، عاملون بكتاب الله ،
مجاهدون في سبيله تعالى . . . ثم قال : نحن نقول ونفعل ، وغيرنا يقولون ولا
يفعلون ، او انهم يقولون الحق ويفعلون الباطل . العرب كذابون ساقطون ،
يفضلون مال الاجانب على الجهاد في سبيل الله . نحن حاربنا الاثراك مراراً ،
وجاهدنا الكفار الخونة في تهامة ، وسنحارب كل من يحاول اختلاس قتر من
ارضنا او هضم ذرة من حقوقنا . سنحارب حتى الموت . نحارب ، واذا غلبنا
نتقهقر . نحارب وترجع الى الشمال ، نحارب ونعتصم بالجبال ، نحارب ونلجأ الى
الصحراء . واذا لم يبق لنا غير موطن . الاقدام نحارب حتى الموت مؤمنين بالله ،
واثقين برحمته ، وطيدي الامل بعونه . ولماذا لا يعمل كذلك سائر العرب ؟
ابن فيصل اليوم ؟

قلنا : هو في العراق ، ملك العراق .

فقال : واي خير واي شرف في ملك عربي زمامه بيد الانكليز ؟ لكان احسن
فيصل لو ذهب الى ابن سعود ليصلح بينه وبين ابيه الحسين . الملك حسين ! ان
قلامة ظفر الامام والله خير منه . بالعمار ! افتتح ابواب الكعبة للنصارى الكفار ؟
حاولنا اصلاح ظن الامير في ما أشيع عن الملك حسين . وانا اعلم انه لم
يأذن للمسيحيين بالدخول الى مكة . فما هدأت من تأكيداتنا سورة غضبه .
— العرب كذابون ساقطون يحبون المال . وقد يصيرون بعدئذ ان شاء

الله مثل اهل اليمن . هذا اذا اقتدى امرؤهم بمولانا الامام واخذوا من احكامه
مثالا لاحكامهم . فتتطهر البلاد كلها من الفسق والفجور ، من الزنى والخمر ، من
الربا والرشوة كما تطهر اليمن .

وكان الرفيق قسطنطين قد رمقني بنظرة فهمت معناها عندما ذكر الامير
في مطلع حديثه الفسق والزنى . ثم عند ذكره ذلك ثانية هم رفقي بالكلام فمنعته
باشارة من يدي ، فلامني عندما خرجنا من المجلس لاني حلت دون جوابه . وما
جوابه ؟ قد اضحكني من الامير ما اغاظ القسطنطين . ذلك لاننا في احدى
الليالي السابقة ، جاءت الامراة التي طبخت لنا العشاء ، والنساء في اليمن خارج
المدن الكبيرة سافرات ، تعرض نفسها علينا بشمن فسطان من الشيت . وقد قال
لنا احد العساكر بعد ان خرجنا من ذمار : لولا السيد معكم لكانت النساء تبيثكم
في كل مسمرة^(١) .

كنت في كل قطر من الاقطار العربية افتح الاذن دائما لجميع الناس ،
فاسمع الشريف والبدوي ، والجمال والجندي ، والتاجر والسياسي ، فادون
احاديثهم دون رأي لي فيها اذ ذلك ابدية . واني اسالك ايها القارىء ، وانا
اشارتك الآن في ما سمعت وشاهدت ، ان ترجى رأيك كذلك الى ان تسمع
الحديث كله ان كان عن الامام يحيى او عن سواه . وها قد اسمعتك كلام ابنا
الوزير وهم من كبار رجال الامام ، وحديث احد الشوافع العقلاء وهم باطننا
اعداء الامام ، وحديث صاحب مسمرة وهو ممن يدفعون ضرائب الامام . واليك
الآن بحديث من يحارب لتعزيز وتمديد حكم الامام .

كان في حرسنا جندي اسمه احمد ، حارب على صغر سنه ، في ثلاثة حروب

(١) ان بعض الافاضل في اليمن وخارجه انحوا علي باللائمة لذكري هذا الحادث .
فلم لم يلوموا لاني قلت كلام ابن الوزير الامير عبدالله ؟ — لا فسق ولا زنى في اليمن !
أيغنون الحقائق التي تدغدغ قواهم دون سواها ؟ على الرحالة ان يصدق قراءه الخبر
في كل شيء . اما الحادث نفسه فهو عادي في اي بلد من بلاد الناس ولولا خطبة الامير
عبدالله لما كان له في الرحلة مكان ولكنني اسف لاني دفقت في التسجيل فذكرت اسم
البلد والبيت (في الطبعة الاولى) وعرضت بالمرأة للاهانة . اني اعتذر اليك ايها المجديبة
اليمانية واسأل الله لك الخير والسلامة في كل حال .

مع الطليان في طرابلس الغرب ، ومع الانكليز في الهند ، ومع الترك في اليمن .
قال احمد : أخذت خدعة من عدن . قيل لي ان في الغرب حرباً بين الاترك
والكفار فركبت الباخرة ونزلت في طرابلس . وبعد ان صرت في عسكر
الطليان عرفت انهم يحاربون الاترك المسلمين . ولكنهم اعطوني مالاً واسمعوني
الكلام اللطيف ، وعاملوني معاملة حسنة ، فحاربت واستغفرت الله . . . الطليان
احسن من الاترك ، واحسن من الانكليز الذين كانوا يقتلوننا بالشغل والنظام .
اما الاترك فلا يهتمهم النظام ، ولكنهم لا يدفعون مثل الطليان . والآف
يا افندي — اقرب مني ليهمس كلمته همساً — لا مال ، ولا نظام ، ولا لطيف
كلام . . . اما حضرة الامام فهو رجل عظيم ، رجل صالح عادل عزوم . ولكن
عماله طماعون يشتهون دائماً الفلوس . . . قسمتنا خمسة ريبالات في الشهر —
عندما يدفعونها . ولكنهم يسيروننا في البلاد من طرف الى طرف وليس في
قميصنا بقشة — اي نحاسة — واحدة . والاهالي لا يحبوننا لانهم يدفعون
ضرائب كثيرة . ولا يطعموننا ولا يآووننا الا اذا دفعنا . وماذا ندفع ؟ ما في
هذه القميص شيء — نفضها ليريني انها فارغة — وثمنها يا افندي انا والله
دفعته . ويجب ان ادفع ايضاً ثمن النبل لاني جلدي من البرد . والقوات ؟ من يدفع
ثمن القات ؟ نحن في اليمن فقراء ، وحكم الامام يزبدنا فقراً .

وكان معنا ولد لا يتجاوز الخامسة عشرة وهو متزوج فسألته : اين زوجتك ؟
ففرقع اصابعه وهو بشير اشارة بمنية لطيفة وقال : هي هناك وراء الجبل . وهو
لم يزرها منذ سنة . « ولا اعود اليها والله حتى يصير في جيبي ظلط ^(١) فقال
احد رفاقه : مسكينة تموت ولا تراك .

وقال آخر لحيته بيضاء ظننته يتجاوز الخمسين : لا والنبي ! لا ازال في
الثلاثين . اما هذا الشيب فهو من هنا — واثار الى قلبه وسكت . ثم راحوا كلهم ،
وبد الواحد في يد الآخر ، يعدون وينشدون :

يا الله اليوم فرّج وفك العسر

يا مفرج على النفس في ضيقها^(١)

بدل العسر بكل اليسر

وفتح ابواب قطال^(٢) غلاقها

كيف قوم محو^(٣) وقوم اخر

في المقابل^(٤) على شرب ثنبا كها .

لم ارَ عرباً يتكتمون في امورهم مثل عرب اليمن وخصوصاً الزيدون . ولكنهم اذا سنحت الفرص ووثقوا من محدثهم يجيرون ، فيفصحون اذ ذاك و يصدفون . والسيد والاعرابي واحد من هذا القبيل . ارفقتنا امير الجيش في ذمار باحد السادة اكراما او استعلاما ، لا فرق ، فكان يركب بعيداً عن الجنود ، ولا يقترب منهم الا امرأ او ناهياً . وظل في اليوم الاول بعيداً كذلك عني . فما كان بيننا من السلام الا السلام .

ولكنه في اليوم الثاني سألتني همساً ان اطلعه السر في حفظ الماء بارداً في قنينة الـ « ترموس » التي كانت معي . فاخبرته ورسمت الشكل في الزجاج المزدوج الخالي من الهواء . فدهش وقال : الافرنج اصحاب عقول — عقول ذكية . وهم يستخدمونها دائماً في كل شيء . ونحن لا نستخدم عقولنا الا في الحروب . سأسافر يوماً ما ان شاء الله . سأخرج من اليمن متنكراً . . . اهل اليمن يا امين يغارون جداً على دينهم ، و يظنون ان ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار . ولكني سأسافر ان شاء الله وان كفرت .

سألني السيد محمد ان اعطيه عنواني فكتبته في ورقة فأخذها وخباها في طية من طيات عمامته البيضاء وقال : سنبقي سراً بيننا . وعند ما نصل الى صنعاء انت تنزل ضيفاً على حضرة الامام ، وانا اذهب الى بيتي ، فلا نتقابل بعد ذلك ، ولا لزوم .

وفي اليوم الثالث اقترب مني وانا اكتب فقال : ما الذي تكتبه في دفترك؟ فقلت ، وكنت خلال السفر قد سألته عن امماء بعض النباتات والازهار : ما

(١) في ضيقها (٢) قد طال (٣) محاصر (٤) جم مقبل

اعلمتني به . فقال : وما الفائدة من كتابة اسماء الازهار والاشجار والحجار ؟
فقلت : قد تم معرفتها من يحيى . بعدي . فافتنع ظاهراً ثم قال : هوذا اليوم
الثالث وانا رفيقك ، أفتأذن بسؤال ؟ فقلت : نعم بعد ان تجيب سؤالي . هل
انت مسافر الى صنعاء لشغل خاص بك او بامر من امير الجيش ؟ فاجاب : لي
حاجة في صنعاء ولكني لولاك ما جئتها اليوم . ارسلني الامير رفيقاً حباً واکراماً
وما فصدك يا امين من زيارتك اليمن ؟

— مشاهدة البلاد وتأليف كتاب فيها وفي اهلها .

— وهناك مقاصد اخرى .

— نعم ، اراكم حيث كان اجدادكم منذ الف سنة ، وسأقول هذا لحضرة
الامام فحسى ان يسعى في ما يدفعكم الى الامام . فيفتح المدارس في البلاد ويمهد
سبيل العلم والتعليم .

العلم ناهي^(١) ولا ريب في ذلك . انا من رأيك ، واقسم بالله وبهذه
الشمس الغاربة اني صدقتك . فقل لي هل يطمع الانكليز ببلادنا .
— لا اعلم . قد اصدق اذا قلت لا ، وقد اصدق اذا قلت نعم .
— الست رسول الانكليز الى حضرة الامام ؟

— لا ، ولا رسول دولة من الدول . لا ناقة لي في السياسة ولا حمل .
ولكني اقول لك اني اخو العرب ، وصديق العرب ، واشتهي ان اراهم كلهم
في ائتلاف بعضهم مع بعض . اشتهي ان ارى الامراء ساعين في سبيل الوحدة
العربية وتعزيزها .

— ناهي ولكن كيف نتم الوحدة ؟ اعلم ان الامام رجل عظيم ، اعظم العرب
اليوم ، وهو يطمح الى حكم اليمن كله باسمه . ثم الى حكم البلاد العربية
كلها باسمها .

— قد يكون الامام رجلها واين يجدها . ليجتمع الامراء ويتفقوا على ذلك .
— ولكن كيف يجتمعون واين ؟ ومن يدعوهم ؟

(١) ناهي في اصطلاحهم حسن جميل

— يا حضرة السيد ، قلت وانت الصادق ان عندي رسالة ابليها الامام .
 فلو اطلعتك انت على كل شي ، فماذا احتفظ للحضرة الشريفة ؟
 ابسم السيد محمد وقال : كلامٌ حكيم . ولكني انا اطلعك على ما لا علم لك
 به . شكوت بيوتنا الضيقة ، وسقوفها الواطئة ، ونوافذها الصغيرة . فلو سمحت في
 عسير لوجدت البيوت هناك اضيق واظلم . اتعرف السبب ؟ لا يزال اهل اليمن
 وعسير وحشيين ، لا يثق الواحد منهم باخيه ، ولا يركن اليه . حياتهم خوفٌ
 دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير — وبادر الى بندقيته فوضعها بين
 جنبيه وضمها اليه — هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم . وفي
 اليمن ، قد رأيت بعينك ، الناس كلهم مسلحون ، وكلهم يقاتلون ، ويقتلون
 لامر طفيف . نحن نغار على حقوقنا . ما قيمة هذا ؟ — واخذ بيده فتجان
 القهوة — ولكنك لي ، هو حقي . فاذا اخذته مني ، اغتصبته ، وما سمعت احتجاجي
 اقاتك ، استل عليك هذه الجنبية ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . واذا حدث
 قتال بين بيتين في هذه القرية مثلاً ينضم اهلهما وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ،
 فتشب في القرية نار الحرب ، وعندما تنطفي ، ينسألون : وما السبب في القتال
 بين فلان وفلان ؟ يقاتلون اولاً ثم يستعلمون . هذه طريقتنا في اليمن ، نحارب
 حتى اهلتنا . يحارب الاخ اخاه ، والابن اباه . فاذا كانت هذه حالنا بعضنا مع
 بعض فكيف تكون حالتنا مع الاجانب ؟

فقلت : وهل في اليمن اناس يشتهون رجوع الاثراك ؟

فاجاب : من يشتهي ذلك نذبحه .

— وهل في اليمن اناس من الباطنيين ؟

— كان منهم طائفة فافتييناهم بالسيف .

— أهذه هي طريقتكم في اليمن ؟

— نعم يا امين . يغار اهل اليمن على بلادهم كما يغارون على حريمهم . لا حق
 في البلاد لغير اهلهما . ونأبي الشركة فيها كما نأبأها في الحريم ، فنحارب . ليسلم
 الشرف ، ونحارب ليسلم الوطن .

الفصل الرابع

صنعاء اليمن

وعلان - حز يز - ابن المطري - جبل لقم - صنعاء - جمال الاسماء
وجامها - جبل عشار - جبل آس - معادن النضة والطلق - نشيد الزامل
ير العزب - الدوشن - بيت من بيوت الشام - ازهار لبنان - طبلخ
متدن - الحمام - السيد علي زباره - القاضي عبدالله العمري - الطواف في
المدينة - الهندسة العربية في البناء - الاجاء درجات - اجرة البيوت -
اسعار لوازم المعيشة - وهم مع ذلك يشكون - حصار صنعاء ووقفة
شهاره - الحضرة الشريفة - المظلة المشهورة - البنود والطبول - قصة
الجندي ورسول مصطفى كمال الى الامام .

في صباح اليوم الثاني عشر ١٨ نيسان سنة ١٩٢٢ بعد خروجنا من الحج
وصلنا الى حز يز ، المرحلة الاخيرة في رحلتنا مشقاتها تنسي المسافر ما فيها من
الحسرات والمستغربات . ولكن أثر المشقات يزول فتعود الحسرات الى مقامها في
الذاكرة وفي الفؤاد . اني وانا اكتب الان اتمتع بها واستانس بترداد ذكرها . كما في
في رحلة اخرى الى صنعاء ، لا مشقة فيها ولا عناء . . .

بننا الليلة السابقة في وعلان ، وهي قرية صغيرة على مسافة خمسة عشر ميلاً
من صنعاء ، وخرجنا منها باكراً فأحسست ببرد شديد يستغرب مثله في الدرجة
الخامسة عشرة عرضاً من الارض . ولكننا اصبحنا كذلك في علو يدنو من
عشرة آلاف قدم فوق البحر^(١) هذا هو السبب في انتقالنا تلك الساعة الى طقس
اشبه بطقس الشمال . على ان الشمس ، شمس اليمن ، لتنحدر بقرن صغير من قرونها

(١) هذه اصح قياسات العلو في جبال اليمن بالاقدم الانكليزية

١٠٠٠٥ جبل سماره ٩٥٠٠ جبل ذفار قبالة ٦٧٥٠ مدينة اب

٩٠٢٠ يريم ٧٦٥٠ ذمار ٧٥٤٤ صنعاء

٩٠٠٠ بوطن ٨٠٠٠ مناخه ٩٨٤٠ جبل شام

عند اشتداد البرد يحمر الماء في صنعاء وقد سقط الثلج في ذمار لأول مرة في حياة من
شاهدوه في شتاء سنة ١٣٤٠ سنة رحلتنا .

الذهبية كل ربح تهب فتدميها ، ثم تحييها ، وترسل الحرارة فيها .
وصلنا الى حزيز ، وما هي الا بضعة بيوت وسمسرة ، ساعة الضحى فجلسنا
هربا من الشمس في في . حائط تناول الفطور . وكان مما قام حولنا من الجبال
اثنان شهيران بما يبتان ويوازن . وهما بنو مطر غربا ، وفيه احسن ما يزرع
في اليمن من البن ، ولقم شمالا ، وفي ظله اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل في
شبه الجزيرة العربية كلها .

وما هي الا ساعة بعد ارتحلنا من حزيز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في
ملك المدينة . ثم قباب مساجدها وهي بيضاء توهج في نور الشمس الذي
يترجع كالزئبق في الجاف الشفاف من الهواء . بينما نحن ندنو من لقم الذي
اصبح على يميننا ، اذ بدت لنا المدينة نفسها وهي محوطة بالجبال تمتد شرقا وغربا ،
كانها وهي كلها بيضاء ، سلسلة من التلال الكاسية ، في سهل ذهبي منقطع
الاخضرار .

اثناعشر يوما في المشقات والوهلات . وهذه صنعا تنسيك اضعافها . اي
صنعا ، مثلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ، ومثلك لنا العلم فكنت يوما
ربة العرفان ، ومثلك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان . اجل ، فكم من
ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك ،
ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك ، وسمعنا الشعراء يشدون الشعر في
دورك . واليوم ، ومطيننا غير الخيال ، نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الامال .
هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي
وبهاؤك العربي فما كذب الشعر . وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما
كذب العلم . وهذه كنوزك وسحر قصورك بل سحر الاسماء فيك فما كذبت
الاساطير . كنا نظنها اسما ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال . ولكنها
من الحقيقة في اعلى مكان . أفما سعدنا واياك ايها القارى . في تقيل السيان ،
واجتازنا وادي نخلان ، وفتنا في يريم ووعلان ، وثقيلنا في ظل بعدان ، وما نحن
نشرف على قصر غمدان .

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر املاً . وكما دنوت منها ، وهو عكس الحقيقة في اكثر المدن ، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها . هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة . فيها الهواء اعذب من الماء ، والماء اصفى من السماء ، والسماء اجمل من حلم الشعراء . وفيها البرد ، وقد علت تسعة الاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفء . وهي قائمة في قاع سنحان ، تزينا من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة اخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين . ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجائها . اقربها اليها عَصْرٌ وهو يظلل المروج في الاصيل ، والشمس الذي تجري منه المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج — تلغراف المرايا — الذي يوصل اوامر الامام من قنة الى اخرى . وهذا عشار وفيه الرخام والمرمر . وذلك آس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيها معادن الطلّق . وهناك رضراض وفيه معدن الفضة . وهناك شبام شمالاً بغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق .

وصلنا الى صنعاء الظهر فلافانا على مسافة ميل خارج السور رجال الامام وثلة من جنوده . وسرنا في موكب الفناء وما مللناه لان « الزامل » اي تشيد الزبود عكس ثيابهم المنية راقنا جداً . وكنا كل مرة يقفون فيه عند القرار الغريب الرهيب تمثلهم على العدو زاحفين ، وبمجرد الزامل غالبين منتصرين .

سرينا على مؤر^(١) حل^(٢) السحر

ليلة مغدرة^(٣) ما قرها هليل^(٤)

واصبح الصبح ورحنا^(٥) براس النقييل

رفنحور^(٦) العدى غارسين الفتيل

نعقر جوادهم مثل عقر البقر

ساروا وهم ههزجون فمروا ببوابة عدن الجميلة الهندسة والبناء والى جانبها خارج السور ثكنة كبيرة شيدها الترك . ثم حول السور غرباً الى بوابة اخرى ،

(١) نهر معروف (٢) وقت (٣) مظلمة (٤) ما هل فيها قر (٥) نحو في نحو

افضت بنا الى ساحة فسيحة بين صنعا والحبي الجديد منها الذي يدعى بير العزب . هناك سمعنا وشاهدنا في مظاهر الاستقبال البنانية مشهداً اخر كان له في لبنان مثيل . الا وهو « المشوبش » الذي يدعى في اليمن « الدوشن » فشرع يصبح مرحباً بنا ضيافاً فيه نبرات وغزوات جمعت بين ردىء الخطابة والنشيد ، علمنا منها اننا نور شمس الكمال ، وقمر الفضل والجلال ، وغيرها من آيات المحال .

وعندما وصلنا الى بير العزب ، اي الحبي الذي يسكنه اغنياء صنعا وفيه قصور الامام ومركز الحكومة ، ودخلنا البيت الذي اقمنا بعدئذ فيه بميدات الشرارة ، كان الخيال في الانتقال الى لبنان والى الشام ابهج واتم . البيت صغير ولكنه في الذوق واسباب الراحة كبير . ردهة الاستقبال فيه تشرف على صحن في وسطه شاذروان ، وحوله القرنفل والريحان ، وفوقه تتدلى اغصان المشمش والرمان ، يغرر فيها القمري والحسون ، وتتلألاً خلالها الشمس فنكلك جبال الماء المتصاعد من البركة لجيناً رجراجاً .

اما سرورنا الاكبر في اليوم الاول في مائدة ، على طاولة ، تحت المشمشة ، عند الشاذروان ، بادرنا اليها وعيوننا لا تصدق ان الكرمي كرمي ، وان في ابدنا الشوكة والسكين ، وان ما ناكل قد طبخه طباخ متمدن ، وان بالغ بالابازير . ثم سألنا ونحن في ذا النعيم عن النعيم الآخر - الحمام . فقام السيد علي زباره ، وهو وزير المالية ووكيل الضيافة عند الامام : الحمام يوم ومولكم لا يجوز . ولكنني عرفت في اليوم الثاني عندما زرت الحمام ، الذي ارسلنا مصحوبين بجندي اليه ، ان للتأجيل سبباً آخر فيه دليل على ذوق السيد علي ولطفه . فقد بعث الى صاحب الحمام بأمره بتنظيفه واعداده لنا - لنا وحدنا . ثم عرفت في اليوم الثالث ان السبب الاول في ذلك هو التحذر من اجتماعنا بالناس ومحدثهم . وذلك عملاً بأمر الحضرة الامامية الشريفة التي كانت يوم وصولنا متغيبية في الشمال لتحسم خلافاً بين الحواشد وعيال مريح استفحل امره . وقيل لنا في الطريق ان بعض رؤساء تلك القبائل كانوا يفاوضون السيد الادريسي

لينضموا اليه وينصروه على الزيود . فلما أخبر الامام بقدمنا امر الأ تقابل احداً
من الناس قبل رجوعه .

ولكن في اليوم الثاني زارنا احد رجاله الكبار القاضي عبد الله العمري
وهو يد الامام اليمنى ورئيس ديوانه ، فاستأنسنا بحضرته ومررنا بحديثه .
الفينا على جانب كبير من الفضل والاتضاع ، ومن الحكمة والتساهل ، فحملتنا
زيارته على المقابلة بينه وبين اولئك المتبحرين امراء الجيش وشكرنا الله ان في
رجال الامام من ينظرون الى الامور من وجهة عالية حديثة ، ويمسنون الرأس
والموازنة .

سألنا زائرنا عن زميله القاضي عبدالله العرشي فاجبنا بما نعلم فقال : له سنة
عدن ولم يفعل شيئاً (اي في مذاكراته مع الانكليز بخصوص الجديدة) وسألناه
نحن عن عمال الحكومة والسبب في الرهائن فقال : النقص موجود وبعض الخلل .
ولكنها نتيجة غير اخطأت السبيل . الشافعي والزيدي اليوم متساويان .
وحضرة الامام عالم عادل ، سديد الرأي ، سمح الخلق ، قويم الخطة ، لا يعرف
في اقامة الحق غير الشرع . ولا يفرق بين الكبير والصغير او بين الزيدي
والشافعي . ولكن هناك بعض الذين يغالون ولا يعقلون . نياتهم حسنة اما غيرتهم
فقد اخطأت كما قلت السبيل . . . نعم حضرة الامام يضبط الامور بيد شديدة .
لولا ذلك لما كنت ترى العدل والامن والاقبال في انحاء البلاد كلها ، الا في
الاطراف حيث لا يزال بعض الاضطراب .

كانت هذه من القاضي عبدالله اولى الزيارات وآخرها اثناء غيبة الامام ،
وما علمنا السبب في ذلك . الا اننا كنا راغبين في مقابلة رجل آخر كان معنا
كتاب توصية اليه فاستأذنا السيد علي زبارة فقال : حينما يرجع الامام . وراح
ذات يوم خادمنا الى المدينة فعاد يحدث بما شاهد فيها من العجائب والغرائب
فاستأذنا السيد علياً في زيارتها بينما نحن نتنظر رجوع الحضرة الشريفة ، فما
اذن بغير الطواف حول السور ، وارسل معنا عسكريين وأحد الموظفين . مشينا
في طريق واسعة بين الحقول المزروعة والسور الكبير المبني من اللبن والطين ،

ووقفنا بعد نصف ساعة عند بوابة الشام ، اي بوابة الشمال ، فتباحث اذ ذاك الموظف والجنود وكنت قد سألتهم ان ندخل المدينة وكانوا قد أمأوا المشي في الشمس على ما اظن . فاسفر البحث عن اجابة طلبتي بشرط ان لا يعلم السيد علي بذلك . دخلنا المدينة وقد تعاهدنا على ان نكتم الخبر وجلنا في احياء السكن منها لا في اسواق التجارة .

ان صنعاء مدينة عربية صافية روحاً وشكلاً . اسواقها مثل اسواق جنده غير مرصوفة ولكنها اوسع وانظف . اما بيوتها العالية ، وبعضها ست طبقات ، فبناؤها اكثر اتقاناً واجمل هندسة لان الاسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء اجنبي هندي او اوروبي . وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء وبعضها بالآجر والبعض باللبن ، وبين كل طابق والآخر زنار من الجص الابيض المنقوش اشكالاً هندسية ، وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافاً . ولكنه امن من الزجاج واجمل . وهناك في الطابق الاخير لاكثر البيوت غرفة واحدة هي غالباً مطلقة من جهاتها الاربع تشرف على المدينة وتدعى المنظرة ، يستخدمها الناس للاستقبال والقبولة فيفرشونها بالطنافس والمساند والوسائد . ومنهم من يستعملون الزجاج الملون في النوافذ فيقسمونه اشكالاً هندسية ، ويلونونه بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق ، اي الاصباغ الاربعة التي يصنعونها في اليمن فيستخرجونها من النبات .

اما الاحياء فتختلف رونقاً ونظافة . كان ريفي ، ونحن نتنقل من حي الى آخر كأننا نبحث عن بيت تقيم فيه ، يقول : هذه الدرجة الاولى اي احسن البيوت في المدينة ، وهذه الثانية ، وهذه الثالثة . واهل اليمن او بالحري اهل صنعاء مثل سكان المدن كلها ، لا ينقسمون الى ما يتجاوز ثلاث طبقات . ولو كان في جوارها او فيها من البدو لكانت الطبقة الرابعة في المضارب خارج السور . ما عرفت اليمن اثناء الحرب ولم تعرف حتى اليوم غلاء المعيشة والاجور . ان مجرد ذكر اجرة البيت في صنعاء ليشوق اخواني في مصر ونيو يورك الى الإقامة فيها ، وقد يحمل بعضهم على السفر حالاً الى اليمن . هذه بيوت طبقاتها

من الثلاث الى الست ، وهي من الدرجة الاولى اي في احسن حي من المدينة ، وفيها المنظرات ، والمرمر ، والزجاج الملون ، وما اجرة الواحد منها غير اربعة رياتل نمساوية شهرياً اي اربعون غرشاً مصرياً . اما في الدرجة الثانية فالاجرة ثلاثة رياتل . ويمكنك ان تستأجر بيتاً في الدرجة الثالثة ذا ثلاث طبقات ، له زناران من الجص و كوات من المرمر بريالين فقط . اما المعيشة فلا ثقل حسناً ولا تزيد نفقة بالنسبة الى البيوت ^(١)

وهم مع ذلك يشكون — يشكون وقوف الاشغال ، وقلة المال ، وعسر الاحوال . ومنهم من ينسبونها كلها الى حكم الامام ، ومنهم الى الله وحده ، ومنهم العاقلون الذين يهتدون بالله والامام من شرور هذه الايام ، وقد وصل بعضها الى اليمن عن طريق السياسة ، سياسة الترك بالامس وسياسة الانكليز اليوم . اما الامام ففي مقاومته هذه الاخيرة كما قاوم تلك يكثُر الصرائب ، ويذخر الاموال ، فتقل ولا غرو في ايدي الناس فتسبب قتلها وقوف الاشغال وعسر الاحوال . فضلاً عما يعترى اليمن دائماً من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبهم الاهلية . ناهيك بالعشائر وكلها مسلحة فيندرفي البلاد ذاك الغرس الطيب ، غرس الوطنية المجردة من المصالح الذاتية . اجل ان الناس مع الامام اليوم ومع اعدائه غداً . والسبب الاول في ذلك الجهل ، والسبب الاكبر هو الجهل المسلح .

(١) لم تأثر اليمن لا اثناء الحرب ولا بعدها من غلاء حاجات المعيشة لان ارضهم . ولا تزرع كلها ؛ تطعمهم . وانواعهم تكسبهم ، فلا يحتاجون غير القطن وبعض الاصباغ من الخارج . هالك اسعار بعض لوازم المعيشة هناك ،
لحم الضان ثمن الرطل ٤ غروش
لحم البقر ثمن الرطل ١٠ غروش
السمن ثمن الرطل ٣٥ غرشاً
القمح ثمن القدح ٦٠ غرشاً
البطاطس ثمن القدح ٢٠ غرشاً
القدح ٤٠ افة ، والاقة في اليمن كيلو وعلامة ارباع ، والريال النمساوي الذي يقسم مثل المجيدي الى عشرين غرشاً يساوي عشرة غروش مصرية .

قال للأموور دليبي : بعد ان حاصر الامام صنعا^(١) وسلم الترك غنمنا من البنادق خيرات — اي كثيراً فكانت الموزر تباع بريال واحد . وبعد وقعة شهاره من استطاع ان يجز مدفعا الى بيته أعطي له . فلا عجب اذا كان في العشار من يناهض الامام و يعصي جيوشه المنتظمة .

عدنا بعد الطواف في المدينة فكان السر الذي تعاهدنا على كتمانها قد سبقنا الى بير العزب ودخل مفسداً حيث لا يستطيع سواه . لذلك لما رغبنا المرة الثانية في النزعة قال السيد علي دون ان يظهر ما علمه من سرنا : الاولاد سيفي بالمدينة يجتمعون عليكم و يزعمونكم .

سكتنا على علمنا اتنا اسرى الى ان يرجع الامام . والاسير لشدة ما يحدث بالجدران يصبح حاد النظر ، وتنبه فيه كذلك الحواس الاخرى . فقد سمعت مرة صوتاً شبيهاً بصوت الآلة الكاتبة — تك تك — تك تك تك ، وراحت العين تبحث لتحقق ظن الاذن فاكتشفت مشرط السلك اي التلغراف وعلمت ان المرکز فوقنا في الطابق الثاني من البيت . وكان لمنزلنا باب موحد من الخارج بينه وبين البوابة الى السوق حوش صغير ، سمعت يوماً جلبة فيه ، فاستطلعت من ثقب في الباب الخبر ، فاذا هناك بعض العساكر يتنافرون . ثم جاء واحد وهو يقول : هم عرب مثلنا . وفتح الباب فاستأذنته في الخروج الى الحوش فأذن هاشماً وكان هو الدليل الانيس . اخبرني اتنا مقيمون في بيت من بيوت الامام العديدة ، وان الحضرة الشريفة غنية جداً ، وانها نقيه ، ورعة ، عالمة ، عادلة فهي تجلس للناس كل يوم تحت شجرة في الحوش او خارج البوابة في الساحة . اما المجلس

(١) هو حصار صنعا سنة ١٩٠٤ الذي استمر سنة اشهر فأكل اهل المدينة اتنا الحصار لحم البغال والخمير حتى والغيران وكان عدد الاتراك الذين سلموا وفيهم الاهالي لا يقل كما قبل اتنا عن الستين الفاً . ولكنهم اعدوا بعد ذلك الكرة على صنعا فتقهقر الامم وجنوده الى شهاره فتبعهم العدو الى تلك المضائق الهائلة وخسر هناك كل شيء . تلك هي وقعة شهاره المشهورة . لم يكن مع الامام غير ثلاثة الاف مقاتل غلبوا ثلاثين الفاً من الاتراك وقد حاربوهم بالصخور ايضاً يدحرجونها عليهم . واهل اليمن يحسبون النصر في تلك الوقعة اعجوبة بل كرامة من حكرامات الامام .

الرسمي في الطابق الثاني من البيت .

نحن اذن قريبون جداً من الحضرة الشريفة . او انها تعطفاً — وقال المفسدون تحفظاً — جعلتنا على مقربة من الاذن الامامية والعين العلوية ، وما لا ريب فيه ان الزيود ينقون كثيراً ويتكتمون كأن هذه الخلة ، وهم قريبون من المذاهب الباطنية ، صلة الانتساب بينهم وبينها . زد على ذلك انهم يختلفون عن العرب بانهم شغفون بالفخفة والابهة الظاهرة . ولنا في موكب الحضرة الشريفة دليل وبرهان . كنت قد سمعت بالمظلة المشهورة التي تظل الامام يوم يوم المسجد الجامع ، فتحف به السادة والعلماء ، وتمشي امامه وورائه الجنود ، وهم ينشدون « الزامل » لتقدمهم النبوة وثلة من الفرسان ، والمظلة في وسط الموكب كأنها القبة الزرقاء المرصعة بالكوكب ، وقدمشي تحتها القمر المنير سبيل الدنيا والدين . هي ذا المظلة التي طبق ذكرها الافاق ومعها شقيقات صغيرات ملقاة في الزاوية في طريقنا الى الديوان . قال رفيقي وقد قبض على اكبرها : هذه لصلاة الجمعة . وفتحها فاذا هي كالخيمة ، قطرها ثلاثة اذرع ، وكلتها مصنوعة من الحرير الازرق والابيض المزركش ، وعلى اطرافها من الخرج العريض الثمين ما يندر حتى في ملابس السيدات الفخمة .

رأيت في تلك الزاوية ايضاً طبول الامام العديدة مجماً وشكلاً ، بعضها مشدود على الفخار وبعضها على النحاس . والى جانبها البيارق والرايات فكان الدليل اللطيف امرع بيده مني برغبتي . فتح الراية الاولى فاذا هي خضراء مكتوب عليها بالاصفر : وفتحنا لكم فتحاً مبيناً . والثانية صفراء مكتوب عليها بالاخضر : الجنة تحت ظل السيوف . والثالثة بيضاء وعليها بالذهب آية التوحيد والشهادة .

سررت بخروجي الى الحوش وبتدليلي اكثر من سروري بالطواف حول السور وفي المدينة . ولا غرو ، فقد شاهدت الرايات والطبول ، ولمست بيدي المظلة الشريفة ، واستأنست بالجندي الكريم الذي تفعني بشيء من علومه ، ثم دخل معي الى البيت وجلس القرفصاء امامي فزادني علماً ؛ رائق الامام . « كان

فبلك في هذا البيت فتحي بك^(١) وكان الامام يزوره ليلاً وحده . سافر
الاسبوع الماضي وهو رجل « ناغي » اعطاني هذه « الساكوة » واستدان مني
عشرة ريالاً اباعها اليّ عند سفره عشرين ٠٠٠ لا ادري والله ولكني
سمعتهم يقولون انه جاء من مصر ليصلح السلك (التلغراف) .
ولكن الجندي في اليمن ، مثل من يقرأ الجرائد في البلاد المتعددة ، لا
يعرف من الشؤون السياسية غير ما يذاع رسمياً لابعاده عن حقيقتها . فغداً
يحدث عنا فيقول : انا جئنا من الجامعة الاميركية لنشرية الكتب الخطية .

(١) جاء من قبل مصطفي كمال الذي كان بينه وبين الامام يحيى في ذاك المين
مفاوضات سياسية .

الفصل الخامس

الضيف المأسور

الامام في مجلته — فراش الملك — خطاب ابن فيه قصدي ومنهبي — كتاب
التوصية من الملك حسين — الوحدة العربية والوحدة الاسلامية — محط رحالها
— « هل عندكم كلام مضبوط ؟ » — قصيدة الامام — المهنتون — تقبيل اليد
والرجل — ملوك اليمن قديماً — التقاليد والعادات — جرجي الخساوي —
شيخ الاسلام — « مسيحيان من لبنان » — رجل المسيح المسعاه — عدد
سكان اليمن — السياسة الاوروبية — ما يؤثر عن جورج واشنطن — العرائض
— عريضة تبغض الامام — « اذهبوا اذهبوا » — الوشاية والظن — ضيف
مأسور — كتابي الى الامام يعاد الي — السلك يشغل — باب الفرج — اصل المحنة .

اربعة ايام مضت ولم نخرج من البيت الا مرة واحدة . ثم عاد الامام الى
صنعاء من رحلته السلمية موقفاً فأم قصره اولاً وجلس بعد الظهر للزائرين ،
فكنا بعد استئذانه اول المسأحين المهنتين . لم اشاهد في طريقنا اليه ، لا في
الرواق ولا على الدرج ولا عند الباب ، شيئاً من تلك الابهة العسكرية المصنوعة
التي شاهدناها في ماويه وذمار . حاجب واحد ، وهو جندي زبدي في عمامته
غصن من الحبق ، فتح لنا الباب حين رأنا قادمين .

دخلنا وفينا ما يعترى كل غريب على ما اظن في مثل هذه الحال ، اي
الشوق الذي يسوده الاحترام ويشوبه بعض الظن . اترى الامام مثل امراء
جيته ، ام هو كريم الخلق لطيف الذوق كالملك حسين ؟ أيشف ظاهره عن
باطنه ، فترق ملامحه ، ويستطيل وجهه ، شأن معظم الائمة والعلماء ، ام يخدع بما
يكتمه مما لا نصح عنه الوجوه والاشارات ؟

دخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ،
عالي الجبين ، مستدير الوجه قائمه . له قم كتم الطفل صغير بارز الا أن في مرونته
وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين

من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين روعة . وله لحية سوداء قصيرة مستديرة يتخللها خيوط من الشيب . يلبس قباء من القطن مخططاً فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ، ولعامتة البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . دخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية ، والى جنبه الوسائد يتكى عليها ، وامامه زجاجة من الماء ورزمة من القات ، وخدام ينتخب الطري من غصونها فيقدمها له . وهو الامام يحيى بن حميد الدين المتوكل على الله . صالحناه مسأحين فرد السلام مرحباً بنا دون ان يقف . جلسنا امامه على سجادة تحتها فراش ، والغرفة الصغيرة مفروشة بمثلها ، وفيها عند الباب ديوان ، وعلى الحائط خرائط البلاد العربية والبنائية باللغة التركية .

كان في نيتي ان التي كلمة في حضرته فحدثته بها جالساً . ومما قلته بعد تهنئتي بعوده سالماً موقفاً : اني جئت من وراء البحار واقاصي الديار عملاً بعاطفة لا قوة للقومية بسواها ، ولا عز للامم بدونها . فاننا مهما استرسلنا في حب الانسانية المطلق لا ننسى اذ كنا منصفين حب الوطن الخاص . وهذا الحب يحملي اليوم على السياحة في البلاد العربية . فاني ، وان كان لبنان وطني الصغير ، وسورية وطني الكبير ، انتسب الى البلاد العربية ، وطني الاكبر . . . واني ، وان كانت المسيحية ديني ودين اجدادي ، ادين بدين كل من اقدم حقاً وازهق باطلاً . بل ادين بدين فلاسفة العرب وشعرائها الكبار كالغزالي والفارسي والمعري ابي العلاء . بل ادين بدين كل من قال بالوحدة العربية ، وتجديد مجد العرب ، وسعى في هذا السبيل سعياً شريفاً خالصاً لوجه الله . فمن أعز العرب أعز يا مولاي الاسلام . . . ولا غرو اذا جئت بلاد اليمن حاجاً هذه الكعبة المباركة وقد منعت عني تلك المقدسة كعبة الاسلام الاولى . على اني لقيت في جده ، في مقام الملك حسين الرحب العالي ، من الفضل العربي ، والمكارم الهاشمية ، ما سأذكره دائماً شاكراً مفتخراً . واول مرة ذكرت في حضرته اني ارغب في زيارتكم كان - حماه وحماكم الله - اول المستحسنين بل اول المحبذين

والمشجعين . فحُثت يرافقتني باذن جلالته صديقي العزيز القديم الشيخ قسطنطين بنى ، وهو في حب العرب والعربية على جانب عظيم من الغيرة والاخلاص والبلاد البليانية مهد العرب ! جئناها متجشعين المشقات ، مذللين العقبات ، مصعدين في الجبال الشاخفة ، متغلغلين في اوديتها المعطرة الارجاء ، ونحن اثناء الرحيل وقبله ننظر بعين الحب والشوق الى هذه السدة المباركة نستمد منها النشاط في السير والسرى . وكنا نلاقي في كل بلد حللناه من حسن الحفاوة والاكرام ما شكرناكم بعد الله عليه ، وسجلناه لكم في صميم الفؤاد ليحفظ مدى العمر ذكراً ذكياً جميلاً .

فاه حضرة الامام ببعض كلمات الشكر والترحيب . ثم وقف قسطنطين فتلا قصيدة كان قد نظمها في الطريق فسر بها واثني عليه . ثم قدمنا لحضرته كتاباً من جلالة الملك حسين ففضه وقرأه ثم قال : ولكن الكاتب اهمل الامم فيه . فقلت : وقد يكون ذلك عرضاً او ذهولاً . اما الحقيقة فان ناظر الخارجية في جده كان قد كتب كتاب تعريف احمله الى حضرة الامام ، فلم يستحسنه جلالة الملك ، فأمر كاتبه الخاص ان يكتب آخر يعرف فيه الحضرة الامامية الشريفة بالاستاذ الفاضل والعربي الصميم الخ واغفل عمداً اسمي لاسباب لا يدركها الا من كان يدرك شيئاً من غوامض السياسة الهاشمية .

لذلك ظل الامام على شيء من الريب والتحفظ . ونحن ، لخاطر جال في ذهن الملك فلم يذكر في كتاب توصية اسم الموصى به ، قامي من نتيجة ذلك ما سيحي . ذكره . افضنا في الحديث بالوحدة العربية ، فكانت اول كلمات الامام في الموضوع : وصلت الى محط رحالها . بيد انه الداعي الى الوحدة الاسلامية ، فحاولت ان اقنعه ان الجامعة القومية اصح اسماً واسهل تحقيقاً من الجامعة الدينية . ومن أعز العرب أعز الاسلام .

وكننت قد طالعت قصيدة الامام المشهورة التي مطلعها :

مغلغلة منشورة في المحافل تهيم وتذري الدمع تهيام ثا كل

والتي يستنهض فيها المسلمين واخوان الدين ويحثهم على الاجتماع والتعاقد .
 ابا قوم هبوا شمروا وتعاضدوا وحوطوا ذمار الدين عن كل مائل
 كما فعلت اصحاب طه ومن تلا - همو قافياً اثارهم من حلالحل
 فقلت : ان الجنسية تجمع الشعوب والدين يفرقهم . واننا نحن المسيحيين
 في سورية مثل العرب المسلمين فتجمعنا القومية ، وهي التي حملتنا على التشرف
 رنكم ، ولا يجمعنا الدين . ثم انتقلنا من التعميم الى التخصيص - من مجمل
 القضية الى اجزائها - فكان الامام اكثر اهتماماً لذلك . مما دلني على انه ذو
 عقل عملي حاذق . واني اذكر كلمته عندما اشرنا الى المهمة التي انتدبنا انفسنا
 لها فسألنا قائلاً : هل عندكم كلام مضبوط ؟ الا ان بعض الزائرين دخلوا اذ
 ذلك فمر بيده على فمه ، فسكتنا ، وتأجل البحث في الموضوع الى وقت آخر .

دخل الزائرون المهنتون وفيهم بعض السوريين من طرابلس الشام وبعض
 الضباط الترك ، فظهر لنا ، من استقبال الامام ومن تقبيل اليد الامامية تقبيلات
 متنوعة لها درجات ومقامات ، ان العظمة « والحسوية » في صنعاء اشد منها في
 الحجاز . ان التبعة في ذلك على الاتراك الذين علموا الامراء هذه الاباطيل في
 الرسميات ، وروضوا عرب المدن على هذا التسكسك والخنوع . على ان تأثير
 الاتراك من هذا القبيل في اليمن اخف منه في الحجاز . وملوك اليمن من قديم
 الزمان كانوا شغفين بأبهة السيادة واباطيلها .

قرأت كتاباً لرحالة افرنسي ، رافق في القرن السابع عشر بعثة تجارية الى
 اليمن ، وصف فيه زيارتهم للملك في مقره ذلك الحين بالقرب من ذمار^(١)
 ووصف كذلك خروجه الى الصلاة يوم الجمعة وصفاً ينبئنا بما لعادات اليوم هناك
 من الجدوع في التقاليد . وهذا الامام يحيى في القرن الثالث عشر للهجرة يجلس
 على فراش الملك كما كان يجلس اجداده في القرن الثالث و يأذن بتقبيل يده وكفه

(١) هو الامام المهدي لدين الله الذي عقد في سنة ١٧٠٩ م معاهدة تجارة وولاء
 مع الفرنسيين . وكان مركزه في مواهب بالقرب من ذمار .

وركبته ورجله . بل يأكل فوق ذلك القات ويشرب من الماء ويحمد الله . ولا يقف مسلماً الا لواحد في ملكه .

على انه تزحزح قليلاً عندما دخل محمود بك نديم آخر وال من ولاية الاتراك في اليمن وهو كردي الاصل سوري المولد . فاستقبله واقفاً نصف وقفة ، وبادله قبلة اليد بقبلة في وجهه . ثم دخل ضابط تركي في ثوبه ونياشيته وجزمته فركع امام الامام وقبل يده وجلس على الديوان . ثم ذلك الافرنجي اي النمساوي الموكل بمعمل الخرطوش ، اي جرجي المشهور في اليمن ، وخصوصاً في عدن وجيزان حيث يودونه في غير اليمن . فقدمه الامام الينا قائلاً : هذا منكم . ثم دخل شيخ نحيل الجسم ، طويل اللحية ، حليق الشارب ، يشبه امير كيا من امير كبي نيوانكند القدماء فاستوى الامام واقفاً وصاحبه مصالحة الاقران . هو شيخ الاسلام الذي تبوأ مكانه في الزاوية . وكان قد تقدم حضرته ثلاثة صبيان ، منهم اثنان من اولاد الامام يرفلون بالاثواب المخططة ذات الاردان وعلى اكتافهم البرد البمانية ، وعلى رؤوسهم عمام مزرکشة بالقصب ومكتوب عليها آيات من القرآن . دخلوا دون ان يفوزوا بنظرة منه .

غصت القاعة بالمهنتين ، وكان حضرته يعرفهم الينا فيقول : هذا امين ، وهذا قسطنطين ، مسيحيان من لبنان . فقلت : حضرة الامام شغف بالسجع . فقال : انتم السجع ، تنوعت الاحاديث وكان هو مدير رحاها ، فسألني سؤالاً غريباً ثم جاب عليه فكان الجواب اشد غرابة منه : لماذا دُعي صاحب الديانة المسيحية بالمسيح ؟ فاجبته بكلمة اثرية وجيزة فلم يقنع ، فقال : لان رجله كانت مسحاء . و اشار بيده الى رجله ، ثم توكلداً بالسبابة الى خط الانحاء اي القوس في كفها .

قد ساء في والحق يقال هذا التشبيه وان لم يكن الاحتقار فيه مقصوداً ، وعاد بي الفكر الى جده ، الى مجلس الملك حسين ، الذي لا يسمع فيه الزائر كلمة واحدة تكدر او تسي . بل لا يسمع غير ما يسر ويفكه ويفيد . اما الرجل المسحاء والمسيح ! لم اتمكن على تساهلي المعروف من دفع ما وقر من هذه الكلمة

في النفس . وقد أكون أسأت الى الحضرة الشريفة في سؤال سألته لانه في ذلك الموقف لا يليق ولا يجوز . ولكن عذري اني طالب علم — سأخ في سبيله . قلت : اتعلمون يا مولاي كم عدد سكان اليمن ؟ فقال : بالتقريب ، لا بالتحقيق ، خمسة ملايين . فقلت وكم منهم محكمون ؟ فاجاب وهو يبتسم ويضم انامله الى كفه : اليسير ، اليسير . فقال الضابط التركي باللغة العربية وكان قوله ولا شك تزلفاً : كل واحد من الخمسة الملايين مطيع للامام ، فاعترضه الامام قائلاً : لا لا . ومال بوجهه الي وهو يشير بيده تلك الاشارة اللطيفة البليغة كأنه يقول : حفنة منهم فقط .

اما حدود اليمن فالامام لا يعرف منها غير القديمة التي كانت تشمل عُمان وحضرموت . فاذا اعتبرنا هذا التحديد وفهمنا اشارة الحضرة الشريفة ظهرت لنا مطامحه السياسية باجلى مظاهرها .

وكان الحديث بعد ذلك في السياسة الاوروبية فادهشني منه ما يعلم وما يهتم له من اخبار العالم . فهو بطالع الجرائد المصرية ، واذا ضاق دون المطالعة وقته يدفعها الى احد كتاب ديوانه فيلخص له الاخبار . كأنه من هذا القبيل مدير شركة اميركية او رئيس وزارة انكليزية . سألتني عن ارلنده — وهل حازت استقلالها ؟ سألتني عن لويد جورج — وهل يخلفه في الوزارة كرزون ؟ وعن زغلول باشا — واين هو الان ؟ وعن الاتراك — وهل عقدت المعاهدة بين مصطفى كمال والفرنسيين ؟ وعن اميركة — وكم سنة يحكم الرئيس ؟ وهل يعاد انتخابه ؟ وكم مرة يجوز ان يعاد ؟ فلما اخبرته عن الرئيس الاول جورج واشنطن الذي ترأس مرتين ورفض الثالثة قائلاً : ما تجورنا من الملوك لنقيم ملكاً علينا في هذه البلاد ، اعجب جداً . اما كلمته الماثورة : استعدوا في ايام السلم للحرب . فابرق لها جبين الامام كأنها حديث شريف ، واطرق وهو يهز برأسه ويقول : ناھي ، كلام ناھي ، حكمة رائعة .

وما توقف عن اكل القات وشرب الماء اثناء الحديث . ولا رد واحداً ممن جاؤوه يحملون العرائض والكتب . الا انها كانت تقدم بواسطة الحاجب فيفضها

في الحال ويقضي بها . ومنها عريضة طويلة مسحت اللطف والبشاشة من وجهه . وكنت وهو ينعم النظر فيها انظر اليه وراقب عينيه ، وفيها يبدأ الانفجار او ما يشير اليه . انما الغريب ان قد تشهر العين الحرب عليك في حين ان الفم ، مثل رسول السلم ، يسم لك مطمئناً . كثيراً ما شاهدت هذه السياج المتناقضة فيه . ولكنه في ذلك الاوان تغير تماماً فساد الغضب في ناظره ، وقلص العنف شفثيه فاستأذنا بعد ان فرغ من قراءة تلك العريضة ، وكانت قد طالت الزيارة ، فاشار بيده اشارة سريرة جافية ان اذهبوا اذهبوا . ولم يفه بكلمة سلام واحدة .

خرجنا كالمطرودين ، وبننا في امر هذا الامام حائرين . ابدوي هو اذا غضب ، وسياسي اذا رغب ، وشاعر في ما يجب ؟ اعالم مجتهد ، وحاكم مستبد ؟ أغليظ الحكامة ورفيق الشعور يجتمعان في شخص واحد — في لزيد رافضي ؟ هو في امور الدين والدنيا الحاكم المطلق المعصوم في الاجتهاد عن الغلط . ولكنه عادل ، وفي اقامة الحق لا يميل ولا يجاني ، وعند الاقتضاء سمح حلیم . ان له في حكمه فضائل اخرى ، منها انه يستشير ذوي العلم والخبر من رجاله ، وطريقته في الادارة والعمل منظمة ، وقوته على العمل عظيمة مدهشة . رأيت في ليالي رمضان ، وقد انصرف كل كتاب الديوان ، يشتغل حتى الساعة الواحدة بعد نصف الليل . وسيدخل القارىء بمدئذير الى ديوانه ، فيرى كل شيء في مكانه .

اما الان فعلاقتنا — في لغة السياسيين والصحافيين — متوترة . وما بدا منا ، على ما اعلم ، ما يسيء الحضرة الشريفة بشيء . فقد قبلنا « رجل المسيح المسحاء » قائلين : ان الامام من المجتهدين ، وطويل الباع في غوامض الدين . ولكن رجل حضرته أنيقة الشكل لها قوس بلوغ ، يدل بحسب علم الفراسة ، على طيب الارومة ، وحسن الذوق ، وكرم الاخلاق . فاین هذه الفضائل من تلك الاشارة العنيفة ، وذلك الوجه القطوب ؟ ونحن ضيوقة ورسلم والخبر اليه .
مرّ اليوم الاول بعد هذه المقابلة ونحن ننتظر من حضرته كلمة تسكن منا

البال ، او اشارة نعيد اليها الثقة والامل . ومرّ اليوم الثاني ونحن نحسب كل ساعة منه شهراً . ونود لو جاءنا احد يساعدنا على محنة الرب وسؤ الظن ، بل نود انفسنا بعيدين عن الزيود وبلادهم . أفلم يرض الامام يا ترى بكتاب الملك حسين ، ام هو في ريب من امرنا بما قد يكون سبقنا الى عاصمته والى ديوانه من الوشايات . فقد قال لي احد السادة : الناس مشتبهون بكم ، حتى الذين اكرمواكم يكتبون الى الامام ليتحرز منكم . فهل تلك العريضة الطويلة سيرة حياننا يا ترى ؟

استأذنا السيد علي زباره بزيارة المدينة فكان جوابه انه يخاف علينا من الاولاد بل على كيسنا من الشحاذين . ثم استأذناه في اليوم الثاني بالطواف حول السور فقال ان المشي في الشمس بتعبنا ، وقد تؤذينا شمس اليمين المحرقة . فالاحسن ان نخرج اذاً عند الغروب . ثم جاء سيادته عند الغروب يصحبه احد الموظفين يزورنا فتعذر علينا الخروج للنزهة . وقد قال ان اشغال الامام بسبب تغيبه كثيرة ، وسيأذن بمقابلة اخرى قريباً ان شاء الله

اما الرفيق قسطنطين فكان يستعين على هذه الحالة المزعجة بنظم الاشعار . فلما فتحت دفترى مساء ذلك النهار لأدون فيه بعض الخواطر اطلعت على ما يلي ، وبما اني لا اعتقد بالجن تيقنت ان البيتين من نظم مكروب مثلي . قال الرفيق :

ترجو الخروج الى المدينة باحثاً فيها عن الشيء الذي لا تعلم
لكن لسؤ الحظ بابك موصل « ان اللبيب من الاشارة يفهم »

وفي اليوم الثالث ، وانا اشك حتى في ما قاله الرفيق ، حاولت الخروج الى الساحة فردني احد الجنود في الباب . صدقت في شعرك مرة ايها الشاعر العزيز . فنحن لا نزال اسيرين . ولكننا علمنا السبب وقبلنا العذر يوم كانت الامام غائبة . فما السبب وما العذر الان يا ترى ؟ بادرت الى الورق والقلم وكتبت الى الخفصرة الامامية كلمة يمكنني ان اقلها بالحرف لانها اعيدت الي .

مولاي :

حياكم الله بالخير والسعادة . اما بعد فاني منذ وطئت ارضكم اسير
فضلكم ، وموضوع اكرامكم ، وسأكون مدى العمر شاكرًا لكم .
وجئت الان اسألكم ، واستمبح عن ذلك عذراً لعلمي بما انتم فيه من
الاشغال المتراكمة اثناء غيابكم ، ان تعلموني اذا كنتم تسمحون بمقابلة
خاصة ومتى . فاني مقيد بخطة سفر تضرني الى القيام باذن الله بالحدد من
زمان ومكان . وفي كل حال اني شاكر ابدأ لمولاي الامام ، فخر العرب
والاسلام ، حمى الله ذمارة ، واعز بنوده ومناره .

امين الريحاني

في ٢٥ شعبان سنة ١٣٤٠

فاعاد الامام كما قلت الكتاب الي وقد كتب في اعلاه بخط يده :

عافاكم الله ووفقكم لا بد نطلبكم لما اشرتم

اليه ان شاء الله قريباً ه .

والحرف الاخير ه علامته الخصوصية في كل ما يكتبه ويكتب باسمه .
زادني الكتاب حيرة واضطراباً . فضلاً عما ظننته اهانة مقصودة . أهذه
طريقة الزبود في المراسلة ؟ او انها طريقة الامام في ما يختص بالنصاري ، فلا
يرغب حتى بورقة من اشياهم ؟ قد اكون اسأت الظان ساعة الخنق والاضطراب ،
على ان ما عرفته بعدئذ وشاهدته اثناء اقامتي في صنعاء لم يكن ليزيل التأثير
الاول كله تماماً .

كادت تحملي تلك المعاملة على الاستئذان بالرحيل لاني ، ولا بد من
الجهر بذلك ، سئمت ما شاهدت في طريقي الى صنعاء من مظاهر الاجتماع
والسياسة . سئمتها كعربي محب لابناء جنسه ، راغب في نجاحهم وعمران بلادهم .
وها اني في صنعاء اسير ريب الامام بعد ان كنت اسير فضله . فما السبب في
الانقلاب ؟

مانمت تلك الليلة الا قليلاً . وكنت كل مرة استفيق اسمع السلك
يشغل مجدداً وفي انبائه البرقية ما قد يزيل في الغربة الكربة . ولا حاجة

لـ « قد » التوقع . فان سبب كرتنا كما تحققنا انما هو الملك حسين ، او بالحري كتاب التوصية منه . فرأى الامام الحكمة في ثبوت الامر قبل ان يفاوضنا بشيء ، فاشتغل السلك لذلك ، وكان الجواب من عدن ، والحمد لله ، مثبتاً ما اكرمنا من اجله ذلك الاكرام الجميل في الطريق . فاذا كان كتاب التوصية من صاحب الجلالة المنقذ الاكبر يجلب هذه الظنون والشجون فماذا عسى ان تكون نتيجة كتاب التحذير ؟

الفصل السادس

حكم الامام

الامامة بالسيف — شروطها — سبب الفتن والحروب — الرهائن — اعداء الامام — اليمن في الماضي — اول امام زيدي في اليمن — الفرق الزيدية — الائمة الاقدمون — اليمن الاكبر — القرامطة في اليمن — اول دخول الاتراك — اول ثورة عليهم — خروج اشراف امي عريش على امام صنعاء — خروج لحج وعدن من حوزته — رجوع الاتراك سنة ١٨٤٩ — انهزامهم ورجوعهم سنة ١٨٧٢ — ثم سنة ١٨٩١ — الامام المنصور — احمد قبضي باشا — الامام يحيى — ثورة ١٩٠٤ — حصار صنعاء — الصلح — ثورة ١٩١١ — عزت باشا — معاهدة ١٩١١ — رجوع الامام الى شهاره — الحرب العظمى — رسوله الى لحج والانكليز — كتاب ملوك العرب — اعداء الامام بعد الحرب — التجاؤهم الى الملك حسين والسيد الادريسي — الشوافع — العشائر .

ان الحكم في اليمن ديني وضعاً ومدني عملاً ، له فروع في الاصل مذهبية . وله مظاهر في العمل غير يمانية . فقد اخرجهم الامام زيد^(١) الذي ينتسبون اليه او الداعي الاول الى مذهبه في اليمن عن العقيدة بالامام المنتظر ، وعلمهم الترك بعض النظام في الادارة وفي الجيش . ولكن الحكم هناك قريباً من الديمقراطية لو انهم انتخبوا الامام وبايعوه على طريقة الصحابة ، بدل ان يجعلوا الامامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف . ولكن عقيدة غامضة باطنية في من انشق الزيود عنهم حمايتهم ، على ما اظن ، على التمسك بضعها . قالت فرقة الشيعة : لا امام بعد الامام الثاني عشر وهو صاحب الزمان^(٢) فامست من العقائد الدينية

(١) هو زيد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب الذي جاهد ليترجم الامامة التي اغتصبها الامويون فاضطهد وصلب .

(٢) هو الامام الثاني عشر الذي ظهر فترة في الارض ثم اختفى سنة ٥٢٦ هـ . غاب عن الابصار لا عن القلوب ، ولا يزال غائباً . ولكنه حي ابدأً ، وموجود في كل مكان ، وسيظهر — هو الامام المنتظر — ليظهر العالم من الفساد والفضلال .
حاشية اخرى : قد تفضل احد علماء النجف فاصلى ما في هذه الحاشية من الاغلاط التاريخية والدينية فقال ان الامام الثاني عشر ولد سنة ٢٥٥ او ٢٥٦ هـ ، وانه غاب

التي ينمو فيها مكروب الخرافة ، فيفسد الحياة الروحية ، ويشين اساليب العبادة فيجعلها سخرية .

وجاء في مذهب الزيدية ما ينقضها ويقضي على صاحب الزمان . كأن الزيديين يقولون لخصومهم : اذا اتم رضىتم بامام موجود دائماً في كل مكان ، ولا يرى في مكان ، فنحن لا نرضى . نحن نشتهي ^(١) ان نرى الامام امامنا ولو في مكان واحد ، وفي فترة من الزمان . ولم يهتدوا في ذلك الحين على ما اظن الى غير السيف اثباتاً لعقيدتهم وتحققاً لاملهم فقالوا : ان الامامة بعد الحسن والحسين شورى في ولدتهما ، فمن خرج منهم شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، وكان عالماً ورعاً ، انما هو الامام المنتظر .

اما شروط الامامة عندهم فاربعة عشر ^(٢) شرطاً ، منها ان الامام يجب ان يكون مكافئاً بالغاً ، وحرراً اي ليس بعبد ، ومجتهداً ، وفارساً مقداماً . هي اربعة اصول صحيحة تضمن على الاقل النظام في الملك ، لانها تنفي الوراثة وفيها من المجهول المخدور ما قد يكون الشر الاكبر في الاحكام كما يدل على ذلك تاريخ الملكيات وبعض من حكوها من السفهاء والمعانين . وهي تحول دون مطامع العبيد والمماليك - لا يزال منهم في قصور ملوك العرب اليوم وبعضهم يرتقون الى

عن الابصار التبية الصغرى اي عن العامة دون الخاصة سنة ٢٦١ هـ . وغار التبية الكبرى اي عن الجيم الاندلس سنة ٣٢٨ هـ . فيكون عمره اليوم ١٠١٨ سنة لا ٨٢٠ سنة كما يظهر من التاريخ المفلوط .

ثم قال : « والامام الثاني عشر عند الامامية من الشيعة بشر مخلوق ، حيا ويموت ، يأكل ويشرب ، وهو في مكان مخصوص من الارض غايته اننا لا نعرفه وربما يوجد من يعرفه وليس هو مقيد بمكان بل يتجول في الافاق متنكراً متخفياً الى ان ياذن الله بالظهور » . قد يشكل على القارى قول العالم النجفي انه اي الامام المنتظر « في مكان مخصوص من الارض » وانه « يتجول في الافاق متنكراً » والذي اراه على قصر باهي في هذا العلم ، ان في الحالين شيئاً من الحقيقة . فهو يقبم في مكان مخصوص برهة من الزمن ثم يتجول متنكراً في الافاق . وقد قال لي الداعي في عدن ان صاحب الزمان هو اليوم في اميرك .

(١) اشتهى في اصطلاحهم الشيء اي اراده واحبه .

(٢) وهي ان يكون الامام مكافئاً ذكراً ، حرراً ، مجتهداً ، علوياً ، فاطمياً ، عدلاً سخيّاً ورعاً ، سليم العقل ، سليم الخواص ، سايم الاطراف ، صاحب رأي وتديبير ، مقداماً فارساً .

المناصب العالية — الذين زعزعوا اركان السيادة العربية الاسلامية واوهنوها بما كان في الماضي من اختلاساتهم المعروفة . اما الاجتهاد فيوجب على الامام العلم . والعلم اليوم في اليمن وفي نجد ينحصر بالاربعة الاصول ، اي الدين والحديث والفقه واللغة . ولكنه شرط مرن ، فيتناول في تطور الحياة ولا شك شيئاً من العلوم الكونية . اما الشجاعة والفروسية فليس من ينكر الفضل فيها لم تكونا الركن الاول لعقيدة دينية او لحكم مدني .

ولعمري ان شروط الامامية في الزيدية لمن خير ما تتطلبه الجماعات في حكمها لولا هذا الشرط الذي ينزل السيف منزل الشورى والمبايعة فهو ولا عجب السبب الاكبر في الفتن والحروب في تلك البلاد الجميلة التي دعاها الرومانيون سعيدة ، وتتمنى نحن اليوم ان تكون السعادة فيها حقيقة لا خيالاً .

وكيف يثبت ملك فيها ويدوم نظام ، وكيف نضمن سبل الفلاح وال عمران ، اذا كان يحق لكل من كان شجاعاً طامحاً ، وكانت له بعض السيادة في عشيرته ، ان يخرج شاهراً سيفه ، داعياً الى دينه ، طالباً الامامة ؟ وان في اليمن اليوم عدداً من هؤلاء الطامعين اليها ، ومنهم من كان اباؤهم او اجدادهم ائمة حاكمين . فاذا احسوا بوهن في حكم الامام ، او بضعف في موقفه ، فسيف الاسلام عليه . فيتسع المجال اذ ذلك لغيره من سيوف الاسلام ، فتشب نار الفتنة ، وتدق طبول الحرب ، ويخفق دخان الفوضى روح الامن والعدل والنظام .

لا نخطيء اذا قلنا ان الفتن في اليمن حالة مستمرة بتخللها في بعض الاحابن قنرات يسود فيها السلم والسكينة . وقد كانت قبل ان جلا الترك عنها ميداناً لسيف الاسلام — الجهاد ثالث الماء وازاد — بل لسيف الامام زيد ، بل لسيف كل طامح من السادة المحترمين — ميدان هلاك ودمار ، لا يسكن فيه غبار ، ولا تخمد له نار ، الا في فترة عتياك عام او نفوق شخصي مثل فترة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد ضبط الامر فيها بيد من حديد ، وبالعدل — والرهائن .

ولا عجب ، وتلك طريقة الاستيلاء على الامامة ، اذا كانت الرهائن اساس

الملك . لكننه ، ولا ريب ، اساس فاسد ، لا يسلم حتى في ايام الحرب . اجل ، ان الرهائن دمك في حكم حضرة الامام ، بل دمك في نفسية اهل اليمن ، لان الامة التي ترضى في ايام السلم ان يؤخذ ابناؤها رهينة الوفاء والامانة ، وان كانت سليمة العقيدة ، فليست بسليمة في وطنيتها . لسنا نلوم الامام وهو يحكم مثل هذه الامة ، واعدائه يحيطون به من الخارج ومن الداخل شمالاً وغرباً وجنوباً . ومع ان البلاد اليوم في اكثر انحائها هادئة ساكنة ، وسبل التجارة والسفر فيها آمنة ، فهو دائماً في احتراب ظاهر مع الادريسي ، وفي احتراب خفي مع الشوافع ، وفي احتراب متقطع مع حاشد وبكيل ، وفي احتراب سياسي مع الانكيز ، وفي احتراب كذلك مع من يدعون حمايتهم من العرب في النواحي التسع حول عدن . هؤلاء اعداء الامام ، فضلاً عن السادة اقرانه ، الطامعين بمكانه . ليس فراش الامامة بالفراش الوثير ، ولا امل في تلك البلاد بالسلم الدائم واليمن والنجاح الا في نزع حق الامامة من السيف ووضعه في الشورى الحقيقية ، في المبايعه بالاقتراع بموجب السنة وعلى طريقة الصحابة .

لا ينكر ما كان لليمن في الماضي ، في عهد اسلاف الامام يحيى ، من المجد الاثيل والسيادة الواسعة . وسأعود بالقارىء الف سنة الى الوراء ولا اكلفه قراءة اكثر من صفحة او صفحتين ، فيها حقيقة الزيدية والامامة او الخلاصة التي تهتمنا في هذا المقام .

في القرن الثالث للهجرة جاء الى اليمن من العراق السيد يحيى بن الحسين القاسم الزبيدي يدعو الناس الى المذهب الزيدي . فاقام في صعده يعلم عدة سنين ودعي الامام . هو رسول الزيدية الاول في اليمن . ولكن الذي اسس الامامة في صعده هو القاسم بن محمد الذي يتصل نسبه بالزبيدي المذكور .

بيد ان لا تخلو هذه السلسلة من التقطيع لان الشرط الذي ذكرناه — الامامة بالسيف — فتح الباب للحسني والحسيني من السادة والاشراف . فتشعبت الزيدية الى ثلاث او اربع فرق ، منها الجارودية نسبة الى ابي جارود زياد بن ابي زياد الذي سمي مرحوباً . والسرحدوب كما قيل شيطان اعشى يسكن البحر .

وهذه الفرقة نقول بالنص من النبي على امامة علي وصفاً لا تسمية ، وتختلف والفرق الاخرى في الامام المنتظر . والسليمانية تتبع سليمان بن جرير ونقول ان الامامة شورى بين الخلق ، الا انها مقيدة بواحد من خيار المسلمين . وهناك امور طفيفة يختلفون عليها منها سب الخليفين الاولين ابي بكر وعمر ، فمنهم من يقول بوجوب السب ، ومنهم من يقول بوجوب الاغضاء .

كان اليمن في عهد الائمة الاولين قطراً كبيراً يشتمل على عمان وحضرموت ، ويمتد الى الحجاز ، فيدخل فيه عسير وقسم من تهامة . فالامام شرف الدين بن شمس الدين « ٩٣٠ هـ » الذي مدحه موسى بن يحيى بهران شاعر صنعاء كان من الفاتحين الكبار . والامام المهدي احمد بن حسن استولى على اليمن كله بما فيه عمان وحضرموت . والامام المهدي لدين الله هو الذي اذن للفرنسيين ان يدخلوا عدن والمخا ، وان يزوروه كذلك في مقره بمواهب ، وعقد معهم معاهدة تجارة وولاء سنة ١٧٠٩ م .

لكن الامامة لم تكن من سلالة واحدة دائماً كما اسلفت القول ولم تكن دائماً مستقلة . فقد حكى القرامطة في اليمن ردحاً من الزمن قبل مجيء الترك ، ثم استولى السلطان سليمان القانوني على بعض الاقطار العربية في اوائل القرن السادس عشر « ١٥١٧ م » ومنها عدن وقسم من اليمن . بيد انه ما عزم ان يثار اهل اليمن على الترك فاخرجوهم بعد عشرين سنة من البلاد واستمرت الامامة مستقلة بعد ذلك اكثر من مئة سنة فنار عليها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر شريف ابي عريش بتهامة واستقل عن اليمن . سيحيى ذكر هذه الحوادث في الكلام على الادريسي . ثم ثار عليها احد عمالها في لحج فاستولى على عدن واطن استقلاله . وسيحيى ذكر هذه الثورة في كلامنا على سلاطين لحج . وفي سنة ١٨٤٩ عاد الاتراك بقيادة توفيق باشا الى اليمن فنزلوا في الحديدة واستولوا على ابي عريش ، ونقدوا الى صنعاء . ولكنهم لم يستولوا عليها ، ولا تمكنوا من البقاء في اليمن الاعلى . الا ان الثورات في تهامة وفي لحج قسمت البلاد ، واضعفت شوكة الامامة ، فقام السادة سنة ١٨٧٢ على الامام واستعانوا

بالترك فدعوه الى صنعاء . ففازوا هذه المرة ، ووطدوا في الجبال العالية حكمهم الى حين . لان اهل اليمن الذين بثورون على ساداتهم والسادات الذين يتمردون على امامهم لا يوالون الاجنبي طويلاً . ففي سنة ١٨٩١ نهضوا على الترك فغار بهم واخرجوهم من صنعاء . وكانت تلك الثورة فاتحة حروب وقتن استمرت ربع قرن ، يوماً تضطرم ناراها ، ويوماً تهمد تحت الرماد . وعند ما قام عليهم الامام المنصور والد الامام يحيى بعثت الدولة الفريق احمد فيضي باشا لاختماد الثورة ، فنقدم بجنوده الى صنعاء فحاصرها واستولى عليها ، فتقهقر الامام المنصور الى صعده . وعند وفاته خلفه ابنه الامام يحيى ، فسعاد سنة ١٩٠٤ الكرة على الترك ، فحاصروهم في صنعاء حصاراً دام ستة اشهر — « اطعمناهم النار والفار » — فسلموا بدون شرط . وقد فاز ايضاً الثائرون فوزاً مبيناً في نواحي اليمن الاسفل ، فغنموا من الترك في تلك الثورة سبعين مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والسلاح على ان احمد فيضي باشا الذي كان يومئذ في البصرة عاد بخمسين الف من الجنود لتأديب العصاة ، فأستولى ثانية على صنعاء ، ثم تنبع الامام الذي انسحب بجنوده الى شهاره . ولكنه دُحر شر دحرة هناك ^(١) فعقد بعدها اتفاقاً والامام — رفع صلحاً — لم يدم غير بضع سنين .

ففي سنة ١٩١١ كانت العشار قد تافقت الى الحرب ، فهجمت على صنعاء واحاطت بها تطلبها باسم الامام . ولكنها لم تقز فوزها في حصار ١٩٠٤ — ١٩٠٥ . وكان يومئذ عزت باشا والي اليمن ، وكانت الدولة على اهبة الحرب مع ابطاليه . فسعى عزت بما كان له من حنكة ، وفصاحة ، وكرم اخلاق الى مصالحة الامام ليمنعه على الاقل من محالفة العدو كما فعل بعدئذ السيد الادريسي وقد كانت عزت كريماً جواداً ، فاستغوى العرب بالمال ، واستمال الامام بفصاحته وحذقه . فعقدت معاهدت ١٩١١ (شوال ١٣٢٩) لمدة عشر سنين وكان من شروطها ان يعترف الامام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة ان لا يكون في البلاد غير المحاكم الشرعية التي يعين الامام قضاتها . قد تعهدت الدولة

(١) راجع الشرح في صفحة ١١٢ من هذا الجزء.

كذلك بان تدفع للامام ولرجالہ السادة ومشايخ حاشد وبكيل مشاهرات مالية مقدارها الفان وخمسمئة ليرة ذهباً . وبما ان الزيود ، بموجب مذهبهم ، لا يتوجب عليهم دفع الزكاة لغير الامام امامهم كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد حسم اثنين ونصف بالمئة بدل الجباية .

بعد عقد هذه المعاهدة عاد الامام يحيى الى الحميم في شهاره ، وظل والاتراك على ولا . ما داموا يدفعون المشاهرات ويجمعون له الزكاة . الا انهم لم يتمكنوا من القيام بما تعهدوا به بعد دخولهم في الحرب العظمى ، ومع ذلك فلم ينقلب عليهم ، ولا ساعدتم على الادريسي في تهامة ، ولا على الانكليز في عدن . و يظهر ان الانكليز هناك كانوا قد بدأوا بفاوضونه بطريقة غير رسمية . لينضم الى الاحلاف في الحرب فارس بطريقة غير رسمية ايضاً ، لان رسوله جاء الى الحج لا الى عدن ، يطلعهم على احواله ويعتذر . وقد كان يومئذ الكرنل جاكوب ، صاحب كتاب « ملوك العرب »^(١) المعاون الاول للحاكم في عدن فذكر هذا الخبر في كتابه .^(٢)

الامام يحيى بن حميد الدين هو من سلالة الرسول الزبيدي الاول في اليمن السيد يحيى بن الحسن القاسم الرمي . وقد كان والده المنصور مفتي صنعاء ، وذا

(١) من غرائب الاتفاق ان عنوان كتابه الانكليزي ، الذي طبع في السنة الماضية والذي ينحصر موضوعه باليمن وصير فقط ، وعنوان هذا الكتاب واحد . وقد قال الكرنل جاكوب في صفحة ٢٢٤ من كتابه ان التوراة التي جاء فيها ذكر ملوك العرب اوجت اليه العنوان . اما انا فاخذت عنواني من ملوك العرب انقسم .

(٢) « بعد دخول الاتراك في الحرب في ك ٢ سنة ٩١٥ ارسل الامام رسوله محمد علي شريف الى الحج ليستعلم مقاصد الانكليز . وقد قابلت الرسول وكان السلطان علي (سلطان الحج وحليف الانكليز) حاضراً . قال الرسول ان الامام لا يتخلف مع الترك وبينهم اتفاق على هدنة تستمر عشر سنين . مع انهم بعد ان دخلوا في الحرب لم يدفعوا مرتباته ومراتبه عشر حاشد وبكيل . ثم قال ان الاتراك عرضوا على الامام ان يسحبوا من صنعاء لتكون له السيادة فيها ولكانوا يسحبون من اليمن كله لو سمح الالمان بذلك . قد اقموا الترك بان انسحابهم من اليمن يفتح الطريق للانكليز فيحتلون تلك البلاد . »

تفوذ كبير في عهد الامام شرف الدين . فلما توفي الامام انتخب بالاجماع خلفاً له ودُعي بالمنصور . وبعد وفاة المنصور خلف ابنه يحيى المتوكل على الله بالامامة . وهو اليوم في السادسة والخمسين من سنه وفي الثانية والعشرين من حكمه ، قضى اكثرها كما قلت في الاحتراب والمهادنات . ولحضرة الامام اربع زوجات شرعيات جاءه منهن اربعة وثلاثون ولداً مات منهم ثمانية عشر ، اما الباقون فمنهم محمد سيف الاسلام البكر ، والمطهر ، والقاسم ، والحسين ، وخمس بنات متزوجات .

عندما توفي ابوه المنصور سنة ١٩٠٢ قام بعض السادة يطالبون بالامامة ومنهم السيد احمد بن قاسم بن عبدالله بن حميد الدين المعروف بالضحيفاني وهو لا يزال حياً . ولكنهم لم يفلحوا . ثم بعد اعلان الهدنة تحركت ركاب الامام من السوده جنوباً ، وتحرك غيره كذلك يعني الامامة . وكان في البلاد حزب يقاومه مقاومة شديدة فلجأ زعماءه الى اعدائهم يستنهضونهم على الامام . هي عادة في العرب لم تتغير من عهد الامويين في الاندلس حتى اليوم . كتب اعداء الامام الى الملك حسين ، والى الادريسي ، وحتى الى الانكليز في عدن ، فبعثوا بوفد سافر رجاله سرّاً اليها عن طريق مأرب سنة ١٩١٩ وقصدوا السفر الى الحجاز شاكين مستنجدين . ولكن الانكليز لم يأذنوهم بالمرور فرجعوا الى بلادهم . قد سمعت من مصادر شتى ما يدهش وبضحك من اخبار هذه الفتنة ، واغربها ان الامام يحيى رشى بعض الموظفين الكبار من الانكليز في عدن ليوقفوا اعداءه اعضاء الوفد ، فحققوا له تلك الرغبة .

قد استتب لحضرتي الامر بعد ذلك فحكم بيد من حديد . وانتفع بمشورة من ضباط الترك فنظم قسماً من جيشه . وانتفع بنصراني نمساوي فأسس معمل الخرطوش . وانتفع بمذهب اجداده فعارب الادريسي وتغلب الزيد على الشوافع مراراً . الا وعنده المجاهدون في سبيل الله يحاربون غيرهم من المجاهدين كذلك في سبيل الله . ان المرء لياسف على امة عربية مجيدة ترفع المذهب على الكتاب والسنة ، او بالحري تجعل المذهب وسيلة الى الاستيلاء والسيادة .

اني على يقين ان لو حكم الامام يحيى حكماً مدنياً بحتاً ، حكماً عربياً يمانياً لا
 حكماً زدياً ، لتمكن من تحقيق مطامعه السياسية . فالشوافع اذ ذاك يدبون
 له طائعين راضين ، او انهم يابون على الاقل ان يكونوا آلة مذهبية في يد اعدائه .
 اما اليوم فمها قيل في عدله الجرم ، وحلمه الشامل ، فالشوافع في حكمه غير راضين ،
 والذين في الجيش منهم يحار بون الشوافع اخوانهم مكرهين . ومن المظالم التي
 يشكونها انه يجمع الزكاة والاعشار منهم بالتضمن كما كانت تفعل الدولة في
 الولايات . والعشائر مثل الجلاد ، مكروه في كل بلاد .

الفصل السابع

الضرائب والسلاح

المسوع واليقين — قوة الامام — عزلة النبي — المذهب والجنسية والوحشية —
 الجند النظامي — المجاهدون — العرض يوم الجمعة — انواع المدافع والبنادق —
 معمل الخرطوش — قصر غمدان — فني الامام — قصص الكنوز — حكاية
 السيد المقسومة الى ثلاثة اقسام ، وحديثه — « الحياة هبة من الله ونحن نهبها
 الامام » — الضرائب — العشور — الزكاة — رسم الجمارك والتوافل — والجزية
 يدفعها اليهود — بيت المال — اليوم المنتظر — غلبوم العرب .

كنت اسمع الناس في جده يتكلمون عن الحكومة العربية فيذكرون
 اليمن كأنه ولاية من ولاياتها ، وكأن الامام ، وهو العربي الصميم — هالك
 قصيدته في جريدة القبلة — يبغى الوحدة التي ينشدها الملك حسين ولا يقبل بغيره
 زعيماً . وسمعت بعض الناس في عدن يقولون ان بضع طيارات تبدد صفوف
 الزيود وتشتتهم في الاودية والجبال ، فتسبيهم الامام ، ووحدة الاسلام . ولكننا
 سمعنا كذلك كبار قواد الحضرة الامامية الشريفة ، وشاهدنا جنودها النظامية .
 لا نظن ان عدناً تشهد ما شاهدناه ، وان الحجاز يسمع ما سمعناه ، لان الحقيقة
 في البلدين مشوهة ، او مطحوسة ، او مبهولة .

وهذا مما يؤسف له . فان ملوك العرب وامراءها ناؤون بعضهم عن بعض ،
 وقلما يعرف بعضهم بعضاً معرفة اليقين . قد يسمع احد المسافرين كلام مثل
 ابن الوزير ، فيحمله الى الحجاز ، فيظنه الناس هناك كلام الحكومة . وقد
 يسمع احد رجال الامام المعتدلين فيتصور في كلامه صورة لآراء الامام
 ومقاصده . لا انكسر ان شيئاً منها ينعكس في كلام الاثنين . ولكن الامام
 الكبير ، الكبير باستعداده وبقصده وبطمحه ، لا يظهر في كلمة بقولها هو او
 يقولها احد رجاله .

هو الرجل العالم الحكيم المعتدل — قد سمعته يتكلم . ولكن اعماله ، وقد

ادهشنا بعضها ، وبعضها راعنا ، تدل على علم يشوبه التعصب وعلى حكمة تضعفها العقيدة . اما قوته الحربية والسياسية فلا ننحصر بالزبود ، لانهم في من يحكم الثلث فقط^(١) وانما هي في تلك العزلة التي توجهها العقيدة ، وبثبتها التاريخ ، وتعززها الجبال . اجل ، ان قوة الامام يحيى لني ثلاث يقدها اهل اليمن ، هي المذهب والجنسية والوحشية^(٢) وان في نفسه مواهب تتغذى بهذه القوات الثلاث ولا تقف عندها . فهو وان كان التكم طبعاً فيه ، صريح الكلمة في مواقف الثقة والاطمئنان . وهو ، وان كان زبدياً ، يقبل هدية من الانكليز ، فيركب السيارة ، وياذن بتصوير جيشه النظامي . وهو ، وان كان ديمقراطياً في مسلكه الشخصي ، يرغب في تلك الابهة العسكرية التي يسير بها الى المسجد ، ثم يشاهدها من نافذة قصره مرة كل اسبوع بعد صلاة الجمعة .

قد شاهدنا شرادم من الجند في ماويه واب وريم وذمار . ولكننا في صنعاء شاهدنا يوم العرض فرقة كاملة تامة بعديتها واجزائها ، بنوبتها ، بسرقتها ، بمشاتها ، بمدفيعتها . وكان بعض ضباط الترك يركبون البغال ، وقد علموا ان اليمن ان يخطو خطوة الجندي الالماني الرسمية ، خطوة البط ، Goose-step في حين ان الفرسان يلعبون بالسيف والرمح وخيلهم ترقص على نغمات الموسيقى . وشاهدنا بين الجنود الزرقاء ثلة في ثياب صفراء ، قيل لنا انهم تلاميذ المدرسة الحربية ، ضباط المستقبل .

اما السلاح فعند الامام من البنادق انواعها^(٣) ، بعضها محبوب وبعضها مغموم ، وبعضها مشتري من رجال عسير . وان معمل الفشك في قصر

(١) يحكم الامام نحو مليونين ونصف مليون من عرب اليمن منهم زهاء مليون ونصف مليون من السنيين الثواقف ، وعشرون الفا من اليهود ، والباقي من الزبود .
(٢) اني استعمل هذه اللفظة ، وحشي ، كما يستعملها اهل اليمن فهم يقولون : اهل اليمن وحشيون . ويريدون بذلك انهم يتفرون من التريب .
(٣) قيل ان عند الامام اربعمائة الف بندقية . ولكن ، منها ما هو غير صالح اليوم كالتلپانية القديمة . وعنده متا مدغم متنوعة ، منها الجبلية والرشاشة . وقد رأيت يوم العرض مدغمين من طرز الهاون .

غمدان^(١) الذي يديره جرجي النمساوي يشتغل دائماً ، فينجز أربعة صناديق كل يوم ، في الصندوق الواحد الف فشكة^(٢) . وقد قيل لي انه يستطيع ان يجند ، خلا الجيش النظامي^(٣) ثلاثمئة الف من المجاهدين . على ان هذا القول لا يخلو من المبالغة .

في كل حال يحق للامام ان يردد انشودة الانكليز الحربية الاستعمارية فيهتف قائلاً : عندنا المدافع والرجال ، وعندنا فوق ذلك المال . اني اشهد على الاولى والثانية شهادة عين ، وقد سمعت عن الثالثة اخباراً شبيهة باخبار الجبل والكنوز المرصودة . فالامام غني ، غني جداً . عنده في كل بيت من بيوته في بير العزب خزنة من الذهب والفضة . لذلك تسمع الحرس في الليل يتبادلون كل ساعة كلمة الامان . وعندده في شهاره ، في قنن الجبال هناك ، كنوز لا يعرف الطريق اليها سواه . واذا اكتشفت الطريق فالحجر الذي هو باب الكنز لا يعرفه سواه . واذا عرف الحجر فلا يستطيع ان يرفعه احد سواه ، لانه موضوع في شكل سره ، مفتاحه ، عند الامام . دعنا والكنوز .

ان الضرائب والميزانية تشهد ان الحضرة الشريفة غنية ، غنية جداً ، لانها مثل الاكليروس عند النصارى تأخذ ولا تعطي . في ايام الدولة كان اهل اليمن يدفعون الزكاة فقط ، وكانت العشار معفية منها . اما اليوم فهم كلهم يترحمون على الاتراك . قد اسمعتك شكوى الجندي وشكوى الفلاح . واليك الان بحديث غريب لرجل غريب ، ما عرفته من ثيابه أجندياً هو او فلاحاً او سيداً . فقد كان يلبس فوق رداثة معطفاً افرنجياً من الجوخ ، اكل الدهر عليه ومثرب ، وهو في رقاعه وطوله ووسعه وازراراه البيضاء والسوداء آبه في الزي والاختراع ، وكان الرجل يشد فوق هذا المعطف الجنبية اي الخنجر ويحمل بدل البندق العصا .

(١) قصر غمدان القديم دُرس والبناء القائم مكانه اليوم يدعى باسمه ويختصرونه في صنعاء فيقولون القصر . وفيه معمل الخرطوش والسكة والسجن .
(٢) هم يجلبون الرصاص ويستخرجون من ارضهم ملح البارود .
(٣) عدد الجيش النظامي خمسة الاف .

استوقفت هذه القيافة المبتكرة نظري فسألت الرجل عن مهنته فقال :
مهنة الاجاويد . فقلت : زدني علماً . فقال : نعطي ولا نأخذ . فاعتذرت
واستغفرت فقال : تريدنا بلغة الفقهاء . قلت : بلغة من فضلك افهمها . فاجاب
وهو يهز برأسه . حياننا هبة من الله ونحن نهبها الامام . لا نربح ولا نخسر .
فقلت ولكن للهبة طرفاً واساليب . فقال ضاحكاً وهو يلطم صدره بيده : كلها
عندي . انا اصلاً ، كما يقول الفقيه — وماذا يقول الفقيه ؟ — يقول : انا اصلاً
واحد اماراً بالسوء . اما انا فتلاثة وفي كلهم الخير . ثلثي يا افندي شيخ ، وثلثي
فلاح ، وثلثي جندي ، والمجموع سيد .

— نعم انا سيد ، وان كان السادة ينكرون ذلك علي . الثلث الاول خدم
الامام فجمع له الزكاة . جمعها بهذه — وهز بيده العصا — جمعها « ظمط »
« تقوداً » ، جمعها مالا « مواشي » ، جمعها اعشاراً ، وحتى ثماراً . وما اكلت
والله ثمرة مما جمعت ، ولا لطحيت يدي بنقطة دم من شاة او حمامة . كلها
للامام . والثلث الثاني دفع الزكاة . وكنت ادفعها مسروراً مستأنساً ، فلا ارجم
العشائر ، ولا اخي . الحمام . دفعت خيرات « كثيراً » وما بقي شيء بعد خمس
سنين من الارض او المال او الظلطل . كلها للامام . والثلث الثالث يا افندي ،
خاض من اجل الامام ساحات الوغى . وفي شاهدان ، هوذا الاول ، وذا الثاني
— قال ذلك وهو يكشف عن صدره ورجله ليريني الجرحين — وما عدت الى
بيتي وفي جيب « بئشة »^(١) واحدة . لا والله . . . خمس ريبالات ، هذا الرمم
ولكن الريال فضة والعين لا ترى الفضة . تقبضها بئشات . ست بئشات كل
يوم — والباقي للامام . وبما اني مجاهد كنت اشترى القات من كيسي ، ثم
يوزعون القات على « النظام » « العسكر النظامي » القات والبُر « الخنطة » .
اما المجاهدون فله امرهم وعلى الله — ست بئشات كل يوم . والظلطل مخزون ،

(١) الريال النساوي يقسم الى ثمانين بئشة ، والبئشة نحاسة ضربت في صنعاء واللبيرة
العثمانية نساوي تسم ريبالات نساوية فتكون قيمة الريال احد عشر فرشاً تركياً وقيمة البئشة
ثلاث بارات .

مخزون ليوم شديد تقول لحضرة الامام : من شروط الامامة السخاء .
 فيقول لنا ، وهو العالم الاكبر : ومن شروط السخاء وضع الحقوق في موضعها
 ليس بالتبذير الامام رجل كبير عظيم ، ينظر الى المستقبل بعينين . له
 مقاصد كبيرة . ونحن كلنا للامام . نعطيه ، نعطيه ، ولا نأخذ منه الا ما شاء .
 ان يتفضل به . الحياة هبة من الله ونحن نهيبها الامام شاكرين . هذه هي الحقيقة
 يثبتك بها عذا السيد . فقد صرت سيداً يا افندي لاني لا اخدم اليوم الامام
 بغير الكلام .

اما الحقيقة كلها فهي ان الشكوى من الضرائب عامة ، وقليل من ينظر اليها
 نظر هذا السيد الظريف . فالامام يأخذ من المسلم اعشار الارض عيناً . والمخضرات
 اي الثمار - والقوات منها - ثمن فيدفع اصحابها العشر تقدماً . ثم زكاة المواشي
 والدواجن و « القراش » « الدواب » وزكاة التجارة والمخازن ثم الزكاة
 الاصلية ^(١) ومنها الفطرة اي زكاة البدن تدفع في رمضان ، وزكاة الحلبي حلي
 النساء من ذهب وفضة . وفوق ذلك كله اعانة الجهاد عند الحاجة . اصف الى
 ذلك الرمم المفروض على اليهود وان كان قليلاً . فاليهود في اليمن ذميون
 يدفعون الجزية ، وهي ثلاث درجات : ثلاثة ريات في السنة على الغني ،
 وريالان على المتوسط ، وريال ونصف ريال على الفقير . كل هذه الضرائب
 تدعى في اليمن زكاة ، الا انهم يقسمون الزكاة قسمين ، ما يدفع من الجنس
 وهو العشور ، وما يدفع تقدماً .

كل ما يجمع من العشور والاموال يحفظ في بيت المال الذي له فروع في
 كل الاقضية . وفي هذه الفروع اي المستودعات دائماً كثير من الحبوب والبن
 وغيرها من لوازم المعيشة ، التي لا يصرف شيء منها الا بامر من الامام . على ان
 من حسنات بيت المال انه يقرض المحتاجين مما فيه ويستوفي الدين منهم من
 الموسم الجديد دون فائدة ، وهي في اليمن ممنوعة اطلاقاً ، في التجارة وفي
 المعاملات كلها ، ممنوعة شرعاً وعملاً .

(١) تبلغ قيمة الزكاة الاصلية خمسة الف ريال اي خمسين الف جنيه .

وما سوى القرض فلا ينفق من بيت المال الا قليلاً ، لان عند الامام
 مصدر خراج آخر هو الجرك ورمم القوافل . فكل ما يدخل الى صنعاء من
 عدن او من الحديدة اليوم يدفع رسماً معلوماً . وكذلك كل حمل وكل دابة محملة .
 فمن هذه الرسوم ينفق الامام على حكومته . اما بيت المال فلا تمسه يد صالحة او
 ائيمة . كل ما فيه مذخور بعون الله ، وبفضل الامام والرهائن ، مذخور لليوم
 المنتظر . غليوم العرب الامام ، المان العرب الزبود .

الفصل الثامن

الشئائل القدسية

خادم لا يعجبه شيء - شهادة في الامام - رآه جالساً تحت الشجرة يقضي في الناس - دعوا الصغار بأنون الي - التناقض في سلوكه - التصد من الجلوس في القلاة للناس - كيف يقضي الامام يومه - مكتبة من المخطوطات - كتاب الاكليل - « قبح الله ملكاً يدخل عليه من هو اعلم منه » - المدارس - العلماء والقراء والعامّة - ذكاء الاولاد - حب العلم والحرب - الامام الامبراطور - الامام الطيب - الكرامات والتشوير .

كان للرفيق قسطنطين خادم مدني وهو ولد مغربي نشأ في كنف الاشراف بمكة ، فما اكتسب غير المشاكسة والمكابرة ، وما كان رأس ماله في الحياة غير رأس من حديد ولسان ذي حدين . استصعبه الرفيق ، فكان اضحوكة الطريق ، واعجوبة الخطر والضيق . وكان الاقدار تحسن الامثال ، فكان ينطبق على المدني ومطيته - بغلة كانت او ناقة او حمراً - المثل المشهور : شبيه الشكل منجذب اليه . وكم وهلة روعتنا واضحككتنا معاً ، والمطية فيها تضرب بقوائمها الهوا ، والمدني ينطح برأسه الارض ، ثم ينهض كالجن ضاحكاً ، وان غلظت في فمه اللعنات ، وروح راكباً فوق احماله كأنه سيد السادات . ولد لا يعرف التوبة ، ولا يحسن من الكلام ومن الظنون الا اسوأها . فما رافق احداً الا شاكسه في الساعة الثانية بعد اللقاء ، وجاء يتحفنا بمعلوماته عنه ويحذرنا منه .

ولما دخلنا الى صنعاء فاز المدني قبلنا بروية المدينة ، فراح بطوف فيها ، وعاد ولسانه على غير عادته يقطر عسلاً من غسل الالفاظ ، وعيناه تهرقان ابتهاجاً . سبحان الله . لقد اعجبت المدينة المدني ، ففضلها حتى على جده . فقلت : افلا تفضلها على مكة كذلك ؟ فقال : لا والله . فسألته عن السبب ، فاجاب : في مكة امي . وهذه ، اي حبه امه واحترامها ، هي بعد الامانة ، فضيلة الولد الوحيدة .

قلت انه تقاد وقاد ، لا ينجو احد من لسانه ومن ناره . ولكنه جاء ذات يوم وهو عائد من المدينة يقول : رأيت الامام ، والله وامي ، وقبلت يده .

— أين رأيتيه ؟

— هو جالس الان في الساحة ، وحوله الرجال والنساء والاولاد . ولما رأيتي قال : حي الله الجاي . وقام من كرسيه ، والله وامي ، واعطاني يده قبلتها . وسألني عن اسمي وقال : امسلم انت ام مسيحي . فقلت : مسلم والحمد لله . فقال : بارك الله فيك . هو حيائي ، والله وامي ، قبل ان حبيته . ما رأيت احسن منه ، والطف منه . رجل متواضع كريم الاخلاق — والعدل ! وامي لا اضن ان في البلاد العربية من هو اعدل منه . هو جالس الان في الساحة يسمع شكاوي الناس . وكلهم رجال ونساء واولاد ينادون : يا امام ، يا امام ، يا حضرة الامام . جاء ، وانا واقف جنبه ولد يبكي . فقال للناس : افسحوا له ، قربوه مني . دموعه افسح من الافصح فيكم واصدق . تعال يا بني . وامي ، ما اقول غير الصدق . . . لا اضن ان في البلاد العربية كلها احسن من هذا الامام .

وهذا اجمل ما فاه به المدني في الرحلة كلها . على اننا نضرب صفحا عن رأيه وننظر في ما تضمنته حديثه من الحقائق . قد حياه الامام عند ما رآه قادما وقام له . وهو يعرف انه خادمنا ، ولكنه يبجل ما اذا كان مسلما او مسيحيا . هذا جميل منه . ولكننا نساء لنا ما السر ياترى في ما تناقض من سلوكه . ينهض لخادمنا ويستقبلنا جالسا . والسر لا يزال مرآزفه الى القارىء . ونسأل له التوفيق في اكتشافه واكتناحه .

اما الحقيقة الثانية فهي انه قدم شكوى الاولاد ، ومنهم الولد الباكي ، على شكاوي الرجال والنساء . وهذه بذاتها ثناء على الامام لا يقارنه في النطق ثناء . نذكرها اجلا لا ساكتين حائرين . ان امر هذا العربي الباني الشريف لغريب . يشبه المسيح بالرجل المسحاء ، ويشبه المسيح في عطنه وحنانه ، دعوا الصغار

يأتون اليّ . من ثمّ مسلم زبدي تتساقط درر حبك ، وفي اليمن يُسمع صدى
كلماتك ، ايها السيد الكبير الاوحد ، ايها الناصري العظيم . فما اصغر من يقيم
الحدود ، ويحصر الحقيقة بالنصارى والزبود .

قد رأيت بعيني ما يثبت رواية الخادم مدني ، بل رأيت حضرة الامام
وهو يجلس ساعة وساعتين كل يوم دون تأفف وتذمر ، فيسمع شكواي الناس
واعياً صابراً ، طلق الخيا ، عطوفاً شقيقاً ، فيقضي بينهم في بعضها ويحيل البعض
الاخر على المحكمة الشرعية .

اما القصد من الجلوس في الفلاة فهو يدل على رغبة الامام الشديدة في
تعميم العدل والإنصاف . قد علمت ان الحجاب في بابه يردون احياناً من ينبغي
ان تسمع دعواه ، او تُقدّم على دعوى سواه . وقد يرتشون ويظنون فيمكن
من السر لا تصل اليه يد العدل والتأديب . فيجلس الامام حيث لا حاجب
بينه وبين الناس . انما هي عادته كل يوم صباحاً عند ما يخرج من قصره الى
الديوان . يجلس في الساحة عند الباب ، او تحت الشجرة في الحوش ، ويقف
وراءه جندي حاملاً السيف ، وآخر الى جنبه حاملاً المظلة . فيفتتح الجلسة التي
تستمر من الساعة الى الساعتين . ثم يطوف في المدينة مصحوباً ببعض الموظفين
والجنود وبين شاء من الناس . ثم يصلي صلاة الظهر ويرجع الى القصر راكباً في
موكب رسمي لتقدمه النوبة ، وتعلو فيه اصوات الجنود وهم ينشدون الزامل .
وبعد الغداء والقبولة يجيء الى الديوان فيشتغل حتى صلاة المغرب ، وهو يأكل
اثناء هذه المدة او بالحري « يخزن » القات ، بل يظل في بعض الاحايين حتى
الساعة العاشرة مساءً في الديوان قائماً بما تقتضيه شؤون الامامة والرعية .

اما يوم الجمعة فيقضيه في الصلاة والمطالعة . وقد قيل لي ان عنده مكتبة
من المخطوطات لا مثيل لها في البلاد العربية كلها . على انه يغار عليها من عيون
الناس وايديهم ، وخصوصاً الاجانب منهم . فقد أخبرت - واني اروي حديث

المكتبة كما رويت حديث الكنوز - ان كتاب الاكبل^(١) كاملاً بعشرة اجزائه موجود في مكتبة الحضرة الامامية . وانه سيطبع ان شاء الله عندما تصل الطباعة الى اليمن في سياحتها العربية البطيئة وتستقر في صنعاء .
ان للامام يحيى رأياً في العلم والمملك جميلاً . هو من اكبر العلماء والمجتهدين ، وعنده انه ينبغي ان يكون كذلك كل من تشرفه الامامة وترفعه الى سدة الملك . كيف لا وهو القائل : فتح الله ملكاً بدخل عليه من هو اعلم منه . فاذا لم يكن هو اكبر العلماء اليوم فلا شك انه ابعدهم نظراً ، واشدهم هممة ، وادقهم اجتهاداً^(٢) . وقد قال لي احد السادة انه خلاصة الخلاصة .

ولكنه في حبه العلم لا يحب على ما يظهر تعميمه . لم تر مدرسة واحدة في المدن والقرى التي مررنا بها . اما عذر الامام في ذلك فهو انه منذ تولى الحكم وهو واعداً في احترام . فكيف له ان يهتم بالمدارس ؟ ولكن اهل اليمن يهتمون كل الاهتمام بالمساجد وبالصلاة وبالقات ، فلو انصفوا ، لو احسنوا الى انفسهم ، لساووا في الاقل بين التعليم والتدين .

اما ما يتلقنه الاولاد في المساجد فينحصر بالقرآن واللغة والفقه . لكن الفقه لا يدرسه هناك غالباً الا من هم من السادة . وليس الفقيه دائماً قبيحاً . الفقيه هناك مثل معلم الاولاد عندنا وغالباً تكون مهنته ان يعلم القرآن واللغة

(١) كتاب الاكبل للحسن بن احمد الهمداني . لم ار منه غير جزء واحد . وهو كتاب محافد اليمن ومساندها ووفياتها ومراني حير في عشرة اجزاء . الاول ، اصول الانساب . الثاني ، نسب ولد الهيثم بن حمير . الثالث ، فضائل قحطان . الرابع ، السيرة القديمة الى عهد تيم بن امي كريب . الخامس ، من اول ايام اسعد تيم الى ايام ذي النواس . السادس ، في السيرة الاثيرة الى الاسلام . السابع ، في النفيه على الاخبار الباطلة والحكايات المتحلة . الثامن ، ذكر قصور حمير ومدائنها ودقائنها وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدر . التاسع ، امثال وحكم باللسان الحميري . العاشر ، في معارف حمدان وحاشد وبكيل .

(٢) الاجتهاد هو تفسير او تأويل او شرح بعض الاحكام في فروع لا في اصل الدين ، تلك الفروع التي ليس لها في القرآن والسنة نصوص صريحة . والامام يحيى يخرج الاحكام على اصول اجتهاد الامام زيد ابن علي بن زين العابدين وفي بعض الاحايين على اصول الامام احمد بن حنبل .

فقط . ومن هذه الجهة يقسم اهل اليمن الى ثلاث طبقات ، العلماء ، والفقهاء و يدعون بالقراء ، والعامه . ويقسم العلماء قسمين ، قسم يتولى امر التعليم والارشاد واكثرهم من الفقهاء ، والقسم الثاني هم اهل الحل والعقد ، هم السادة ويدهم مقالات الاحكام الشرعية والسياسية والعسكرية . اما العامة فهم الذين يعلمهم القراء الكتاب وشيئا من اللغة ، ويعلمهم السادة الطاعة والمحافضة على كل ما فيه تعزيز سيادتهم في البلاد . لذلك ترام يكرهون السيد ويسخرون من الفقيه .

حدثت ذات يوم ولداً ذكياً ، وما اكثر الذكاء في الاولاد هناك ولكنه كالارض الطيبة غير المزروعة ، فسألته ما اذا كان يشتحي « اي يجب » السفر . فقال : عندنا والحمد لله ما يعنيننا عنه . فقلت : ولكن الاسفار ثقفه ونفصكه . فقال : الذي عندنا بكفي لمعاشنا فقط . فسألته كيف يندل الزيادة لو كانت . فاجاب : والله يا سيدي انا احب المدارس ، كان عندنا في ايام الاتراك مدارس منظمة يعلمون فيها الجغرافية والحساب . وكانوا يعطوننا الكتب والالواح والورق والحبر والاقلام والدفاتر والطباشير — كل شيء ، وكله مجاناً . والله يا سيدي انا محزون . لا مدارس اليوم عندنا ولا معلم غير الفقيه . والفقيه سفيه ، لا يجب التعليم ، يأخذ مع ذلك ثمانية ريات في الشهر ، وينام في المسجد والكتاب بيده . والورق والحبر والكتب ذهبت مع الاتراك . فلو كان عندي مال زائد كنت افتح مدرسة ، واعزل الفقيه ، واجلب الكتب والدفاتر والورق والالواح والطباشير واوزعها على الاولاد مجاناً .

— ولماذا لا يفتح الامام المدارس ؟ الامام غني .

— بلى ، ولكنه . . . سكت الولد ومد يده مقبوضة . ثم قال : فهمت ؟

— وهل عند الامام كتب ؟

— خيرات ، خيرات .

— وهل هو عالم كبير كما يقولون ؟

- اشتهي ان يكون لي هذا القدر - وهو يضم اصابعه بعضها الى بعض -
من علمه .

- أو لا تحب ان تكون جندياً ؟

- بلى ، ولكن بعد ان احصل العلم احمل البندق .
- وماذا ينفع العلم اذا كنت تظل راغباً في الحرب وفي ثقتيل اخوانك ؟
العرب كلهم من بطن واحد ، والمسلمون اخوان .

- صدقت ولكن حضرة الامام اعلم منا . فاذا قال : الحرب ، فالى الحرب .
كلنا نحارب من اجل الامام . وهو اعلم الناس بكتاب الله والسنة وبما يجب على
المسلمين . قد امرنا الله بالجهاد . . .

اعاد حديث الولد الى ذهني وجه الشبه بين هذا الشعب الباني وبين ذلك
الشعب الذي قام في اوروبه منذ عشر سنوات يلبي امر امبراطوره بتأديب العالم
وبسط السيادة الالمانية على اوروبه جمعاء . وكلمة الامام اليوم مثل كلمة ذلك
الامبراطور بالامس ، تكاد تكون منزلة في نظر رعيته .

ان الامام يحيى اذن رب الحرب والاجتهاد ، رب السيف والقلم . هو
الزعيم الاول والمعلم الاكبر في اليمن . وهو القاضي العادل الشفيق يجلس في
الفلاة كي لا يقف احداً بينه وبين المظلوم . قد علمت ذلك ايها القارىء . ولم
تعلم بعد ان الحضرة الشريفة تمارس كذلك الطب الحديث . تداوي المريض
بالايمان وتشفيه بالصلوات . اجل ان الامام هو الطبيب الاكبر بل هو الطبيب
الواحد في اليمن .

اخبرني احد الدين عاجلهم انه كان مصاباً بداء الصرع وكان في رأسه
اهتزاز دائم ، فاخذ الحشائش التي وصفها له بعض البدو ، واكتوى ، واحتجم
وظل في رأسه الصرع والاهتزاز . فجاؤ الى الامام ضارعاً مستشفياً . فلباه
الامام . أخذ الكتاب فقرأ بضع صفحات فيه . ثم تناول ورقة وكتب فيها
آية من آياته الكريمة ووضعها في كأس من الماء وحركها وهو يتلو الآيات . ثم
اعطاه الكأس قائلاً : اشرب باسم الله . فشرب المريض الماء . فقال الامام :

اذهب في شأنك ، قد شفيت باذن الله . وهذه قصة واحدة في الكرامات من عشر سمعتها .

اما في التشوير ^(١) وحضرته القدسية تشوير ايضاً ، فاليك بمثل واحد منها .
 جاءه ذات يوم بعض العربان شاكين ناقلين ، فمنعهم عنه ، فوقفوا في الساحة تحت النافذة ينادون ويهددون الامام . فاطل حضرته عليهم وأنهم فثارت في رأس واحد منهم النخوة بل النقمة العربية فاطلق بندقيته . فقال الامام :
 رصاصك بين عينيك قبل ان تغرب هذه الشمس . وعاد الى مجلسه ، الى فراش الملك مطحنتاً . وراح العربان الى المدينة وهم يصيحون ويستنفرون . ولكن الذي اطلق بندقيته تخلف عنهم فجلس عند بوابة صنعاء . يستريح والبندقية بين يديه ، وفما تحت انفه . نعل الرجل ونام ، ثم تحرك حركة المستيقظ ، فأطلقت البندقية عرضاً ، فاصابته الرصاصة في جبينه ، بين عينيه ! وكان ذلك قبل غروب الشمس !

(١) التشوير ، مثل « العين » ، يصيبك منه الشر المقصود دون تحديد . ولكن في هذه الحادثة حدد الامام الوقت والمكان ، فكان ماشور بل تنبأ به . وقوة التشوير عند العرب تنحصر بالسادة الاشراف .

الفصل التاسع

الجو بنجلي

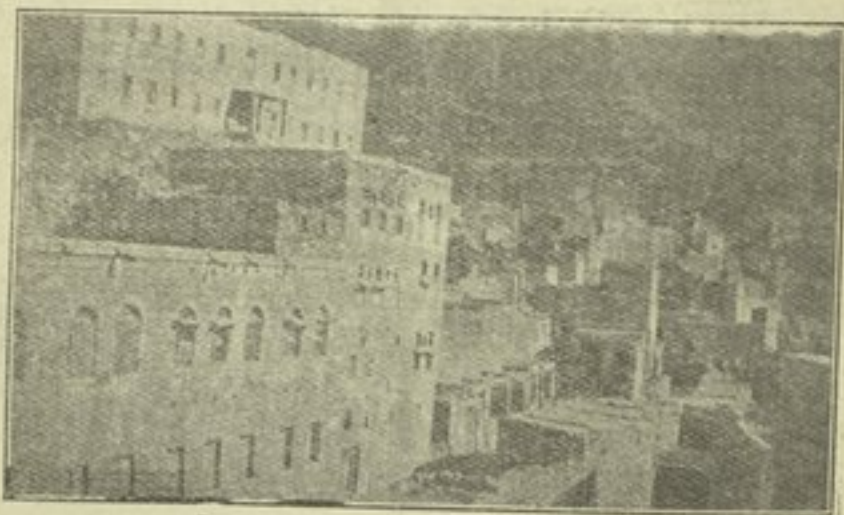
فوائد السفر البطي . — حصون اهل اليمن الثلاثة — ضعف الزيود — القرن الثالث للهجرة — العزلة والتعليم — جو الظنون بنجلي — زيارة الامام — حديث خطير — خير اليمن في السلم لا في الحرب — « افتحوا البلاد للتجارة » — الانكليز — الادريسي — خطبة الرقيق الحريية — نفور ونور — عدن والاجانب فيها — مندوب الامام الصنو صفى الاسلام احمد بن يحيى الكبسي — بدائة المفاوضات — رمضان — ابطاء السيد احمد — نحه بالقوافي ونهجو .

من فوائد السفر البطي ، على ما فيه من مشقة وعناء انه يمكن طالب العلم من الاستقصاء والدرس والاكتشاف . كنا في طريقنا من الحج الى صنعاء سؤالاً متجسماً ، سؤالاً حياً متحركاً ، اذا اذن لنا بالاستعارة . وحسبنا في بعض الاماكن ان تقف ساكتين صابرين ، فيجيبنا صاحب الامام مادحاً ، ويحيينا عدو الامام قادحاً . فضلاً عن الفلاحين والجنود ، وقد عضهم البؤس والفقر فيجيبوننا شاكين ومتبرعين همساً بما نغيبه من المعلومات . فوصلنا الى صنعاء وعندنا « خيرات » من اخبار الامام واليمن والزيود . قد دونت بعضها في الفصول السابقة ، واقول الان تمهيداً وافادة انها تتفرع الى فرعين ، الاول وفيه تظهر قوة الزيود الطبيعية ، والثاني وفيه ضعفهم الكامن في تلك القوة . اما هذا الضعف فله في حياتهم الاجتماعية مظاهر شتى كلها قديمة .

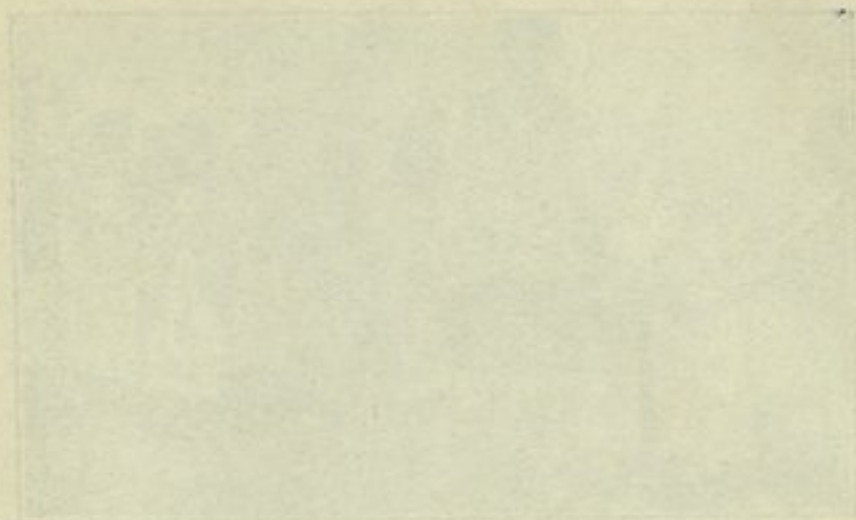
قد علمت مما تقدم ان الامام هو الزيود ، وان قوته وقوى تلك الامة تنحصر في ثلاثة — ثلاثة حصون — هي المذهب والجنسية والوحشية اية الاعتزال . اما المذهب فلا رأي لي فيه . واما الجنسية فالمدارس توسع نطاقها وتشمل في المستقبل — القريب ان شاء الله — ربوع العرب كلها . ولكننا لوحشية ، اي النفور من الغريب والنزوع الى العزلة ، تؤثر في السامع اشد التأثير سواء . وهي مع ذلك اول الحصون المقضي عليها ، لانها لا تقوي في هذه



ثلة من عساكر الامام وضابطهم



مناخه



الايام على تيار العلم والتجارة ذلك التيار الذي يقرب الشعوب بواسطة البرق
والبخار بعضها من بعض .

اما ضعف الزبود ففي جهلهم الكثيف ونهقرهم ، لا بالنسبة الى الاورو بين
بل بالنسبة الى المصر بين والسور بين حتى والعراقيين . كأنك في السياحة في
نلك البلاد السعيدة قولا وتقليداً تعود فجأة الى القرن الثالث للهجرة . لا مدارس ،
ولا جرائد ، ولا مطابع ، ولا ادوية ، ولا اطباء ، ولا مستشفيات في اليمن .
ان الامام اسكل شي . هو المعلم والطبيب والمحامي والكاهن . هو الاب الاكبر
ولا اظن ان في اليمن من يقوم مقامه اليوم لو فاجأته لا سمح الله المنون . على انه ،
وان حافظ كلاب الرؤوف على ارواح ابنائه ، وعلى حقوقهم ، وعلى صححتهم ، فقد
اهمل عقولهم اهمالاً محزناً مفعماً . وهوذا النقص في حكم الامام .

ان في العزلة قوة نأسف على دوامها . ولكننا نأسف كذلك على زوالها اذا
كان التعليم الوطني لا يحل محلها ، فيكون فيه لاهل اليمن قوة جديدة تضاعف
ما فقدوه . ولا بد مع التعليم من تحسين الصلات وتمكينها بين الحضرة الامامية
وسائر ملوك العرب ، ولا سيما من يحكمون الشطر الغربي من شبه الجزيرة . اصف
الى ذلك تسهيل المواصلات التجارية والاقتصادية بين اليمن وعدن ، وهي من
الامور الجوهرية التي لا نتم الا بموالات الانكليز والاتفاق معهم على ما فيه مصلحة
البلاد وشي . من المصالح المشتركة .

اثنا عشر يوماً في الطربق واسبوع في الامر انضجت في هذه العقيدة
وحصنتها بالمشاهدات والمعقول . فدخلت صنعاء وقابلت الامام وهي متأصلة في
متمكنة مني ، بيد اني جئت اليمن ولا رأي ولا عقيدة لي في رجاله وفي شؤونه .
فلو الفيتهم كالمصر بين او كالعراقيين على الاقل لكان حديثي مع حضرة الامام
غير ما ستسمع ايها القارىء العزيز .

وهناك مشكلة هي في نظر الامام اهم من المدارس ، واهم من المعاهدة مع
ملك الحجاز ، واهم من سكك الحديد والامتيازات . الا وهي مشكلة الحديد .

الحديدة ! لا ينال الامام سعيداً مطمئناً ما دامت ، وهي ميناء صنعاء ، في يد
الادرسي والانكليز . سأسط قضيتها ، وهي قضية اليمن السياسية الكبرى
اليوم ، في الفصل التالي . اما الان وقد اطمان بال الامام في ثبته صدق دعوتنا
وحسن قصدنا فانتشعت غيمات الظنون والشبهات ، انجلي الجو ، فانفتح في اليوم
السابع من الاسر باب الفرج والسرور .

ولا تسل ايها القارى ، كم كان ذا السرور عندما دخل احد الحجاب يشرنا
بقدم الحضرة الشريفة . جاء الامام يزورنا في منزلنا ، والحمد لله مزيل
الشكوك من قلوب عباده . دخل يحمل السيف وظل من رافقه من الحرس في
الرواق . هو يلبس ثياباً قطنية من نسيج اليمن وليس ما يميزه عن احد السادة
غير العمامة شكلاً لا لوناً وذؤابتها الطويلة . وسادات اليمن مثل اشرف الحجاز
وتجاره يلبسون غالباً الاجربة والاحذية لا النعال . بادرنا انا والرفيق الى الباب
نستقبل الزائر العظيم ، ودخلنا وراه فامر ان يجلس على الديوان وجلس هو امامي
على كرسي ، وسيفه بين يديه .

اما الحديث فاقله من يوميتي وقد كتبت خلاصته توأ بعد المقابلة . فما
انكلت على الذاكرة آتئذ ولا أتكل عليها الان . ليتيقن القارى ، اذت صدق
الرواية .

قلت : لست باجنبي يا حضرة الامام ، بل انا منكم ، من العرب . ولا يخدع
من كان يجيد التفرس مثلك . انظروا الي . ان قصتي كلها في وجهي . فاذا
رأيتم ما ير بكم ، او ظننتم في شيناً من التلبس ، فمروني فاسكت واعودغداً
حيث اتيت .

فاعتذر حضرته عن التأخر بما لديه من كثير الاشغال ، واعاد الكلمة التي
وقفنا عندها في المقابلة الاولى عندما دخل الزائرون - هل عندكم كلام مضبوط ؟
فقلت : غير ما توجهه الوطنية العربية وثبته المشاهدة لا نسمعكم ان شاء الله .
ولكن قبل ان افيض بالكلام اؤكد لمولاي ان لا علاقة لي البتة مع الانكليز ، ولا
علاقة سياسية او تجارية مع اميرك ، ولست امثل رسمياً الملك حسين .

مندوب نفسي ، رسول فكرة هي بنت علمي ووطنيتي . اما قسطنطين فهو رفيقي
بصفة صديقي لا بصفة ملازم في الجيش الحجازي . وها هنا اعدت ما قلته في
المقابلة الاولى عن الغرض من سياحتي ، ثم قلت : هذه بالاختصار خطتي في
السفر . فاذا ساعدتموني في تحقيقها تعززون يا مولاي مصلحتكم . ما شك احد
حتى الان في حبي للعرب واخلاصي لهم . ولا اظن مولاي وانا اصارحه كل
المصارحة بشك في ما اقول .

فاناد حضرته الاعتذار واكد لنا انه مطمئن البال لا يخامره شيء . من
الريب في حسن قصدنا . ثم قال : واسمعي الان بيت القصيد . فقلت : هما
بيننا . الاول ان تفتقوا والانكليز والثاني ان تعقدوا معاهدة مع ملك الحجاز .
ينبغي لكم يا مولاي ان تفتقروا البلاد للتجارة والسياح . لان اليمن لا يجبا ولا
ينجح اذا كان لا يتصل بالعالم خارج اليمن اتصالاً حديثاً . فلو عقدتم مع
الانكليز معاهدة تجارية ولائية دون ان تمس استقلال اليمن بشيء او تقيد بشيء
سيادتكم التامة ، يكون لكم فيها الفائدة الكبرى . واذا علم الانكليز بانكم عقدتم
معاهدة مع ملك الحجاز وانكم اتحدتم لتعزز شؤون البلادين ومصالحها المشتركة ،
يتسامحون في بنود المعاهدة معكم رغبة في عقدها . سأجنب في ما اقول التعميم .
اني اظن يا مولاي ان اتحادكم والحجاز يساعد في حل مشكل الحديد على طريقة
ترضيكم . بل اعتقد ان الحديد ، وهي ميناء صنعاء التاريخية والطبيعية ، تعاد
اليكم اذا استعظتم عن السيف بالسياسة . استمروا في مفاوضاتكم والانكليز اذن
واعقدوا المعاهدة او التحالف مع الملك حسين . ولا ينبغي على مولاي انه اذا
فتحت بلادكم للتجارة ، وهي من اسس العمران ، فينبغي ان يكون لكم قوة
تحافظون بها على استقلالكم وقوميتكم ، بل على سيادتكم التامة ، محافظتكم على الامن
والسلم في البلاد . واما عزلتكم اليوم ، فاذا دامت ، لتلاشي فيها قواكم . انكم
تبدلون اموالكم وحياتكم رجالكم في الحروب الدائمة وفي الاستعدادات الحربية التي
هي شر من الحرب . ان عندكم اليوم قوة مسلحة يا مولاي وهذا لا يكفي فالامة

تحتاج الى ثياب نقيها من البرد ، و الى تعليم بقيها من الجهل والامراض ، و الى تجارة نقيها من الفقر والشقاء . ولا ننال ذلك الا بالسلم و بالعلم و بوسائطها الحديثة . لست ممن يدعون الى حرب بين الشرق والغرب و يستبشرون بها ، بل من مبادئ وآمالي ان نتحسن العلاقات بين البلادين ، وان تكون العروة الوثقى عروة تفاهم وولاء بين اوروبا و بين العرب على الاقل . واني اشتهي ان تكون البلاد العربية مستقلة استقلالاً سياسياً تاماً . ولكنني اثار عليها من الجهل يا مولاي كما اثار عليها من دسائس السياسة الاجنبية . وما السبيل الى التخلص من الاثنين ؟ انما السبيل القويم في اتحادنا يا مولاي ، في اتحاد ملوك العرب و امرائها اتحاداً لا يقدر بسيادة كل منهم ، ولا يمحى باستقلالهم المركزي التاريخي . اضعفتم انفسكم بالحروب . قتلتهم البلاد بالحروب . فما حان لكم ان تجربوا طريقة اخرى ، طريقة السلم ، وفيها الولاء والاخاء والتفاهم والتحالف ؟ بل فيها الحياة والعمران والعزة القومية .

كان الامام وهو مطرق بصغي لما اقول ، و يهز رأسه مبتسماً من حين الى حين ابتسامة فيها دهش وفيها استحسان . ولما وقفت عند هذا الحد رفع رأسه وقال : كلامك مضبوط . ولكن الادر يسي حليف الانكليز وعدونا ، يأخذ منهم المال والسلاح و يحاربنا بها . وهو بيننا و بين الحجاز ، هو المانع الحاجز .

— هو ينضم اليكم عندما نتحدون . لا يقف الضعيف عدواً بين قوين .

— ولكن الانكليز يساعدونه .

— الانكليز يا مولاي لا يستمرون على مساعدة الضعيف اذا استقوى خصمه الى حد ادعواكم اليه — الى حد فيه تم مخالفة اليانية الحجازية . فهم اذ ذاك يغيرون سياستهم او يعدلون بها و يسعون في عقد معاهدة ولاء و تجارة معكم كلكم . واي ضرر يا ترى في اتحاد الحجاز واليمن و عسير ، وفي عقد معاهدة ولائية تجارية بينها وبين بريطانيا العظمى ؟ اما الحديد فتعاد اذ ذاك اليكم

و يسترضي الانكليز صديقهم الادريسي بما فيه توسيع حدوده شمالاً او شرقاً في الجبال . لان بلاده اليوم ان هي الا اساكل متعددة . فهو لا يحتاج الى اسككة اخرى وعنده الأحياء وميادي وجيزان والصليف ، بل يحتاج الى ارض مخصبة وبلاد في الداخلية تساعد على تعمير الاساكل . اذا تم اتحادكم سهل اذ ذلك تحديده الحدود بين الاقطار الثلاثة .

فقال الامام : نا هي . نحن لا نعادي الانكليز بالرغم عن سياستهم . وقد عهدنا الى وكيلنا العرشي بعدن ان يفاوضهم . ولكن لم نثمر المفاوضات ثمرة حتى الان . هم يماطلون ويسوفون ونحن صابرون .

— لا يسوفون اذا عقدت المعاهدة بينكم وبين الحجاز وعلوا بها . وكان قد نقد صبر القسطنطين وهو يتحفز للكلام ، فقال مخاطباً الامام : بل يعيدون الحديد اليكم . واذا ابوا فنحن اذ ذلك نضرب الادريسي من الشمال ، وانتم تضربونه من الجنوب ، فتأخذون الحديد منه كرهًا وترغمونه فيضطر اذ ذلك ان ينضم الى المخالفة .

لم يقف القسطنطين عند هذا الحد بالرغم عن اشارتي وتحذيري السابق بل امعن في موضوعه الخاص المحبوب ، فشرع يخطب خطبة حربية ساد فيها صليل السلاح الحديثة واصوات الطيارات . نغمت منها على بناء السلم الذي ابنيه . وقد تأثرت من لهجة الرفيق وتهوره ، واعدت بعدئذ عليه ما طالما قلته في مواقف شتى . وهو اني رسول سلم لا رسول حرب او ثورة في البلاد العربية . وقد جئتها مبشراً بالعلم والتقدم ، لا بالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز .

لا والله . ما جئت لانصر جهلاً مسلحاً واعزز تعصباً يفتخر بوحشيته . نبغي الحرية والاستقلال ، نعم ، ولكننا نبغي المدارس ايضاً والطباعة والمستشفيات ، ونبغي النظافة في المعيشة وفي اللبس وفي البيوت وفي المدن .

ان حضرة الامام بعيد النظر ثاقب الفكرة ، طويل الاناة . فمما كان من صياح امراء جيشه وتبجحهم — نشتهي عدن — دعنا نرحف على عدن

فتأخذها بعشرة ايام ! - فهو يسير في جادة التؤدة والحصافة . وقد احسنت
 بميل فيه الى السلم اكيد بالرغم عن استعداداته الحربية كلها . على انه كما قلت
 طمّاح يحلم حلاً سياسياً باهراً ، ويعد لتحقيقه العداة ، ويجمع الاموال ، الذهب
 والفضة ، ويخزنها لتلك اليوم العظيم . وان لعدن مرقدآ ولا شك في حلمه ،
 وعملاً في محيط طلمه ، كيف لا وقد كانت في الماضي زينة بلاده ، ودره في
 تاج اجداده . انما هو يعلم ما يعترضه من العقبات . ولكنه لا يعلم على ما اظن ما
 للام الشرقية والغربية في عدن اليوم من المصالح التجارية والمالية ، وقد اصبحت
 من اهم مراكز الاتصال بين الشرق والغرب . سألت احد السادة العلماء : في
 عدن كثير من الاجانب ، فكيف تعاملونهم اذا اخذتموها . فاجاب سيادته
 يدفعون مثل اليهود الجزية ! ولكن حضرة الامام ، وهو « الرفيع الجناب الوضيع
 الرحاب » يسمع كلام السادة وامراء الجيش ويخرج الى الساحة ليسمع
 شكاوي الناس .

وكأنه سمعنا ثن ، سمع النفس الصامته تشكو الامر ، فأذن لنا في ختام
 تلك الجلسة بالتطواف والتنزه ، وكان يرسل الخيل احياناً لهذه الغاية فيرافقنا
 بعض الجنود حيث نشاء . بيد اننا ، وان كنا قد مررنا بهذا التعطف الامامي ،
 عدنا بعد بضعة ايام مرت دون كلمة او اشارة من حضرته الى الريب المؤلم
 والظنون . وقد كان ظني ، سامحني الله ، ان القسطنطين افسد علينا الامر في
 خطبته الحربية ، وافقدنا ما احرزناه من ثقة الامام . ومما زاد في الطين بلة ان
 الرفيق ، ونحن في تلك الحال ، شرع ينظم القصائد في مدح الحضرة الشريفة
 وفي مدح سيفها ومظلتها وقصورها الخ . فرحت انا ابحت في المدينة عن درباق
 لسم الجزع والقنوط .

ان حياتنا في صنعاء في الايام العشرة الاولى كانت والحق يقال كادوار من
 الحمى يتخللها فترات تقه قصيرات . ولم نشف الشفاء التام الا بعد ان زارنا
 ذات ليلة سيد من السادة يحمل رسالة كانت فيها والحمد لله خاتمة الكروب .
 دخل حضرة السيد بنقدمه جندي وجلس على الديوان بين الرفيقين يحدثنا

بجمال صنعاء الذي يفوق بهاء مصر وجلال الاستانة . ثم انتقل الى عاصمة بني عثمان فعرفنا انه كان نائباً من نواب اليمن في مجلس المبعوثان . ثم الى مصر التي اقام فيها مدة يعالج السياسة و يشتم التسميم . ثم الى جزيرة رودس فعرفنا انه كان فيها اسيراً . وبعد هذه السياحة التي اتخف السائحون باخبارها تمهيداً وتعريفاً ، رفع العمامة عن رأسه واخرج من احدى طبياتها رسالة من الحضرة الشريفة ، بل خطأ امامياً ، انبأنا بان السيد احمد بن يحيى الكبسي هو مندوب تلك الحضرة الينا ومتممها في المفاوضات بشأن المعاهدة . وقد خط الامام الخط بيده ، بالخبر الارجواني ، على طريقته الخاصة ، اي بضعة اسطر منها متنا والبقية على الهامش تحيط بالمتن كالهلال ، وختمه بالخبر الاحمر^(١) اما نص خط الاعتقاد فيها كه .

بسم الله الرحمن الرحيم

بمجي حميد الدين
امير المؤمنين
المتوكل على الله رب العالمين
(سورة الحنم)

الصنوصني الاسلام احمد ابن يحيى الكبسي حرسه الله . كل المراجعات بيننا وبين الشريف ناصر ثم مع السيد محمد علوي السقاف^(٢) باطلاعكم . وقد وصل الاستاذ امين الريحاني ورفيقه قسطنطين ومعهما كتاب من ملك الحجاز وظهر لنا من ظاهر كلام الاستاذ ارادة انجاز الكلام والمراد منه البغية المقصودة والضالة المنشودة . فليكن منكم الكلام معها لتقرر المسئلة على الوجه الكامل ابتداءً وانتهاءً مع لوازمها الذاتية والخارجية اعانة لنا في ذلك . وليكن الكلام مكتوماً من الجميع عن كل احد . واعرضوا هذا عليهما . وقد اعلنا الحاجب بالاذن لكم بالدخول اليهما والسلام عليكم .
في ٢٨ شعبان الوسم ١٣٤٠

(١) ختم الامام احمر في ايام الحرب اسود في ايام السلم .
(٢) والاتان تقدمانا في المفاوضات بين الملك والامام بخصوص المعاهدة .

ازال الخط كل ريب باننا مأسورون ، وتيقنا ان الحجاب في الباب لا
 يأذنون بالدخول الينا الا من كان حاملاً براءة من الامام . فكان السيد احمد
 الكبسي اول من حظي بهذا الانعام ، وهو من سادات اليمن المستنيرين
 المتساهلين الراغبين في فتح كوات في سور العزلة يطل منها اليمن على العالم
 فيستشق هواء المدينة دون ان يعرض بنفسه لرياحها الشديدة ومجارها المضررة .
 والسيد احمد جسيم وسيم ، بطي . الحركة خفيف الظل ، فصيح الكلمة ،
 لطيف الاشارة . وله عين في الفن السياسية ثاقبة للحاظ ، وعينان في كشف
 الحقائق التي فيها خيره وخير الامام . اما ما سواها فهو لا يراها ولا يشتهي
 ان يراها .

جاءنا السيد احمد في اخر شعبان ، وكانت مفاوضاتنا واياها في رمضان
 فغيرنا من اجله نظام حياتنا ، وما تمكنا مع ذلك ان نباريه في النوم والابطاء .
 — هذا وقت الفطور يا امين ، ثم وقت القات ، ثم السحور ، ثم وقت النوم ، ثم
 اوقات الصلاة — ظاهر وماشي ؟ ^(١) ولا وقت للمفاوضات . ولكني اجيئك
 الليلة ان شاء الله بعد جلسة القات . فيجئنا بعد نصف الليل او بين المدفوعين
 مدفع السحور ومدفع الامساك . والسيد الكبسي سيد الزمان ، لا فرق عنده
 بين الشمس والبرقان . وكان يحيى حرمه الله والطيب ينتشر من اردائه ،
 وبقايا القات بين اسنانه ، فيسأل اولاً عن دواء للصداع ، ثم يقرأ بنداً واحداً من
 المعاهدة ، واذا جار على نفسه يقرأ بندين ، فتدق اذ ذاك الطبول مبشرة بمدفع
 الافطار ، فينهض السيد مسرعاً الى فروضه ، ولا تراه بعدئذ الا بعد ان تتعدد
 منا اليه الرسل والرسائل ، وفيها من قسطنطين القوافي المحجّلة ومني الخجّلة .
 اجل ، قد عثرت وانا اراجع مذكراتي على ما يلي :

في ١٦ رمضان الكرم .

لقد هيّج في القسطنطين نهمة الى الشعر كانت رافدة . لقد طالما ناقث
 النفس وتشوقت العين الى شيء يخصني من ذلك العنوان الجليل في الدواوين :

(١) ومعناها في اصطلاحهم افهمت ؟ فهل هي تحريف اظهر لك شيء مما قلت ؟

وقال بمدح فلاناً . ولكنني بدأت في النظم وفي الهجاء معاً ، فقلت وانا في صنعاء
 أهجو سيدي وصدوقي السيد أحمد بن يحيى الكبسي ، قدوة السادات الكرام ،
 وأحد اركان مولانا الامام .

صبرت على بطء ومطل من الكبسي وقلت هو الصوم المطيل لذا الخبس
 ولكن ظني قام بشكو جهالتي ويكشف عما في الوعود من اللبس
 فقلت له : مهلاً . فقال : وكيف ذا وخرنوبه لا شيء . فيه من الدبس ؟

الفصل العاشر

المخيم المنصور

تأثير الدين في الاخلاق — البروتستانتيون والكاثوليكيون — الزيود — امام
الزيود — الضيافة العربية — رسم الامام — المخيم المنصور — الامام في
المخيم — بناءه في العمل — حسن الادارة — كتاب المخيم — الاخصائيون —
الامام الشاعر — قصيدة قسطنطين في هجو القات — هياج الشعراء في صنعاء —
قصيدة الامام في مدح القات .

ان للدين تأثيراً في الاخلاق يفوق تأثيره في العقول . فانك لتلقى امرأاً ذا
فكرة وقادة ، ونظرة نقادة ، سليم الذوق والعقل ، كبير النفس واخلاقه في كل
اعماله واقواله الا ما كان له علاقة منها بدينه ومذهبه . فتلقاه اذ ذاك سخيلاً
الفكر وان ضن به ، سقيم الذوق وان عاجله بالاعذار وحلو الكلام ، عقيم العقل
وان اغرق في الاجتهاد ، قليل الثقة بالناس وان عظم ايمانه بالله . وقد لتفاوت
هذه العيوب في الناس تفاوتهم في شدة العقيدة ، وتختلف عرضاً لا جوهرأً
اختلاف المذاهب وضعاً وعملاً .

خذ البروتستانتين مثلاً . فانهم بوجه الاجمال اسلم عقيدة واوسع حرية
في العقلية من الكاثوليكين . ولكن في البروتستانية مذاهب تضيق عندها
جادة الحياة وتربّد آفاق الطرب والسرور . فلا يُحِبُّ لذلك بقيةا ، ولا يُرغب
في مجلس عالمها ، وقلما يطاق قسيسها اذا كان من الطراز القديم . بين ان رؤساء
الكنيسة الكاثوليكية ، وان ضيقوا على العقل وقيدوه ، لا يطفثون انوار اللهب
والسرور في جادات الحياة .

ان الزيود مثل بعض البروتستانتين عقيدة وعملاً . وان امامهم الاكبر في
سلوكه الديني واحكامه المذهبية ليزكر في بذاك القسيس المحترم الذي يجعل
الانجيل في جيبه والعالم على منكبيه ، فيسعى ، والغم مخيماً فوق حاجبيه ، في
نشر كلمة الرب في الناس . الا ان الامام يختلف عنه في انه شرقي عربي يحسن

الضيافة والمؤانسة ولا يحزن اذا ظنك في ضلال عليك ، ولا يقف بمشراً بين
يدبك .

انك لا تجد في ملوك العرب اليوم من هو اعلم من الامام يحيى في الاصول
الثلاثة اي الدين والفقه واللغة ولا من هو اكبر اجتهاداً واغزر مادة منه .
وهو اوسم نظراً من بعض ساداته العلماء الذين لا يزالون يعتقدون بسطحية
الارض وله ذوق في الشعر والادب فيقضي بعض وقته في المطالعة . بل هو الشاعر
الوحيد في حكام العرب كلهم . قد اثمرت الى قصيدته المشهورة التي بدعو فيها
الى الوحدة الاسلامية وسيطلع القارى على شيء من رقيق شعره ايضا .

ولكني الان مثبت ما قلته في تأثير الدين او بالحري المذهب في الاخلاق .
ليسمح لي حضرة الامام اذا ، وان كنت موضوع اكرامه وضيافته ، بالاشارة
الى ما يعد تقصاً في الضيافة والاكرام . لم اكن لألمس هذا الموضوع بكلمة
واحدة لولا انني احسب تقسي من العرب وانسب مثله الى قحطان ، فانار عليه
وعلى شريف نقاليد العرب من انتقاد الغرباء جنساً وديناً في مثل هذه الاحوال .
فهل يخجل بقاعدة من قواعد الزيدية اذا آكل ضيفه الاجني ولو مرة واحدة ؟
أو ليس « الخبز والملح » من شروط الضيافة عندنا ؟ وهل يقصر العربي في الضيافة
او يخجل بشروطها ؟ واذا كان الضيف عالماً تلذه مطالعة الكتب ، وخصوصاً
المخطوطات القديمة فهل يهدم حضرة الامام ركناً من اركان الدين اذا اطلعه على
بعض ما عنده منها ؟

اما اذا استأذنه الضيف باخذ رسمه فيأبى ، ثم يأذن بتصوير الجنود وهم
زيود ، فلا اظنه على طول باعه في الاجتهاد يستطيع ان يوفق بين الامر بين
الزيدي زيدي جندياً كان او اماماً . واذا كان من تحريم في المذهب او في
الدين يختص بتصوير الهيئة البشرية فالتحريم يشمل طبقات الناس كلها .
على ان آلة التصوير لم تنجح في ما اباح فلم تصح وأسفاه من صور الجيش صورة
واحدة . وقد كنت في ما منع مصرأ لاني كرهت ان اعود من صنعاء وليس
لدي من طلعة الامام الشريفة غير الذكرى والخيال . فاستعنت بالقليل مما عندي

من فن التصوير واغتنتم الفرصة ذات ليلة كنا في ديوانه وكان هو يشتغل فدرست وجهه ورسمت عندما عدت الى المنزل ما حفظت منه فكان الرسم الذي تراه صادقاً بشهادة من عرف الامام .

العفو يا مولاي . اننا في زمن ادبي فني يحل الرسم فيه غالباً محل الكلام ، وله في احوال شتى المقام الاول . فضلاً عن ان الناس غريبين كانوا او شرفيين يرغبون في مشاهدة عظام الناس . فاذا حرموا ذلك فلا يحرمون ، بفضل الرسامين والمصورين ، رؤيتهم في الكتب والمجلات .

وان كاتباً يتشرف بمشاهدة احد كبار ملوك العرب ليقتصر في واجب التصوير ، كلمة ورسمياً ، اذا كان لا يصفه في ديوانه . وديوان الامام يسمى « الخيم المنصور » وهو يشتغل فيه كل يوم كأحد كتابه بل اكثر من كل كتابه . ها هو جالس على الفراش الاسود فراش الملك وفراش الادارة ، في فمه « مخزينة » مضغ من القات ، وعلى رأسه عرقية نسيجها اسود يتخلله خيوط صفراء ، وقد تزع سيفه ويردته وعمامته كما ينزع احد الغريبين القبعة و« الساكوه » تجرداً للعمل . كأنني به امير كي كبير يفوز في كل اعماله وهو جالس الى منضدته يملئ على كاتب سره .

اجل ، ان الامام يحيى هو الملك العربي العامل بثبات ونشاط وادارة قلما تجدها في زملائه . ديوانه بسيط ، قريب من الارض ، لا رفعة ولا ترفع فيه . يجلس متربعاً وامامه منضدة صغيرة وحبير وورق واقلام . ويجلس الى يمينه كاتبه الاول القاضي عبدالله العزري ، والى يمين القاضي عبدالله ثلاثة من الكتاب رؤوسهم فوق ايديهم ، وايديهم على ركبهم يكتبون ، وقبالهم من زملائهم ثلاثة اخرون . وفي وسط الديوان جنديان جالسان امام الامام ، بيد احدهما الختم الامامي والمحبرة الحمراء يختم الرسائل والخطوط والاوامر التي تدفع اليه ، ويسد الثاني رزمة من القات ينتخب منها اوراقاً يقدمها لسيدته الاكبر .

يُفتح الديوان في شهر رمضان مثلاً الساعة الثامنة مساءً فيجئ جندي

يريد اليوم ، بعرائضه ورسائله وبقاريره ، ويضعها امام القاضي عبدالله موزع الاعمال ومديرها . فيغضها فضيلته ، وهي كلها لفافات كالسواكبر صغيرة وكبيرة ، وقرأها واحدة واحدة ، ويأمر هذا الكاتب او ذاك بالجواب على ما يستطيع البت فيه دون الامام . ثم يقدم له ما يستوجب النظر الامامي فيأمر بما يجب في شأنها ، وهو يطلع على ما يكتب في الديوان ويعلق عليه بحرف ه اثباتاً ، او بكلمة سلام ، وغالباً يؤرخه بخطه ، ويدفعه اذ ذاك الى مأمور الختم فيختمه ويرميه ، ثم الى من يلفه لفافة ويكتب عليها اسم صاحبها .

الديوان الامامي او الخيم المنصور مفتوح دائماً لبعض السادة يدخلونه دون استئذان فيسلمون ويمسكون ويسكتون ، اما الرجل الوحيد المباح له الكلام والسياح فهو الحاجب في الباب ، وكثيراً ما كنا نسمع صوته ولا نرى وجهه — الوجد بكبدك قلت لك الامام مشغول ذا الحين ناهي ، ناهي . . . جوابك تحت الختم . . . البلا بروحك ظل مكانك . . . اسكت يا يهوده ، البرص بعريك . . . اسكت . . . « أ » در له البندق يا آسي . . . على رأسي . . . حسن الخوازي يا سيدي . . . لينتظر . . . هو يشتهي السفر ذا الحين . . . لينتظر . . . يقول ان العامل . . . فيحتم الامام غيظاً ويضح مثل حاجبه وبه — ضربك الله بروحك اسكت . اخرج !

وعند الامام يجي اخصائيوه يستشيرهم ويستعين بهم . هذا السيد احمد الكبسي المقدم الاول ، العالم بشؤون العثائر واطماع رؤسائها وطفقاتهم ، قد اقترب من الامام وفي فمه « تخزينة » نامرة ليهمس كلمة في اذنه . وهذا السيد محمد زياره امير القصر ، قصر غمدان ، ومدير السكة والسجن فيه ، بطالع استدعاء طوله ذراعان ملصوقة اوراقه بعضها ببعض . وهذا « جرجي » ابو الخراطوش بعيد النظر في رسوم قنابل رسمها ولا يستطيع صنعها في صنعاء قد جثا امام فراش الملك ورائحة الخمر نفوح من فيه . — وكم يلزمنا من هذه ؟ فيجيبه الامام : الف . — ومن هذه ؟ — الفان . — ومن هذه لمدفع الهاون ؟ — خمسة . فقط . ثم يكتب الامام الطلب بيده ويدفعه الى راعي الختم فيختمه ويرميه .

وهوذا شيخ الاسلام يدخل محني الرأس فلا ينظر انى احد ولا احد ينظر اليه ، فينبوا مجلسه في الزاوية و يأخذ كتابا مخطوطا بقلب في صفحاته ، فلا يتبرع برأى او يتلطف بكلمة الا نادرا . وهذا — قد انتصف الليل — احد الموظفين في دائرة السلك « التلغراف » جاء برزمة من ثمار سلكه فيفضها القاضي عبد الله و يقدمها بعد ان يطالعها للامام . هكذا يستمر العمل الى ما بعد نصف الليل والامام ثابت فيه جالس لا يتحرك ، الا انه يقف هنيهة من حين الى حين فيضع القلم جانبا و يتناول غصنا من القات بيده او يشرب جرعة من الماء و يتلحظ هائفا : والحمد لله .

بين الساعة الواحدة والثانية بعد نصف الليل تدق الطبول ثم يطلق مدفع السحور فينهض الكتاب واحدا بعد الاخر و يخرجون متسللين دون استئذان . اما الامام و كاتبه الاول فيثابران على العمل حتى الساعة الثانية و بعدها . ذلك لان من مبادئه ان لا يؤجل الى الغد ما يستطيع انجازه في يومه . بل من قوانين الديوان ان لا يؤجل الى الغد شي من امور اليوم ، فيجب ان ينظر في كل ما يرفع اليه في اليوم الواحد . لذلك ترى الامام و كاتبه الاول الاخيرين غالبا في الخروج من الديوان .

والامام يحيى ، على ما هو فيه دائما من اشغال الملك و هموم الامامة ، يستطيع حتى في رمضان ان ينظم الشعر . اجل ، قد نظم قصيدة يدافع فيها عن القات ، وكان الداعي الى ذلك ما أوحى ذات يوم بواسطتي تحت شجرة الجوز الى الرفيق قسطنطين . قلت : يا قسطنطين ، قد طفحت صنعاء بخمر قصائدك ، وكلها مديح و تباريح . فما نجا احد ، حتى ولا ولد السافية ولا مدفع رمضان ، من قوافيك العسلية . فلماذا لا تغير النعمة والحنان ، وتستبدل القيثارة بالسندان ؟ اني مشتاق الى قصيدة هجو منك . فاجاب الرفيق : تريد ان اهجوك ؟ فقلت : انك تفعل كل يوم وقد اصبح هجوك اياي مثل مدحك الامام مبتذلا . فقال : تريد ان اهجو الامام ونحن ضيوفه ؟ فقلت : اشتهي ان اسمعك حاجيا . اهج — اهج — ولم ادرك اذ ذاك ما يستحق في تلك البلاد التخصيص والتفضيل .

ولكني سمعت صوتاً في الجوزة يقول : لينظم قصيدة يهجو فيها القات .
 فنهض الزعيم الشاعر في الحال وبادر الى القلم والسيكاره ، وجلس في
 البستان ، ثم قام يتمشى حول الشاذروان ، ومنه وثباً الى الديوان . وبعد ساعة في
 الزاوية والعرق يتصبب من جبينه الملتهب ، قام والقصيدة بيده يكرمني ، يجر بها
 في على عادته :

القات فيه عجاب كما يقول الصحاب
 درت به الشاة لما ان طاردتها الذئاب
 ذاقته فاستعذبه وسال منها اللعاب

الى ان قص القصة التي يروونها في اليمن . اضاع الراعي شاة من غنمه
 فراح يبحث عنها فراها نائمة في في ، صخرة وورق القات في فمها . فخر به مثلها
 فاستعذبه

و أمسى يجمع منه حتى تملأ الجراب
 مشى يحدث عنه وفي الحديث الصواب
 فصدقوه وذاقوه - هـ - مثله واستطابوا

وبعد ان يصف كيفية استعماله في اليمن وبعده الفضائل التي يروونها فيه
 يضع القيثارة جانباً ويرفع المطرقة فوق السندان :

ما نفعه انبثوني هل عند شخص جواب ؟
 جربته واختباري يجدي به الاسباب
 ننتاب جسم الفتى قشعريرة والتهاب
 وفيه يفعل ما لا يقوى عليه الشراب
 والصدر فيه من الوخز والعذاب حراب
 والنسل يضعف منه ما في كلامي ارتياب
 لا نفع في القات لكن فيه الشقا والعذاب
 وتزهق النفس منه والقلب والاعصاب
 والجفن يذبل حتى يغشى العيون محراب

وسؤ هضم وقبض منه يغيب الصواب
والراس ينقل وطناً وبالذوار يصاب
ويعتري بعد هذا المفاصل الاضطراب

ثم التاريخ ولا بد منه في قصائد القسطنطين ، لانه اشد من عرفت من
الشعراء شغفًا به ، وامرغ في نظمه . وقد اقترن المعنى بالصناعة في تاريخ هذه
القصيدة اقترانًا طبيعيًا ، وفيه الضربة القاضية :

لم يبق ارحت ريبًا القات للقتل باب

في ٣ رمضان سنة ١٣٤٠

اما النسخة الثانية من جنان الوحي فهي اننا رفعنا القصيدة الى حضرة الامام
مشفوعة بكتاب نقول فيه اذا كان احد من شعراء صنعاء يبغى المعارضة والدفاع
فليسرع قبل ان يرحل الشاعر . وكان اسبوع في عاصمة حمير والاذواء أضرمت
فيه نار القوافي فوردت علينا المحرقات منها المهلكت . اجل ، قد جاء احد الشعراء
وقصيدته في خنجره يشتفي دم الشاعر الكافر الذي تجاسر ان يذم القات وما
ذمه ، وهو ذا ذنبه الاكبر ، بغير المتبدلات الشعرية والراكات . فوقفه لحسن
الحظ الحارس ولم يأذن له بالدخول . وبعد بضعة ايام جاءنا من المخيم المنصور ،
من الامام نفسه ، كتاب في غلاف مختوم ، على غير العادة الجانية ، ففضضناه فاذا
فيه قصيدة من نظمه وبخطه الشريف وفي القصيدة خلال الدفاع عن القات
من الغزل والدمامة والانتضاع — تلك روح الشاعر الحقيقي — ما يزيد النماظم
رفعة ومجدًا ، ويزيد المعجبين به حبًا و إعجابًا . وما اجمل العذر والتواضع في
الكلمة التي ذيل القصيدة بها .

الزعيم قسطنطين .

صدر ما يشبه الجواب ، ومهما رأيتم قصوراً فلا عتاب ، مع كثرة الاشغال

وتبليل البال .

قال في مطلع القصيدة ، نفعنا الله بمزاياه الحميدة ، ان للقات مزايا لا يحصاها

الاسباب ، فيذكر عشرًا منها فقط :

فالعيون جلاء للضعف منه ذهاب
 وللشغور صباغ زمردى يذاب
 أحسن بشعر ما يبع له المذاب رضاب
 يا ما أحيلاه ظالما تشقى به الاحباب
 وللنفوس مريح وللنشاط انجذاب

...

ويشخذ الفكر حتى يخاف منه التهاب
 ويطررد النوم عن من له الجليس كتاب

في البيت هذا يظهر حضرة الاديب العالم في الامام فيقر به من كل من آثر
 الكتاب جليسا . الى ان قال :

اما الذي قاله قسطنطين فهو مراب
 ليس من جاوز الحد اكله والشراب
 يكون عرضة خسر ويعتريه اكتئاب
 والاكل والشرب ما لا به الكرام تعاب
 وانما العيب امراف منه يبدو العجاب
 هذا الملقق يا قسطنطين منا جواب
 يهدى اليك عليه من الحياء تقاب
 لانه ليس كقوفا للدر وهو تراب
 فاستر ملقق يجيى فالستر فيه ثواب

ان في الايات الاخيرة من الدماعة والخفة والتواضع ما يستحب في اصغر
 الشعراء واكبرهم . فكيف به في احد كبار الحكام والامراء ؟

الفصل الحادي عشر

الزبود واليهود

منزلنا بيت الصلاة — الوفد الافرنسي — ماء الوضوء — الصلوات والبصل —
المتداون — الخنازير النصارى — الحارس احمد يهندي — السيد والهيجري —
ظلم السادة — حزام واليهودي — قاع اليهود — السيد محمد يعبد الواجبات —
وكلمها من اجل اليهود وسعادتهم — يدفعون الجزية راضين — الزبيدي واليهودي
في حب المال واحد — رسائل اهل اليمن — لا يستعملون الفلاقات — حسابات
وزير المالية — الصراحة والابحاز — الاسلوب التركي والاسلوب العربي .

هبوا على الصلاة ! هبوا على الفلاح ! وكان المؤمنون يجيئون الى منزلي
يصلون . الحاجب والحارس والسيد والخدام والعشي والبستاني وولد الساقية الذي
يعني لجمه من الشروق الى الغروب : صدر البئية بستان وانا زرعت ، كانوا
كلهم يجيئون خاشعين فيتوضئون في بركة الشاذروان ، ويفرشون حولها في ظل
شجرة الجوز برده او احراما ، ويصلون صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر
وصلاة المغرب وصلاة المساء . ما عرفت ولا رأيت اناسا يصلون مثل هؤلاء
الزبود . وما سمعت ولا قرأت في التاريخ عن اناس كانوا يصلون مثل هؤلاء
الزبود . ولا اظن ان صلاة تصعد من ثم بشر فتذهب كالهباء المشور مثل صلوات
هؤلاء الزبود .

كان في البيت ازاء بيتنا الوفد الافرنسي الذي وصل الى صنعاء يوم كنا
هناك ، وكان احد الخدم يجيء ليأخذ لهم ماء من الشاذروان ، فسألته مرة : لمن
الماء ؟ فقال : للخنازير النصارى . فقلت : اليس في بيتهم ماء للغسل ؟ فقال :
هم يشتمون الماء للشرب . فقلت : اتسقونهم من هذا الماء ، من ماء الشاذروان ؟
فراح يحمل الجرة ويقول : خنازير نصارى لا يستحقون احسن منه .
ويجيء هذا الزبيدي فيتوضاء في البركة ثم يفرش برده تحت اغصان الجوز
ويتجاسر ان يخاطب « الرحمن الرحيم ، رب العالمين » ويصرع اليه ليهديه
« الصراط المستقيم » . ويجيء البستاني كل يوم فيفتح بركة الشاذروان ليفرغها

فتجري مياهها في بستان مهمل ، ارضه طيبة ، لم يزرع فيها الا شي من البصل واللوبياء والبرسيم . كنت دائماً عند ما ارى البستاني في عمله وفي صلاته آسف على الماء الغزير الذي يكفي لبروي حقلاً وسيعاً ولا يستخدم الا لري ثلم من البصل ، وعلى الصلوات الفائضة التي لا تروي في قلب الزيدي غير حقل زرعه البغض والتعصب .

اي اخي الزيدي ، ما الفائدة من الصلاة وليس في قلبك غير البغض ؟ ، بغض العالم خارج اليمن ، و بغض الخنازير النصارى ، و بغض اليهود في بلادك ، حتى و بغض الشوافع اخوانك في الاسلام . ان صلواتك وماء الشاذروان سواء . وان في الاثنين بركة وبركات لو نشطت ، وعقلت ، وكنت كريماً . فلا تضيع اذ ذلك ماء بلادك في الارض البور ، ولا تسقي ماء وضوءك الناس ، ولا تسمع ربك كلمات التجديف في معرض الخشوع والابتهاال .

جاء في ذات يوم الحارس احمد وفي عنقه ورم والتهاب . فدهنته بصبغة اليبود مرتين فثفي وعاد يشكرني . فقلت يجب ان تشكر الخنازير النصارى لان هذا الدواء اخترعهم ، صنع في بلادهم . فقال : جزاهم الله خيراً . والله يا امين - ورفع يده ورأسه الى السماء - عينه ترى كل شي . ورحمته تسع كل الناس . ثم جاء آخر وثالث ورابع يحملون الي الآلام من جرح او قرح او التهاب . وكنت كل مرة اعالجهم اذ كثرهم بان شفاهم من الله ثم من اولئك الخنازير النصارى الذين اكتشفوا الادوية والمخدرات - بعد ان تعلموا الطب من اجدادكم يا اجهل العرب - ليزيلوا الامراض ويخففوا الآلام البشرية . وكانوا ، وقد جاؤوني زيوداً ، يرجعون مسلمين الى الديانة السمحاء التي يقول صاحبها : الانسان اخو الانسان احب او كره .

ولما عاد خادم الافرنسيين ليأخذ المساء من الشاذروان انتمره الحارس احمد وهز له العصا . - والله بالله اذا سقيتهم من الشاذروان اشكوك الى الامام . ما مررت والله بشي في صنعاء مروري بعصا احمد وكماته . فقد برهن الانقلاب السريع في نفسيته ونفسية اخوانه في الزيدية وفي الاوجاع على ان بذرة الصلاح

التي زرعتها الله في قلب كل انسان لا تزال طيبة في قلوبهم ، ولا تحتاج الا الى عمل او كلمة او اشارة تحرك فيها الحياة ، وتروىها بماء المكرمات . اما التبعة في رقاد تلك البذرة وحمودها فعلى السادة الذين لا يرغبون في تعليم عامة الناس .
واذا علموم شيئاً فزيجه الاكبر التعصب والطاعة للرؤساء .

لا يزال للسادة في اليمن حقوق في الارض وفي الرجال شبيهة بحقوق ذوي الاقطاع Feudal Lords في اوروبا الا ان لا عبودية فيها . هم يقولون : هؤلاء قوم فلان . او القبيلة الفلانية هجرنا^(١) اي في حمايتنا ، وهذا الرجل هجرني فمتى كانوا كذلك فالعلم من وجهة اسيادهم قلما يفيد . اذكر كلمة قالها لي احد الجنود في الطريق وكان رفيقنا سيد يلبس حذاءً ضغط على رجله فزعه ومشى حافياً . دنا الجندي من مطيبي وقال بصوت خافت : كل الناس في اليمن ما عدا السادة فقراء . والسيد طماع كسلان متكبر . هذا المثل — و اشار الى السيد قدامنا — وهذه اعمالهم — و اشار الى حذاء السيد الذي كان يحمله — يحملني حذاءه .

وليس النصرارى في مذهب الزيود وفي جهلهم احق من اليهود بالسكره والاحتقار . كان الجندي حزام ، احد من مشى معي في المدينة حراسة واكراماً

(١) جاء في الحديث ، من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها وامرأة يتزوجها فهجرته الى من هاجر اليه .
حاشية ثانية ، جاء في حاشية الطبعة الاولى ان هذه الكلمة من القرآن ، فكاتب يصاح الخطأ طالان فاضلان الواحد افرنسي باريسي والثاني عربي نجفي . ولكنك وقفت عندشكر العالمين لو لم يكن اسلوب كليهما في التقدير يستحق بل يستوجب هذا التعليق .
كتب العلامة المستشرق لويس ماسينيون كلمة عن « ملوك العرب » في مجلة العالم الاسلامي الافرنية وارادها بهذه الحاشية ، في الصفحة ١٦٨ من الجزء الاول نقل المؤلف كلمة قال انها من القرآن فيجب اصلاحها .
وكتب العالم النجفي مقالاً طويلاً بليغاً في عمود كامل من الجريدة فونجني تويغنا ، وشتمني شتماً ، واذمني ذمناً لا يلبق من مثله بمثلي لاني خلطت بين القرآن والحديث ولم اميز بينهما .
اني مذنب يا حضرة الجيهنم النقريس . ولكني اتعزى بان لي في الذنب شريكاً كبيراً من كبار العرب المسلمين فقد قال العلامة ماسينيون في حاشيته ، ان الملك حسيناً نفسه يغلط أحياناً في الايات ويتخلط بين القرآن والحديث . راجع العدد ١٤٥ من جريدة القبلة والعدد ٤٧ صفحة ١١ من مجلة العالم الاسلامي .

من قبل الامام ، يضرب بقبضة بندقيته كل يهودي يمر به . - ابعدا يا يهوداه
ضربك الله بروحك ! زادك الله عماوة يا يهوده ، اخل السبيل ! وقد لا يكون
المسكين في الطريق . ولكن حزاماً وهو شغف يحب اليهودي يراه على مسافة
قادمًا نحونا او ماشياً بعيداً عنا فيبادر الى ملاقاته بالبندقية واللعنات ، وهو يظن
انه يرضيني بذلك . ثم يصبق عليه ويهتف قائلاً : لولا الامام . بلى ، لولا عدل
الامام لكان يذبحه ذبحاً . فهددته مرة ، وكان قد نفذ صبري عليه ، افي اشكوه
الى حضرة الامام اذا استمر يفعل هذه الفعلات . فصار بعدئذ اذا رأى ذا
السوالف قادمًا في جهة من الطريق يسير هو في الجهة الاخرى . واذا مرَّ به
انفاقاً يميل بوجهه ساكتاً صامراً كأنه لم يره .

وكان السيد محمد ، رفيقنا من ذمار الى صنعاء ، احد الاماجد الذين لا
يتجاوز عددهم الستة المأذونين بزيارتنا ، الخائزين على ذا الانعام من حضرة
الامام . فاستصحبته مرة الى قاع اليهود اي حيهيم وهو مدينة معتزلة بينها وبين
بير العزب ساحة كبيرة مثل ميدان الشرارة الكائن بين صنعاء وبير العزب .
فزادني بذوي السوالف علماً وبالامام يحسى اعجاباً .

حدثني السيد محمد قال : يجب على اليهود يا امين ان يرسلوا السوالف كي
لا نظنهم منا اذا شبت الحرب بيننا نحن العرب فنذبحهم خطأ . ويجب عليهم ان
يركبوا الحمير فقط لانهم لم يتعودوا ركوب الخيل . والسلامة يا امين قبل
الفضامة . ويجب عليهم ان يرفعوا الزخارف^(١) من المراحيض ويجوز لهم المتاجرة
بها فيزبد ما لهم . ويجب عليهم في بناء بيوتهم ان لا يتجاوزوا الطابقين علواً
فيسلم اليهودي اذا وقع عن سطحه . ويجب عليهم دفع الجزية كي لا ينسوا
اصلهم وجنسياتهم يا امين فيذكروا دائماً شريعة النبي السمحاء وفضله عليهم .
ويجب عليهم اذا شتمهم المسلم وصبق عليهم ان يشكوه حالاً الى الامام فيأمر المدعي
بذبح فدان . فاذا ثبت الدنب دفع المسلم ثمن الفدان واخذ اليهودي نصفه . وكثيراً

(١) هو من باب تسمية الشيء بضمه . واليهود في صنعاء يرفعون « الزخارف »
ويبعونها من اصحاب الحمامات ، فيستخدمونها في الرقود .

ما يتعنى اليهودي الشتيمة طمعاً بنصف الفدان . ولا نجيز لليهودي التملك .
الارض لنا والبيت له مدة من السنين محدودة ، تسعة وتسعين سنة . ولا ينفى عليك
ما في هذه الشريعة من التساهل والرحمة ، ونجيز لهم ان يصنعوا النبيذ فيشربون .
ولا يبيعون غيرهم فيحزنون . ونجيز لهم كذلك ان يعرضوا علينا بناتهم فستخدمهن
في بيوتنا ، وندخلهن حريمنا ونمنح من يستحق منهن نعمة الاسلام .

اما اليهود فهم راضون بهذه الحال . هم راضون شاكرون ما دامت الجزية وهي
تافية تخلصهم من التجنيد . وهم لا يزالون منذ عهد نجران الزاهر على عادتهم
ونقاليدهم ودينهم الذي يلقنونه اولادهم باللغة العبرانية القديمة . فلم يدخل عليهم
من جديد ، او بالحري من غريب ، غير لقب حاخامهم الاكبر الذي منحه اياه
الترك ، فهو لا يزال يدعى حاخام باشا .

قلت انه لم يكن احد ليدخل منزلنا الا باذن من الامام . ولكن يهودياً
كنت قد اشتريت منه في السوق بعض النقود الحميرية واوصيته على غيرها
ادهشني ذات يوم بوقوفه فجأة امامي في الديوان . فظننت ان الخارس حزاماً
نائم او غائب ، والا فكيف باذن له بالدخول . سألت اليهودي فقال : هو في
الباب . فقلت : ألم يرك داخلاً ؟ فاجاب بالايجاب وسكت . فأشترت منه ما
اشتريت ودفعت المال فزال اذ ذاك العجب . مشى اليهودي مسروراً والمال في
جيبه حتى وصل الى الباب فأوقف هناك ، فرأيت اذ ذاك حزاماً وبده على تلايبه
والبنديق مرفوع باليد الاخرى ، ورأيت اليهودي وبده في جيبه بخرجهما ويقاسم
الزبيدي ما قبضه مني من المال . الا اني لم اتحقق مصدر الفساد والخلل . ولولا
عاجي بتفوق الزبيد واحتقارهم اليهود لقلت ان ذا السوالف رشي ابا النيل ليأذن
له بالدخول والمتاجرة ، وقد يكون ذلك ، ثم رفض ان يدفع ما وعد به ، فقبض
ابو النيل على عنقه وابتر منه ليس نصف الربح بل نصف المسال كله . وقد
يكون الزبيدي في تفاضيه عند ما دخل اليهودي ، نصب له الشرك الذي وقع
بعده في فيه . كأنه قال لنفسه : القنص للقنص . ليربح من ضيف الامام وانا
اربح منه . ان بيت الاول من زجاج مصبوغ ، وبيت الثاني من زجاج بسيط .

الواحد يحب المال ، والثاني يشتهي « الظلّط » وهل في حب المال ما يستنكر ومولانا سيد المحبين ؟ وهل في الاقتصاد ما يستقبح وهو في علم الاقتصاد الاستاذ الاكبر ؟ اظن ان الامام يحترم اليهود ويحميهم ويقيم فيهم العدل فيأمر بذبح الفدان اذا اهينوا ، لانهم المثل الحي لما هو عنده من قواعد الحياة في مقام الايمان .
المال ، المال ، والاقتصاد بالمال . فاذا كان اليهود في عهده آمنين مطمئنين وفي تجارتهم ناجحين ، فالزبود وقد حرمهم « الظلّط » امسوا من امهر الاقتصاديين .
والناس على دين ملوكهم .

ان اول ما شاهدت من مظاهر الاقتصاد المدهشة في اليمن هي طريقتهم في المراسلة ورفع العرائض . فلم ادر ما تلك القصاصات المكرسة التي رأيتها لأول مرة امام منضدة امير الجيش في ماويه الا بعد ان وصلنا منه ، ونحن في اب ، برقية مكتوبة في ادارة السلك على شقة من « كابون » الدولة العلية . ثم وصلنا ونحن في ذمار من عامل اب برقية اخرى مكتوبة على قصاصة من معروض بالتركية مرفوع الى جناب قائمقامية حراز العالي . فالامام يحبي الذي غنم من الترك المدافع والسلاح احتفظ بما تركوه من الاوراق والدفاتر والكابونات والمعاريض ولم يأمر بنقطيعها وباستخدامها في ادارة السلك فقط بل في دوائر الحكومة كلها حتى وفي الخيم المنصور .

انه ليندر استعمال الغلاف في اليمن الا في المراسلات الرسمية الخارجية . اما في البلاد وبين اهله فالغلاف هو الرسالة والرسالة هي الغلاف . يجيئك الرسول بلفافة صغيرة مثل السيكاره فتفكها فاذا هي رسالة من حضرة الامام وقد تكون بخطه الشريف ، فنقرأها ثم ننظر في مالها من هامش فنقطعه وتجاوب عليه ، وتلف الجواب سيكاره وتعيدها مع الرسول . واذا امرفت في الورق واضعت مقدار ختمه منه دون ان تسوده توّبخ على ذلك ، وقد تعزل اذا كنت موظفاً سيفي الحكومة . اما اذا جاءك كتاب في غلاف فنشقه ونستعمل ظهره للمراسلة . واذا كانت الرسالة من صنور وهي على قدر بطاقة الزيارة تعيدها اليه والجواب في المكان الابيض منها ، سطرأ كنعلة الفرس او سطرين كخط المابين .

ومن المستغرب المستعذب ان بعض الناس يرفعون شكاياتهم نظماً في بيت او بيتين من الشعر . ومما قرأته من هذه الشكايات سطران من انسان يشكو حمار جاره في شهر رمضان المبارك . فهو يلبط ويشعق كثيراً في الليل . فصدر الامر الى صاحب الحمار ان يقيده ويشكمه بين مدفعي السحور والافطار .

جاء السيد علي زباره يزورنا ذات يوم رسمياً وقد كان يزورنا كل يوم كمدير التموين والضيافة . فاغتنم فرصة وجوده عندنا ليراجع ما تكرر دس على رأسه - ومكتبه ايها القارىء على رأسه - من الرسائل والحسابات . فنزع عمامته البيضاء وشرع يخرج من طياتها القصاصات المشهورة ، فيقطع القسم الابيض منها ويعيده الى مكانه ثم يمزق الباقي . ومن الرسائل التي اطلعنا عليها ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

علاء الدين قد وافيت ارجو ريبالاً في ريبال في ريبال

فسمن والحبوب وما سواها لشهر الصوم فالمصروف غالي

ثم اطلعنا على قصاصة من حضرة الامام يأمره بدفع مئتي ريبال الى احد العمال . فقلت له : اتمزق هذه ايضاً ؟ فكان جوابه ان مزقها وهو يقول : اذا دفعت التي ريبال لا أسأل عنها . فقلت : وقد ينسى الامام فيسألك ان تبرز الامر فاجاب قائلاً : لا ينسى ولا يسأل . فمعجبت لهذه الصلة ، صلة الثقة والامانة ، النادرة في حكومات المتمدنين ، بين الحاكم وناظر ماليته .

تلك اللقافات وفيها الشكايات نظماً ونثراً ، اني لا ازال اذكر منها رسالة جاءني يوم سفرنا من احد الحراس يقول فيها ، بعد ان رفعتني الى الجوزاء وتركتني هناك ، ان اللقات في شهر الصوم غال جداً وان الله لا ينجيب امله « بامير المحسنين العزيز امين » . وما اغرب ما ترويه هذه الرسائل واحزن ما نفسيه ، وفيها شكوى البارح وراه شكوى اليوم ، وبين الاثنين او على هامشها يباض يسوده الغد بما قد يكون ابعد غرابة واشد حزناً .

ان الاقتصاد فضيلة . ولفضيلة الاقتصاد بالورق في اليمن شقيقة اجمل منها ، الا وهي الاقتصاد بالكلام . انعم بتلك الصراحة والايجاز ، وبما يوجبه الايجاز

من اهمال الالقاب وعبارات التبجيل . او ليست الصراحة والايجاز والخطابة
البتراء من مزايا العرب المشهورة ؟ ولكنهم في ما دخل من بلادهم في حكم
الأتراك كالحجاز مثلاً وبعض نواحي اليمن وعسير ، اسوا أتراكاً في ما
يكتبون ، وفي الكثير مما يقولون ويفعلون .

اما في اليمن الاعلى ، في غير الرسائل الرسمية ، فلا يزالون من العرب العرباء .
الا انهم اذا كتبوا الى امير او حاكم او سيد خارج اليمن فلا الترك عندئذ ولا
العجم يفوقونهم في نغامة الالفاظ وضحامة الالقاب . وهاك مثلاً من تباجيلهم .
اذا كان المخاطب اميراً فالى : قدوة الامراء الكرام ، وعمدة التجباء الفخام ، عالي
المجد والمقام ، نجر العرب والاسلام واذا كان اماماً فالى : خلاصة الاطهار
الاجداد ، وروضة المجد الرفيع العماد ، قرة العين والكمال ، عنوان الاعتبار
والجلال ، الركن الاسند والسند المستند واذا كان سيداً بسيطاً فالى : ذي
الاخلاق الزكية ، والشمال المرضية ، الهام المقدم ، الرفيع المقام ، النقي النقي . . .
على انه يسر كل من يكبر في العرب شمائل الاجداد ان يرى في خطوط
الامام الى رعاياه وفي عرائضهم اليه تلك الصراحة وذاك الايجاز اللذين امتازت
بهما قديماً خطب الامراء ورسائل الادباء . وعندني فوق ما اشرت اليه نموذج
باهر في رسالة من صديقي السيد احمد الكبسي على قصاصة من الورق صغيرة .
قال حجب الله عليه : لا عتب على صديقكم فالليلة هذه نتم الامور والسفر يوم
الاثنين ان شاء الله . وسأحضر اليكم الساعة السابعة غداً .

لكن الامور لم نتم تلك الليلة ، ولا السفر كان يوم الاثنين ، ولا شرف
الصديق في الساعة السابعة او العاشرة من ذلك الغد . الا انه جاءنا في اليوم
التالي والطيب ينتشر من اردانه ، « والتخزينة » بين اسنانه ، « وظاهر وماشي »
لشمسي في بيانه ، فقال : انا مسرور لان حضرة الامام اذن بان نتعشوا عندني .
فالى مساء الغد يا امين الى مساء الغد يا قسطنطين . وراح يشكو الصداق
ويداويه بالقات وبالآيات .

الفصل الثاني عشر

المسئلة السياسية الكبرى

كابوس الحديدية - وعد من وعود الحرب - الترك والامام - الترك والعرب
 بعد الهدنة - تسليم الترك في الحج - اخراجهم من الحديدية - احتلالها -
 احتجاج الامام - جواب الانكليز ووعدهم - تسليم الحديدية للادريسي -
 سياسة الانكليز العربية - المفاوضات - بعثة الكرنل جاكوب - عرب القحراء
 يوقفونها في باجل - الانكليز في الاسر - الامام يسعي في اتقاذهم - رجوع
 البعثة وقتلها - الامام يحمل على النواحي المعيبة - احتلال الضالع وغيرها مما
 في حياية الانكليز - المفاوضات - الهدايا - الدسائس - التسوية والمهاجرة -
 شروط الامام - مقاصد الانكليز .

الحديدية كابوس الانكليز في عدن وكابوس الامام في صنعاء . هذا يعنيها
 ولا ينفك يطالب بها ، واولئك ، وقد وهبوا صديقهم الادريسي ، يودون لو
 كان بإمكانهم ان يهبوها كذلك الامام . وهناك وعد من وعود الحرب وبعدها
 يزيد العقدة شدة في دار الاعتماد بعدن . وما العمل ؟ امكننا ان تقسم المدينة
 بين الامامين ، الامام الزبيدي في اليمن والامام الشافعي في عسير ، فننجو من
 السكابوس . أو يستطيع الامام الاكبر ان يضغط على الانكليز في جنوبي
 اليمن بفيلق من زيوده فيضطروهم ان يسلموا بما يطلبه منهم في تهامه ؟ انما هي
 مسئلة المسائل .

الحديدية من المدن العربية المشهورة . كانت في عهد الاتراك وقبله ميناء
 اليمن الاكبر ، مدينة تجارتها واسعة ، وملاحتها عامرة ، وعدد سكانها يتجاوز
 المئة الف . وكان الترك ينزلون فيها العساكر لاختضاع اهل اليمن فمدوا منها
 الاسلاك البرقية الى اعالي الجبال ومنحوا شركة افرنسية امتيازاً بسكة حديد
 تمتد من الحديدية الى مناخه فصنعاء ، فباشرت الشركة العمل بما ارسلته من
 مواد البناء ، فشب نار الحرب في اوروبه فقضت على المشروع وذهبت تلك
 المواد نهب العربان .

وقد كانت الحديدية اثناء الحرب العظمى لا تزال في يد الاتراك الذين حاربهم البانيون اربعين سنة ، فانتزعوا منهم القسم الاكبر مما احتلوه من البلاد . ولكنهم في تلك الفترة والوا اعداء هم وهم اخوانهم في الاسلام ، تحافظ الامام على المعاهدة التي عقدها معه عزت باشا والتي تقدم الكلام عليها في الفصل السادس وظل معتزلاً السياسة والحكم مقيماً في جبال شاره . كان يومئذ محمود نديم بك والي اليمن ، وعلي سعيد باشا قائد الجيوش المحتلة ، وفي حوزتهما البلاد كلها من لحج حتى صنعاء ومن الأحياء على الساحل حتى المخا . اما العرب من شوافع وزبود فقد كانوا على الجملة قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم ومثيرة المال .

ولما أعلنت الهدنة سمعت بريطانيا العظمى باسم الاحلاف في اخراج الاتراك من النواحي التي كانت لا تزال في حكمهم في اليمن الاسفل غرباً وجنوباً . فسلموا في بعضها كلحج دون قتال ، وابوا في الحديدية وملحقاتها الا الدفاع . فجاءت اولاً الاوامر من عدن بالتسليم ثم المدرعات لتنفيذها ، فضررت الحديدية البلد الآمن غير المحصن . فدمرت قسماً منها وقتلت مئات من اهلها ، فهرب اكثر الباقين لاجئين الى الجبال .

سلمت الحامية واحتل عساكر الانكليز المدينة . وكان قد دخل الامام يحيى وقتئذ الى صنعاء وسلمه الوالي محمود بك نديم^(١) زمام الاحكام في اليمن كله . او بالحري في ما كان في حكم الترك والحديدية طبعاً منها . فكتب الى المعتمد الانكليزي في عدن يمتنع على ذلك الاحتلال فجاءه الجواب يقول : اتنا دخلنا الحديدية لنحفظ فيها الامن والنظام وسنعيدها قريباً اليك . وهذا الوعد هو حجة الامام السياسية في المسئلة . اما حجته الشرعية فهي في انتزاعه الحكم من الاتراك وكل ما كان تحت ذلك الحكم من البلاد أضف الى ذلك حججاً اخرى تاريخية

(١) لم يكن في صنعاء يومئذ غير ثلاثة طواير ، وكانوا هناك وقد قطع الادريسي وملك الحجاز وسلطان نجد الاتصال بينهم وبين الشام ، في شبه حصار ازدادت شدته في اواخر الحرب .

وتقليدية وجغرافية ثبت حقه وتأييد دعواه .
ولكن الانكليز رغم وعدم المذكور سلموا المدينة بعدئذ الى صديقهم
الادريسي الذي كانوا يمدونه وهو حليفهم بالمسال والسلاح ليحارب الاتراك ،
عملاً بمعاهدة بينه وبينهم شبيهة اساساً بمعاهداتهم الاخرى وامراء العرب الذين
نصروا الاحلاف . اتنا في استقرائنا الحقيقة نسجلها كلها بعد ان ثبتها ولا نخفي
جزءاً واحداً منها . والحقيقة كلها هي ان ملوكنا وامراءنا الذين نصروا يومئذ
الاحلاف نصروهم لاغراض خاصة ، اغنموا تلك الفرصة لتحقيقها . فكان
الواحد منهم اذا ضرب الاتراك ضربة يذخر من قواه وعدته ليضرب اخاه العربي
بعدئذ ضربتين وثلاثاً . اجل ، قد استخدم الملك حسين مال الانكليز وسلاحهم
على خصمه ابن سعود فكان من الخاسرين . وحمل ابن سعود على ابن الرشيد
فكان من الفائزين . وظل السيد الادريسي بعد الهدنة ومعونة الانكليز يحارب
خصمه الامام دون قصد يشكر او نتيجة تذكر .

لا نلوم الانكليز اذا آثروا في سياستهم وصدافتهم من ساعد الخلفاء في تلك
البقعة من الارض على من ظل معتزلاً . ولا نلومهم في تفضيل الادريسي
على الامام ، وابن سعود على الادريسي ، والملك حسين على ابن سعود . فقد
كانت المساعدة درجات وكان التفضيل كذلك . ولكننا نلومهم لانهم استمروا
بعد الهدنة في تلك السياسة المشؤومة التي كان من نتيجتها ان اتسعت الكفاح بين
امراء العرب المتخاصمين . وظلوا بالرغم عن معاهدات هي وضعاً تختص بالحرب
العظمى ، يمدون الادريسي بالمال والسلاح ليحارب الامام ^(١) فاذا تساهلنا في

(١) كان الكرنل جاكوب معاون الاول في دار الاعداد بعدن عندما عقدت المعاهدة
بين الحكومة البريطانية والسيد الادريسي بل هو الذي عقد تلك المعاهدة مع السيد في
حيزان . وقد ذكر ذلك في كتابه ودافع عن حكومته مستشهداً بالمادة الرابعة منها التي
تقول : ان حكومة بريطانيا العظمى تنهت بان تحمي سواحل بلاد الادريسي وجزرها من
التعديات الخارجية كلها دون ان تتدخل في شؤونه واستقلاله . وقد فسر الكرنل جاكوب
مادته بان لا ذكر للامام فيها وانه لم يكن للادريسي من عدو على السواحل يومئذ قهر
الترك . هذه حجة في ان الحكومة الانكليزية لم تساعد الادريسي على الامام . وحجتها
في ما يفسد حجة هي واقعة الحال بالذات التي يثبتها هو نفسه في كتابه . فقد جاء في

تفسير هذه السياسة وتأويلها وانتحلنا لهم الاعذار ، فاننا لا نستطيع الدفاع عن سياستهم الخرفاء في قضية الحديدية .

قد أبروا بجزء صغير من وعدم تخرجوا عسكرياً من تلك المدينة ولكنهم سلموها الى الادريسي واقاموا فيها من قبلهم وكيلاً سياسياً . فضلاً عن انهم في هذا العمل الذي قيدوا انفسهم به وجعلوا الحديدية كابوساً عليهم قد ظلموا اهل اليمن الاعلى اذ سدوا عليهم منافذ البحر وسلبوا صنعا العاصمة ميناءها الطبيعي التاريخي الشرعي فامست في شبه حصار لا اتصال لها بالعالم الا عن طريق الانكليز الثانية في عدن .

لم نقطع المفاوضات اثناء تلك الحوادث بين عدن وصنعا وقد اثمرت ثمرة استحالت بعدئذ حنظلاً . ذلك ان الكرنل جاكوب ، وكان لا يزال المعاون الاول في دار الاعتماد ، سعى لدى حكومته ان تبعث بعثة سياسية الى الامام يحيى وزين الامر لحضرتة فقبل به . وكان الكرنل رئيس تلك البعثة التي دعيت باسمه ، وسافرت من الحديدية في ١٩ آب سنة ١٩١٩ تقصد الى صنعا . بعثة انكليزية سياسية مؤلفة من مندوبين وطبيين وتراجمين وكاتب بصحبتها خمسة وعشرون من الجنود وعدد من الخدم والمكارين تسير من الحديدية كأنها قافلة تجارة دون ان تستعلم وتثبت احوال البلاد التي ستعمر بها . وقد تكون استعلمت ولكنها خدعت .

ان في نهامة بين الحديدية وعبال قبيلة من قبائل العرب المشهورة هناك يباسها وسطوتها وعزة جانبها . هي قبيلة القحراء التي تحكم فعلاً في تلك الناحية ، عربها من السنيين الشوافع لا يميلون الى الامام ولا يحبون الانكليز بل كانوا يكرهونهم يومئذ لانهم ضربوا الحديدية ودمروها وقتلوا مئات من اهلها ، وقطعوا فوق ذلك موارد المعيشة مدة عنهم . وكان القنصل الانكليزي في الحديدية

صفحة ١٧٨ في كلامه على الادريسي والحديدة ما يلي ، قد استنجد (الادريسي) بحاشد وبكيل وسألنا ان نقدم المال لتجنيدهم . ثم يقول ان الادريسي جند بعض اولئك العرب فاخذوا ماله (وهل هو غير مال الانكليز ؟) وحاربوا قبلاً معه ثم طردوا الى بلادهم .

يدرك ذلك ، ولكنه بشهادة العرب والانكليز انفسهم رجل احمق متصلف عنيد ظن انه يستطيع تأديب القحراء اذا تعرضوا للبعثة بما يستعين به من العساكر الادريسية . فشجعها على السير وطمأنها .

خرجت البعثة من الحديدية بجر اذبالها وهي تحمل كما قيل كتاباً خاصاً من جلالة الملك جورج الخامس الى حضرة الامام . وكانت الحملة ومعها الهدايا الثمينة تقدمتها لتجس الارض حتى اذا عبرت الحدود آمنة يتبعها اعضاء البعثة مطمئنين آمنين ، فرت بباجل دون ان يعترضها احد واجتازت عشرين ميلاً منها الى عبال فباتت تلك الليلة هناك ، فنقدت البعثة ثنبعها ودخلت في الشرك الذي نصب لها .

وصل الكرنل جاكوب ورجاله الى باجل فرحب عرب القحراء بهم وانزلهم ضيوفاً عليهم في بيت كان الامر فيه بعدئذ في ما يتعلق بالسفر لا للانكليز ولا للامام ولا للسيد الادريسي ، بل لسادات القحراء ومشايخها . وقد روى الكرنل في كتابه ^(١) خبر ذلك الاسر بما يجدر بشهم انكليزي من الصراحة والصدق . الا انه وقف في بعض الاحابن عند حد توجه السياسة . وقد يكون احسن الظن في غير محل الاحسان واساء فهم امور قد تفحص على ائقب الناس فكراً من العرب انفسهم . كان الشيخ ابو هادي مثلاً ، وهو شيخ مشايخ القحراء ، عامل الامام يحيى يومئذ في باجل ، على ان لم يكن له في قبيلته تلك السيادة التي توهمها الكرنل وتوهمها الامام . او ان ابا هادي خدع المخلصين ، الزيود والانكليز ، ومكن عشائره من الفوز عليهما .

قد جاء في كتاب الكرنل جاكوب ان الامام يحيى ارسل الى باجل حرساً مؤلفاً من مئة جندي وثلاثة عشر خيالاً ليلاقي البعثة ويرافقها الى صنعاء . ثم ارسل محمود بك نديم ومعه اربعة الاف ليرة عثمانية لينقذ البعثة ويمكنها من استئناف السير اليه . « وجاء مندوب سياسي الى الحديدية يعرض باسم حكومة

(١) Kings of Arabia : Chapter XI . My Mission to the Court of the Imam of San'a . الفصل الحادي عشر : رسالتي الى الامام في صنعاء .

بريطانية العظمى خمسين الف ليرة انكليزية على مشايخ القحراء ليطلقوا سراخ
 «المأسورين» . ثم تداخل السيد الادريسي في الامر فبعث احد رجاله الى باجل
 فلم يفز بغير ما فاز به من تقدمه من رسل الامام والانكليز . ثم طارت طيارة من
 عدن الى باجل قصد الارهاب والترويح وعادت دون نتيجة تذكر .
 لم يلب عود القحراء ولم يززع ذهب الامام وذهب الحكومة البريطانية
 عزمها . فهي كما علمنا لم تأمر الانكليز لتذلمهم ولتنتقم منهم ولا كما تبين طمعاً
 بالمال ، بل لتمنعهم عن السفر الى صنعاء لانها كانت تخشى اتفاقاً يتم بينهم وبين
 الامام . ولو قبلوا ان يرجعوا الى الحديدية في الاسبوع الثاني من الامر
 لأذنت بذلك .

استمر الامر اربعة اشهر ، فادركت اذ ذلك الوزارة الخارجية بلندن
 فشلها واصدرت الامر برجوع البعثة . ولكنها لم ترجع الا بعد فترة دُبرت لحفظ
 كرامة الحكومة البريطانية^(١) وعندما تم الاتفاق في الحديدية بين الوكيل
 السيامي ووفد القحراء أطلق سراخ الانكليز في باجل وأعيدت اليهم الامتعة
 والسلاح المحجوزة كلها^(٢) واصحبتهم القحراء بالفين من رجالها المسلحين
 يشيعونهم الى الحديدية .

اما الامام يحيى والسادة في صنعاء فقضوا العجب من هذه السياسة والاقلاب .
 أتغلب قبيلة عربية حكومة بريطانيا العظمى ؟ بل الارجح انها اقلبت علينا
 فأئنها وائم الحق تستطيع ان تبعد القحراء ، ولو شاءت ان يصل الوفد الى صنعاء
 لما ترددت في الوسائل ولا ادخرت من القوة في ذا السبيل .

(١) أطلق سراخنا بموجب اتفاق عقد في الحديدية ، بعد فترة دبرت بين عقلاء القحراء
 ومشايخها . فالعقلاء نقموا على المشايخ لانهم اسرونا . . . ونهضوا عليهم . . . فاضطروهم
 ان يرسلوا وفداً الى الحديدية للمفاوضة مع الوكيل السياسي الانكليزي هناك .

هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٢

(٢) قبل صلاة الظهر سلمنا المشايخ امتعتنا المحجوزة كلها ولم ينقص منها شيء . قالوا :
 اعطنا وصلابها لان الصلاة لا تحمل لنا قبل ان نبرى . ذمتنا . فاعطيتهم الوصل حالا .
 فقالوا ، ولكنك لم تعد الصناديق . فقلت ، ولا انتم عدتموها حين حجرتموها . . .
 هارلد جاكوب في كتابه ملوك العرب صفحة ٢٢٥

وكانت النتيجة ان الامام ، وقد رجح انقلاب الانكليز ، بادرم الى المعاملة بالمثل ، بل سبقهم الى ذلك ، فلجأ بعد ان قد ذرع السياسة الى السيف اذ صدر امره الى جيش الجنوب بالزحف على النواحي التسع المحمية ، تلك النواحي التي هي جزء من اليمن كما يثبت التاريخ ، جزء لا يفصل عنه كما يقول السادة وامراء الجيش . وكان الامام في هذه السياسة او الخطة الحربية يقتدي بالانكليز . فقد ضربهم في ناحية هي قريبة منه ليخرجهم من بلاد لا يصل سيفه اليها . ضربهم في نواحيهم المحمية ليخرجهم من الحديدية او يضطرم ان يسلموها اليه .

زحفت الجنود وكُتِب لها النصر في اربع من تلك النواحي^(١) فتردد صداه في اليمن الاسفل والاعلى وصاح الزيود المنتصرون : الى عدن ! وقد كان لصدى الصدى في دوائر لندن السياسية وقع سيء فاستبدلت الحكومة معتمدها في عدن واذنت بتغيير خطتها تجاه الامام .

استؤنفت بعدئذ المفاوضات الولاية ، وتبادل الانكليز والامام الهدايا عملاً بالكلمة العربية الماثورة : تهادوا وتحابوا . حملت الجمال اجزاء سيارة الى صنعاء وسافر معها من يركبها هناك ويعلم احد الناس سياقتها ، وارسل حضرة الامام هدية من البن والخليل ، ثم عين القاضي عبدالله العرشي معتمداً له في عدن . كان قد مر سنة على هذه الحال عندما كنا في صنعاء ولم تأت المفاوضات المتوالية بنتيجة تذكر . واني اذكر كلام احد رجال الامام في هذا الصدد ، قال : ما كنا نهتدي في رسائل المعتمد المتسلسلة تسويقاً وابهاماً الى الصريح الثابت من مقاصد الانكليز . وهم لا يزالون حتى اثناء المفاوضات السلمية يساعدون الادريسي علينا . لذلك ارسل حضرة الامام الى المعتمد كتاباً شديد اللهجة فيه صراحة وحق . وقد يؤمر معتمدنا بالرجوع الى ان تصدر المراجع الانكليزية العالية النبأ الثابت القاطع في الامر النواحي التسع لنا هي حقنا . والحديدية كذلك لنا . ولا بد من احد امرين ، اما البر بالوعد

(١) هي الضالم والشعيب والاجمود والقَطَبي .

من قبل اصحابنا الانكليز واما الحرب . اما اذا قالوا ان حمايتهم في النواحي التسع مبنية على اتفاق بينهم وبين الترك فالجواب بسيط . فقد عقد ذلك الاتفاق مع دولة كانت متغلبة علينا فحار بناها وظلناها واخرجناها من البلاد ، ولا قيمة عندنا لاية معاهدة بينها وبين الانكليز بهذا الشأن . وكما اخرجنا الاتراك من ارض اجدادنا بالحرب والجهاد نستطيع بعون الله ان نخرج منها كل من يشتهي ثمنها انارهم .

سمى الاتراك بذلوا في اليمن الاموال ودفعوا المشاهرات للكثيرين من السادة ومشايخ العشائر . فلا بأس اذا اقتنى سواهم هذا الاثر الحميد . والسيد احمد الكبسي نفسه ، الواقف بالمرصاد للانكليز ، والناطق بلسان السادة الاعاوية ، يردد اقوال الناس ولهفاتهم ، و يتأسف على عهد كانت « الظلطة » تكال فيه كالبر وتبذل بلا حساب .

قد كنت اظن ان اليمن على ما في اهله وفي تقاليدهم وعاداتهم من اسباب التقهر والجمول ، اشرف الاقطار العربية اسماً ، وانزهها خطة ، وامنعها جانباً ، لانه وحده اليوم مستقل مالياً عن الاجانب ، اي عن الانكليز ، ويايى التقييد بشيء من مالم . وقد طالما سمعت من افواه العرب المتأدبين المخلصين في وطنيتهم الجاهلين اشياء من احوال الجزيرة السياسية والاجتماعية ، ان اليمن هو تلك البقية الباقية ، البقية الصالحة التي لا تنقاد بالسلاسل الذهبية الى العبودية الاقتصادية . وقد طالما قلت قبل اطلاعي على الحقيقة كلها ان هذا اليمن بفضل الامام الاير ، والاقتصادي الاكبر ، غني مستغنى . وهي وايم الحق حسنة تشفع بكثير من السيئات . ولكني ، عندما وصلنا الى « بيت القصيد » قضية الحديد ، قلت في نفسي اسفًا : علمت شيئاً وقد فانتك اشياء .

تلك نكبة نكبت بها امالي العربية يوم علمت بان السادة الكرام ومشايخ حاشد وبكيل وكل من كان يقبض مشاهرة من الترك ينتظر مثلها بل ضعفها من الانكليز اذا تم الاتفاق بينهم وبين حضرة الامام . وقد قبلت في ما تعهدت به ان اذكر المشاهرات لدي اولياء الامر في عدن على شريطة ان ابدى لهم رأبي الخاص بها .

اما الرأي الذي صرحت به في دار المعتمد فهو ان الذهب مفسد لا خلاق العرب ،
مفقرهم فوق ما هم فيه من فقر ، لانه يزيدهم كسلاً وخمولاً وانكلاً . ولا يجوز
للانكليز ، وهم مدركون ذلك ، ان يستمروا في بذله مشاهرات ومسانهات ، لا
استغواء ، ولا استرضاء ، ولا استيلاء .

ان الخطة المثلى التي تستقيم فيها مصلحتهم ومصلحة العرب هي ان يعقدوا
والامراء عهداً ولائياً تجارية ، بدون مادة الحماية ، مبنية على الثقة المتبادلة
والمصالح المشتركة ، وان لا يكون للسياسة ولا لادارة الاستعلامات دخل فيها .
لابأس مثلاً بقناصل انكليز في جدة والحديدة وجيزان والحسا وغيرها من البلدان ،
فيقومون بوظيفتهم ضمن دائرتها المحدودة . ولكن الامراء وعقلاء العرب لا يستحسنون
بل يستنكرون وجود الوكيل السيامي في بلادهم . اني ارى الغاء هذه الوظيفة
امراً لازماً ، اللهم اذا كنا نبغي تحسين العلاقات وثبوتها بين الحكومة البريطانية
وملوك العرب ، لاني عالم بما يؤسف له من اعمالها .

اجل ، انما هي الجاسوسية بعينها . هي سلاح السياسة الانكليزية في
البلاد العربية ، هي خادمة الوكيل السيامي في تقاريره السرية التي نتناول كل
موضوع ، ونحيط بكل حال ، وتجتاز حتى الحدود التي تقدمها التقاليد الى ما
وراءها من الاسرار الاجتماعية والبيئية . مثلاً واحداً يخرجنا من التعجب . اذا
كان اولياء الامر واحد ملوك العرب في مأذق من المفاوضات او العلاقات ضاقت
فيه عليهم الابواب ، وكانوا عالمين بان لذك الملك او الامير عدواً من اهله او من
رعيته في بلاده ، فهم يسعون اليه بواسطة الوكيل السيامي فيستغفونه بلقب او
بذهب او بالاثنين معاً ، ويستخدمونه على خصمهم لتحقيق مقاصدهم فيه .

ولا تخلو مفاوضاتهم مع الامام يحيى من شوائب هذه السياسة . فانك تراهم ،
اذا حدثتهم في الموضوع ، يادرون الى السؤال عن حاشد و بكيل . هوذا موطن
الضعف في حكم الامام ، لان عرب هاتين القبيلتين في اليمن الاعلى نافرون من
الحكومة متمردون عليها . وليس الى استرضائهم بواسطة مشايخهم غير المال سييلا .
ان حاشداً على الخصوص مقيمة بالقرب من حدود الادر بسي ، والادر بسي صديق

الانكليز وحليفهم، وللانكليز عنده وكيل سياسي، وكفى . افلا ترام ولسان
حالم يقول : اذا كان الامام يحمل علينا في النواحي التسع المحمية فنحن نحمل
عليه في حاشد وبكيل^(١) . ولكن الامام يحاربهم علناً في الفلاة وهم يحاربونه
بالتجسس والاغراء .

اما الخلاف بين الفريقين فمحوره كما ذكرت الحديده . ولكن مطالب
الامام يجبي تجاوزتها الى حدود رُفضت في دار الاعتماد . ان موقفه تجاه النواحي
التسع ، اذا كانت مجرداً عن الغرض السياسي الخاص ، لموقف وطني شريف .
ولكنني اظن ان السياسة تتغلب فيه على الوطنية العربية القومية . فقد قبل الامام
ان يخرج جنوده وعماله من الضالع والشعب والاجعود وبلاد القطيفي التي احتلها ،
على شرط ان تكون ادارتها وادارة الياغ والعوالق ولحج وحضرموت بيد امرائها
وليس لحكومة انكلترة ولا لحضرة الامام حق التدخل في شؤونها ، وعلى شرط
اخر ، هو الاول طبعاً ، وهو ان يخلي الانكليز والادريسي الحديده والاحتية
والصليبي وان تسلم هذه الاسا كل البحرية وجميع ما كان بيد الترك في اثناء
الحرب الى الامام تسليماً مطلقاً لا قيد ولا شرط فيه .

اما الانكليز فالقصد الاول والاهم في تقربهم من الامام وابتغائهم عقد
معاهدة معه هو على ما ارى ان يتقوه بعيداً عنهم وعن عدن ويكون مع ذلك
صديقاً لهم . ليست عدن كما هي ظاهراً مستودع فحم فقط ، ولا هي اسكلة تجارية
بين الشرق والغرب كما يودها بعض الانكليز المنزهين عن السياسة الاستعمارية ،
والكرنل جاكوب منهم . بل هي في نظر الحكومة البريطانية اولاً واهراً مدينة
حصون بحرية ومركز حربي خطير . فاذا كانت كذلك فتأمينها اهم ما ترغب
الحكومة فيه . واذا استطاعت ان تأمنها الى حد تستغني فيه عما تضطر ان تقيم
هناك من التحصينات الحديثة والجنود فلا تقصر في ذا السبيل سعياً .

غني عن البيان اذن ان الحكومة البريطانية ، وهذا قصدنا الاكبر ، لا
تتنازل عن معاهدات عقدت بينها وبين امراء النواحي التسع المحمية . وانما تبغي

(١) راجع الشرح في صفحة ١٧٧ .

توسيع نطاق الحماية ، وقد ترضى بالولاء فقط ، ليتناول كذلك قسماً من اليمن الاعلى . اما الحديدية فامرها من هذه الوجهة ثانوي ^(١) . ولكن افلح الانكليز لو اتخذوا مع الامام خطة فيها على الاقل عزم وصرامة . لكنهم يسلكون الى محبتهم السبيل الذي تقدم ذكره ، فيماطلون ويسوفون ويحاولون اضعاف الامام وافساد امره بواسطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه ، وفيهم الخائن الطامع بالمال والمكابر الطامع بالسيادة .

ها قد بسطت مطالب الفريقين في اعلى درجة من درجات الوطنية والسياسة . اما ما قد يتنازل كل فريق عنه الى درجة نقترن فيها المصلحة بالعدل والانصاف ، والوطنية — الانكليزية او اليبانية — بالمعقول ، فهو لا يزال تحت البحث ورهين المفاوضات .

(١) يثبت هذا القول ان الحكومة البريطانية لم تتعرض للامام عندما احتلت جنوده في نيسان ١٩٢٥ الحديدية والاساكل الاخرى التي كان يطالب بها اي الأعبئة والصليف

الفصل الثالث عشر

ثمة المفاوضات

الوند الافرنسي - المنافسات السياسية - الامتيازات - المعاهدات - الفرنسيين
والانكليز في افغانستان وفي اليمن - غريب على غريب - الامام يستفيد -
احتكار تجارة البن - ميناء المغا - السلاح - الدخيل في صير - الخطاء في
سياسة الامام - الثلث الزوايا في قضية الحديد - الانكليز بين السيد والامام -
التوافه حائرون - الامر واضح للسلم - المؤتمر - برقية وكتاب الى
صنعا - الجواب .

لو كان الافرنسيون الذين غشوا صنعا يوم كنا فيها يعرفون بعض الشيء
من اصول الاسلام وعادات المسلمين لما جاؤوا في شهر رمضان يبعثون من الامام
امتيازاً ، ولما جاؤوا في رمضان ومعهم من الخمر انواع يختصونها في الطربق وامام
الخدم في عاصمة الزبود . فان تمسكهم ببعض عاداتهم التي كان ينبغي ان يتنازلوا
عنها اكراماً لاهل البلاد ، ولخير انفسهم لو عقلوا ، اثار عليهم ولا شك تعصب
لخدم الزبود فسقوهم وراء الخمر ماء الوضوء من بركة الشاذروان .
قد لايهم الافرنسيين ذلك وهم كما ادعوا تجار ينشدون المصلحة . لكن بعض
العارفين قالوا انهم سياسيون جاؤوا يبارون الانكليز في خطب ود الامام . لذلك
لم تأمر الحضرة الامامية باستقبالهم رسمياً ، وعندما وصلوا الى بوابة صنعا اوقفهم
الحرس هناك ليعلموا الامام ، فاذن لهم بالدخول . ثم بعد ثلاثة ايام حازوا شرف
المثول بين يديه .

ولكنهم منحوا ما حرمناه وهو الاذن بزيارة « جرجي » مدير معمل
لخرطوش . كان لكل ما يأذن او يأمر به الامام معنى خاص يخفي احياناً حتى
على ضيوفه اصحاب الانعام . ان في اجتماع الافرنسيين بجرجي برهاناً واحداً على
ان مهمتهم تتجاوز حدود التجارة . هوذا معمل الامام ، وهوذا احد رجالكم ايها
الافرنج في خدمته ، فهو يستغني اليوم عنكم في الدخيرة وسيستغني عنكم غداً في

السلاح . فاذا عاهدكم فكأقران يتبادلون المنفعة .
 اما الافرنسيون فيغارون كما هو معلوم من الانكليز . ويقنقون اثرهم حيثما
 ضربوا وحلوا . عقد الانكليز امس معاهدة مع امير افغانستان فنققام الافرنسيون
 واثبتوا امرهم سياسياً وفتياً هناك . احس الافرنسيون ان الانكليز يبنون عقد
 معاهدة مع امام صنعاء فسارعوا الى منافستهم في اليمن ، والامام مطلق الارادة
 بمنح امتيازاته من يشاء ، ويعقد المعاهدات مع من يشاء .
 على ان الافرنسيين سباقون في اليمن وفي تجارة البن . فقد تقدم ذكر البعثة
 التي جاءت عن طريق الحما في العقد الاول من القرن الثامن عشر وعقدت معاهدة
 تجارية مع الامام المهدي لدين الله تدل شروطها على حكمة نتسح عندها لمصلحة
 البلاد حدود الدين ، ولتفكك من اجلها قيود المذاهب . والامام يحيى اليوم يقضي
 اثر اجداده الكرام ، ويستعين كذلك في سياسته بحكومة افرنجية على اخرى .
 هي خطة في السياسة تجوز ، وقد تفيد اذا وقف صاحبها عند حذر بوجب
 الايضاح والتفضيل .

اما اذا عاهد امير عربي دولتين من دول الافرنج واذن لها بشيء من النفوذ
 داخل بلاده فتكون الاثنان بلية عليه وعلى بلاده . فتقتلان في سبيل المصلحة
 فنقتلنها ، فضلاً عن الدسائس والتحزب . فاذا كان الامير محبوباً الى رعيته
 جمعاء ، لا يلبث ان يصير له فيها مناوئون واعداء . واذا كان له عدو واحد في
 رعيته لا يلبث ان يصير للعدو حزب سيامي . واذا كان في البلاد حزب واحد
 على الامير يصير فيها حزبان وثلاثة .

انا نعلم حق العلم ان كل وكيل سيامي في بلاد سيادتها الوطنية ناقصة يتخذ
 له حزباً من اهل تلك البلاد الناقمين لاغراض خاصة على حكومتها ، فيستخدمه
 لمصلحة حكومته وبلاده .

اجل ، اذا كان ثمت خير في مفاوضة اثنين بامر واحد فان ذلك الخير يزول
 اذا اشرك به الاثنان . وحضرة الامام يحيى يدرك ذلك ، فهو يستخدم الافرنسيين
 اليوم كما يستخدم الملك حسين الايطاليين لينال من الانكليز كل او جل ما ينبغي

واول بغيانه واهمها الان ميناء اليمن الاعلى على البحر الاحمر . جاءت البعثة الافرنسية تطلب امتيازاً باعادة بناء ميناء المخا المهذوم ، وميناء اخر في الخوخه ، وباحتكار تجارة البن . ولكن الامام ، اذا استعاد الحديدية ، فقلما يهتم للمخا والخوخه . ولا سر هناك في تفضيله . الا انه يريد ان يفهم الانكليز انه يستطيع ان يستغني عن الحديدية اذا اقتضى الامر وان يستغني عنهم كل الاستغناء في جميع الامور .

قد قال لنا الامام ان هؤلاء الافرنسيين تجار جاؤوا يبحثون عن احوال التجارة عندنا و يطلبون امتيازاً في المتاجرة عن طريق المخا . وقد علمنا انهم لم ينالوا الامتياز الكبير الذي طلبوه وهو احتكار تجارة البن . فالامام لا يسلم بذلك ، ولكنه يعاهدكم على بيع حصته او بالحري الاعشار من البن التي تبلغ عشرة الاف كيس في السنة ، ويشتري منهم ما يوافقهم من السلاح .

السلاح ! لا شيء في البلاد العربية اكثر من السلاح ، ولا رغبة لامراء العرب اشد من رغبتهم في السلاح . فما الداعي الى هذا الطلب الدائم وخصوصاً في اليمن ؟ تذكر ايها القارىء جواب الامام عند ما سألناه كم يحكم من بلاد اليمن واهله . فقال : اليسير . اليسير . وهو بطمع بسيط حكمه وسيادته على اليمن كله — اليمن القديم من حضرموت بل من عمان حتى اخر بلاد عسير . وقد ظالما سمعت في صنعاء ان الامام في احترابه والادريسي لا يريد ان يوقف عدوه عند حدوده المعلومة فقط بل يريد ان يخرجهم من بلاد اليمن وعسير كلها ، لانه كما يدعون دخيل فيها . كنت اسمع هذا الكلام ساكناً لاني لم اكن اعلم يومئذ غير اليسير من امر السيد الادريسي وبلادته .

ولكني بعد رحلتي في عسير ، وزبارتي السيد في جيزان ، ومحادثتي الناس من سادة وعامة في تهامة ، بان لي الخطأ في سياسة حضرة الامام ، وتأكدت انه لا يستطيع بتلك السياسة ان يستولي على الحديدية . واتي له ذلك والانكليز لا يزالون اصدقاء الادريسي وهم اصحاب السيادة في البحر الاحمر ؟ فهم اذا استحسنوا عقد معاهدة بين السيد في جيزان والملك حسين لا يستحسنون على ما

اطن مثلها بين الملك حسين والامام . وقد يقبلون بعقد معاهدة او اتفاق بين
الثلاثة اذا كان ذلك برأيهم ومؤازرتهم .
ان القضية في اجلى بيان تنحلل اذن الى ثلاثة اجزاء . الاول والامم هو
جود الانكليز بين الامام والادريسي . هذه حقيقة لا يمكننا ان ننكرها او
نغضي عنها او نفر منها . الثاني هو وجود الشوافع عوناً للانكليز اليوم كما كانوا
بالامس عوناً للاتراك في سياستهم البائسة . والثالث هو وجود الحديدية ، وهي
محور النزاع ، بين الشوافع والزيود والانكليز . وقد امتست بفضل السياسة
والفوضى اليفة الخراب والبلاء .

قد كانت الادريسي يومئذ يميل الى السلم اذا حددت حدوده على حال
مرضية . وكان الانكليز قد قطعوا عنه المشاهرات والسلاح وبدأوا يشعرون بفتور
منه بل بنفور فيه . فاستحسنوا سبيل المسالمة والمفاوضة رغبة في صداقته وصداقة
الامام يحيى . اما الشوافع فكانوا قد قاسوا من الاحتراب الدائم عذاباً واهوالاً ،
فكروهوا لذلك الامامين ، وغدوا في حال تحجب اليهم اصغر الشرين .
اذا كانت الحديدية باب النزاع اذن فهي كذلك باب السلم . وكان الامر
كما بدا يومئذ لذي عينين ناضجاً للسلم ، فلم يبق غير الوسيلة الى ذلك . ووسيلة
السلم المؤتمر . فارسلت الى صنعاء برقية اعرض فيها فكرة مؤتمر يعقد في الحديدية
او في عدن ، يحضره وفود المتحاربين واصحاب المصالح المشتركة في البلاد .
فجاءني الجواب وليس فيه غير ما طالما سمعته هناك : — لاحق للادريسي في
جميع اليمن ، لاحق للانكليز لا قبل ولا بعد الدور العثماني في الحديدية ، لا ثمرة
في المؤتمر ، الدواء كله في عدن .

ولكن عدن تستحسن المؤتمر . وكان قد ارسل المعتمد الجنرال سكوت
لاسلكياً يهنئني برجوعي من صنعاء ويقول انه راغب في مفاوضتي . ولكنني
لسوء الحظ تأخرت في الحديدية وفي جيزان وكان وصولي الى عدن يوم صافر
المعتمد الى لندن . فقابلت معاونه الاول والحاكم بالوكالة يومئذ المايير بارت
و بعد ان تحدثنا ملياً في الموضوع ارسلت الى صنعاء بواسطة مندوب الامام في

عدن التلغراف الآتي :

أني متفائل مستبشر لأني وجدت ارتياحاً إلى المسألة ورغبة في تحقيق مطالبكم بشروط لا بد منها . أي أنهم يرغبون في أن يسلموا الحديد إلى الإمام ولكنهم متعاهدون مع الأدرسي ولا يرون لأنفسهم مخرجاً في غير النسوية السلمية بين الطرفين أي بينكم وبينه . فهل تقبلون بذلك ؟ هل يقبل حضرة الإمام بعقد مؤتمر في عدن يحضره ممثلون من قبله وممثلون من قبل الأدرسي وممثل من دار الاعتماد إذا وعده المعتمد رسمياً بتسليم الحديد على شرط أن يتم الاتفاق والسلم بينه وبين الأدرسي ؟ قد قابلت السيد في جيزان فوجدته قريباً من المسألة وميلاً إلى الاتحاد بشرط أن يعترف به حاكماً في لواء عسير . واظن أن عقد الصلح ممكن بينكم وبينه على شرط تسليمكم الحديد وأرضائه في الحدود الشرقية أو الشمالية . ولا يتم الصلح إلا بحسن النية وبالاجتماع والمداولة . عرفوني حالاً إذا كنتم تقبلون لاطلب لكم كلمة رسمية من الحكومة الإنكليزية بخصوص الحديد .

عدن في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ٨ تموز سنة ١٩٢٢

بعد أسبوعين من هذا التاريخ وأنا انتظر في عدن وأنا لم من حرها وسوء هوائها حباً بخدمة البلاد العربية خدمة صافية لوجه الله ، جاءني من صنعاء بالسلك إلى القاضي عبدالله العرشي في تعز ، ومنه مع نجاب إلى الحج ، ومنها مع رسول إلى عدن ، الجواب التالي . وكان السلك كما أخبرني العرشي مقطوعاً من شدة الأمطار « فتحير » أي تأخر وصول الجواب .

كانت المراجعة وصاحبنا . قد عرفتم حسن نيته ومحبته لكم . لكن الأدرسي لا حق له في اليمن بأي صورة من الصور المشروعة . وصاحبنا حقوقه واضحة معلومة عند الجميع . ونحن لا نحب الانحياز مساك . ونحب صون بقية بلادنا عن الذهاب . لا لزوم للمؤتمر مهما كانت الحكومة

الانكليزية تريد ذلك . فانتم تقومون بكامل هذا الامر . وكل الصلح بيد الحكومة الانكليزية . وسنجد على صاحبنا بقبول ما اشترتم اليه من حاكمية الادريسي على عسير وتسليم الحديدية وما كان بيد الاتراك عند تسليمهم الى الامام . وضحوا للمشير اليه الحقائق . واقبلوا فائق الاحترام .

ما الحيلة بهؤلاء العرب اسيادنا أبناء عمنا ، اخواننا ؟ نريد لهم الخير الصافي الثابت الدائم وهم لا يرغبون في غير مزيج من الخير الوفي . اني على يقين ان لو قبل حضرة الامام بعقد المؤتمر لكان السلم اليوم محققاً على البلادين والولاء والتجارة صلنا العمران بينهما . ولكن النجاح في هذا السبيل لا يكون الا بثلاثة : الصحة والثبات والنفقات . كيف لا والمواصلات في البلاد العربية قليلة الاسباب كثيرة المشقات ، فلا يستطيع من يتبرع بخدمة امرائها واهلها ، اذا لم يكن غنياً ومتمتعاً بالصحة والعافية ، ان يقضي بضع سنين جائلاً فيها ، رسول التعارف والنفام والاتلاف .

قبل ان سافرت من عدن بعثت بكتاب اخر الى صنعاء لا يمكن هناك الفكرة التي بدأت تحل في سياسة الامام محل الاستنثار ، اقل منه ما يلي :

الامر ميسر على شرط ان يتم السلم بينكم وبين الادريسي . ومن العبث ان تحاولوا اخراج الرجل من البلاد . ان حجتكم في قضية الحديدية ظاهرة ثابتة ، ينصركم فيها كل من اطلع على الحقائق . ولكن حجتكم في اخراج الادريسي على وجه انه دخيل لا يوافقكم عليها الناس . واذا تمسكتم بها تضرون بمصلحتكم وتضعفون حجتكم في طلب الحديدية^(١) .

(١) قد تمكن الامام من احتلال الحديدية كما تقدم في حاشية للفصل السابق . ولكنه لم يتمكن من اخراج الادريسي من عسير ولا اظنه يطعم الان بذلك وقد اصبح صاحب عسير حليفاً لملك نجد والحجاز الملك عبد العزيز ابن سعود وفي حمايته .

الفصل الرابع عشر

المعاهدة

الامارات العربية القديمة — توحيد الكلمة الدينية — توحيد السياسة —
 المداخلة الاجنبية — ملك العرب وملك الحجاز — المعاهدات مع الحكومات
 الاجنبية — الدفاع والهجوم — تهامة جزء من اليمن — تحديد المعاملة بالنفود
 القضية — معمل للسلاح — مندوب للإمام في مكة — مندوب للملك في صنعاء —
 صندوق توفير من مال الزكاة — الانشاءات العمومية — كتاب الى جلالة
 الملك حسين بخصوص المعاهدة — الختام .

لا بد من معاهدة تعقد في المستقبل بين اليمن وقطر آخر من البلاد العربية .
 وبما ان المساعي التي تقدمت سعينا والتي سنتبعه هي ذات شأن في تاريخ القضية
 العربية ارى من الواجب ان نشر صورة المعاهدة التي تم الاتفاق عليها مع حضرة
 الامام . وها هي بكاملها وبالخرف الواحد :

بسم الله الرحمن الرحيم

ان المقصد الوحيد من هذا الائتلاف والاتفاق هو الانتظام في سلك
 واعة صيحووا بحبلى الله جميعاً ولا تفرقوا و به يكون التعاون والتعاقد
 على انفاذ احكام الله كما يجب في جميع البلاد لعمرائها واصلاح شؤونها
 وكف ايدي المعارضين عن التدخل فيها والاخلال بمصالحها وبراحة اهلها
 وتأمين معاش سكانها وثقوية صناعتها وتجاريتها . فلذلك عقدت هذه
 المعاهدة بين حضرة الامام المتوكل على الله يحيى ابن المنصور بالله محمد بن
 يحيى حميد الدين وبين جلالة الملك الشريف حسين بن علي بن عون
 علي ما تحويه المواد الاتية لتكون دستوراً للعمل بعد تقدم اصلاح النية
 وجعل الاعمال مدارة على الشريعة الاحمدية في الافدام والاحجام والنقض
 والايام .

اولاً — البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال امارتها القديمة وتحويل امرائها المشهورين المعلومين الذين يجرون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخلتها منذ قرون . وانما المطلوب اجتماع الكلمة الدينية (١) وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية خارجية من اية الجهات تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها (٢).

ثانياً — يعترف حضرة الامام لجلالة الملك بالملك ويعترف جلالة الملك لحضرة الامام بالامامة (٣).

ثالثاً — يختص حضرة الامام بادارة اليمن وسياسته الداخلية والخارجية كما كان بيد اسلافه ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز

(١) « المطلوب اجتماع الكلمة القومية والدينية » هي الاصل الذي وضعناه قابله الامام بما تراه في البند وسلمنا بعد المناقشة « باجتماع الكلمة الدينية » وقبل حضرته بان يضاف اليها « وتوحيد السياسة » .

(٢) كان قد وقف الامام عند « المداخلة الاجنبية الخارجية » اطلاقاً . فاضفنا اليها الكلمات « تخل باستقلال البلاد العربية ووحدتها » كي لا تنفي المادة المداخلات التجارية والاقتصادية والتهنيدية . ولا يخفى ما في مثل هذه المداخلة المجردة عن العوامل السياسية من الخير للبلاد العربية . ان حضرة الامام مثل سائر امراء العرب مقتنع بذلك .

(٣) كانت هذه المادة في النسخة الاولى من المعاهدة ان حضرة الامام يعترف بالملك حسين ملك العرب . وقضينا اسبوعاً في المفاوضات بهذا الشأن . فجاهل السيد احمد ذات ليلة بعد نصف الليل فافانني من نومي وقال : يلزم عليك حضرة الامام ويسالك خصوصاً ان تساعد في النظر بهذا البند . لا يمكننا ان نعترف بما هو غير الواقع وباب الامام ان يمس شعور جلالة الملك . فكيف العمل ؟ هل عندك حل لهذا المشكل ؟ يئيبه حضرة الامام منك فعدلنا وبدلنا وتناقشنا ساعتين وانا احاول الدفاع عن قضية ضعيف جانبا . وقد رأيت فوق ذلك بعد السياحة في اليمن ان ملك الامام تحته اضعاف ملك الحجاز مساحة وعدداً وقوة . فقبل السيد احمد اخيراً بما اقترحت حلاً لهذا المشكل وهو النص الحالي . وقد اضعفت في المادة الثالثة بعد « ويختص جلالة الملك بسياسة ما تحت ادارته في الحجاز » كلمة « وغيره » قد يكون قبل الامام في المفاوضات السابقة ان يعترف بالملك حسين ملك العرب ولكن سياسة الملك بعد الحرب وخسارة الحجاز في وقعة تربه حملنا الامام على تغيير رأيه في الموضوع .

وغيره داخلية وخارجية . فليس لاحدهما احداث مقابلة اجنبية في ما يتعلق بما تحت ادارة الثاني من البلاد ولا يغير شيئاً معمولاً من طرف صاحب ادارتها ولا يتدخل في ادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة الا ان يكون بعد المشاورة بينهما ^(١) والاتفاق لمصلحة تطابق مراد الله سبحانه .
 واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقابلة اجنبية في ما يتعلق بمملكة الآخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله ولا يكون معتمداً . وليس لاحدهما تقض مقابلة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخاصة عاقدها ومملكته ولا تعتبر نافذة في ما يتعلق بمملكة الثاني اذا اشتملت على شيء من خصوصياتها ولا يعد هذا الاتفاق ناقضاً لما تقدمه من المعاهدات بين حضرة الامام والحكومة العثمانية او بين الملك واحدي الحكومات .

رابعاً — بعد امضاء هذه المعاهدة يكون كل من حضرة الامام وجمالة الملك ومن تجري عليهم او امرهما الشريف من الامراء والتبعة عوناً للآخر ونصيراً له في دفع كل عدو صائل من الخارج او معارض من الداخل . وهذا التعاون والتناصر يكون موقوفاً على الطلب من اي الجانبين عند الاحتياج والزموم وفي دائرة النصوص الشرعية .

خامساً — عند ظهور عدو مشاق للطرفين اذا لزم لاحدهما امداد من الثاني فعلي من تطلب منه الاغاثة اعانة الطالب بمقدار ما يدخل تحت امكانه من مال او رجال او سلاح او معدات حربية . وعلى الطالب للامداد بالرجال لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة .

سادساً — بما ان المقدم قبل كل شيء تأمين طرق المواصلات والمراسلة بين الحجاز واليمن من الطريق الاسهل والاقترب لامكان المفاوضة والمواصلات بسرعة في كل ما يلزم ، ومن المعلوم وجود الحائل في تهامة التي هي جزء من اجزاء

(١) سكان الامام مصرأ على رفضه عقد المعاهدات . الحكومات الاجنبية وخصوصاً في ما يتعلق بالامور الخارجية . فقيل بالجملة الشرعية « الا ان يكون بعد المشاورة بينهما » وبكلمة « منفرداً » في الجملة التالية ، اذا فعل احدهما شيئاً من ذلك . . . منفرداً »

اليمن ، فاللازم تقديم التعاون الحائل المانع من الحديدية ونحوها باي وجه كان اما بسياسة يتفق عليها او بقوة يكون سوقها من الجانبين بعد تقديم المذاكرات اللازمة في كلا الامرين وصفة المعاملات والحركات من الجانبين^(١)

سابعاً — السكة الفضية الخالية من الغش وانواع الربى التي تضرب في الحجاز باسم صاحبها معينة قيمة تداولها تكون مقبولة ومعتبرة في التداول في المملكتين بقيمتها المعينة بعد الاعلان كتابة من الجانب الذي يكون ضربها باسمه بكيفية التداول وكمية القيمة والصفة المميزة للسكة .

ثامناً — يتعين مندوب من لدن جلالة الملك في صنعاء ومندوب من لدن حضرة الامام في مكة المكرمة لمداولة الافكار والتوسط في تعاطي المفاوضات والمذاكرات .

تاسعاً — معلوم احتياج المملكتين لانواع الاسلحة والمهمات الحربية وسائر انواع الترقبات الفنية واحتياجها الى ايجاد معامل وآلات لعمل الاسلحة وغيرها تقوم بالمقاصد . و بعد امضاء هذه المعاهدة من الجانبين تكون المراجعة وتقرير ما يلزم من الاسباب والوسائل والمقدمات والاستعدادات لايجاد المحتاج اليه من المعامل ومحل لتأسيسها واستعمالها مناسب جامع لمقاصد الطرفين وكيفية الاعمال وكل ما يلزم لذلك من المصاريف والامورين والمحافظين والعملة وغير ذلك .

عاشرآ — يكون تعيين مبالغ من الاموال معلومة مخصوصة لكل سنة بمقدار يكون الاتفاق عليه لتصرف في ما ذكر في المادة التاسعة من الاعمال

(١) سلطنا بهذه المادة ونحن عالمون بان المراد بها السيد الادريسي ولكننا لم نوافق عليها الا بعد ان اضفنا اليها الجملة الاحتياطية وهي « اما بسياسة يتفق عليها » بعد الكلمات « باي وجه كان » وقد كنا نأمل ان يعقد بعدئذ معاهدة بين الادريسي والملك حسين . فيكون جلالة اذ ذاك صلة الوصل او الوسطة السلبية بين السيد والامام حليديه فيتمكن « بسياسة يتفق عليها » من اصلاح ذات البين في تحديد حدود ترصني القريةين . انظر المعاهدة التي عقدت مع السيد الادريسي وكتابني الى جلالة الملك حسين بخصوصها في الفصل الحادي عشر والفصل الرابع عشر من التسم الثالث في هذا الجزء .

الضرورية او ما يتفق عليه من الانشاءات والاستعدادات العمومية المهمة .
وهذه المبالغ تحفظ من كل جانب ما يضمن عليه في خزينته الى وقت اللزوم
وتعقد تأمينات يتفق عليها بين الطرفين ويتعاطاها الطرفان لتأمين تأدية
كل ما يلزم منها في وقته وزمانه بحيث لا يتضرر احد الجانبين ولا يكون
من احد تأخر بحصول المقاصد^(١) .

احدى عشر — هذه المواد الاساسية يستمر حكمها الى عشرين سنة واذا كان
الاتفاق في خلال المدة على تعديل شيء منها او تبديله او طيه بحسب ما
تقتضيه المصالح ومداولة الافكار فكل ما يستجبه بعد تقريره فخكمه حكم
هذه المعاهدة . وبعد تمام العشرين سنة يكون تجديدها كما هي او تبديل ما
يتفق على تبديله ان شاء الله تعالى .

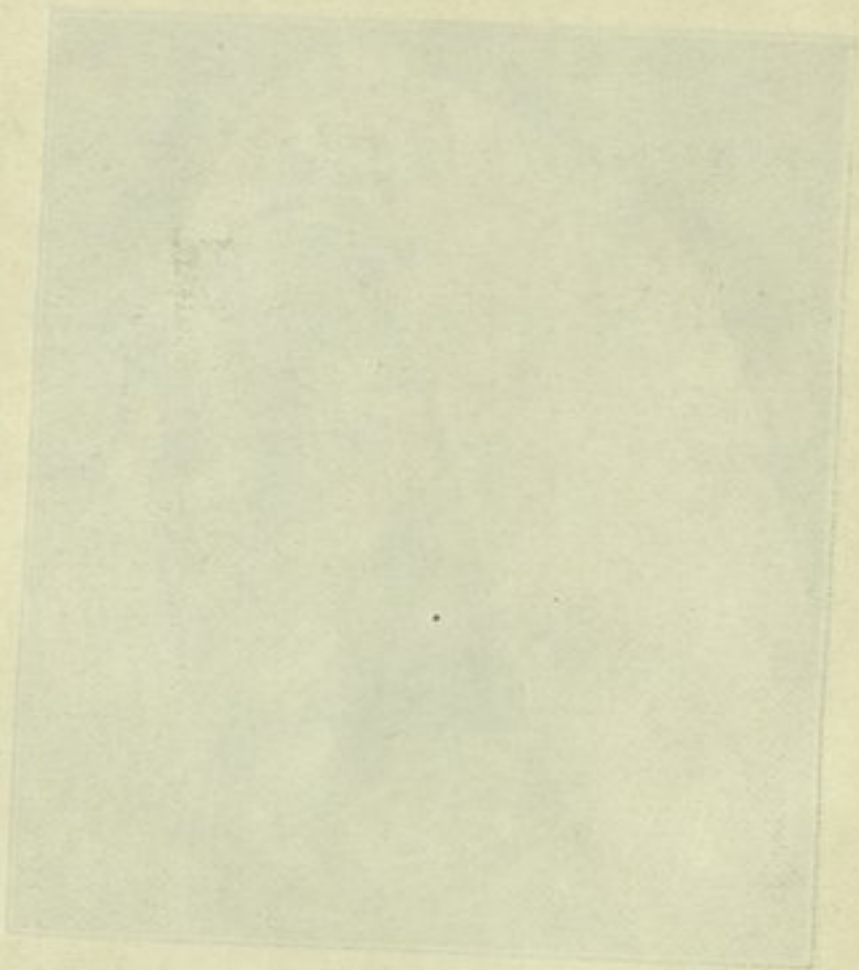
حرر في صنعاء في ١٨ شهر رمضان سنة ١٣٤٠
وقد ارسلت المعاهدة مع صديقي قسطنطين بنى مصحوبة بكتاب الى الملك
من حضرة الامام وكتاب مني انقل منه ما يلي :

قد تقاوضنا في الامر الذي جعلت احدى غايات رحلتي في البلاد
العربية الاهتمام به والسعي في بسطه لدى امراء العرب وتقريره من العقول
في شكل عملي معقول . فلقينا في الامام يحيى اعزه الله اذنا صاغية ، وهمة
للمعمل داعية . وهو في موقف الولاء ولا شك ثابت القدم مخلص القصد
والنية . الا انه لا يجب ان يكبر في البدء خطواته ، ولا ان يوسع كثيراً
صراطه . وان التمتع باليسر الان ، خير من الامل بالكثير . قد كانت لنا
جلسات طويلة ومباحثات ومناقشات ، يسمعكم الصديق قسطنطين
خبرها ، ويعلمكم بما بذلته في سبيل المعاهدة المرغوب فيها وفي توسيع بنودها

(١) ان المتصور من هذه المادة انشاء صندوق توفير من مال الزكاة في كل امانة
ومملكة عربية لبذله في المشاريع العمومية المشتركة مصالحها بين الجميع كمد السكك الحديدية
والاسلاك البرقية وتعميد الطرقات وغيرها وهي احدي الفكر التي كنت اشها وابشر بها
هناك والتي صادقت استحسان كل ملوك العرب وامراتها . وعقدوا التبة على العمل بها
اما تضامنا واما انفراداً .

بقدر الامكان لتعم ما نشده من الوحدة العربية . وقد فزنا بجمل المرغوب
 وسلمنا ببعض الجزئيات التي لا نقدح بروح القضية او تمس بجوهرها .
 ومن الحقائق التاريخية يا مولاي ان النهضات الخطيرة في الامم لا تنشأ
 نشأة واحدة تامة كاملة . فلا بد لها من خطوات الى ذاك الكمال وتطورات
 في ما يرغب فيه من وحدة الكلمة والحال . اما المعاهدة في صورتها
 الحالية فهي خطوة اولى مهمة الى الامام . فعسى ان تستحسنوا عملنا وتروا ،
 وانتم مصدر الحكمة ، صواب رأينا . وفي المستقبل القريب ، بعد ان يتم
 توقيع المعاهدة ، تنوفقون ولا شك الى اضافة بنود بخصوص توحيد الامور
 الاجنبية ، والنقود ، والتمثيل الواحد في الخارج وغيرها . اذ حين تتم
 وسائل المواصلة بين جلالكم وحضرة الامام فيكون له مندوب عندكم ولكم
 مندوب في صنعاء تنبادلون مباشرة الاراء وتنوفقون ان شاء الله الى ما فيه
 تمام تعزيز المصلحة العربية والامم العربي داخل البلاد وخارجها .

اتسرى القسم الثاني



UNIVERSITY LIBRARY

[Faint, illegible text or markings]



حضرة السيد محمد بن علي الادريسي

(١) بلاد السيد

او ما يحكمه الادريسي من عسير

حدودها : غرباً البحر الاحمر . شمالاً أبو مَتَنَه على البحر . جنوباً

الحديدة . شرقاً جبال اليمن (وقد كانت الحدود الشرقية في
رمضان ١٣٤٠ كما يلي : آخر جبل رَمِيه جنوباً للامام يحيى ،
وجبل براع المجاور لرميه للسيد الادريسي . وآخر جبل صعفان
شمالاً للامام ، واول جبال بني سعد المجاورة لصعفان للسيد) .
: نحو مليون نفس .

سطنرا

ساعنرا : تمتد ثلاثمائة وخمسين ميلاً شمالاً بجنوب . ومعدل عرضها

غرباً بشرق سبعون ميلاً . السهل الذي يتصل بالعقبة وراء
ميدي وجيزان عرضه اربعون ميلاً .

اهم قبائلها : رجال المتمع والمسارحة وبنو مروان والقُحراء وبنو هلال

و بنو عبس .

اهم بلدانها : صبيا وجيزان وميدي واللحية والحديدة وابو عريش و باجل .

عذاهبها : السنيون : شوافع ، والسنة : جمعفريون وامناعيليون ، والفرس

واليهود والهندوس .

(١) بعد وفاة كبير الادارة الامير محمد في نيسان ١٩٢٣ اضطرت شؤون عسير
الداخلية والخارجية ، فدمجت شوكتها ، وتقلصت حدودها ، التي تكاد تنحصر اليوم في جوار
جيزان وصبيا الى الجنوب والى الشمال ، وفي سفح الجبال الى الشرق .

الفصل الاول

سطح اليمن

الموظف الانكليزي في بلاده وخارجها - بلاد العدو - الاخطار - ثلاث
لقائف - الرحيل - السيد علي بؤدب احد المسكارين - جبل عصر -
طريق العربات - وداع صنعاء - النبي شعيب - شبام - منته - عساكر
الدولة - « اربع ساعات الى صنعاء اباد شاهم جوق يشا ا » - حمدان
النعمان - ثلاثة فصول في وقت واحد - سطح اليمن - بوغان ولبنان -
الحية - حصونها الشاهقة وبساتينها - سوق الحميس - مجلس القات -
الصبير والسعادين - مذهب قو اليمن - السامرية - المقبل - الفقه الذي
قتل تليفته - حديث الجمال - رحم الله الدولة .

الكريم من لا يملك اذا عجز عن الاكرام والمساعدة . واذا اكرمك فلا يمتن
عليك . والكريم اذا كان متوظفاً لا يقول : لا ، بعد ان يقول : نعم ، ولا يقول :
نعم ، بعد ان يقول : لا . اما اذا قال : نعم ، فيشفع الاجازة مثلاً بالصنيعة
والصنيعة بالبشاشة . ان الانكليزي في بلاده وفي حكومة بلاده هذا الرجل .
ولكنه خارج انكنتره ، ولا سيما في الشرق ، مثل الواحة في الصحراء . لذلك
هو اكبر قدراً ، وان لم يكن ارفع مقاماً ، من زميله في انكنتره .

قد كان حظي في رحلتي افي مررت ببعض الواحات ، منها واحة في دار
الاعتماد بعدن استأنست بظلمها واتعشت . اقول « بعدن » على الرغم مما لقيت
فيها من العقبات . فقد كانت خطتي في السفر ان ازور الامام يحيى في صنعاء ثم
اسافر منها الى الحديدية لازور السيد الادريسي في عسير . ولكن الامام
والسيد اعداء والبلايين في احتراب . اما الانكليز ، فاذا كان لا حق لهم في
اليمن الاعلى ، فهم يستطيعون ان يمنعوني من الدخول الى بلاد صاحبها
حليفهم ومدنيتها الكبرى الحديدية هي فعلاً في يدهم . سألت المعاون الفاضل

في دار الاعتقاد ، بعد ان صدرت الاجازة بالسفر الى صنعاء ، ان يعطيني كتاب تعريف الى وكيلهم السيامي في الحديدية ، فاجاب : هو اليوم في عدن وسأقول له ان يزورك . وكان كذلك . فاجتمعت بواسطة معاون بفاضل من افاضل الهند ، روحه شرقية ، وعقله شرقي غربي . هو الدكتور محمد فضل الدين الوكيل السيامي في الحديدية لدولة بريطانيا العظمى .

وكنت ، وانا في طريقى الى صنعاء ، اشكر الاثنين دائماً لاني كرهت ان اعود من حيث اتيت لالما قاسينا من المشقات فقط بل لرغبتنا في ان نحيط علماً بالبلاد واهلها . ولكني وانا في صنعاء ظننت مرة ان الامام لا يأذن بالسفر الى بلاد العدو ، فتمثلت امامي تلك الطريق الى عدن ، وآفاق الحياة فيها مرودة كلها . ثم جاءنا احد السادة يزيدنا كرباً وعمماً في ما صورّه من الاخطار في منطقة الحدود بين الحجيلة و باجل . — اذا سلمتم فيها فلا تسلمون من الامر . الادريسي لا يركن الى احد قادم من عند الامام .

ولكن حضرة الامام عند ما فاضناه في الامر حقق لنا املاً في ارساله كتاباً مني الى الدكتور فضل الدين بواسطة عامل حراز في مناخة وامير الجيوش الادريسي في باجل . وقال تهديته لبالنا : اذا جاء الجواب بالايجاب فلا بأس بسفركم .

ان المسافر في البلاد العربية ليتعلم قبل كل شيء الصبر والتحمل . صبرنا عشرة ايام وقطعنا الامل ، فتجنّدنا على القضاء في تكرار مشقات عرفناها فازدادت في التصور شدة وبلاء . ولكننا وجدنا شيئاً من التعزية في الآية : وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . فلا تخلو الطريق بين بلدين متحار بين من الاخطار . وبيننا انا افكر ذات يوم في ما اتقول لمولاي الامير في ماويه وقد سألتني : أحسني انت ام حسيني ، وعرف بعدئذ اني مسيحي ، وكيف اجيب في يريم ذلك الشيخ الفقيه الذي جمع اولاد مدرسته صفاً وانشدوا بايام : نصر الله المسلمين ، ورسول الخير امين ، بيننا انا في هذه الورطة دخل الحاجب ويده ثلاث لفائف قدمها لي قائلاً : من الامام . فضضت الاولى فاذا هي :

بسم الله

مولاي القاضي العلامة عبدالله بن الحسن العمري حفظه الله وتولاه
وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وصلى الله وسلم على محمد وآل
هداته والله يحفظ ولي النعمة ويدوم بقاء آمين .

وصلت الى هذا الحد وكنت من الغيظ اشتعل فصحت بالحاجب : بارجل
هذه الرسائل ليست لي . فاجاب وهو يحلف براس الامام ان قد جاء بها رسول
من الديوان بقول : هي لامين ريحاني فاستأنفت القراءة حيث وقفت مغضباً :

صدر السلام وصدر جواب البوسطة المرسول اليها . العنوان لنا والمكتوب
لاريحاني كما تطلعون والله يحفظكم
عامل حراز
علي الاكوع
في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠

ثم في حاشية : والله يجعلنا من عتقاء هذا الشهر الكريم ونعوذ بالله من النار .

اللفافة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الاجل المحترم الشهم امين الريحاني سلمه الله
بعد السلام والاكرام . ورد كتابكم مع كتاب الى حضرة الحكيم محمد
فضل الدين وبوقته ارسلناه تلعرافياً اليه وورد جوابه وها هو مقدم اليكم .
اذا اشعرتونا من مناخة بوصولكم نلزم القائم من طرفنا في الحجيلة ليرافقكم
الى باجل .
قائد الجيوش الادريسية

محمد طاهر

في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

رضوان

اللفافة الثالثة

حديدة ٨٣٣ ٧ - ٨ سنة ٤٠

الى صديقنا امين الريحاني

حياكم الله وعافاكم . سرنا عزمكم لطرفنا . اهلاً وسهلاً بكم . حين
وصول تلغرافكم اشعرنا حضرة القائد الشيخ الهمام محمد ظاهر رضوان قائد
الجيش الادريسيه بياجل ما يلزم . وقريناً نراكم ان شاء الله باحسن
حال . في ٧ رمضان سنة ١٣٤٠

محمد فضل الدين

والحمد لله ! قد اطمان بالنا وحسن حالنا . لا تظن ايها القاري . ان اهتمامنا
لمثل هذا الامر واشراكك بل اشغالك به هو ضرب من السخافة . فانك اذا
رافقتنا في السفر وادركت بعض مقاصدنا واحسست ببعض ما كنا نقاسيه في
سبيلها تتأكد ان صغار الامور تحول احياناً دون كبارها . فالحمد لله اذن على
ساعة في ١٠ رمضان سعيدة ، بددت غيات ماوية ويريم من مماننا ، وفتحت
لنا طريق الحديد ، فصفا الدهن للمفاوضات السياسية ، التي استمرت بعد ذلك
عشره ايام . ثم استأذنا حضرة الامام بالرحيل فكان في توديعه لطيفاً
كريمياً : — ما تمكنا ونحن في رمضان ان نقوم بالواجب ونود ان نبقوا عندنا
الى شهر العنب^(١) قد تعود الينا يا قسطنطين ، اما الاستاذ امين فسيروح في
البلاد العربية ويرى غيرنا . فلا تظلمنا يا امين بالمقابلة بيننا وبينهم .

ثم امر لنا بالركاب وكان الموكل بتسييرنا السيد علي زباره غيوراً على
راحتنا ، فلم بدع شيئاً من مريحات السفر وحاجاته الا وفره لنا . مثال واحد
من غيرته وعزمه . عندما جاءت المطايا صباح يوم الرحيل رأى ان مرج احداها
بلا ركاب . فسأل صاحبها عنه فاعتذر وتبرم ، فضرب السيد علي يده على

(١) عنب صنعا مشهور بجودته وانواعه وهو يستوي هناك في اخر حزيران

وسط الرجل واخذ الجنبية^(١) منه قائلاً: رح هات الركاب . فراح المنكاري الى المدينة راكضاً وعاد مليكاً . ولم يرجع السيد علي الجنبية اليه الا بعد ان تشفعنا به . — اذا كان هذا اهماله وهو لا يزال تحت عيني فكيف يكون في الطريق ورأس الامام !

واشفع القسم بخطبة وجهها اليه والى رفاقه كلها وعيد تهديد . شيعنا السيد علي والسيد احمد الكبسي من قبل الامام الى خارج السور فودعناهما هناك شاكرين متأسفين ، اذ كنا نجتمع بهذين الفاضلين اكثر من سواهما وكانت السيد احمد خصوصاً اقرب الجلساء الينا واكبر المؤسسين .

مرنا من صنعاء غرباً نبغي البحر . وما كنا لتصور ما دونه من الجبال وما دون جبل واخر من هول المسافات حتى وصلنا ذاك اليوم الى رأس بوعان . ولكننا ايها القاري . العزيز لم نصل واباك اليه . اتنا لا تزال بين صنعاء وجبل 'عصر في سهل وسيع فيه بقع صغيرة مزروعة تلوح بين فسحاته السمراء البور « كباقي الوشم في ظاهر اليد » اذا آثرنا استعارة من شعراء الجاهلية . او كالكشامات في وجوه البدويات اذا شئتنا التشبيب . او كبعض الاوراق الخضراء — وهذا اقرب الى ما كنا نشعر به ونحن نجتاز تلك الارض المهملة — في شجرة عراها الخريف . ولكن للشجرة ربيعاً يعود اليها . وهذه البلاد في مكان من الارض شاءت الطبيعة ان يكون ربيعها دائماً ، وما شاء الانسان غير الكسل والجهل والحمول .

ان الهواء والسماء والماء تبسم كلها لارض اليمن . ولكن الياباني لا يستخدمها الا في ما يحتاج مباشرة اليه . فما لا ريب فيه ان في السهول حول صنعاء ماء حيثما بحث ، لان في قديم الزمان ، كما يقول بعض العلماء كان يجري نهر هناك . ولا تزال المياه تندفق من جبل لقم في قني المدينة . ولكن

(١) للجنبية اي الخنجر عندهم قبتان ، قبة حقيقية في ما تصلح له ، وقبة مرضية اجتماعية اي في ما توجبه المروءة واللباقة . فهي اذاً اخر ما يحمله الياباني ، وفي انتزاعها منه اشد تاديب له واكبر اعانة .

الصنعاني يعني طيلة نهاره لجمال الساقية . او يقضي نصف نهاره في « نخزين » القات ولا يسعى في احياء ارض فيها قيد عشرة اذرع واقل الماء والثراء اجل ، ان هناك بين لقم وعصر وما يدعى في الشمال الارحاب من المياه ما يكفي لاشغال مئات من السواقي والجمال . فلو استخدمت لكنت تلك السهول بساطاً واحداً اخضر ناصراً . شيء محزن .

وهذه هي . طريق العربات التي بناها الترك انه ليحزنك كذلك مرآها وذكرها . بدأنا نصدق فيها الى جبل عصر نحدثنا خرابها بفشل الدولة وشكا الينا اهمال الامام . هي طريق الحديد الى عاصمة الاذواء ، الى قلاع الزبود ، بنيت لرسل الخراب لا لرسل العمران . بنيت لجر المدافع وتقل الجيوش ، لا للتجارة والمواصلات المثمرة خيراً . تلفتنا من آخر منعطف فيها فاذا بصنعاء وقد احتجبت بحجاب ذهبي شفاف نسجت لها الشمس الشارقة فوق اقم العاري العقيم .

وما اجمل ما لاح لنا في سفحه خلال الحجاب . مدينة عجيبة كان لها من اسباب المجد والشهرة والعمران ما لا كبر مدن العالم المتمدن اليوم . لها تاريخ غابر مجيد ، لها مدينة قامت بين شمس المحوس وكواكب الاوثان ، وتعددت فيها الاسرار والكهات ، وعزت عندها آمال الانسان ، فكانت ملكة سباء ، وكان رحيمير ، وكان قحطان . ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان . وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ، ونوابغ في فن البناء . ناهيك بما خصتها الطبيعة مما لا يزول ابداً ولا يحول . فهي على علوها لا تعرف الثلج ، وهي على دنوها من خط الاستواء لا تعرف من قيظه غير نزوات واهنات . وفيها من الماء القراح وغزارته ما تقدم ذكره تكراراً . فلوممرت اليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال . واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر اليها الناس صيف شتاء من كل النواحي حولها ، ومن البلدان العربية والافريقية الشرقية كلها ، وانعدت في اقل من عشرين سنة بباريس البحر الاحمر .

اي صنعاء ، عاصمة الزيد والجود ، انا نغار عليك من الاثنين ، ونود ان يعاد اليك مجد الاجداد مشفوعاً بشي من العلوم الحديثة التي من شأنها ان تصلح احوال الانسان قترقيه في جسمه وعقله وروحه ، وفي بيته ومدبنته وبلاده . وما سواها من العلوم لا نبغي لك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب .

اي صنعاء عاصمة الاذواء ، انا في حبنا ابنائك وهم مثلنا من التامس ونحن وايام من سلبية واحدة ، فنادي حتى بشي من الوطنية من اجلهم ، فتصح اجسامهم اذا انقوا الامراض ، وننجلي عقولهم اذا فتحو المدارس ، وتصفو روحيتهم اذا ادركوا من الدين حقيقته الاولى ومسرره الاعلى . اما الذين ادركوا بعض تلك الحقيقة وبعض ذلك السرفهم بشاركونك في صلاتك ، في فاتحة كتابك وختمته ، ويودون ان تشاركهم في صلاتهم . نظرة اخرى يا صنعاء ونستودعك الله . . . قد اكلنا من ثمارك ، وشربنا من مائك ، ونمنا تحت سمائك ، واتعشنا بعليل هوائك ، وكنا قبل ذلك نجيبك ، فكيف بنا بعد ذلك ؟ فاذا جاء بعدنا من يصلي صلاتنا وصلاتك ، من يحبك حبنا ويغار عليك غيرتنا ، ورأى فيك بعض ما تافت اليه النفس منا وما اشتهاه العقل والفؤاد — بعض العلم ، بعض الفنون ، بعض الطرب ، بعض العمران — سنغبطه ونحن بعض السر الاكبر في الفضاء ، في اللانهاية ، وستغبطه منا التراب والعظام .

وهذه اقحوانة في الطريق واقاحي في الحقل بيضاء صفراء تبشر بالربيع . ولكنه ربيع ابد نجيل يكاد يظا الثرى فتظهر منقطعة آثاره الناعمة . ومثله لا يجيى في مثل هذا العلو بارض الشمال . انما نحن على الف قدم فوق صنعاء وتسعة آلاف فوق البحر . وقد احتجت عنا المدينة المحبوبة احتجاجاً — ابدياً ؟ الله اعلم .
وتلفتت عيني ومد خفيت عني الطلول تلفت القلب

وهوذا النبي شعيب قرب ببعيد . هنالك على الافق امامنا بلوح كالطيف اسبحم رائعاً . هو اعلى الجبال في شمال اليمن بعد شبام ، فيراقنا اليوم وغداً ولا يحتجب ما دمنا منجدين .

مرنا اربع ساعات فوصلنا الى مَتْرَه ، وهي للقادم من مناخه او من الحديدية

آخر مرحلة الى صنعاء . مَتْنِيَه ! كانت في ايام الترك مربعة لعرائس الجبور
ولرسل السلامة والسرور . فكم من ابناء الدولة المجاهدين - المسوقين الى الجهاد
في اليمن - كانوا يخرجون من تهامة فيموتون في فيظ السبخاء ، وفي الشعاب ،
وفي « النقييل » وفي مضائق الجبال ، وفي مكامن الاودية ، فيهتف من يصلون
منهم الى هذا المكان سالمين : اربع ساعات الى صنعاء ، بادشاهم جوق باشا !
وكانوا يقضون يوماً او يومين هاهنا ينتظرون المتخلفين من اخوانهم فيعيدون ،
ويهللون ، ويبذلون من « الظلظ » ما لا يزال صاحب « السمسة » يتلهظ
بذكرة . فيهز رأسه اليوم آسفاً محزوناً ويريك البيت الذي كان قصرآ في تلك
الايام وكم من يهوديات صنعاء خففن فيه من كرب المجاهدين وغمهم !

الطول الدوارس هجرتها الاوانس

وقفنا في مَتْنِيَه اكراماً لعاكرنا وقد اشتهوا القهوة ، فهوة القشر . وكلهم
مسرورون لانهم مسافرون في رمضان - ومن كان مريضاً او على سة رة
فعدة من ايام آخر - كلهم الا واحداً ، هو رئيس القافلة ، ابي التمتع
بتحليل النبي ، وكان الجائع النعسان على الدوام . فما نادينا مرة الا وكان
ينعس فوق حماره وهو يمشي الهو بنا مشية البقر ولا بلذ له الا مؤخر القافلة .
اسمه - الدليل لا الحمار - حمدان ، فسمينا نعان فزاد ذلك في الطين بلة .
وكان الاهانة لحقت به وبحماره فصار لا يرى لا في مقدم القافلة ولا في
مؤخرها . - يا حمدان النعسان انت الدليل ، وما نحن بفقهاء لتدلنا الى الورا .
رح يا حسن فتش عن النعسان . فيعثر الجندي به وهو يتسكع في منعطف الطريق
فينتمره ويسوق بالبندق حماره . فيجيشنا النبي النبي ، الصائم النائم ، وهو يتمتم :
بسم الله الرحمن الرحيم ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وعليك السلام يا حمدان ، وصلنا الى بَوَّعَان . وهي بضعة اكواخ عند
جسر لطريق العربات جميل الهندسة ، متين البناء ، حجارته سوداء وحمراء

وبيضاء . احسن ما في هذه الطريق جورها . في بوعان اسطبل يدعى مقهاية (١)
 دخل « القراش » اي الدواب والعساكر اليه ورحنا انا وقسطنطين نبغي
 ظلاً تحت الجسر فبسطنا غذاءنا الى جنب الماء هناك . وبعد ان اكلنا واسترحنا
 قليلاً استأنفنا السير ، فودعنا طريق العربات التي تمر في سفح جبل بوعان
 وتلف في الاودية لتصل الى مفتحق ومنها الى مناخه . سعدنا في الجبل في طريق
 وعرة زلا ، وقلعة بوعان الى شمالنا تنطح السحاب ، حتى وصلنا الى اعاليه ،
 فصغرت فيه الرياح واعلمتنا بمظهر من مظاهر الطقس مدهش غريب . انما الشمس
 شمس الصيف ، شمس اليمن المحرقة ، وانما الزهور زهور الربيع ، اما الهواء
 فلا ربيع فيه ولا شيء من الصيف . كنت اذا اغمضت عيني اظن نفسي في
 اعالي لبنان في الشتاء . هذه ثلاثة فصول في وقت واحد .

ان رأس بوعان لسطح اليمن : وعلى السطح صخور هي في شكلها ووضعها
 شبيهة بهيكل عظيم له بابان ، الشرقي اي باب صنعاء والغربي اي باب مناخة .
 دخلنا الهيكل من باب صنعاء ، فمررنا برواقه بين انصاب جلييلة ، وعمد
 رائعة ، وصخور هي كالمياكل الصغيرة في الهيكل الاكبر . وما هي الا بضع
 دقائق حتى وقفنا في الباب الغربي ، باب الخاوف والاهوال . ان المسافر ليجد
 نفسه في غير ما الفه من الارض فيحس هنيهة ان دورة الدم فيه قد وقفت
 تماماً ، فيشيق ولا يتنفس ، ويهتف ولا يتكلم . هناك مشهد من الجبال
 والادوية رائع ، مدهش مخوف ، يهمس ربه في اذن الانسان : لا تكن مكابراً ،
 ولا تكن نخوراً .

لا اظن ان في بلاد سويسرة مثل المشهد الذي ينبسط بل يتراكم امامك
 في اليمن عند ما تقف على ذروة بوعان فتشرف منها على بحر تجمد تحتك ،
 رؤوس امواجه قنن الجبال ، وسطحه الاودية المتشعبة الملتفة بعضها على
 بعض . وهناك دون القنن الشاهقة ، والصخور الشاخنة المسنمة ، والهضاب

(١) في الطريق من عدن الى صنعاء يدعى الحان سسرة ، وفي الطريق من صنعاء الى
 الحديدة يسمونه مقهاية او قهوة

الهرمية ، والاوردية المدطحة ، والمنحدرات الهائلة ، هنالك فوق شبه الغيوم التي هي الجبال يلوح في الغرب حراز وفي الشمال سريح وكوكبان ، هنالك الغيمة التي هي مناخة وشكلها كسرج الفرس ، دلني عليها حزام ، فما صدقت ان سنكون فيها مساء الغد . وما حول المسافات والشواحق بشيء عند حول الوهاد والاعماق . لبنان ! نعم ذكرت لبنان . ولكنه وان فاق بوعان وشبام علواً ، فهو يضيع في جبال اليمن واوديته المترامية الاطراف . مناخه ! سنكون غداً هناك . انك اذا وقفت في بوعان لا تصدق ان بشراً يستطيع ان يقطع تلك المسافات في اقل من اسبوع .

وان الطير نفسه ليتعثر بسنام الصخور والقنن ، فلا نظن ان ما خلقه الانسان على شكل الطير يستطيع ان يجتاز هذا الفضاء القائمة فيه الجبال كالجبارة ، الكامنة رؤوسها كمن العدو في السحاب . اما اذا حلفت الطيارة فوقها فهي ولا شك تضل السبيل في ما يشبه تحتها امواج البحار .

من سطح اليمن في بوعان شرعنا نزل الى قبوه في مفتحق وبين الاثنين درجات لا تعد ، ووهاد لا قعر لها ولا حد ، ومنحدرات لا وطيد فيها غير صخور تظلل الجادات ، وتسد فيها المنعطفات ، فيزل عندها حتى الانسان ، فكيف بالحيوان . مشينا والعين تبغي من المشهد الزيادة ، والرجل تبغي السلامة ، فكنا نضطر ان نقف لنحقق البغيتين . وكلمنا وقفنا لاح لنا في المشهد شيء جديد جليل ، في شعب هناك او في تقيل . ان جبال اليمن كجبال سو يسرة في وهادها واكبر منها في اتساعها . ولكنها غير مأهولة ، وثقل فيها الاشجار والمياه .

في الطريق من صنعاء الى مناخه لم نمر بمدينة واحدة . واكبر قرية شاهدنا هي الحيمة . قرية عجيبة في وضعها ومركزها ، تراها الى اليمن في الطريق من بوعان الى سوق الخميس ، وبيننا وبينها اودية متشعبة عميقة ، وعلى كتف احداهما ارض بدكات في شكل نصف دائرة ذكرتها بلبنان . وما اكثر ما يذكر في اليمن بلبنان . ارض الحيمة كلها مزروعة وفيها العودان ، البن والقنات .

وفوق تلك الدكات البلدة وهي عدة اقسام ، عدة احياء . كل حي قرية بذاته ح بيونه عالية ومتصلة ملزوزة كبيوت المدن بعضها ببعض . وبين كل حي وحي مسافة يتخللها شعب او تقيل . اما السبب في هذا التقسيم والتباعد في قرية واحدة فهو يتصل كما أخبرت بثارات توارثها الاهالي وهم من عشائر مختلفة ، فاتخذ كل قوم حياً منفرداً بعيداً عن الاخر ، وشادوا فيه بيوتهم بل حصونهم ليكونوا في مأمن من رصاص البنادق اذا شبت الحرب بينهم . انك لترام مع ذلك يجرثون الارض ويستثمرونها . اجل ، ليس في الطريق من صنعاء الى مناخة اخصب واجمل من بساتين الخيمة الغضة ودكاتها المستديرة الخضراء .

وصلنا عند الغروب الى سوق الخميس وهي قرية صغيرة قائمة في وسط المنحدر بين بوعان ومفحق ، تحتها الوهاد وفوقها الجبال ، وفيها مركز للسلك الذي يصل مناخة بصنعاء . استقبلنا العامل ورجاله فانزلونا في دار الحكومة ، واستأذنونا بعد العشاء بان يعقدوا عندنا جلسة القات ، فقبلناهم . مكرهين ضيوفاً ، لاننا في مرحلة استمرت احدى عشرة ساعة وفي اوعر طرق اليمن التي اجتازناها كنا قد اشرفنا من شدة التعب على الهلاك . جاؤوا برزم القات والمداغات ، فقفلوا النوافذ ، ونزعوا عن رؤوسهم العمامات ، وطفقوا بدخنون « ويخزنون » دون انقطاع حتى امست القاعة بعد نصف ساعة مثل مخنق الفيالج . خرجت الى الفلاة لانجو من الاختناق . ولما عدت الفيت القسطنطين ، زاده الله قوة وعافية ، يفكه الجلوس باخبار الطيارات . وقد تأسف عندما نهضوا بعد نصف الليل يودعون ليستأنفوا الجلسة في غرفة اخرى . فتحنا النوافذ لنظهر البيت ، وما كدنا ننام حتى استفقنا على صوت الطبل طبل السحور .

فما ، و « لا حول ولا » على الالسنه نشد للرحيل . فاستأنفنا السير في نور القمر الضئيل ، نازلين من جبل الى جبل ، ومن واد الى واد — نازلين الى جحيم اليمن ، الى القعر الذي لا قعر دونه في تلك الارض ، الى مفحق وما مفحق غير اسم لشعب ضيق مدلم شاهدنا فيه لأول مرة الرباح وهو سعدان كبير وشاهدنا من الطير ما يشبه الهدهد ، ومن النباتات الشوكية وانواع الصبير ما لا نعرف له

اسماً غير الصبير وصبر ابوب .

من سطح اليمن في بوعان الى قبوه في مفتح مسيرة ست ساعات ، فيهما منتهى الوحشة والوعورة . ثم من مفتح عدنا الى التصعيد ، ثم النزول مراراً ، فمررنا بمقهاية تدعى العجز استقبلتنا فيها امرأة ذات وجه بشوش فتك الجدرى بحاسنه ، فلم يبق على غير الشكل والعيون . سقت « القراش » بقربة ملائتها من البئر بيدها ، وكانت في عملها وحديثها سامرة بلاد الزبود . قد شاهدنا غيرها من اخواتها لابسات السراويل المعقودة فوق الخللخال يشتغلن في الحقول ، واكثرهن يحملن في وجوههن نبأ حسن ذهب فرسة الجهل والوباء . وكانت الناس هناك الفوا هذا التشويه فلا ينفرون منه ولا يحزنون .

وصلنا بعد الظهر الى سفح جبل حراز فجلسنا هناك في مقهاية تحت خيمة من الغرف نستريح قبل تصعيدنا الاخير الى مناخة ، ففكنا احد الزفاق بقصة استتنا بعض اعاب الطريق . كانت الحديث في النساء والمحدث رجل خفيف الظل ، حسن النكتة ، رافقنا من متنه ورجلين اخرين احدهما شيخ شائب والاخر جمال حطاب . قدم لي المحدث نريش المداعة قائلاً : لا يهمهم الجدرى ما دام الفقيه بخير . لهذا الرجل - اشار الى الشيخ الذي كان قائماً - امرأة مثل من رأيت وجهه حسن ولسان حلو . وله فتاة اشتمت الام ان تعلمها القراءة فاستحضرت الفقيه الى البيت . فقرأت المسكينة اسبوعاً فقط ثم - وضرب كفه الايمن على قبضة اليسرى - وقعت في الشرك . طلبها الفقيه من امها فأبت فافرج البندق في بطنها . ورأس الامام ! فقلت : قتل الام ؟ فاجاب : قتل الفتاة ! وهوذا الحين في السجن بصنعاء . وهذا الشائب - مسكين يجب ان يحمل كفته معه في السفر - هو زوج الام وابو الفتاة . راح يطلب من الامام دم الفقيه واهل الفقيه يشتبون دفع الدية .

- وهل تقبل الدية ؟

فاجاب وعينه تغمز وتلمز : اذا كان الفقيه علم الام كذلك فلا خوف على حياته . تقبل الام الدية . ورأس الامام ، وتسترجه لتكمل القراءة . وما

قولك وهذا زوجها ، وهي كمن رأيت ، الا تظنها تقبل ؟

— واذا ابت ؟

— المأمور يا افندي يرتشي برطل زبيب .

فهز الجمال رأسه اثباتاً وقال : في ايام الدولة كنا نرشوهم بالظلط . الترك

الا يا كلون الزبيب .

فقال القصاص : خير الجود الموجود . كانت الظلط في تلك الايام مثل

الزبيب اليوم . وكان يحملها الترك من مناخة الى بوعان ثم الى صنعاء في موكب

عظيم . انا مشيت مرة فيه ونجوت والحمد لله . موكب عظيم يا افندي . هذا

الضابط حامل الظلط ، وهذا الجيش قدامه ووراءه والى يمينه ويساره ، وهو في

الوسط مثل العروس يحرسها الفان من النظام ^(١) . وهناك وراء بوعان الشائرون

يكنون للترك فيسلبون الظلط ويذبحون النظام .

فهز الجمال رأسه اثباتاً وقال : وكنت انا اشتغل للترك ، اتقل لهم الحطب .

معيدان اجرة الجمل . وكان ابي واخي وعمي يجارونهم هناك ، عند بوعان . كنا

كلنا نأخذ الظلط من الترك .

رحمة الله عليهم . ما افادتهم المدافع والحصون وطرق العربات . ولا نظن

ان عسكرياً من عساكر الدول الفاتحة في الماضي او في الحاضر بقوى على حصون

الطبيعة واهل الحصون في هذه الجبال .

بعد ان صعدنا في نقيط مناخة واستوينا الى رأسه نظرنا الى المسافات الهائلة

التي قطعناها فكان طيف بوعان وغيمة النبي شعيب في الافاق البعيدة شرقاً

وشمالاً يثبتان ما نقول . انك اذا قطعت تلك المسافات راكباً ، خفيف الثياب ،

لا سير هولها ووحشتها ، فكيف بك اذا كنت جندياً تحمل عشرة ارطال على

ظهرك ، وقنطاراً من الهم في صدرك ؟ اجل ، ان اليمن ضريح الدولة ، ولا

يزال اهل اليمن يترحمون عليها .

(١) الجيش النظامي

الفصل الثاني

الى الحدود

مناخة — الحصن الحصين — عامل لا يحسن غير الواجب عليه — « لا يفلح
العرب الا اذا بعدوا عن بلاد العرب » — الشهيد من سطح البيت — مناخة
واب — الفرق بين العاملين — قرية الهجره — جبل ورس — العتارة •
الاسماعيلية والفرق الباطنية — الداودية — مقهاية وسل — كيس النوم —
الفراء في لندن ونيويورك — قواعد الصحة والطب الخرافية — السعادين
ترميناً بالحجارة — قاع صفان — الحدود — الشيخ حمزه — « على الرأس امر
السيد وعلى العين امر الامام » — شيخ الحجيلة — « كلنا نشتفي السلم » —
المصيبة من الله — وله شريكان في اليمن •

ان مناخة قائمة على قنسة جبل حراز التي تشبه صهوة الفرس • وهي قسمان
قسم في الصهوة ، وقسم خارجها على ربوة في الجهة الشمالية • ولكنها في الحالين
حصينة منيعة • فهي في علوها ، الف قدم فوق صنعاء وعشرة الاف قدم ونيف
فوق البحر ، مسرح للغيوم وموطي* للنسور والعقبان • وقد كانت بالامس
موطي* قدم الدولة في اليمن الاعلى ومركز جندها الامم • فيها ثكنة ، هي في
مقدم الصهوة عند سنامها ، ثكنة كبيرة لا نسبة بينها وبين البلدة الصغيرة
الحديثة البناء ، التي لا يتجاوز عمرها خمسين سنة ، ولا يربو سكانها على خمسة
الف منهم الفان يحملون البنادق •

وفي مناخة اليوم مركز قضاء حراز ، ودائرة للسلك والبريد ، ومفرزة من
الجنود • وهي محطة للتجارة بين الحديدية وصنعاء • اما الحصون فلا حاجة اليها ،
لانك اذا وقفت على سطح من سطوح البلد تشرف من الجهات الاربع على
الهائل البعيد الغور من الاودية والوهاد والشعاب • لا اظن ان عسكرياً من عساكر
العالم يستطيع الاستيلاء عليها من الغرب ، قادمًا من الحديدية ، او من الشرق ،
قادمًا من صنعاء ، الا اذا نفذت الذخيرة فيها • وعندئذ يتخذ المحاصرون

سلاحاً آخر من الحجارة يقذفون بها على العدو ، فتفعل ما لا تفعل البنادق كما
 تيقن الترك في شهاره . لا عجب اذا كانت الرهائن ، وقد عرفنا شيئاً من طباع
 اهل اليمن ، اساس حكم الامام وحصنه الحصين الاحصن . اذ لو اعلن عامل
 حراز استقلاله مثلاً ، او ابى ان يرسل اموال الزكاة ، او تصرف بقسم منها ،
 هو وجنوده في هذا الحصن الطبيعي الحصين ، فلا اخن ان امام صنعاء يستطيع
 تأديبه والتنكيل به بغير ما عنده رهينة من لحم ذاك العامل ودمه .
 أنزلنا في بيت كبير هندسته اوروبية بناء احد ولاة الترك . ووكّل امرنا
 الى خادم عنده بخدمة المتمدنين بعض العلم والذوق ، اقتبسها ولا شك من
 اسياحه السابقين ، فاقمنا يوماً هناك نستريح مما كابدناه من المشقات في مرحلتين لا
 مثيل لها في رحلتنا الجانية .

زرت العامل الشيخ علي الاكوع ليلاً في مجلسه فاستقباني وهو في قميص
 النوم وامر لي بمداعة ورزمة من القات . واجتمعت عنده ببعض العلماء وفيهم
 سيد معجب بعرب الاندلس وياحد ادبائها الشهيرين ابن زيدون صاحب
 الوزارتين . أعجبني حديث الرجل ، ومما قاله : لا يفلح العرب الا اذا بعدوا عن
 بلاد العرب .

نفضل حضرة العامل فأرسل مع نجاب علماً بوصولنا كتبته بيدي الى قائد
 الجيوش الادرسية في باجل . وكأنت قد اعلم بذلك ولي الامر في الحدود ،
 وأعد لنا اكياس البن التي امر بها الامام — هدية امامية . ولم يلحّ الشيخ
 الاكوع علينا بالاقامة مثل سواه . ولا تحرك خارج بيته او ديوانه ليقوم بغير ما
 وجب عليه من الاكرام كعامل الامام . لا . لم يكلف نفسه زيارتنا ، ولا تدرع
 يرمضان او اعتذر . أعجبني الرجل في سلوكه الفريد في بابه . هو حر شاذ الطباع
 لا يعمل غير الواجب عليه ، بل يعمل بما يأمر الامام عملاً تاماً لا نقص فيه
 ولا زيادة .

اقمنا يوماً في مناخه نتمتع بحاسنها ونستريح . سعدنا الى السطح قبل ان
 احاطت بها الغيوم فكان ادھش ما شاهدناه قريبا منا صخرة قائمة كسلة فرعون

وراء القشلاق ، وحولها بعض البيوت من لونها ، تدور اليها جادة ضيقة زلا .
فتصل الى قرية وراء الصخرة تدعى كاهل . ودونها على مسافة منها قرية
الجزيرة المتصمة بقنة اخرى من جبل حراز . ثم مرحنا النظر بالافاق البعيدة
عن حراز فاذا بوادي موسط امامنا شمالاً بغرب ودونها جبلا حفاش
وملحان ، وبالاودية الشرقية التي اجتزناها امس ودونها النبي شعيب وتحت
بوعان . وهناك قنن عديدة شيد فوقها ابن اليمن حصونه . فهو من هذا القبيل
النجلي ببني بيته يقيناً على الصخرة . وقد الفينا في هذه الجهة الغربية اكبر حمة
واكثر نشاطاً من سواه في النواحي الاخرى . دليل ذلك الارض المحروثة
والدكات والمنحدرات الخضراء .

سررنا بيومنا في مناخه سرورنا بيوم في اب ، فحملنا ذلك ، ونحن شاكرون
في الحالين ، على المقابلة بين العاملين . ان عامل مناخة عربي ذو فضل ، وعامل
اب عربي ذو فضل ونوافل . هذا حالو الشائل دمت الاخلاق ، وذلك على شيء
من طباع البدو الذين لا يسيتك منهم لا الكلام ولا السكوت . لم يفاخرنا
الشيخ الاكوع بحكم الامام ، ولا تبجح مثل امراء الجيش وبعض السادة في ماوية
وذمار . انها لمن حسناته التي تسر ولا سيما من كان مثلنا قادمًا من تلك
النواحي الشرقية .

في صباح اليوم الثاني جاءنا من قبله عدد من العساكر ، ضعف ما صحبنا من
صعاء ، ليرافقونا الى حدود الامام . فاستأنفنا باسم الله السير وشرعنا نزل ثانية
من سطح اليمن ، من اعلى سطوحه ، الى اوطى ارض فيه ، الى وادي حجام في
سفح جبل وسل . وهي اوطى من وادي مفتح وبينها وبيننا عقبات كوودات ،
فيها النزول اسعب جداً من التصعيد . اما وسل فيبيننا وبينه جبال وقرى نعددها
منها ولا نعددها . هذا جبل الطويلة وهو خط طويل مستقيم على الافق الشمالي
يتصل ظله شرقاً بالحريمه . وهذه قنة شبام التي تظلل مناخة بعد الظير وهي
اعلى قنن اليمن على الاطلاق . وهناك عندما نخرج من ظل شبام يتراى لنا
تجاه مغرب الشمس جبل ريمه واعلى قنة فيه برراع . وهذه على احدى قنن مسار

قرية تشاركه في الاسم وبينها وبين شِباب الحجر . تلك القرية العجيبة الرائعة ،
المزدحمة بيوتها في ورم برأس الجبل ، المتراكمة بعضها فوق بعض كأنها في
لذاتها وشكلها وعلوها قطعة شاهقة من مدينة نيو يورك .

عند ما نجتاز الحجر نطل على وادي وسيل ، وهضابها كالدرج تحتنا ،
واحدة تلو الاخرى ، كلها زاهية بانواع النبات والزهر ، خصبة غضة . وقد
امتاز بين مزروعاتها شجر البن الذي يزرعه الهانويون في الدكات ، في اماكن
تظللها الصخور والمضاب ، اي في الشعاب والمنحدرات التي لا يصل اليها غير
نصف يوم ، كل ما تحتاج اليه ، من الشمس .

انك لتعجب من تلك البيوت بل الحصون القائمة فوق الصخور كأنها جزء
منها ، في اماكن يكاد يستحيل على الانسان والحيوان الوصول اليها .

ومما مررنا به حصن هو قرية بنفسه . بل القرية هي حصن تعتصم به فرقة
من الباطنية الذين ابادهم الزيد بالسيف كما اخبرنا السيد محمد . ولكن الابداء لم
تكن على ما يظهر تامة فاقام من نجا منهم في هذا الحصن الذي يدعى العتارة
وفي ضواحيه .

انهم فرع من فروع الاسماعيلية ^(١) العديدة يدعى الداودية وزعيمهم
داوودي مكرمي بلدي اي انه داوودي المذهب ، مكرمي النسب ، بلدي الاصل .

(١) الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر اخو زيد امام
الزيد . من فرقها المهمة النزارية وهم ينتسبون الى المزر الفاطمي يقيمون في بمبي بالهند
وعدهم نحو مئتي الف اكثرهم تجار ذوي يسار ، وامامهم الاكبر اقاخان . ومنها السلجانية
في اليمن ويسمون ايضا المكارمة . هم اصلاً من نجران ، من قبيلة بام الكبيرة ، عددهم
هناك لا يتجاوز العشرة الاف وداعيتهم علي بن محسن المقيم في بدر موالي الادريسي . في
الهند من السلجانية نحو الف اكثرهم متوظفون في الحكومة . ومن الاسماعيلية الداودية
وهم من بني مرة اي مرة اليمن لا نجد بقيون في عدن والحديدة وبيت الفقيه وفي جبلي
حراز وهمدان . ويسمون كذلك البهرة . عددهم في اليمن لا يتجاوز الخمسة الاف . ولكن
البهرة في الهند مثل النزارية كثيرون ، يربو عددهم على الثلاثمائة الف ، اكثرهم من
التجار ذوي اليسار ، وداعيتهم اليوم طاهر بن محمد سيف المقيم في سوراة . كل هذه الطوائف
اسماعيلية كما قلت لانها تنتسب الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكلها باطنية لانها تبطن
بعض اسرار الدين ولا تعلم منها عامة الناس غير اليسير .

والداوودية اشداً حاربوا الاترك ثم حاربوا الامام واستعانوا بالاتراك عليه .
وهو اليوم يعاملهم في بلاده كما يعامل اليهود ، فيأخذ منهم الزكاة ويسمونها
الجزية او انه يفرض عليهم الجزية ويسمونها الزكاة على انهم لا يدفعون باية حال
الاكرهاً ، لان في مذهبيهم لا يجوز ان يدفعوا الزكاة الى احد من ائمة او من
امراء المسلمين .

نودع الداوودية في العتارة ولا تزال وجهتنا مغرب الشمس ، فنطل على
اللكمة ، قرية من قرى جبل مسار الذي يمتد شمالاً بغرب ، وتحتها العريف
ووراءها جبل صفعان وفيه حصن متشوح . اما ورائنا فقنة شبام لا تزال تلوح
فوق كل الجبال ، تراقنا اربع ساعات الى ان تقرب من وسل .
وما وسل غير بيتين ومقهاية وبستان من القات . وهاك امرأة اخرى تبادر
الى استقبالنا وخدمتنا . بدأنا نشعر بعد خروجنا من صنعاء بوجود النساء في
العالم ، النساء العاملات مثل الرجال . سقت الامراة « القراش » وشربنا
نخن والعساكر قهوة القشر ، « نقشرنا »^(١) وادركنا هاهنا لزوم الفنجان
الخاص الذي يحمله السادة مع كيس النوم في اسفارهم . اما الكيس ، اذا
كان المسافر يضطر ان ينام في مثل هذه المقهاية ، فهو الزم ما يلزم . هو
كثير الاستعمال في اليمن خصوصاً في الجيش . الا انهم لا يربطونه حول
العنق كما قد نظن ، ايها القارىء بل فوق الرأس . هم يجعلونه كبيراً لهذه الغاية
فيتمكن صاحبه وهو فيه من زمه وعقده بيده داخل فيمسي اذ ذلك كله ، هو
ورأسه ، في الكيس ، فيستنشق ما دام نائماً كل ما يتنفسه من حامض الكربون
ولا يخنق . ولا ينهض صباحاً ووجهه كالرغيف المحروق ، كأنه اكل ناراً
في نومه .

وهم فوق ذلك يقفلون النوافذ كلها قبل ان يخلوا الكيس . فما قول اسيادنا
الاطباء الذين يهددونا بالموت اذا اقلنا النوافذ عند النوم . هل جربوا حامض
الكربون في انفسهم ؟ او ليس من الحكمة اذا اضطر عدة اناس ان يناموا

(١) نقشرنا على وزن تقهونا

في غرفة واحدة صغيرة ان يعتزل كل عن الاخر بهذه الطريقة ، ان يحجر كل على نفسه في الكيس ؟ اليس خير له ان يأكل هواه - حامض كربونه - من ان يأكل هواه غيره ؟

ان في احياء الفقراء بالمدن العظيمة ككندن ونيو يورك ، حيث تنام العائلة الواحدة في غرفة مظلمة فاسدة الهواء ، كثيرين ممن يحسبون الكيس نعمة لو علموا به . فهو والحق يقال احسن دواء للقذارة ، ما لازمت القذارة الفقر والشقاء ، وما دام الاغنياء المالكون تلك البيوت اخدان الحكومة التي لا توجب عليهم التحسين فيها . ادخل رأسك في الكيس ايها الفقير العزيز ، انت الساكن في الطرف الشرقي بلندن او في حي اليهود بنيو يورك ، ادخل رأسك في الكيس تنج ليلاً في الاقل من انقاس عيالك ومن اقذار بيتك .

اما الكيس الاعظم فهو هذا الفضاء . ولعمري ان من كان هواه الجبل ارثه لا يلقى رأسه تحت سقف ساعة واحدة . الا ان النافى خصوصاً والعربي عموماً يخاف هوا الليل ويتأثر من البرد أكثر من سواه . كأنت شدة الحر تضعف الدم او تغير في تركيبه فتترق الكريات الحمراء فيه فيأثر اذ ذلك البرد في صاحبه تأثيراً مضرراً . والذين ينقلون من الاقاليم الباردة وبقيمون زمناً في اقليم حار يمسون مثل اهلهم .

هذا الرفيق قسطنطين وهو مثلي من الشمال ، الا انه اقام بضع سنين في جده فصار يخشى الهواء في الليل كأنه سم زعاف . وكم لناقشنا في الموضوع وكنت في حجتي وفي غيظي امي اليه ! فلو سكتنا وعدنا الى اجسامنا ، الى صحتنا نتكلم عنا ، لكنت ولا ريب مغلوباً . لان فيه من العافية ، وهو الذي يقفل النوافذ كلها ، ما لو وزع على خمسة مثلي ، انا الذي لا استطيع ان انام دون ان افتح النوافذ كلها ، لا هلمهم كلهم للجندية . وهذا مع صحة اهل اليمن اجمالاً ما حملني على الشك في بعض قواعد الصحة التي اصبحت في الغرب ايات منزلات . وهي لا تخلو من الخرافات . ليس الهواء الطلق وفوائده موضوع بحثنا الان . الا اني اقول ، قبل ان تترك مقهاية وسل وبستان القات ، قد تكون الرثة

في الهواء المفعم بالا لسجيان كالاسفنجة اذا امتلأت ماء . والاكتفاء حد
الافادة في كل شيء .

اما وقد اكتفينا من هواء الجبال زاداً فصرنا نتوق الى هواء فيه رائحة الملح ،
الى هواء البحر ، وهو لا يزال بعيداً . لولا ذلك لما كانت الحر في وادي وجرّام
شديد الوطأة خصوصاً على من كانوا يرتعشون في ظل شبام منذ ست ساعات .
جلسنا للغذاء عند بئر قديم تحت شجرة من الأوب وهي اكبر اشجار اليمن ،
فسمعنا اصوات السعادين في الحرج فوقنا واطلقنا عليهم الرصاص ، فبادلونا
الاكرام ورجمونا . نعم رجمونا بالحجارة ، فكانت اشد علينا من الرصاص عليهم ،
فارتحلنا من ذلك المكان ، نقهرنا مغلوبين ولكننا سالمين .

عبرنا الوادي ووصلنا بعد ساعتين الى حدود الامام في قاع صعقان وهناك
محطة التجارة بين تهامة واليمن . هناك ضابط الاتصال بين بلاد السيد وبلاد
الزبود ، بين السيد الادريسي والامام يحيى . هناك في تلك البيوت والحيم مركز
الشيخ حمزه ، حيث ينبغي ان نصرف عساكرنا لانهم غير مأذونين باجتياز
الحدود ، ونستصحب حراساً من رجاله .

ترجلنا خارج الخيام ومشيئنا الى بيت حقير بينها ، فاستقبلنا عند الباب رجل
صغير الجثة ، براق العين ، عريض الصوت ، ليس عليه من الثياب غير القوطة
يتزر بها والعمامة . فسألته عن الشيخ حمزه فاجاب : ها هو كله ، وقبل ان دعانا
الى الجلوس سلم وقال : قد تحيرتم - اي تأخرتم - نحن هنا وعساكر السيد في
عبال بانتظاركم منذ ايام . لكم الان الخيار في امرين تبيتون عندنا او تكملون
الى عبال . كل شيء حاضر هنا وهناك . من هو امين الريحاني فيكم ؟
فاجبته كما اجاب سؤالي عنه : ها هو كله . فلم يضحك ، ولا غير لهجته
- نحن يا امين تحت امر من وصانا بكم . نحن قدامكم ووراءكم . على الراس
امر السيد وعلي العين امر الامام . راحتكم علينا وسلامتكم مطلوبة من
الله ومنا . فاذا انتهيتم السفر الان كان السفر . واذا اشتبهتم الاقامة فاهلاً
وسهلاً .

ادهشنا هذا العربي فاحببناه . استقبلنا بقلب عارٍ مثل جسمه ، فكان صريحاً مليحاً . وكان شريفاً أكثر منه لطيفاً . فوددنا المبيت عنده لولا اننا خفنا ان نثقل عليه . ولما اظلمناه بما اخترنا من الامرين اسفين قال : خذوا القهوة اذن وامشوا لتصلوا قبل الغروب . فدخلنا البيت وجلسنا لاول مرة في اليمن على مجالس مصنوعة من الجبال ، تستخدم كذلك للنوم ، كالعنقرب السوداني . الشيخ حمزه تاجر كبير يسير القوافل بين تهامة واليمن الاعلى فتحمل جماله وحميره الغاز والاقمشة الى مناخة وتعود منها حاملة البن والجلود . وهو كذلك الوكيل السياسي بين البلدين المتحاربين ومندوب الامامين . رجل السلم والتجارة والامن الشيخ حمزه . عنده لكل شيء حساب . وعنده خبر وورق وكاتب هو ابنه الدكي . عندما صرفنا عساكرنا طلب كبيرهم كلمة من الشيخ الى العامل سيف مناخة يعلمه بوصولنا . فراح الى الزاوية في البيت حيث يجلس ابنه على صندوق من صناديق الغاز الى صندوق آخر هو المنضدة ، وامره ان يأخذ الورق ويكتب . فأخذ الكاتب طلحية وقسمها قسمين ، فأشار الاب ان اقسامها ثانياً ، ففعل . ثم ثالثاً ففعل حتى اصبح وبيده ثمن منها فقال : اكتب الآن .

من حمزه خادم الامام اطال الله بعمره الى عامل مناخة حضرة الشيخ علي الاكوع . سلام . الجماعة وصلوا بخير وسنوصلهم بخير الى عبال .

حمزه

اخذ الرسالة فلها لفافة ودفعها الى العسكري ثم خاطبني قائلاً : هذا يقرأ ويكتب . هو فقيه . وابتسم الشيخ فكانت اول ابتسامة ابرقت علينا من وجهه القاتم العبوس . ثم ركب معنا وشيعنا الى خارج حدوده بابتسامة اخرى . كنا نقيس الاخطار في الطريق بعدد الحرس . من صنعاء الى مناخة اثنان فقط . ومن مناخة الى الشيخ حمزه اربعة . وها نحن نسير في موكب من رجال الشيخ راعنا عدده . فلولم يكن الخطر قد ازداد لما كان هذا الاعرابي ، وقد اطلعت على شيء من اقتصاده واختصاره في العمل ، بصحبنا بعشرة من رجاله ، ويوكل امرهم وامرنا الى شيخ الحجيلة بنفسه — شيخ الحجيلة العظيم في

الامس . هو رجل صغير يابس مصفر الادم ، ذو لحية مخنّاة ، وشارب مقضوب ، وعين غائرة . ركب حماره ، وبنديته بين يديه مطروحة على السرج قدامه ، وسار معتزلاً الجنود العراة ، بعيداً كذلك عنا ، غير مكترث بنا .

دنا مني احد المكارين وقال : هذا شيخ الحجّيلة او كان . وكان في ذلك الحين اكبر قطاع الطرق في هذه النواحي . تحت امره مئة بندق ، بوقفوف القوافل ويسلبونها ويأتون بالغنيمة اليه . من منا في اليمن وفي تهامة كان يجرأ ان يمر بهذه البلاد في ايام الدولة ؟ قلت : وهل كان يقطع الطريق يوم كان شيخ الحجّيلة ؟ فاجاب بالاجاب ثم قال : كان يأخذ من الترك و يأخذ من العرب . كلهم كانوا يخافونه ولا احد يعترضه بشي .

سبحان الله ! هو الان رسول الامن والسلام بين القطرين ، وصديق الشيخ حمزه الذي يحسن ولا شك اختيار رجاله واصدقائه لمقاصده التجارية والسلمية المفيدة . اجتذبتني خبر الرجل اليه . فسقت بغلتي نحو حماره ، وسلمت فرد السلام . ثم سألت لافتح الحديث سؤالاً اجابني عليه دون ان ينظر اليّ : هذا قاع الحجّيلة وقريناً نصل الى البلد .

كنا وقتئذ نجتاز ارضاً لا سيادة فيها لا للادريسي ولا للامام ، يصح ان تدعى بلاد الجن . ولولا تيقظ الشيخ حمزه وحزمه لما كان بأمن فيها انسان او تسلم فيها قافلة . هي تقطة الحيات بين عبال اخر حدود السيد وبين مضارب الشيخ حمزه ، آخر حدود الامام . اما المسافة بينهما فلا تتجاوز العشرة الاميال ، في وسطها الحجّيلة ، وهي اليوم اثر من آثار الحرب المنجعة . شريط التلغراف فيها مقطوع ، والعمد مكسرة ، وما تبقى من مظاهر الحكم التركي — مناضد وكرامي ودواوين — رأيناها مبعثرة تحت سقوف متهدمة . اما اهل البلد فلا يزالون مشتتين في تهامة وفي الجبال . لا عجب اذا كان العرب يفضلون الخيام وبيوت القش على الحجارة والخشب . قد هيج هذا المشهد في الاشجان واثار في الشيخ كامن الغضب . وكنت لا ازال اتدرجه الى الحديث فقال :

— ما الادريسي وما الامام ؟ عندهم كل شي ، ما عدا الاخطار والنقر .

وعندهم السادة يستمعون لهم ويستشيرونهم . بعيد عن الحرب ، قريب من
السادة ، هذه بلية السيد و بلية الامام . ولكن الله يغفر ذنوبهم لو بعدوا عن
السادة وخاضوا المعركة مع الجيوش . عندئذ تنتهي الحرب كنا والله نشتي
السلام . ولكن اين رجل السلم ؟ اين هو الرجل الذي يستطيع ان يصلح بين
السيد وبين الامام . لا في عسير ولا في اليمن موجود . لا يتم الصلح الا بواسطة
احد الكبار يجي . من وراء البحار ثم نهد وقال : مصيبتنا من الله .
فقلت : من الله وحده ؟ ألا دخل للانسان فيها ؟ فقال مستحسناً سؤالي : ثلثها
من الله . ولكنه لم يشأ مواصلة الحديث فساق حمارة ، فالحقت به وسألته عن
الثلثين الآخرين . فاجاب وهو يستحث حمارة ليبعد عني : وثلث من السادة .
فسقت بغلتي اليه وسألته معتذراً ان يعلمني بثلث المصيبة الثالث . فوقف الرجل
حمارة ونظر اليّ وقال : الثلث الاخير ، لا والله بل الاول ، هو منكم .
ظنني الشيخ معتمد الانكليز ، ولكنه لم يخطي . برأيه في قضية اليمن وعسير .
انه اقرب رأي الى الصواب ممعته . وهو ينطبق على العرب كلهم وما يكابدون
من السياسة الانكليزية ومن السادة — حيث لا سادة ولا اشراف فقل العلماء —
ومن النقادير .

الفصل الثالث

نساء تهامة

اشكال العرب — الشبان المنضبون — الشعور الطويلة والتزين — السفور —
 الرعايب — المرأة واحدة في باريس وفي عبال — الحناء والكحل والطيب —
 شيخ عبال يزورنا — خطبته البلدية — ابنه يعطيتارياين — طريق عدن وطريق
 الحديدة الى صنعاء — الاسراء — المغني المكرب — التكييس — المحسن
 المجهول — ابن شيخ عبال — عساكر الادريسي السود — « الحوائج »
 والحسناء — العرب والترک — البرنطة — شمس تهامة — باجل — سوقها
 ونساؤها — مودة عربية بارسية — ضباقة الشوافم — الشيخ محمد طاهر
 رضوان — القحراء — الرهائن — عساكر الزبود — اطبايف الليل —
 الفجر — البحر .

ان العرب على الرغم من البلايا الثلاث التي تقدم ذكرها في الفصل السابق لمبدعون مدهشون في عاداتهم وثقافتهم الاجتماعية . وهم على ما بينهم من روابط الدين والجنس واللغة يختلفون بعضهم عن بعض ظاهراً ومعنى . فلا يختلط البهائي بابن عسير ، ولا هذا بابن الحجاز . يخالطون ولا يختلطون . حتى اذا جردتهم مناسك الحج مثلاً من الثياب فالاحرام لا يساوي بين ذي القرون — الجدايل — وذي الشعر الطويل السبط ، وذي الشعر الكث الجعد الذي يشبه شعر النساء الاوروبيات في هذا الزمان .

انك لتسافر في اميركه مثلاً من طرف البلاد الشرقي الى طرفها الغربي فلا ترى في اختلاف العادات والثقاليد والازياء ما يستوقف النظر او يستحق الذكر . بل قلما ترى اختلافاً ظاهراً او معنوياً . اما في بلاد العرب فكما انتقلت من جهة فيها الى اخرى تغيرت الثياب والازياء والعادات ، وتغيرت كذلك المساكن . فلو اجتمع الحجازي والتهامي والبهائي واللحجي والحضرمي والنجددي والعراقي لكان في اجتماعهم معرض ازياء وثياب مدهش مفيد .
 من مناخة الى عبال ! كأنك انتقلت من سو يسرة الى بلاد المكسيك .

وان جمال عبال في القاع الفسيح ساعة الشفق ليضاهي جمال مناخة في رأس
الجبال ساعة الغروب . عبال ، قرية ساكنة مطمئنة بيوتها الهرمية من القش
شبيهة بخيام الهنود في المكسيك . وابتاؤها يشبهون العرب في سائر الاقطار
بامرير ، بتكحلون وبتطيبون ، وفي ما سوى ذلك يختلفون . فالشبان في
شعورهم الطويلة الجعدة المصففة المزينة ، هم اشبه بالبنات لولا الشوارب والعضلات .
فهم يدهنون شعورهم بالادهان ، ويربطونه بشرائط من الحرير او الجلد ،
ويزينونه بالريش او الزهر او الرياحين ، ويقصونه مثل البنات اليوم ليساوي
القدال ، ولا يقصرونه كالرجال . وهم يتزرون بالقوطة مثل اهل الحج ، وقد
تكون طويلة ملونة مخططة ، فيشدونها على الحقوين ويلبسون فوقها صدره بيضاء
بينها وبين القوطة زنار من القطن او الجلد للخنجر دائماً ، وغالباً للخنجر
والخرطوش . ان اول ما يدهشك من اولئك الشبان شعورهم المزينة كشعور
النساء ، وارجلهم المخضبة بالحناء .

وفي عبال نعود الى السفور ، الى اول الاسلام . في عبال تعددت المدهشات
وكان اشدها واحبها اليها النساء ، وقد وقفن في ابواب الخيام بتفرجن على
الغرباء . ولا نظن انهن كن اشد تعجباً منا ونحن نتفرج عليهن . الجمال الاسمر
نشدناه في كل مكان فما لقيناه حتى وصلنا الى تهامة . والراعيب ، هاهن ذا في
عبال . وسببهجك منهن ما ستره غداً في باجل . نزلنا في بيت اخلته لنا احدى
النساء بامر من الشيخ ثم جاءت تخدمنا . فسالنا مستطلمين حالها ، فقيل لنا انها
مزوجة ، مطلقة ، وتكره الرجال . اي نعم تكره الرجال . فهل تختلف المرأة
ياترى في عبال عن اختها في عواصم التمدن والجمال ؟

اجتمع في الباب وخارجة الاولاد والرجال متفرجين مدهوشين . فجاءت
العساكر تبدهم لتفتح الطريق للشيخ القرية الذي بادر الى زيارتنا . وهو رجل
طويل القامة ، مهيب الطلعة ، نغم اللباس ، متطيب متكحل حافر ، الا ان
رجليه المخضبتين تلمعان بالحناء . دخل يحمل بيده السيف وبالاخرى اغصاناً
من الحبق قدمها لنا وهو يسلم ويتأهل بنا . هنأنا بوصولنا الى بلاد السيد سالمين ،

ثم قال معذراً : لا يمكننا ونحن في رمضان ان نقوم بما يوجب علينا الشرف والناموس . انتم الان في بيتكم وان كان لا يليق بكم . ولكنكم ستنامون والبال مطمئن . عندنا سلام وامان . ولكننا نرجوكم ان لا تحكموا علينا بما يظهر . نحن نفتخر والله بضيوفنا ونود ان ننزلهم في بيوت من الرخام والمرمر . فاحمونا وانتم اهل الفضل من العين واللسان .

بعد هذه الخطبة استأذن الشيخ وودع ولم نسمع برؤيته مرة اخرى لان سفرنا من عبال كان ليلاً . ولكنه ارسل الينا ابنه قائد الجيش فاسمعنا خطبة شبيهة بخطبة ابيه واعطانا ريالين قائلاً : رمضان يسود الوجه . انتم ضيوفنا اشتروا ما تشتهون . فقبلنا المال منه شاكرين لان في رفضه رفض الضيافة واكبر الاهانات . وشربنا اللبن الرائب تلك الليلة في ضوء النجوم ، فما رأيناه في غير كأس من اللجين ، وما رأينا فيه غير اللبن الرائب . ولكننا ، على شدة شوقنا اليه ، لم نسر به سرورنا بلطف هؤلاء العرب وسداجتهم الطيبة . ان اهل عبال من عرب المسارحة المشهورين في تهامة بشدة بأسهم ومحاربتهم الاثراك في مواقع متعددة .

فمننا تلك الليلة على ما يشبه العنقريب من الامرة ، تحت مياه تهامة الصافية الحارة ، فما احتجنا فراشاً غير جبل مشبوك ولا غطاء غير شبك النجوم . ان التعب في النهار مصدر النعم في الليل . فما كان في مراحلنا اليمانية العديدة اطول من هذه الثلاث الاخيرة واوعر^(١) لان الطريق من عدن الى صنعاء وان كانت اطول فهي اسهل من طريق الحديدة . هذه تشبه من حدود الامام اليوم درجاً طويلاً عالي الدرجات لا انقطاع فيه وتلك تشبه درجاً منبسطة عريض الدرجات لتخللها سهول تريحك من التصعيد الدائم ، وبكلمة هندسية : اذا مددت خطين واحداً من عدن واخر من عبال

(١) ركبتنا في المرحلة الاولى احدى عشرة ساعة ، وفي الثانية عشر ساعات ، وفي الثالثة من مناخة الى وسل اربع ساعات ونصف ، ومن وسل الى الشيخ حمزة ثلاث ساعات ونصف ، ومن الشيخ حمزة الى عبال ثلاث ساعات ، اي احدى عشرة ساعة كالمرحلة الاولى .

الى صنعاء تكون زاوية الاول حادة ، وزاوية الثاني مستقيمة . والفرق بين
الزاويتين لا يقل عن الثلاثين درجة .

امر بنا في الساعة الثانية بعد نصف الليل وكان قمر رمضان كمنجل من
خضة فوق قنة شبام . وكان قد نهض الهواء كذلك فانعش فينا ما خدره الحر
وازال ما تبقى في الاجفان من اثر النعاس . بيد انه لم يحرك في احد من الربيع
اللسان ، الا واحداً كانت عقيرته تذكرنا بمصر والشام في ما رددت من الاغاني
القديمة ، وقد ابجرت انغامها ، ثم انتهت ، ثم انجذت ، فافسدتها الاسفار ،
واكسبتها المسافات على رداؤها ذكرآ من الاوطان عزيزآ . ولكنها لم تكن عندي
ساعة غناء ، بل ساعة تأمل وصلاة .

ياذا الجلال الازلي الخفي بشي . من جلالك ، ياذا النور الدائم امددني بقبس
من نورك ، ياذا القوة غير المتناهية ابعث منها في قواي .

فهل من حاجة ان اصف ما حل بي ، وهذه حالتي الروحية ، من مجرد
الصدى بعد السكوت في « بارائحة عالشام خذيني معاك » ؟ . ما عرفت
صاحب الصوت حتى ولى ، لاننا لولا وطء الدواب كنا كالاخيلة الساكنة
السارية في الليل ، فلم ننبأين في نور القمر الضئيل الوجوه . ولكنني سألت
عند الفجر عن المغني فقيل لي انه رافقنا ساعة اكرامآ وعاد الى عبال . وشد ما
كانت دهشتي واسفي عندما علمت انه الرجل الذي كبّسني ^(١) مساء البارح .
فحرك الدم في العروق وازال من المفاصل التعب ومن الاعصاب الاوجاع .
ثم نهض وابانا ورافقنا اكرامآ دون ان يمنن وشاء فوق ذلك ان يسلينا
باغاني بلادنا .

فيا ايها المحسن المجهول ، يا ايها العربي الكريم ، ما اخترت لاصرام الضيف
احسن من يد مرنة تسكن الآلام ، ومن صوت مرن ، مها شذ والتوى ،

(١) من العادات الحميدة في تهامة والحجاز التكبس هو علم جاءهم على ما اظن من الهند .
فيكبسون المرء من راسه حتى قدميه . ويدلكون الاعصاب ذلكآ . ويفركون العضلات
ويمسدونها بعدئذ تمسيدا . ان المسافر في تلك البلاد لا يستأنس في آخر نهار السفر بشي .
استئناسه بالمكبس . وحتى الصغار هناك يحسنون هذا العلم .

يذكر الغريب بالاطوان . وما كانت اشبهك عندنا بعكرمة الفياض ، فلم نعرفك مؤاسياً منعماً ، ولم نعرفك مشيعاً مكرمًا . جئتنا في الغسق ، وانعشتنا في الليل ، وشبعتنا في ضوء القمر ، واختفيت دون ان تبوح باسمك كالطيف في الظلام . ومهما كانت اسمك وايضا كنت فانت اخو الانسان ، وامير الذوق والاحسان .

كشفت الفجر عن الوجوه فرأينا في الربيع بدل شيخ الحجيللة ابن شيخ عبال ، وبدل رجال الشيخ حمزه عساكر السيد ابن اذريسي . وهم من العبيد صحبحوا الاجسام ، خفيفوا الاقدام ، قليلو الكلام . لا يختلف الواحد عن الاخر ، وكلهم سود ، بغير لون السواد . فهذا كقهوة البن ، وذاك كالكافور ، والآخر كالابنوس المصقول . سألت « الابنوسي » وهو يركض ويشير بجافريه الغبار : هل انت دنقلي او سوداني ؟ فاجاب : ابي طلع من البحر وانا ولدت في البر ، في هذا البر . لا اعرف غير ذلك . والمؤكد يا افندي اني اسود . قال ذلك وراح يضحك ويهز عطفه .

بعد ان اجتازنا قاع عبال وصلنا في الساعة الاولى من النهار الى الريحاح وهي قرية فيها مقهاية رحبة نظيفة ، فدخلنا وكنا اول الزائرين ، فخرجت من البيت عربية حسنة ، مشوقة القوام ، في جلباب انيق الشكل فوق دثار ازرق طويل الذيل . كأنها من بنات المدن وقد تدرت عند نهوضها فوق قميص النوم . هشت لنا وبشت وامرعت في عمل القهوة التي لا تزال حتى في تهامة من القشر الا انهم يضيفون اليها بعض الابدان كالزنجبيل والحال — كثير من الابدان — يسمونها حوائج . وكان حسن العربية يتجاوز قوامها ووجهها الى الذوق والخلق ، فسألت وهي تشب النار : تبغونها بحوائج . فاجاب العبيد صوتاً واحداً بالايجاب . وشربوا هنيئاً وثلثوا . اما نحن ، انا والرفيق قسطنطين ، فكنا نشتهي قهوة البن . . . حوائج وهذه الحسناء ؟ اركب يا امين .

ومما زاد في كربة الرجال صباح ذلك اليوم ان لاحت لنا ونحن سائرون في القرية حسنة اخرى ، رعبوبة في شعار شفاف ، تقشر للشمس شعرها ،

كانها خرجت من الحمام ، او من مسرح الاحلام . فحشنا المطايا مسرعين الى القاع ، الى الفلاة ، معتصمين بحديث الشيخ علي بن شيخ عبال . قال وهو يحدثنا عن العرب والترك : ابن اليمن مثل الحجر صلب بابس . لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجله . والترك ، ما الترك ؟ هناك — اشار بيده وهو ينتفض اصابعه — هناك ، عند تلك القرية ، تحت ذلك الجبل ، حفرنا الخنادق — كنا تسعين ، تسعين فقط — واطلقنا البنادق على عساكر الدولة ، على النظام ، وهم خمسة الاف ومعهم الاطواب . من الفجر الى ان صارت الشمس فوق رؤوسنا مثل كلة مدفع مشتعلة ، كلة نار ، ونحن نطعمهم الرصاص . وعند الظهير ، والله ونور هذا النهار ، خرجنا من الخنادق تسعين لا نقص واحداً ، ومشينا الى القاع . كانت الارض مغطاة بالقتلى . مئات من الترك اكلوا رصاصنا وسكتوا . سكتوا الى آخر الدهر . والباقى تشتتوا هربوا فما لقيناهم . ولكننا لقينا من البنادق والدخائر والمدافع خيرات . ياله من يوم . كان الواحد من رجالي يأخذ البنادق ويخبيها وراء الخنادق ويعود بفنش على غيرها ابن اليمن مثل الحجر صلب بابس ، لا الشمس تحرق رأسه ، ولا الرمل يحرق رجله هؤلاء من رجالي . يمشون بل يركضون كما ترام الان ، اثنتي عشرة ساعة كل يوم ولا يتعبون ولا يتدمرون . ولا يشكون غير حلم السيد . فهم يغلبون الزبود ، و يأخذونهم امري والسيد لا يأذن بتذبيحهم .

مرنا ساعة في قاع المطحلة فخرجنا من ظل الجبال ، ولاح لنا على الافق غيمة سوداء هي باجل . كنا نمر في طريقنا بنساء لابسات البرانيط وهن يشتغلن مع الرجال في الحقول . ان البرنيطة او الشبقة لقديمة العهد في تهامة وبعض نواحي اليمن الاخرى ، وهي صنع اهلها ، يلبسها الرجال والنساء ، وكلهم عرب وكلهم مسلمون . لكن الشمس لا تعرف حدوداً في الجنس والدين ، والانسان في مقاومته العناصر الطبيعية لا يراعي التقاليد . هو ينبتها او ينساها او يغير فيها لتمكنه من دفع العدو الصائل ، بل من الدفاع عن الحياة .

وباي سلاح تحارب هذه الشمس شمس تهامة اذا اضطرك رزقك ان

تشتغل او تسافر نهاراً . أبالكوفية ، وهي اذا نلثمت بها تدفع نثر الغبار والرمال فقط ! قد لقي العيون من وهج الشمس ولكنها لا تقي الرأس من سهام اشعتها الكاوية . اما العمامة فلا بأس بها لاصحاب التجلة والكرامة ، للسادة والعلماء الذين لا يضطرون الى الهي في سبيل الرزق والرفاه . قد يرهن الباني التهامي في لبسه الشبقة على ان الغريزة في الانسان ، شرقياً كان او غربياً ، مثلها في الحيوان واحدة لا تتغير . ومن عواملها الاولى حفظ الحياة والدفاع عنها . وقد احسن ايما احسان في صنع شبقة من القش متراخية النسيج فلا تمتع الهواء ، واسعة الاطراف تظل الوجه والقذال ، عالية القبع تحتفظ الرأس من سهام الشمس .
ويا لها من شمس لا تجب ظلمها ساعة من النهار . كانت لا تزال في صهوة الافق عندما دخلنا باجل فعرفناها من ساعتها وما وددنا الاقامة في بلد هي وحدها الحاكمة بامرها فيه . ولكن باجل تنسي السائح لاول وهلة حتى الشمس ، خصوصاً اذا دخلنا مثلنا يوم سوقها . هي قرية كبيرة ، بيوتها من القش وبعضها من الاجر الاحمر ، يقام فيها سوقان في الاسبوع ، فيؤمها العرب من كل القرى والمضارب المجاورة لها وبنزلون ومواشيهم ودوابهم في الساحة العمومية فيبيعون ويشتررون طيلة ذلك النهار .

مشينا بين صناديق من الغاز واثواب من الخام ، بين المواعين المصقوفة على الارض والاكياس ، بين الابازير والحبوب ، والى جنب كل « فرش » رجل او ولد او امرأة . والناس في الساحة رائحون جاؤون ، والنساء وبايديهن السلال اظهر ما هناك يكثرن البيع والشراء . ادھشنا من هذا المشهد مظهره النسائي لاننا لم نر في بلاد اليمن ، بل في البلاد العربية كلها خلا العراق ، من النساء بقدر ما كان في ساحة باجل ساعة دخولنا اليها .

وكلهن سافرات ، يلبسن الشبقات ، واكثرهن حسان الوجوه والقنود . اما البنات فما رأيت فيهن غير المشوقة الهيفاء ، وهي لولا لونها اشبه بالانكليزية قواماً ونحولاً ، وخفة ومشياً . لكن لبسها قد ينسب لولا السداجة والفقر الى التهنك . هي تلف ذراعاً من القماش حول وسطها فيصل الى الخللخال ولا يخفيه ،

وتلبس فوقه صدره ضيقة قصيرة لا يتصل طرفها بطرفه فيبدو شي من الكشح بينها . ولها مشية تكشف بها الساق ، واذا ساعدها الهواء ، تكشف الركبة كذلك . ولها لسان لا اثر فيه لما في فدها ومشيتها من حسن وبراعة . سمعناها تشتم الصبيان فاستعذنا بالله . ورأيناها تمشي الى السوق والسلة بيدها فاسفنا لبذاءة تشينها .

اما تلك العربية التي « تمشي الهو بنا مشية البقر » فلم نجد لها في باجل . ها هنا حركة كأنها اوروبية . ها هنا نشاط اميركي . وتلك الشبقة على رؤوسهن ورؤوس رجالهن تزيد بالوهم وتبعده في الانتقال . كنت اظنني في بلد من بلاد المكسيك الجنوبية . واغرب من ذلك ان هذه الحركة في بلد عربية اسلامية وفي شهر رمضان . بل في بلد حرها ^(١) حتى في شهر ايار لا يطاق نهاراً . ولولا انه جاف لما كانت باجل ^(٢) ، ولما كان في ذا القاع اهلها .

استقبلنا بعض رجال القائد العام فأنزلونا بيتاً رأس محاسنه النظافة ورأس الضيافة فيه ذوق جميل ظير في الحديث وفي الخدمة وكذلك في الطبخ . ناهيك بشي في اخلاق الشوافع ، بشي من التساهل بل الاخاء والكياسة ، يمتازون به عن سواهم . تركونا بعد الفطور وشأننا ثم جاءنا منهم صندوق من العنب الاسود وآخر من الموز ، فادهشنا وابهجننا الاول لاننا لم نكن نتوقع العنب في هذا الشهر من السنة . واكتننا في تهامة ، فلا عجب اذا نضج في ايار وهو لا يزال حامضاً في صنعاء وزهراً في لبنان .

وبعد الظهر جاء يزورنا الشيخ محمد طاهر رضوان عامل باجل وقائد العساكر الادريسية فيها ، فلم واعتذر . هو يشتغل في الليل ويصعد صباحاً الى ربوة خارج البلد لينام . سألنا عن السياسة الاوروبية ، وعن الانكليز ، وعن مصر والهند ، سوالات دلت على عقل وعلم فيه لا يفتقران ، بخلاف العادة العامة ، الى

(١) في ٢٤ ايار ساعة الظهر كانت الحرارة في الظل مئة درجة ودرجة في ميزان فارنهایت .
(٢) باجل هي علي مسيرة ثلاثين ميلاً من البحر .

شيء من الحكمة والدوق . فقد كان يسأل مستخبراً مستفيداً ، دون رأي خاص له يديه . ولكنه في ما يختص ببلاده كان مفيداً مفضلاً . فعلمنا من حديثه ان القُحراء يسكنون تلك الجهات بين وادي مردود ووادي سهام ، وانهم على العموم من افضل قبائل اليمن واشجعها ومن اشد الشوافع بأساً واکرمهم خلقاً . وعلمنا كذلك ان السيد الادريسي يسير في بعض اموره على خطة الامام في الرهائن . فها هم في البيت تحتنا ، عشرون رجلاً ، وفيهم العبيد ، من الزرانيق . سيحجي . الكلام على هذه القبيلة في الفصل التالي . سمعنا في الليل يجودون ، وينقرون الدف وينشدون . وما سمعنا من ثم اسير اجمل من سورة يوسف انشاداً . سمعنا كذلك « الزامل » في البلد فدهشنا لاول وهلة وسألنا عما اذا كان عسكر السيد ينشد اناشيد عسكر الامام . فقيل لنا بل هم عساكر الامام . فما صدقت حتى عاينت . وقد ذكرت ان بعض الزيود يجيئون تهامة و « بتعسكرون » عند السيد لانه يحسن معاملتهم ويدفع راتباً اكثر من « ابن حميد الدين » ولكنه ساء في رجال السيد انهم اذا ذكروا الامام يدعونه احتقاراً « ابن حميد الدين » وما سمعنا في صنعاء واحداً من رجال الامام يقول مرة في السيد ما يشتم منه المقت والتحقير .

اقمنا يوماً في باجل وسافرنا في مساء اليوم الثاني . لا سفر في تهامة نهراً لثقلنا في الاقل . وكانت ليلة ليلاء ، ما خفنا في طرق الجبال الوعرة الموحشة خوفاً فيها ، لان الراكب لم يكن يرى حتى رأس مطيته . وكنت كل مرة نظماً الدابة حجراً فتعثر اري وهدة افتحت امامي . واية الوهاد اشد هولاً من وهدة الظلام ؟ ومع ان امراءنا كان في قاع بسيط فسيح ، بعيد عن الجبال والربى ، فما اطمان ولا يطمئن قلب الغريب اليه . كانت تمر بنا القوافل كالاطياف فنسلم على اطياف تمر بها ، والامن والظلام رفيقان ملازمان . انه ليدهشك مثل هذا الامن نهراً في اليمن وعسير فكيف به ليلاً ؟ وكيف به في بلد ينبت حجار بين ؟ مها قيل في العرب ، انهم في حروبهم متمدون ، يحترمون حقوق الناس ويحافظون على ارواح العباد . قد صحبتنا ايها القاري في طريق التجارة بين

البلدين فتيفقت ولا شك ان في هذا الشعب الماجد الباسل من الشرف وكرم
الاخلاق والحكمة والدوق ما لا يظن مثلها في مثله . وهي تخفى على كثيرين من
الناس ، ونقل بين الناس في البلاد المتعدنة .

وصلنا في الساعة الثانية بعد نصف الليل الى مقهاية الطنم فاسترحنا فيها
ساعة ثم استأنفنا السير ، وكان قد هلّ الهلال فاستأنسنا حتى بنوره الضئيل .
وبعد ساعة من سيرنا في ارض رملية لتخلها السبخة بين احراج من الشورى ،
ذاك الشجر الذي لا ينبت الا بالقرب من البحر في تهامة ، اطلت علينا ربة النور
والنار . ولكننا عند دنونا من البحر شتمنا رائحة الملح واحسنا بالرطوبة في
الهواء ، فاستعدنا الاثنين .

البحر ! ذاك الخط الازرق على الافق امامنا ، ذاك العلم الازرق على ساحل
العزلة العربية ، تلك الطريق الى الامل ، الى الاوطان ، الى المدينة ، وفيها
الامل الكبير بالعود الى الحياة والجهاد . البحر ! ان العطف ما تقيناه بعد صنعاء
وتهامة وابهج ما شاهدته آتذ العين انما هو البحر .

الفصل الرابع

الحديده

الاشباح — قصر الوكالة البريطانية — احتلالنا القصر — ضرب الحديده من البحر — خرائب الحرب — القنصل الانكليزي يخرب بيته طمعاً بالتعويض — فريسة الحرب وفريسة السياسة — الاستفتاء — « بنمي الترك » — « بنمي الانضمام الى مصر » — دخول الادريسي — القرض المالي — تأديب التجار — الزرائق — التمرد والتفكك في الاحكام — بيت الفقيه — بيت بخمة بيوت وخمة رؤوس — من من الاماين يستحق الحديده .

هوذا شبح الحرب ! من مدافن الآرغون ، من خرائب فرنسا في الشمال جاء يلاقينا في الحديده . هو اول من حبي صامتاً عند دخولنا البلد ، اول من وقف في الطريق يلفت الى حاله نظر الغرباء . ثم تبعنا كالظل ، وما تواري عن الابصار الا في جوار السلطة والمدنية . فلا عجب ، ونحن ضيوف الاولى وصبيان في بهجة العيد في فناء الثانية ، اذا نسيناه كما ينسى العابرين شحاذاً في الطريق . نسيناه ساعة دخلنا القصر الذي يقيم فيه الدكتور محمد فضل الدين وكيل بريطانيا العظمى السيامي في الحديده وسفيرها الى السيد الادريسي .

صعدنا الى الطابق الاول فاذا فيه صناديق من حديد ، صناديق كبيرة ذات اقفال ضخمة ، كانت ملاءى في الماضي بالصكوك والاوراق ، وبالذهب والفضة . هوذا شبح آخر يخبينا صامتاً ، شبح القوة وراء العروش ، وفي الحروب والجيوش ، شبح المال . انما نحن في دائرة البنك العماني ، ولم يبق منه غير هذه الصناديق الفارغة وبعض المواعين المكسرة .

صعدنا الى الطابق الاعلى ، الى مكتب الوكيل وبيته ، ففتح لنا باب من خشب الهند نغم كبير ، نقشه بهر الابصار ، ويؤهله لاعلى مقام في دور الآثار ، فدخلنا الى ردهة كبيرة مستطيلة تشرف على البحر مفروشة بالدواوين الهندية والطنافس العجمية ، ومزينة جدرانها بالرسوم الهندسية والايات القرآنية . وفي سقفها العالي

من صناعة النقش بالدهان ما يدهش لونا ودقة غواة الفن واربابه . والى احد طرفيها ، بين السقف والارض ، ردهة خاصة تحجبها شعيرية من الخشب الهندي ، كانت معدة للحريم بطلان منها على القاعة تحتمن في ايام العيد وفي ليالي الانس والطرب . وهوذا شبح آخر يستقبلنا صامتاً ، شبح الثراء والجاه ، شبح القصف والترف ، شبح السرور واللذات .

كان القصر الذي دخلناه لا كبر الاغنياء في الحديده ، بناه لعينه وقلبه وشهواته ، وبذل في سبيل ذلك نصف ثروته . فصار بعد موته اجاراً للبنك العثماني ، ثم بعد الحرب فتحاً للوكالة الانكليزية . وها نحن اقتداءً بالانكليز نحتل قسماً منه . فان حضرة الوكيل الذي استقبلنا مرحباً خيرنا في امرين اما ان نزل في البيت الذي اعده لنا واما ان نقيم واياه في القصر . ومن ساح مثلنا في اليمن قلما يسي . الاختيار وقلما يستحي بذلك . فلنا نحدث انفسنا : من المؤكد ان لبس في الحديده كلها مثل هذا القصر . ثم خاطبنا صاحبه قائلين : ما يصلح لحضرة الوكيل يصلح لنا . فرحّب ثانية بنا واصبحنا من تلك الساعة شركاءه بما يحسبه نعيماً ليس من جاء من الجبال فقط بل من يجي من وراء البحار . عجبتنا لسماحة الوكيل وكرم اخلاقه عندما عدنا الى المرأة بعد غيبة طويلة . فاننا كنا ، بعد شهرين فطمنا الشعر عن المشط والمقراض ، كابناء عسير في رؤوسنا وكابناء الروس البشفيك في لحانا .

ولكنه ، امر اولاً باعداد الحمام ، ثم استحضر المزين الهندي ليعيد الينا شيئاً من الكرامة في الاقل .

وكانت باسم الله بداية احتلال دام شهراً فقط ، وبداية صداقة لا تقاس بمقياس السياسة ولا تقيد بعوامل الاحتلال واسبابه . اما الاشباح فكنا واسفاه محاطين دائماً بها . شبح الحرب الذي لقيناه في الطريق شاهدناه من السطح في كل مكان . وشبح المال كنا نمر به كل مرة نخرج من القصر ونعود اليه . وشبح اللذات كان يحف بنا ويرف فوق رؤوسنا ليل نهار ويؤلمنا في ساعات تسودنا فيها ما يسود الرجال . الا انه لم يكن يحزننا حزناً شديداً غير الاول . كيف لا وقد

هربنا من دمار الحرب وويلاتها ، من ظلماتها في النفوس والعقول ، من فسادها في القلوب والاخلاق ، من سموها في الامم المتعدنة . وها هو شبها في الحديدية يذكرونا بها ويرينا شيئاً منها .

ضربت هذه البلدة مرتين من البحر ، المرة الاولى سنة ١٩١٢ في الحرب التركية الايطالية ، والمرة الثانية سنة ١٩١٨ في الحرب العظمى عندما حمل الجنرال آنبي على الترك في فلسطين فكان ضرب الحديدية جزء من الهجوم العام . وكان قنصل الانكليز يومئذ على ظهر البارجة التي كانت تصدر منها الاوامر باطلاق المدافع . وكانت دار القنصلية ، بامر القنصل نفسه ، الهدف الاول لقنابل الاسطول ، لان فيها حسب ادعاء حضرته اوراقاً سرية . ولكن الاشاعات لا تثبت الادعاء . قيل ان القنصل دمر بيته ، امر بتدميره لان فيه فرشاً شاء حرقه طمعاً بالتعويض . وقد دفعت له الحكومة بعدئذ اضعاف فيحته تعويضاً . هذا شبح الحرب واثر من فسادها في الاخلاق .

وفي الحديدية واهلها غيره من الاثار المحزنة مما كنا نشاهده ونسمع به كل يوم . ميل في الناس ولا حجة ، امل ولا يقين ، شكوى ولا عمل ، تحزب ولا قوة ، قوة ولا فصد ولا حسن نية . وبنائيات في المدينة ولا سقوف ، وسقوف ولا نوافذ ، ونوافذ ولا خشب ولا زجاج ، وجدران نصفها في الجو ونصفها ردم تحتها ، واخشاب تحت الردم وآمال ، وهجر في بيوت ذهبت القنابل بجياة اهلها ، وحزن تحت سقوف هجرها الناس اما خوفاً واما فقراً ، ووحشة في اسواق كانت يوماً عامرة بالتجارة . أضف الى ذلك كله ما قد يكون السبب في ذلك كله اي شكل حكم او « لا حكم » لا نرضاه لمولانا السيد ولا لاصحابنا الانكليز .

الحديدية التي كانت من اجمل البلدان العربية على البحر واكبرها تجارة . هي اليوم مجردة عن الاثين . فريسة الحرب هي وفريسة السياسة . ترى نتمسها بين عوامل سياسية ودينية لتجاذبها وتقاوم ما تبقى فيها من حياة ومن امل . امل . اجل ، هي بين الانكليز والسيد والامام مثل فتاة بين ثلاثة يخطبون ودها ، ولكن الحسد فيهم وبينهم يفوق الحب والاخلاص . فلا تركز الى احد

منهم ، بل هي تخشى اذا ما اظهرت ميلها ان تفقد الثلاثة ، وهناك الطامة الكبرى ،
هناك الزرانيق .

اما الشوافع فيها - فهم لا يميلون الى الامام ولكنهم لا يرون في حكم
السيد ما يعيد الى البلد شيئاً من تجارتها وبيئاتها . وحضرة السيد لا يقدم
على عمل سيامي او اقتصادي يحسن فيها التجارة والحياة لانه لا يتأكد انها
ستكون دائماً في حوزته . والانكليز لا يتدخلوا في غير ما فيه حفظ الامن
والنظام لان موقفهم فيها انما هو موقف المقامر . فهي بيدم الورقة المجهولة
في الصفقة الاخيرة ، وبكلمة اخرى هي الفكرة المكنونة في سياستهم مع
الامامين .

وهناك فئة من التجار يفتنون امام الزبود . فهم لا يرضون لا بالسيد ولا
بالانكليز ، لانهم لم ينالوا من احدسما غرشناً واحداً تعويض ما خربته مدافع
الاسطول . وتراهم ، اذا ما ذكروا التعويضات ، يعودون دائماً الى قصة القنصل
الذي هدم بيته حبا بها . على ان الانكليز يتصلصون من دفعها الى الاهالي بقولهم
ان ذلك متوجب على صاحب الحديده ، وقد اهدوه المدينة ، حبا به او نكايه
بالامام على السواء . ولكن صاحب الحديده يفتني مع الهدية شيئاً من اسباب
الحكم الاولى ، شيئاً من المال . فن ابن يحيى به ليدفع بعض التعويضات عن
الانكليز ، وهو لا يجمع من اهله زكاة ما يكفي لادارة شؤونها .

ان البلايا مثل المال يجذب بعضها بعضاً . فان ادارة الحديده في بدخمة من
الحكام اولم اسماً عامل السيد واخرم رسماً الوكيل السيامي ، وبين الاثنين
مدير الجمرک ومدير الشرطة ورئيس المينا يشار كونهما في المسؤولية ووجع الزاس .
الا ان الوجع الاشد هو في العاصمة في جيزان . لذلك فوجئت الحديده
ذات يوم بارادة ادرسية محورها قرض قيمته ثلاثون الف ليرة ، تُعطي به
صكوك على الجمرک . فجلس العامل والوكيل نبض البلد و اشار بنصف القيمه .
فتردد التجار وتأوهوا واعتذروا . وما كان السبب في ذلك غير الخوف
وعدم الثقة . فانهم اذا اشتركوا بالقرض اليوم وانتقلت المدينة غداً من يد

السيد الى يد الامام فمن يدفع الدين يا ترى ؟ لا لوم عليهم اذا ولا لوم على حاكم البلاد . وليت شعري من المعلوم ؟ الحالة السياسية وحدها ؟ ومن المسؤول عن هذه الحالة السياسية ؟ لا ريب عندي ان وجع الرأس في دار الاعتماد بعدن اشد منه في الحديدية وفي جيزان .

و بين جيزان وعدن وصنعاء قلب مدينة يحترق وكيس مدينة يئن . قلت ان الحديدية تَحْشَى ان تظهر ميلها وهي في هذا المثلث الزوايا السياسي . فقد اقدمت على ذلك مرة وكانت منها الاولى والاخيرة . عندما ضرب الانكليز البلد وانزلوا فيها عساكرهم الهندية ظن الناس انها بداية الاستقلال فسر التجار بذلك خصوصاً المنود منهم . وبعد ذلك — بعد ان غيرت الحكومة الانكليزية في سنة واحدة ثلاثة قناصل في الحديدية ومنهم صاحب التعويضات الذي مر ذكره ، وكهم في الحق والتصرف واحد ، غير التجار والاهالي رأيتهم بالانكليز . فلما سئلوا رسمياً كما سئل السوربون مرة : من تريدون ان يحكمكم ؟ اجابوا بصوت واحد : الترك . فقال القنصل : هذا مستحيل . فقالوا : نبغي اذاً الحكومة العربية المصرية ، نبغي الانضمام الى مصر .

ثم جاء احد اعوان المعتمد في عدن يمثل اخر فصل من رواية الاستفتاء فجلس في القصر ودعا اليه تجار المدينة واعيانها وسألهم ثانية فاجابوا كما اجابوا سابقاً . فأفهموا ان رجوع الترك الى الحديدية امر مستحيل ، وكذلك حكم المصريين فيها . في ذلك الاثناء اي قبل انتهاء الفصل الاخير دخل المدينة معتمد السيد على رأس طاوور من العساكر الادريسية ، فتمت الرواية في الشهر الاول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الادريسي الذي استمر منذ ذلك الحين . ليست هذه بالنتيجة الواحدة الغربية لذلك الاستفتاء . ان له نتيجة اخرى ظهرت خصوصاً في التجار الذين جهروا بميلهم الى الاتراك والى المصريين .

عندما تأسست الحكومة الادريسية في المدينة استدعى العامل اليه اولئك التجار وهم خمسة الذين تولوا الزعامة فتكلموا باسم الاهالي ، وأشار عليهم

ان يزوروا حضرة السيد في جيزان . فاعتذروا وترددوا . ثم استدعاهم ثانية ،
 وبين هم ينتظرون في دار الحكومة احاطت بهم العساكر ، وكانت الركائب
 حاضرة ، فاركبهم وساقوهم امامهم الى العاصمة التي هي على مسيرة اربعة ايام
 من الحديده ، فأزلوا في القلعة هناك وظلوا سبعة اشهر امراء فيها . ثم اطلعوا
 بذنبيهم وبالجزاء فدفع من يستطيع الجزاء مالا وقدم الآخرون انساءهم
 رهائن « المحسوبة » والاخلاص . ان مثل هذه الحوادث في حكومة فردية
 ابوية لا تستغرب ولا تستنكر اذا كانت القصد منها منفعة البلاد واهلها .
 ولكن المرء لا يري في هذا الحادث وامثله ^(١) غير الاشتفاء والاستبداد .
 قد حان لامراء العرب ان يعدلوا في ما يس بكرامتهم فقط عدلم في غيرها
 من الشؤون .

لا عجب اذا كانت الحديده تخشى الاستفتاء اذن وتخشى اظهار ميلها
 السيامي الامراء وهمسا في بعض الاحابين . قلت انها اذا فعلت تقع في الشر
 الاكبر ، شر الفوضى وما يتبعها من الغزوات ، من السلب والنهب والتدمير .
 اما الانكليز فالعرب لا يبعونهم محتلين ، لا يبعونهم على الاطلاق . ولو لم يكن
 الوكيل السيامي مسلماً لما كانوا يقبلون به مهما كانت وظيفته وحدودها .
 اما اذا قاموا يطلبون الامام ، قبل ان يقرر الانكليز ان يعيدوا الحديده اليه ،
 فيضربهم السيد ويستنفر عليهم القهراء ، وقد يغري بهم الزرائق . واذا قاموا
 يثبتون حكم السيد فيها وبعثون رغبتهم رسمياً فقد يحرك الامام عليهم اما زيوده
 واما من يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرائق . استغرب القاري
 ذكر الزرائق واحتمال نصرتهم في الامرين ؟ . ان هؤلاء العرب ان لمن اغرب
 المستغربات في تهامة .

الزرائق اشد القبائل التهامية بأساً ، واكثرها عدداً واكبرها قوة ، واقلها
 صدقاً ووفاء . هم لا يطيعون الامام ، ولا يطيعون السيد ، ولا يأبهون بالانكليز .
 هم مستقلون من كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيادة غير ما لشيوخهم منها .

(١) راجع قصة الاسطول الانكليزي في صفحة ٤٨ من هذا الجزء

بل هم ، مثل اشرف ذي الحسن في الحجاز ، قطاعو طرق وقرصان بحر ،
مهربون السلاح ، ويتاجرون بالرقيق ، وبما عندهم من قوة حربية . بلادهم في
سفيح جبال اليمن بين الحديدية وزيد في طرف تهامة الجنوبي ، وميناؤهم الاولى
الطائف في خور غليفقة . انهم يقسمون قسمين ، زرايق الشام اي القسم
الشامي وزرايق اليمن اي القسم الجنوبي . اما قوتهم الحربية فتدو من عشرة
الاف بندق ، ثلثاها في زرايق اليمن .

كان الزرايق في ايام الترك كما هم اليوم عصاة عتاة يأخذون المشاهرات
من الدولة ، ويقطعون مع ذلك اسلاك التلغراف ، وينهبون في البر القوافل
وفي البحر السنايك . اما شيوخهم فلا ينقصهم في السياسة ختل ودماء .
هم دائماً يمثلون في رواية تهامة السياسية دورين وثلاثة ادوار في وقت
واحد ، ثم يميلون في النهاية الى من يزيد في المال او في السلاح . كان
احد شيوخهم يفاوض مرة الانكليز ليستنصرهم على الترك ويطلب سلاحاً
منهم وذخيرة . ثم قبل وظيفة من والي اليمن فصار قائمقام زيد . ثم نصر قبيلة
القعراء عندما أمرت البعثة الانكليزية في باجل ، ثم ساعد من سعى في اخلاء
سبيلها . فلا عجب اذا مال قسم من الزرايق الى الامام يحيى اليوم وقسم الى
السيد الادريسي .

انت تذكر ما قيل لنا في باجل بخصوصهم ، وتذكر انهم ارونا الرهائن .
اما الحقيقة فغير ما سمعت . واليك الخبر اليقين . جاء عدد من الزرايق ،
خمسة وعشرون ، الى الشيخ طاهر رضوان يقولون : للسيد القبيلة كلها ،
ونحن الكافلون ، بشرط واحد . فالتخدع القائد واعطاهم ما يبغون من المال .
ثم عادوا — الرسالة لا نتم الا بدفعة اخرى — فلم يتخدع القائد ثانية ، فقبض
عليهم وامرهم وقيدهم بالحديد ، وادعى لغرض سياسي ان الزرايق كلهم مع
السيد — وهذه رهائنهم .

قلت ان في الزرايق سياسيين دهاة كما ان فيهم لصوصاً عتاة . لما امر قائد
باجل رجالهم قالوا : هؤلاء لصوص لتبراً القبيلة منهم ، بل انكروا انهم من

الزرانيق . ولو كان من مصلحتهم يومئذ ان يجار بوا الادريسي لكان اولئك
 الرهائن من سراة القبيلة ، فيتذرعون بهم ويعلمون . من اجلهم الحرب على امام
 صيبا وجيزان . ان عند الزرانيق شيئا كذلك من الشرف ، شرف اللصوص ،
 ولهم الجواسيس في الحديدة وفي باجل وفي بلاد الامام يحيى مثل ما للحكومات
 المتمدنة . جاءهم الخبر ذات يوم ، كانوا ناعمين فيه على السيد وعلى الانكليز ، ان
 سنبوكين من السلاح اقلعا من الحديدة ووجهتهما جيزان ، فاسرع قرصان
 الزرانيق شمالا ، فلققوا بالسنبوكين . قطعوا عليهما البحر ، اطلقوا عليها وعلى
 عساكرهما الرصاص ، فقتلوهم وعادوا بالسنبوكين غنيمة كبيرة . ولما افرغوهما
 علموا ان احدهما ملك نوتي في الحديدة ، لا ملك الحكومة ، فاعادوا اليه ! ان
 لهم حتى في اللصوصية قواعد يتمشون عليها وحقوقا يحترمونها .

واغرب من كل ذلك ما نراه في بلادهم من الادلة على ما في البلاد العربية
 من التفكك في عرى الاحكام والتفرد المضعف المهلك في السيادة .

ان في قلب تلك البقعة من تهامة مدينة كانت قديما مشهورة بالعلم والصناعة ،
 هي بيت الفقيه الكائنة بين زرانيق الشام وزرانيق اليمن . وبيت الفقيه ايها
 الفاري حرة مستقلة ذات سيادة مطلقة ، لا تعترف باحد من الائمة ، ولا باحد من
 الاجانب ، ولا باحد من الزرانيق سيدا عليها . بل هي نفسها مقسومة خمسة اقسام
 خمسة احياء ، لا يزيد سكان الحي الواحد على الالف ، وكل حي هو مدينة حرة
 مستقلة ، يحكمه باسم الله وباسم الالف حرة مستقل شيخ لا صلة بينه وبين
 زملائه ، ولا يعترف لاحد منهم بشي . من السيادة ضمن حكمه . انه لا عجب ما
 كان وما يكون في الاحكام الحرة المستقلة . وبيت الفقيه مشهورة اليوم بتعصب
 ساداتها ، وبفسق نساؤها ، وليست في منسوجاتها كما كانت في الماضي .

لا عذر لحضرة الامام يحيى بهذا التفكك في حكمه الشريف . ولا يمكننا
 ان نعزو ذلك الى النفوذ الاجنبي والذسائس الخارجية ، اذ لا اثر لها يذكر في
 بيت الفقيه وفي الزرانيق . ان مثل هذه القبائل العاصية العاتية ، المتاجرة بصيانتها
 وبقوتها ، ومثل هذه المدن المنحطة في حريتها واستقلالها لا كبر العقبات في سبيل

القومية الناهضة والوحدة العربية . ان البلية كل البلية في هذا الجهل المسلح ،
 هذا الاجرام باسم القومية ، هذه اللصوصية باسم الاستقلال . ليبدأ كل امير
 في بيته ، فيحكاه باسم الله حكماً قاسياً عادلاً . ليحكاه بعدل لا يعرف الرحمة
 والحنان . ليحكاه بيد من حديد و بقلب لا يرى غير الحق ، كما يفعل اليوم ابن
 سعود السلطان عبد العزيز . فلا يهمل اذ ذلك من يستولي على الحديدية . وعندى
 ان من يستطيع من الامامين ، امام صنعاء وامام صيبا وجيزان ، ان يغلب الزرانيق
 و يؤدبهم و يدخلهم في حكمه يستحق ان يكون صاحب الحديدية .

الفصل الخامس

ادبان واشجان

العبد - نستقبل المهتئين - معرض من الشعوب - الزواج الغتلتط والنسل -
 لا حياة في الدين - لا دين في الترفض - الهندوس - الفارسي - كيبس
 صواب - « ادين بكل الاديان » - الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية -
 محاورة في سر الوجود والمخلود - محمد فضل الدين الصوفي - التنفس - العقل
 سجن الروح - قصة الحكيم الصبي والفراشة - رموز زائلة لحقائق خالدة -
 صوفي يؤسس ملكاً في نهامة - الاولياء والتوحيد - وصف حلقة الذكر -
 الكرامات والشعوذات .

العبد ! وحق لنا ان نعبد لاننا اشتركنا في رمضان مع الزبود ومع
 الشوافع ، فقل نومنا واكلنا ، وحرماننا طيبات الحياة فقلت ذنوبنا ، وطالت
 مثل النساك شعورنا ، وكثرت نقشفاننا واوساخنا . العبد ! نهضت صباح اليوم
 المبارك فارتديت انخر ما عندي ، قميصاً حجازية بدوية ، و « قدمية » مكية ،
 وكوفية مزركشة هندية ، وعقالاً مقصباً شريفياً ، ونزلت اهني ، مضيبي وصدبتي
 محمد فضل الدين .

في ردهة الاستقبال نافذة كبيرة واسعة عالية تشرف على البحر فرشت
 بسجادة ووسائد فاصبحت ديواناً يجلس فيه الوكيل المحترم . هو عرشه ساعة
 الاستقبال ، ومكتبه في غير الامور السياسية ، والمرصاد الذي يرصد منه ما
 حام على الافق من المراكب والبواخر والقرصان وتجار الرقيق . وجدته صباح
 العبد جالساً على العرش معتاً بعمامة هندية وافرة ، طويلة الذؤابة ، باهرة الالوان ،
 ويده سفر انكليزي في الفطريات كان يتزجه الى اللغة الهندستانية .
 سلعت وهناته باسم الله ، فأعجب بقيافتي واشركني في عرشه . ثم دخلنا
 في موضوع لا صلة له ظاهراً بالعروش والعمائم او برمضان المبارك والنوافل
 الروحية . ولكنه يتصل باطناً بها كلها . الدكتور محمد فضل الدين رجلان مثل
 كل ذي فكر وعلم وحجى ، رجل يعرفه الناس والحكومة الانكليزية وهو

الملازم م . فضل الدين من اطباء الحكومة الهندية ، ورجل لا يعرفه غير الخاصة من الناس وهو محمد فضل الدين من لاهور في الهند ومن كل مكان في الفلسفة الروحية .

اما الرجل الاول اي طبيب العيون ووكيل بريطانيا العظمى السيامي فتركه للناس . ليس فيه ما يميزه عن زملائه الاطباء والوكلاء السياسيين . ولكن الغريب الجميل هو في الرجل الثاني ، الرجل الهندي الذي لم يفقد في معاهد الغرب العلمية وفي الدوائر السياسية جمال ارثه الشرقي . ان لفضل الدين قلب شاعر ، وروح صوفي . اصف الى ذلك انه مثلي جبلي . هو من قرية صغيرة في جبال « بنجاب » التي تضاهي بجبالها جبل لبنان .

دخلنا الموضوع الذي اشرت اليه ، وفيه تشابه العائم والتيجان وتضمحل اشكلها الظاهرة ، ووقفنا عند اول ابوابه لنستقبل اول مهني^١ بالعيد السيد محمد العربي عامل الحديدية ومندوب الادريسي فيها . السيد محمد ابن عم حضرة الامام ولكنه مصري المولد والقيافة والحديث . حلوا الشئام دمتم الاخلاق . وقد كان في نيتي ان ازور المدينة ذاك اليوم مستطلعاً حال اهلبا نجاءت المدينة تزورني في القصر لتهنئتي وشريك في العرش بالعيد . جاء الحديديون زرافات ووحداً من موظفين وتجار ، وسوقه وسادة ، ونوتيين وادباء . وفيهم من اجناس الشعوب العربي والسوري والمصري والسوداني والصومالي والهندي والجاوي والبراني ، وفيهم من انواع المذاهب والادب والشافعي والمالكي والحنفي والزيدي والجعفري والاسماعيلي والماروني^(١) والفارسي عابد النار ، والوثني عابد البقرة ، والبوذي عابد اللاشي . في اللانهاية السرمدية . وفيهم من القيافات والازياء العباة والعقال ، والحبة والعمامة ، والصدرة والسراويل ، وقميص النوم والنعل ، والفوطة والعري الوانا واشكالاً . اجل ، قد عرض امامنا صباح ذاك اليوم معرض شعوب ، ومعرض اديان ، ومعرض ازياء في الملابس والعري قلما نشاهده في غير مكان .

(١) هو ترجان قنصل فرنسا في الحديدية .

تعددت الشعوب في الحديدية ، بل في تهامة ، وامتزج دم السوداني بدم العربي ، ودم الصومالي بدم الهندي ، ودم الجاوي بدم الايراني ، فكانت النتيجة مستهجنة مستنكرة . ان صفاء الدم في النسل لأعز ما في الامم . وان حفظ الجنس والنسب مع الرقي العقلي والادبي لأجمل ما في الشعوب . أفلا لتقزز من هذا الشريف الغائر العين ، الضخم الشفة الذي يجري في عروقه الدم السوداني وهو من ابناء بنت الرسول ؟ أو تروفق طلعة ذلك السيد صاحب العين اللوزية « جاوية صينية » والانف المفلطح « تكروفي دنقلي » واليد العربية الجميلة ؟ وهل تسرك رؤية ذلك الهندي الام ، الصومالي الاب ، العربي اللسان ، الاسلامي الدين ، ولا شيء فيه من صدق العقيدة ومن الفصاحة والحسن والبراعة ؟ فلا هو مسلم ، ولا هو عربي ، ولا هو صومالي ، ولا هو هندي ، لا في اخلاقه ، ولا في وجهه ، ولا في ملابسه .

ان من يعتقد من العلماء بان امتزاج الشعوب بالتزاوج يحسن النسل ليغير عقيدته ، لينبذها اذا جاء الحديدية . ولو كان ذا الامتزاج يقرب اصحاب الاديان والمذاهب بعضها من بعض لكانت تشفع هذه الفضيلة الواحدة ، خصوصاً في الشرق ، بسيناته كلها . ولكن الهندي يظل هندياً ، والفارسي يظل فارسياً ، والمسلم يظل مسلماً ، ولو امتزجت في سائلة كل واحد منهم دماء الشعوب كلها .

كنت جالساً انا وفضل الدين نشرب الشاي ذات يوم فجاءه زائراً احد الهندوس ، اصحاب السراويل الشفافة التي تمهف حول الجنبيين وتبوح بكل امرارهما ، فسألني ان اقدم له بيدي فنجاناً من الشاي . ففعلت ، فرفض . ثم قدمه له فضل الدين فرفضه كذلك باسماً . والسبب في رفضه فنجان الشاي ؟ ان هذا الهندوس يتنجس منا من المسيحي ومن المسلم ، بل من كل من لا يعبد البقرة مثله . ولا خجل في فعلته ولا حياء .

وهناك من يلبس دينه كما يلبس ثيابه ، وهي قديمة ولكنها نظيفة ، باليد اليسرى دون اعتناء . ان للمعلم الكبير ازدرشت رعية في الحديدية لا يتجاوز

عددتها الواحد الفرد . وقد كان يزورنا كل يوم فيزيدنا علماً بدينه الجميل
وبحاله . هو خان باهادور الفارسي اصلاً ، الهندي بلداً ، الازدرشتي ديناً ،
الانكليزي لساناً . خان باهادور ، وحديثه كرقزقة العصفور ، فيه تكبير وفيه
تنعيم . على رأسه عمارة ابناء جنسه ، شارة مذهبه ، وعلى قامته الطويلة
الـ « فراك » الاسلامبولي مزورراً تحت الدفن ، وتحتته بانطالون افرنجي ايض
عريض ، وعند ما يجلس يظهر خلال الـ « فراك » طرف قميص يضاء تدعى في
دينهم « سُدْرَا » Sudra اي الصراط المستقيم ، وفيها جيبية صغيرة تدعى
« كيس صواب » اي كيس الافكار والاعمال الصالحة .

— ولكن الكبس فارغ يا مستر امين . لا شيء في « كيس صواب » —
السبب لا شيء . تسألني ؟ تراني وحدي في هذه المدينة . منذ عشرين سنة
انا وحدي في الحديدية مقيم بين اناس لا يعرفون شيئاً من ديننا . يظنون
اني اعبد الشمس . ومن يعبد الشمس في الحديدية ، هذه الشمس الظالمة المحرقة ،
من يعبدها ؟ وكيف لا يعرفون الحقيقة ، وكلهم مثلي بشر ، ابناء الواحد ؟ بدأت
اشك في هذا الدين ، في ديني . لو كان الاله العظيم يهتم للحقيقة لما تركها وحدها
في ادارة القهوجي ^(١) وقد يكون يهتم يا مستر امين . وقد لا تكون الحقيقة كلها
محصورة بالـ « سدرا » . كنت اشغل فكري كثيراً بالاخرة ، فاين أدفن مثلاً
وليس في هذا البلد برج من ابراج السكينة ؟ ^(٢) في الهند نضطر ان نلبس مثل
الهنود ، ونتكلم لغة الهنود ، ونظهر « نعمة » ابناءنا ببول بقر الهنود . الفارسي
يا مستر امين يقتبس كل شيء . ها هنا في الحديدية ترى المسلم والبنيان ^(٣) والمسيحي
وكان فيها اليهود . وتراني انا خان باهادور الفارسي الوحيد فيها اقتبس كل
شيء . ادين بكل الاديان . انا مسلم ويهودي ومسيحي وهندوس وفارسي ساقط
لا ينفع . الصلاة ؟ اصلي قليلاً . فلو كنت اصلي مع الجميع لما بقي لدي وقت

(١) خان باهادور هو في الحديدية وكبل شركة بواخر القهوجي بندن .

(٢) برج السكينة Tower of Silence عند الفرس هو برج عال يضمون فيه موتاهم
ليأكلها العقاب .

(٣) هم الهندوس او بالحري التجار منهم .

للقهوجي وبواخره . اتعرف يا مستر امين ان اليهود والمسلمين والتنصاري اخوان لنا هم منا . بيننا وبينهم قرابة لتصل بازدرشت و ابراهيم الخليل . من هو ابراهيم الخليل ؟ الا تعرف وانت العالم المطلع على كل شيء ؟ ابراهيم الخليل هو ازدرشت بنفسه ^(١) هو نبينا وبيكم . اضطهد في ايران فسافر الى فلسطين . ازدرشت هو خليل الله و خليل الله ابراهيم الخليل هو ازدرشت . لا تتعجب اذن من قلبي افي مع الكل . نعم يا مستر امين انا مع الكل . ولكني لا اخاف لاني متمسك بال « سدر » . البسها كما ترى دائماً ، و « كيس صواب » لا يظل فارغاً دائماً ان شاء الله . عندي خادم مسلم لا يعرف من دينه غير الله كريم . اسمه يردد دائماً . فصرت ارددها مثله : الله كريم . اذا كان سراط خادمي السراط المستقيم فانا معه . واذا كان في ضلال فهذه « سدرتي » يا مستر امين وهذه كذلك ال « كسوتي » حياتي مضمونة في الاخرة وان كانت في هذه الدنيا لا تساوي مسامراً في باخرة من بواخر القهوجي . الشركة الدينية ، لضمان الحياة الابدية ، مؤسسها خان باهادور ، هي شركة قوية يا مستر امين . واحسن من الشركة التي تضمن البواخر للقهوجي . الا تريد ان تشترك فيها ؟

الفرس يغسلون اولادهم بيول البقر ^(٢) والعادة هندية اتبعوها في الهند خوفاً من الاضطهاد . لكنهم يربطون على وسطهم اثناء الغسل ال « كسوتي » اي زنار الايمان ، وهو شريطة بيضاء من صوف الغنم تغزلها نساء الكهان ، ويرددون هذه الكلمات : الافكار الصالحة ، الاقوال الصالحة ، الاعمال الصالحة . وكل ما يحرز القارمي منها يضعه في « كيس صواب » ليوم الحساب . كانت صديقنا خان باهادور يرتدي الكيس ، وهو شارة قدر طابع البريد على قميصه ، ويقول : الكيس كبير يا مستر امين ولكنسه فارغ . . . الله كريم . خان باهادور يموت

(١) هذا رأي في ابراهيم الخليل غريب . وقد سمعت في الهند اغرب منه . اخبرني احد العلماء هناك ان بوذا هو التجسد العاشر لخليل الله .
(٢) عجبت لكسرى واشباعه . وغسل الوجوه بيول البقر .
ابو العلاء المعري

في الحديدية وتأكله العقبات وهو مرمي على شاطئ البحر . ولكن سيصلي
من اجله المسلم والهندوس والمسيحي . وكل واحد منهم يضع شيئاً في كيس
صواب . الله كريم . الشركة الدينية لضمان الحياة الابدية ، الله رئيسها
يا مستر امين

كنا انا وفضل الدين تقضي ساعات في المساء على السطح تحت النجوم
وحدثنا الحياة والآخرة ومر الوجود والخلود . وما احلاها ساعة انسنا
السياسات والاديان كلها . ان في شخصية فضل الدين الروحية العقلية من الادب
الشرقي ما هو مزيج من الاسلام والصوفية . بل في عقيدته الاسلامية شي . من
الامرار البوذية والغوامض الهندية . ولا عجب اذا ظل هذا الاساس الهندي
وهذا الظل الآري في عقيدة الهندي المسلم المستنير . كنت اشعر وهو يتكلم عما
يفهمه بالاسلام ، دين التوحيد ، ابي مثله مسلم . وكنا عندما نصل الى ذروة
الوحدة الكونية نشعر بما حولها من الفيوضات الكونية الالهية فتناكد اذ ذلك انا
واحد في الشك وفي اليقين .

— اتعتقد يا فضل الدين بالتجسد ثانية وتكراراً ؟

— لا احب ان اعود الى هذا العالم وهذه الحياة . اما اذا كانت في تلك
النجوم حياة اخرى بشرية او روحية محضة فلا شك انها تكون اسمى من الحياة
التي نحن فيها .

— يروعي التأمل بمحدود الادراك في الانسان ، بل يملأني حزناً وغمماً .
خذ العقل واركن اليه فيخونك في النور احياناً وفي الظلام . وراء ذلك
الافق يهجرك او تحت هذه المياه . أو ليس من المحزنات ان يضمحل هذا
العقل بالرغم عن حدوده وشذوذه ؟ وهو الذي يقيس المسافات بين تلك الكواكب
ويبتنا ويعرف اجزاءها والوانها ومرعة دورانها .

لا يدهشني ذلك ولا يحزنني . في اضمحلل العقل على ما اظن لتحرر
الروح . العقل للروح مثل السجن للجسد . واطن ان الحياة مجردة عن
الميوولية ، الروح مجردة عن العقل البشري المحدود بل عن الادراك البشري

الذي يدور على محوره ولا يعرف غير الـ «انا» فيه ، هذه الروح خالدة وتحيما ما وراء الحدود التي تحزنك . واظن كذلك انها تكون مقرونة بادراك يوافق طبيعتها ، وعقل يوازي قوتها ، فتكشف حقائق في الكون جديدة ، وتغلب تدريجاً على العناصر المادية كلها . وقد تتدرج في التجسد الى ادراك درجات التجسد كلها ، وادواره البشرية والروحية كلها . نعم يا عزيزي الريحاني ان العقل في هذه الحياة يحزن الروح . وكثيراً ما اشعر بظلمه واتالم من قيوده .
— وما برهانك ان الروح تحيا حياة مستقلة مجردة خالدة بالرغم عن انفصالها عن العقل الذي تدعوه سبحانه ؟

— انها تحيا بسبب هذا الاتصال وليس بالرغم عنه . برهاني ؟ لا برهان عندي غير تلك الانوار ، انوار النجوم والكواكب . ان فيها ، في اشعتها وفي فللكها عقلاً يديرها ، وقد يكون ذلك العقل مكوناً من ارواح من تقدمنا من الناس . وهي منفصلة كلها من روح الله ومتصلة بها ، منفصلة في الفردية ، متصلة في الجوهر الكلي . قد تكون تلك الارواح كنهه الجاذبية في الافلاك .

— ارواحنا اذن تحوم حول تلك الانوار كالفراشة ولا تحترق ؟
— فراشة النفس ، نعم ، وهي من نور ، فتجذبها نار الحب نار الالهية اليها ولا تحرقها . وعلى ذكر الفراشة ، قرأت مرة قصة حكيم صيني حلم في نومه انه فراشة في بستان الجبور فنقل من زهرة زكية الى اخرى . وعندما استفاق حزن جداً لما شاهد من حقيقة حاله فسأل نفسه حائراً باثراً : هل انا رجل يحلم بانه فراشة ام فراشة تحلم بانها رجل ؟

— جميل ، جميل . ومن يزيل الخيرة من قلب الحكيم ؟ يخيل الي يا فضل الدين اننا في هذا العالم رموز زائلة لحقائق خالدة . وكل حقيقة لتكون تكوناً روحياً جديداً كلما طوي رمزها . وفي كل تكون تزداد انتشاراً وقوة وجباً . فيكون رمزها في هذا العالم شبيهاً بها ، مثلاً لها ، عظيماً في الناس . ويستمر هذا العلي والنشر ، هذا التجسد في الرمز والنمو في الحقيقة ، الى ان تجتمع ، وها هنا

معنى جمع الجمع في نظري ، بالفيض الاولي الاكبر ، الفيض الالهي . فيكون في ذلك اوج مجدها ، النهاية في اللانهاية ، ويكون اخر التجسيدات لرمزها المادي البشري . هذا ما تراه عين البداة في التجسد والخلود ، وهذا ما افهمه بجمع الجمع في اصطلاح الصوفي .

— ولكن عقلك لا يثبت ذلك . العقل عدو البداة . العقل — اعود الى ما قلت — سجن الروح .

— وما دمنا في السجن لا ارى اصلح من البداة غذاءً وهواءً . وفي البداة

كذلك شيء من الخيال هو خير التعزية اذا نكب البرهان .

— وما الفرق بين الخيال والاهام الدينية ؟

— الفرق بين اعتقادك بالخلود واعتقاد خادمك العبد بالجنة .

— وهل تسميها جنة العبيد — عبيد الاهام ؟

— قد سماها من هو اكبر منا ^(١) بجنة البله .

— اني افضل ان اكون فراشة .

— فراشة من النور تجذبها اليها نار الالهية ولا تحرقها ؟ اني اشاركك

في التفضيل .

في صباح اليوم التالي اهداني صديقي كتاباً صغيراً ما عرفت من عنوانه شيئاً من اغراضه . ولكن مؤلفه السيد احمد بن ادريس مؤسس الحكم الادريسي في عسير هو من اولئك الروحيين الذين يرفعهم محمد فضل الدين الى مقام ابن العربي وجلال الدين الرومي . امر عجيب يتلوه في تهامة امر اعجب . كيف لا وهذا الصوفي يؤسس فيها ملكاً عالمياً ، الطريقة فيه اساس الحكم ، والحكم اساس الطريقة . ولكن الطرق تقصد التصوف فكيف بها في الاحكام ؟

لعمري ان اجمل الكلمات التي تمنناها محققة في الحياة هي تلك التي نقترن فيها روحية الصوفي الحقيقي بالاعمال الاجتماعية والسياسية والادبية .

(١) ابو حامد التزالي .

كلها . فتصفو مجاري العقل في مواردها ، وتدق خيوط النفس في منسوجها ،
ويقل الجشع والخداع والوهم في فروع الحياة الثلاثة المذكورة . ولكن التصوف
اجتهاد شخصي ، ونعمة فردية ، لا تورث ولا تعلم ولا تُنشر بالاجازات . ومن
الاسف انه لا يبقى منها ، بعد موت صاحبها ، غير الطريقة او الحلقة وخزعبلائها ،
والمشايع وجريزاتهم .

قال فضل الدين عند ما اهداني الكتاب : الجهل الخيم في هذه البلاد
يفسد اغراض هذا الرجل الكبير . تجي المرأة الي وهي تشكو من مرض
او الم فاعالجها فنشفي بفضل « الشيخ احمد » . يجي العربي وهو بصرخ من
اوجاعه ويصيح : جرفني يا شيخ احمد يا شيخ احمد لا تنساني ! يعيظني هذا
الاشراك بل هذا الكفر . اكاد اجن منه . قلت مرة لاحد المرضى : رح الي
الشيخ احمد بداويك . ورفضت مرة ان اعالج امرأة حتى انتقلت في استغاثتها من
الشيخ احمد الي النبي . فصحت بها : لا احمد ولا محمد يا كافرة . استغثي بالله :
اتكلي على الله وحده اما حلقة الذكر فستشاهدها باذن الله في الحديدة .
وكانت قد توفي فيها يومئذ شيخ الطريقة المرغنية ^(١) فاشتركت الطرق
كلها في حلقة ذكر من اجله ضمت اربعمئة من المصلين واستمرت خمس ساعات .
صحبني تلك الليلة الي مسجد الشجرة خارج المدينة مدير الشرطة و كاتب
العامل وأحد اصحاب فضل الدين . جلسنا في منصة في صحن المسجد اشرفنا
منها على الحلقة كلها . وكان الناس جالسين على الارض في الفلاة وعلى الحصر
في الابوان ، ووقف في الابواب وحول الجدران جمع من المتفرجين ،
وجلس في الصدر في حلقة خاصة ابناء الشيخ المتوفي ومشايخ الطرق الاخرى ،
ويلتهم مصراع منبر وقارى . كان يقرأ ساعة وصولنا المناب التي تفتتح بها
حلقات الذكر .

ان المناقب شبيهة بسير القديسين في الكنيسة الكاثوليكية ، فهم يعددون

(١) الطريقة المرغنية لاحد المرغني الذي اخذ عن احمد بن ادريس هي احدى
الطرق الاحدية الادريسية في صير وعدن والسودان .

فيها فضائل الفقيه ، فيجيتون بنبذة من سيرة حياته ، و يذكرون بعض كراماته .
استمرت مناقب الشيخ المرغني ساعة ، وعندما وقف القاري ، الوقفة الاخيرة
فيها هتف المصلون : آمين . ثم ارتفع صوت شجي ينشد قصيدة يرثي فيها الفقيه
الابر فكانت مثل المناقب طويلة ، وما كنت وحدي متضجراً . قال مدير
الشرطة وهو يسبح العرق من جبينه : طويلة ، والله طويلة . الشيخ يحتاج الى
الصلاة لا الى الاشعار .

ولكن الشعراء لا يملون من استماع قوافيهم . هوذا اخر لا حسنة حتى في
صوته . ولا حتى جعلنا نرحم على السابق . ثم هتفنا مع المصلين : آمين ، آمين .
وكان الحر شديداً ، والهوا ساكناً عنيداً ، لا يحرك منه لساناً ، فينعث قوانا ،
والرطوبة اثقل ما فيه ، والزوجة انجم قوافيه . فاستجرنا منه بروح الشيخ
الطاهرة ، ورفعنا الادعية والطلبات الى سدتها الجليلة الباهرة : يا لطيفة ، يا شريفة ،
يا كريمة ابي حنيفة ، يا مسكنة الشعراء ، ومنطقة الاولياء ، يا مسكنة النهقات ،
ومحرمة الخلفات ، اسمعينا ، ارحمينا ، آمين .

استجيت في الحال طلبتنا ، فوقفت الحلقة اربعة صفوف الواحد وراء
الآخر ، ووقف الشيخ احد ابنا الفقيه في وسطها فخر كما باسم الله . بدأ بصوت
هادي ، وشارة لطيفة ، بدأ : « لا اله الا الله » . فالت الخلفات الى الامام ،
ومالت الى الورا ، وراحت تكررهما وتردد الشهادة . وكان صوت الاربعمئة
مصلي ، وكأنه صوت واحد ، وحركة الاربعمئة بحلي ، وكأنها حركة واحدة ،
يتدرجان سرعة وهياجاً ، عملاً بلهجة الشيخ وباشارة يمانه ، وهو يجول في الحلقة
مستحثاً محرضاً .

الا الله ! وضرب كفاً على كف فرددت الحلقة : الا الله ! بسرعة لمح
البصر ثم امست كأنها نصيح : لله لله ، وسكنت فجأة كمن اغمى عليه . ثم
عادت تدريجاً الى الميزان الاول في الصوت والحركة : لا اله الا الله . وجلس
الشيخ . فقام آخر يثب وثباً ويقول : حيثم قيمم^(١) . شرعنا نلقد هياجاً .

(١) اي المحي القيوم .

دخلنا في دور الزبد والرضا . حيثُهمُ قِيَّتمُ ! وتحركت الحلقة حركة سريعة شديدة كأنها تدق رأسها في الارض ثم نطحا في الجو ، واستمرت في حيثُهمُ قِيَّتمُ نصف ساعة والشيخ يثب في وسطها ويحلق ، ويصفق كففاً على كف كل مرة ينقلها من درجة في السرعة الى اخرى . وما كادت تنتهي حتى بدأ يسقط صريعاً من فاز بنعمة في « الحال » .

ثم نهض ولد لا يتجاوز الثانية عشرة سنًا ، وهو اصغر اولاد الفقيد ، فبدأ حيث انتهى اخوه . وكان يتلوى كالسكران ، ويرقص تارة ويثب طوراً كالجنون . مثل الولد دوره تمثيلاً ادهش حتى الذين القوا الحلقات ومدحشاتها واضحكهم كذلك . كهرب الولد الحلقة . اضرم فيها النار . قبض على ما تبقى من رشدها ورماه خارجاً . صاح بها فرددت الصيحات ولم نعد نفهم ما يراد . الا انها اشبه بالانين . كأن الاربعمئة رجل اصابوا بألم شديد فأنوا انة واحدة . وبدأت تظهر كرامات الشيخ . هوذا عبد امسى جماداً ، فرفعه اثنان فوق رؤوسهم واخرجوه . وذاك وقد خرج من الحلقة فراح بدق رأسه بالخائط فسقط صريعاً مغنى عليه . وهاك من يبغى الاجتماع بالله بواسطة عمود من اعمدة المسجد فامسكه رفيقاه ففتلت منها وضربهما ، ووثب وثبة هائلة كان العمود ورأسه خاتمها المفجعة . حملوه مضرجاً بدمه الى خارج المسجد .

بدأت تظهر كرامات الشيخ الفقيد . سقط امام الولد الزعيم في وسط الحلقة شيخ لحيته بيضاء طويلة والزبد يسيل من فيه عليها ، فوثب فوقه ولم يأبه له . وهذا آخر يخلع ثيابه .

« خلعت عذارى واعتذارى لايس الـ خلاعة مسروراً بخلمي وخلعتي »
رمى بعامته وبيجته وبدثاره الى الارض . فواقفوه عند هذا الحد واخرجوه في شعاره من الحضرة الروحانية . استجرتنا من ذا المشهد بروح الشيخ الطاهرة :
يا لطيفة ، يا شريفة ، يا كريمة ابي حنيفة ، يا مسكنة العباد ، ومنطقة الجماد ،
يا ربة الحال ، ومراج الترحال ، قفي ، والظفي . لا نقتلينا بالكرامات ، ولا
تسكربنا بالشعوذات ، ولا تؤاخذي شيوخ الطارق والحلقات ، امين ، امين .

الفصل السادس

احمد بن ادريس والتصوف

قطبا الصوفية في العالم الاسلامي — مولد السيد احمد — بدرس ويدرس في فاس — اجتماعه بالشيخ عبد الوهاب التازي — العالم بالغيب وما يدهي عند الافرنج Clairvoyance — اجتماع التازي بالشيخ عبد العزيز الداغ — اجتماع الداغ بالحضر ابي العباس — الطريقة الاحمدية — « اسرنا كله جد » من يعط الجد يعط الجدة — السيد احمد في مكة — رحلته في تهامة — انتشار الدعوة — وفاته في صيا — تلميذ الشيخ ابراهيم الرشيد — الطريقة الرشيدية وترهاتها — آيات صوفية — فلسفة الزهد والفقر — الامام علي وقطب الجان القناني — المجيدري يأخذ عن قطب الجان والسيد احمد عن المجيدري — محامد وصلوات وتقبكات — استعارات صوفية — الساكنون والمشعوذون .

كثبت عند وصولي الى الحديدة كتابا الى السيد محمد امام صبا وجيزان استأذنه بزيارته ، وبت انتظار الجواب . وانتظر كذلك سيارة استشرقت في الشرق فصارت تعمل يوماً في الاسبوع وتعيد ستة ايام . فعيدت معها وكان سروري مزدوجاً لاني اجتمعت ايام العيد بقطب دائرة القديس ، السيد احمد ابن ادريس ، كبير بيت الادارة ومؤسس ملكهم في عدير . وفزت بطرفنة من ترجمة حياته ، وبنفحات من قدسياته ، فحُثت امتع القاري بها عليه اذا كان مادياً يستفيد ، واذا كان روحياً يستزيد .

ان في العالم الاسلامي قطبين للصوفية وموردين هما ايران وبلاد المغرب . والسيد احمد ، نور من انوار الثاني . فقد كان شروقه عكس الكواكب من الغرب وغروبه الظاهري في الشرق في بلاد العرب . ولد في بلدة العرائش على ساحل البحر من اعمال فاس في السنة الثانية والسبعين والمئة بعد الالف (١٧٥٨ م) وهو شريف حسني من السادات الادارة المشهورين في بلاد المغرب . درس العلوم في مدينة فاس ثم شرع يعلم هناك في « ما شاء الله » اي في المواضيع التي شاءت العزة السمرمدية تلقينه اياها بالوسائط وبدونها .

كان السيد احمد وهو في الدور الاول من استشرافه على الامرار الالهية والكونية بكثرة الترداد على المشايخ العارفين الابرار الذين اصبح قطبهم بعدئذ في العلوم والسلوك .

اما الشيخ عبد الوهاب التازي الذي كان يحضر دروس السيد احمد في فاس فقد صار بعدئذ شيخه الاكبر ونور طريقه الانور . ولا اهمية للسن في الموحيات ولا للشيخوخة في الربانيات . فمن جمال هذه الارواح القدسية وكالاتها ان المعلم الطالب الحقيقة لا يأنف ان يأخذها ، وهو شيخ طاعن في السن ، عن تلميذه بل عن احقر الناس واصغرهم لديه .

قد اجتمع السيد احمد بشيخه التازي بواسطة عالم من علماء شنقيط يدعى المجيدري ، وكانت في الاجتماع الاول فاتحة اللطاف والاشراف . ولا عجب اذا كان الصوفي يهتم لكل حادث في حياته بفتح له باباً او يشير الى باب من ابواب الحقيقة الكونية الازلية . اني اتصور المجيدري يقول للتازي : هذا الشاب الادريسي مجتهد ، وهو على سنه طويل الباع في علوم اسرار الكتاب والسنة . فيقول التازي : قد علمت بذلك قبلك . سمعته في بادي امره يدرس فقلت في نفسي : لا بد ان يشرق على كلماته نور الاذن الرباني . وها دنت الساعة يا مجيدري ، اتتني به فاجعه برسول الله .

وكذلك كان . ذهب السيد احمد مع المجيدري الى الشيخ عبد الوهاب واحس من اول لحظة ان ها هنا الباب الاول ، ها هنا سراج الطريق . فلازمه واقطع اليه بكليته . وقد كان للتازي في ساعات الحال نظرات تخرق استرة الغيب فيرى ما لا يرى ويشعر بما يحدث بعيداً عنه على الطريقة التي يدعوها علماء اليوم Clairvoyance منها انه عرف وهو في فاس بموت المجيدري ساعة وفاته في شنقيط . وقد علل الشيخ التازي للسيد احمد هذا العلم بالغيب تعليلاً لطيفاً جديراً بالذكر . ان المرابي او الواسطة الاولى بين النفس والمصادر الروحانية اذا اتجه في ساعات الحال الى احد تلاميذه يراه بعين الغيب ويراه ما دام حياً في حالات شتى ، « تارة انور وتارة اظلم بحسب سلوكه وطاعته ، وتارة اقرب الى

الله وتارة ابعده . اما اذا رآه على حال واحدة في المكث الذي يعهده فيه فيستنتج من ذلك انه مات . أفلا ينطبق هذا الكلام اللطيف على الانسان اطلاقاً ؟ هو ما دام حياً منقلباً ، او بالحري يتنازعه دائماً عاملان ، عامل الخير فيقر به من الله وعامل الشر فيبعده عنه تعالى . ولا يوحد العاملين او يزيلهما الا الموت .

والشيخ التازي على كرامته لم يكن للسيد احمد غير الواسطة الاولى . اما الثانية ، وهي بشرية كذلك ، فتجمعه بالخضر ابي العباس . الا انه قبل ان يصل الى الخدر لا بد من الدخول في الباب الثاني اي شيخ الشيخ التازي . نعم قد كان للتازي كذلك شيخ هو عبد العزيز بن مسعود الدباغ من فاس . وما كان لعبد العزيز من الحياة الدنيا غير ستة وثلاثين سنة لزمه التازي مدة سبع عشرة سنة منها .

قد اخبرتك كيف اجتمع الادريسي بالتازي ، فاخبرك الان كيف اهتدى التازي بالشيخ الشاب عبد العزيز الدباغ . يظهر ان شيخ سيدي احمد كان تاجراً في اول امره ، او انه كان يتجر في بعض الاحابن ارتفاقاً . فر يوماً بالدباغ وهو يريد ان يتجر في الخنطة فدنا الدباغ منه وهمس في اذنه : لا تتجر في الحب والتجر في السن . اشتره من يوم كذا وبعه في يوم كذا ولا تبقه بعده . فعمل التازي بما قال فربح ربحاً كثيراً . فغاء اليه شاكرآ . فقال الدباغ : ليس المقصود هذا ، وانما المقصود ان تتجر تجارة لن تبور ابداً . فقال التازي : كيف ذلك ؟ فاجاب الدباغ : اخرج مما ملكت يدك فتصدق به . فعمل بامره ولزمه منذ ذلك الحين واطلع على اسرار في العلوم والتفسير تلقنها بواسطة من اخضر ابي العباس . وقد عاش التازي ستين سنة بعد وفاة شيخه الدباغ وكان هو وتلميذه الادريسي يزوران خسر يحمه وينشدان هناك الاشعار .

لقد نبتت في القلب منكم محبة كما نبتت في الراحتين الاصابع

.....

تعشقتكم طفلاً ولم ادر ما الهوى فشاب عذارى والهوى فيكم طفل

من كرامات التازي انه غاب عن بلده مرة يذكر اخوانه في الله فمات
ولده فأخبر بذلك فارس إلى اهله يقول : لا تدفنوه حتى احضر . فحضر بعد
ثلاثة ايام فخطب ابنه قائلاً : من قال لك تموت ؟ قم باذن الله . فقام الولد
حيًا . ان كاتب الترجمة التي اعتمد عليها يذكر هذه الكرامة كأنها حادث عادي
مألوف . وافي ناقل الخبر حياً بنشر ما اظنه ظلاً الهيكاً لحقيقة كلية لا بد في
مستقبل الانسان والايمان ان تصبح قوة من القوى البشرية العامة يستخدمها
صاحبها لخير الناس . يستخدمها في الشفاء من الامراض على الاقل . فإذا مرض
احد في بيتك نقول له : من قال لك تمرض . اشف باذن الله تعالى فيشفى في
الحال . وكان التازي يهذر احياناً بين اصحابه امتحاناً لهم ، فيقول مثلاً : وددنا
لو جانا احد بشر من القوقاس ، او بعنب من البحر . فيقول بعض اصحابه :
كبر سن الشيخ . ولكن السيد احمد ، وقد كان اطوع له من بنائه ، كان
ينهض فيتهياً وبتزود للسفر ويجي إلى شيخه فيقبل يده مودعاً ويقول : سأجي
لك بعنب من البحر . فيقول له التازي سرّاً في اذنه : يا احمد امرنا كله جدد ،
من يعط الجدد يعط الجدد .

ما اكبرها وما اجملها كلمة . اخذها السيد احمد عن شيخه التازي وجاء بها
إلى مصر . من يعط الجدد يعط الجدد . كان يومئذ في العقد الرابع من العمر ، فاقام
في ارض الكنانة قليلاً ثم سافر إلى مكة فاقام فيها ثلاثين سنة يجادل ويناقش
العلماء ، ويشرح ويعلم العلوم الروحية . وكان يقول دائماً : لكل نبي دعوة
مجاوبة ، ولكل ولي عند نبيه طلبة مقبولة . هذه هي نقطة الخلاف بين السالكين
من سنين وشيعيين وبين اهل التوحيد الوهابيين الذين كانوا قد استولوا في ذلك
الحين على الحرمين .

اما اذا قبلت قاعدة السيد احمد فينبغي لك ان تقبل كذلك نتائجها .
فنقول ، والمنطق اساس المعقول : ولكل شيخ طريقة عند وليه طلبة مقبولة ،
ولكل سالك عند شيخه شفاعة ، ولكل امرئ عند السالك مثلها الخ . هذا
نظام في العقيدة والايمان يفسد غالباً الغرض السامي منهما . قد رأينا مثلاً

منه في حلقة الذكر . وهناك امثلة اخرى عديدة في من يلجأون الى الاولياء والى المشايخ ، بل الى الاشجار والاحجار عند ضريح من كانت من الابرار . ليس المقام مقام جدال في الدين وتفضيل بين السالكين والموحدين . ولكني اقول ان السالك الحقيقي يصل في نهاية امره اللهم اذا كان مجداً مخلصاً الى اسمى درجات التوحيد .

هذا السيد احمد ابن ادريس الذي لم ينقطع قط عن صحبتة المشايخ العلماء يأخذ عنهم وعن المتقدمين من السالكين حتى قيل له من الحضرة الالهية : لم يبق على وجه الارض احد نلتفع منه الا القرآن . ففضى بعد ذلك سنيناً عديدة لا يشتغل بغير الكتاب وتفسير آياته ودرس حقائق معانيه . واظن انه قال اثناء ذلك كلمته الماثورة : طريقي سُم السعادة . ثم تدرج منها الى كلمة اكبر واجمل : طريقي ما فيها كون^(١) القدم الاول هاهنا والثاني عند الله . هوذا الصوفي في اسمى درجات التوحيد .

قد تدرج السيد احمد في الوسائط كذلك . فقد كان بينه وبين النبي كما تبين واسطتان بشريتان هما التازي والدباغ وواسطة روحية هي الخضر ابو العباس . والخضر الذي كان يجتمع بالنبي في حياته هو الواسطة بينه « ص » وبين الدباغ عبد العزيز الذي كان يجتمع به و يأخذ عنه في اليقظة وفي المنام . وكذلك السيد احمد ، فقد استغنى روياً و بدأ عن الوسائط كلها ، كما استغنى بالقرآن عن العلماء اجمعين ، وصار في آخر امره — وبصح ان تقول في بدايته — يجتمع بالنبي مباشرة مثل الدباغ في اليقظة وفي المنام .

قال السيد احمد : اجتمعت بالنبي اجتماعاً صورياً ومعه الخضر فامرته النبي ان يلتفتني اوراد الطريقة الشاذلية^(٢) فتلقنتها بحضرتة « ص » ثم لفتني بامر

(١) يريد بالكون الوجود بعد العدم والعدم بعد الوجود . اي لا عدم في طريقته سابقاً ولا لاحقاً .

(٢) قد سمي السيد احمد طريقته احمدية نسبة الى اسمه وهي تدعى كذلك في نهاية وصير اما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية لان اتباعها يسلكون بالتهليل والادعية مسلك الشاذليين . وقد كانت طريقة التازي شاذلية ناصرية تتصل بواسطة شيوخ بني ناصر في

من النبي ايضاً سائر الاذكار والصلوات . ثم رفع النبي السيد احمد الى مقام الخضر وصار يكلمه بدون واسطة : يا احمد قد اعطيتك مفاتيح السموات والارض وهي التهليل المخصوص^(١) والصلاة العظيمة^(٢) والاستغفار الكبير^(٣) المرة الواحدة منها بقدر الدنيا والاخرة . وقد قال له بخصوص الاستغفار الكبير : خزنتها لك يا احمد . ما سبقك اليها احد . علمها اصحابك ليسبقوا بها الاوائل .

لعمرى ان من يتجه بكل قواه العقلية والروحية والقلبية الى كتاب او الى امر او الى عقيدة او الى طريقة صوفية كانت او تجارية يرى منها ومن نفسه العجب . فكيف لا يجتمع بالنبي من قضى ستين سنة يفكر بالنبي ، ويقرأ ويردد كلمات النبي ، ويتوسل « بالصلاة العظيمة » الى النبي في اليقظة وفي المنام ؟ ان صورة اصورها في قلبي كل يوم لتنعكس امامي من حين الى حين فاراها بالعين المجردة كما اراها بعين الحلم والروح ، وان شئت فقل بعين الخيال ، واسمعها كذلك تنطق بما طالما حلمت به ورددته مراراً وتكراراً ، بقظة ومناماً . فضلاً عن ان السيد احمد الذي ابتداءً بالتازي معلماً وانتهى بمحمد اصبح والنبي شيخه الاكبر ونوره الانور . وهو اي السيد احمد القائل : الاستفادة من شيخك اكثرها يكون بالتوجيه القلبي . اسأله بقلبك فيجيبك بقلبه^(٤) هوذا المترب بالشاذلي . وطريقة بني ناصر هي في نظر العارفين اشرف الطرق الشاذلية هناك ولا يسمحون بها الا للعلماء .

- (١) اي لا اله الا الله في كل لغة ونفس عدد ما وسعه علم الله
- (٢) منها : اللهم اني اسألك . . . ان تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم . . . صلاة دائمة يدوام الله العظيم ، واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهراً وباطناً ، بقظة ومناماً ، واجعله يارب روحاً لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الاخرة يا عظيم . . . كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٨٢
- (٣) منه : استغفر الله العظيم . . . واتوب اليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والاثام . . . من الذنب الذي اعلم ومن الذي لا اعلم عدد ما احاط به العلم واحصاه الكتاب وخطه القلم . . . كما ينهني لجمال وجه ربنا وجماله . . . كتاب الاحزاب صفحة ١٨١
- (٤) واسألك يا الهي ان تحققتني بشهود ذاتك ياذا الجلال تحققتك كلياً وشهوداً عيبياً يستغرق جميع ذاتي وصفاتي وجملة اجزائي وكلياتي ويخرجني من شهود كل شيء . سواك . . . واسألك باسمك العظيم ان تمنعني في شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا يحجب عنها شيء . في

الصوفي الحقيقي يتكلم . وهذه فيه صورة من صور الجمع العديدة .
 اما من وجهة علمية عرفية فقد كان السيد احمد سيد العارفين وقطب
 المحققين ، جامعاً بين علمي الظاهر والباطن . وله فيهما الباع الطويل على الاخص
 في علمي القرآن والحديث « رواية ودراية » كما يقول صاحب الترجمة « وكشفاً
 وتحقيقاً » وهو يريد بذلك المعقول والمنقول ، الحقائق الوضعية والنقايد ، ما
 روي منها وما ادركته البداهة وأقره العقل . واني از يدك من كلام كاتب
 الترجمة ما لا غلوف فيه ولا مبالغة : « قد اخصه الله بالمواهب المحمدية والعلوم
 اللدنية ^(١) والاجتماعات الصورية » . كل هذا صحيح شريف . واشرف من
 الاثنين الاخرين الاول اي تخلقه باخلاق النبي او ببعضها .

على ان هناك امرأ يختص بعلم السيد احمد قد يُظن في ظاهره الشعوذة
 التي اجله عنها . ولكنه استحال علي فهم السر في يده . فقد كانت كما قيل
 لوح العلم المكنون ، ينظر اليها فبرى ويسمع ما وراء المحسوس والمظنون . بل
 كانت اذا سئل عن شيء في القرآن ينظر الى باطن كفه ثم بشرع يفسر بما
 شاء من العلوم اللدنية . واذا سئل عن حديث شريف ينظر الى ظاهر كفه
 ثم يتكلم بما بهر العقول . فما الصلة يا ترى بين كفه وبين تلك العلوم والامرار ؟
 حبذا لو اذن للشيخ السنوسي بشرح « احزابه واوراده » . فقد يكون تمكن من
 اماطة النقاب عن هذا السر في طريقة السيد احمد وفي يده . ولكنه لم بأذن
 للسنوسي بشرح الاحزاب خوفاً من ان تفسدها الشروح . فقد قال له : لا تخربها
 يا ولد السنوسي ، انما شرحها في جنة عدن .

اما السيد محمد السنوسي الذي اجتمع عندما جاء مكة للحجج بالسيد احمد
 الادريسي فهو من علماء المغرب الكبار . وقد أعجب جداً بالسيد احمد ووزمه

الارض ولا في السماوات وأفض على جميع ذاتي لنة ذاك الشهود حتى أكون كلي لنة ذاتية الهبة

سارية في نفسي من نفسي لنفسي . — كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ٨ و٩

(١) العلوم اللدنية التي هي من لدنه تعالى اما رأساً بالوحي وبالبداهة واما بواسطة
 بشرية او روحية .

مدة اقامته في مكة ، فاخذ عنه واذعن له الاذعان التام . لذلك ترى الطريقة السنوسية في كفرة اليوم جامعة بين الادريسية والشاذلية . ولكنها تدعى محمدية لانصافها بواسطة الادريسي فالنازي فالديباغ فالخضر بالنبي . وقد عادت الى الغرب بواسطة السنوسي ، وسارت الى افريقيه بواسطة محمد المجذوبي السواكني ، احد اولياء السودان « الشهير سيف وقته بين الخلائق ، بالكشف الصادق ، والكرامات الخوارق » . فقد صحب السيد احمد مدة مديدة واخذ الطريق عنه .

ثم اتجه القلب الى اليمن ، فبعث الله منها احد السادة ، جاء مثل السنوسي للحج . وليس خبير من مكة لمن بروم الصيد ، صيد القلوب . كلها تحوم هناك . جاء السيد عبدالرحمن بن سليمان الاهدل^(١) مفتي زبيد في عصره فالتى السيد احمد فيها « كالعافية للسقيم وكالشفاء للجرح الاليم » ولما عاد الى وطنه حدث في زبيد عن شيخه الادريسي واثني عليه كثيراً . ثم كتب ترجمته في كتاب دعاه النفس الباني والروح الزيجاني . وبين هو وبعض العلماء يوماً في ذكر كراماته — بذكر الصالحين لتنزل الرحمات — هزم الشوق اليه ، ومثلهم الوجد بين يديه ، فقال السيد الاهدل : هذه ساعة الاجابة ان شاء الله . ارفعوا ايديكم بالدعاء ان يأتي الله به الينا . فلما تم المجلس قال : ارتخوا اليوم وهذه الساعة . وكان في مكة يومئذ ان جرك الله داعي السفر في قلب السيد احمد ثم امر به فخرج ببغي مرديسه يوم هاجهم الشوق اليه . وعندما وصل الى تهامة كانت اول نزوله في زبيد عند السيد الاهدل عبدالرحمن .

جاء الادريسي اليمن مبشراً بعقيدته ، داعياً الى طريقته ، ناشراً ما منحه الله من علوم اسرار الكتاب والسنة . وكان حينما نزل محترماً مبعجلاً ، فنظمت في مدحه القصائد وتبارى في ذي الحلبة شعراء زبيد وبيت الفقيه وتعزز ووضاب ، وتهافت عليه الناس خاصة وعامة يستنبرون بمشكاته وينتفعون

(١) السيد عبدالقادر الاهدل في مراوغه اليوم هو حفيد السيد عبدالرحمن واحد
«فاضل العلماء هناك» .

ببركاته^(١) بل كان العلماء والمشايخ له سامعين ، وعنه اخذين ، وكانت زبيد نقطة دائرة اماله . اقام اول مرة فيها عشرين يوماً ، وعاد بعد ان ضاف في تهامة اليها ، فاقام فيها بضعة اشهر ، فاخذ الناس يتسابقون الى اقتبال دعوته ونشر طريقته ، التي اجازها للسيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل هو واولاده اجازة عامة « في جميع العلوم المقربة من الله تعالى » . ولا تزال زعامتها في بيت الاهدل الى اليوم .

مما يحزن في اخبار رحلة السيد في اليمن ان تلك البلاد كانت منذ مئة سنة ارقى مما هي اليوم . فقد كان اهلها متيقظين ، وفي العلم راغبين . كيف لا والشعراء والعلماء يومئذ في المدن والقرى ، وقد لا تجد اليوم في تهامة كلها شاعراً واحداً ينظم باللغة الفصحى . اتلوم الترك الذين حكوا بعدئذ البلاد ، ام تلوم التصوف الذي ينفع الفرد ولا ينفع عامة الناس . اني متيقن ان لا تصوف في الجماعات ، وقد استحال عندهم طرقاً وحلقات .

عاد السيد احمد شمالاً في رحلته فزار الحديدة ومراوغه وياجل ثم صبيا البلدة المشهورة القريبة من ابي عريش ، فاستقر فيها واستوطنها ، فكانت هناك خاتمة الرسالة الصوفية ، وفاتحة الطريقة الاحمدية .

شرفت صبيا بكم فعدت مورداً للعلم والنزل
ليت شعري ما الذي فعلت فعلمت قدراً على زحل

ان اخر من اخذ عنه اثناء اقامته هناك هو الشيخ ابراهيم الرشيد صاحب الطريقة الرشيدية . فقد صحبه في صبيا مدة السبع السنوات الاخيرة من حياته فاغتم فيوض بركاته حتى النفحة الاخيرة منها التي فاضت من نفس السيد احمد ورأسه الشريف على ركة تلميذه ، وذلك في تسعة بقين من رجب سنة الثالثة والخمسين والمئتين والالف (١٨٣٧ م)

قد قيل ان الرشيد كان اقرب الناس الى شيخ صبيا ووليها ، وارسخهم

(١) ولقد املى عافاه الله من تلك الرقائق والحقائق ما استنارت منه قلوب سليمة وتداوت من جراحات غفلاتها قلوب آلبة . — من كتاب النفس البجاني والروح الربحاني

قدماً في علومه وامراره . ولكننا سمعنا وشاهدنا في طريقته ما بنى ذلك .
 حلقة حضرناها في عدن فيها الولدان ينغمون ، ورجال بطيبون وبتصابون ،
 ووصوف من الحسن والشوق تميل بعضها الى بعض ، وعيون تنو الى القمر في
 السماء ثم الى الاقمار امامها ، وشيخ الحلقة جالس على منصة يراقب منها العمل
 بل التمثيل . انه في تعليم الولدان ، لاستاذ بارع يعلمهم الغناء والحداء والسجود ،
 فيستصي في اذكارهم الجلمود ، ويفرس في الحلقة سر الوجود - خاتمة الحمد
 والورود . ان مثل هذا التطور في التصوف ليحزن جداً . واني اجل السيد
 احمد عما يجري باسمه اليوم في تهامة وعسير وفي السودان ، واعتصم بروحه
 الشريفة الطاهرة منها .

حقيقي يا الهي بانسانيتي حتى اكون انسان العين الكلية الالهية التي لا
 يحصرها شيء ، ولا يقدر قدرها سواك .

واسمعي غايه لذيذ خطابك ومحدثتك في كل حال من احوالي بجميع
 كلياتي حتى لا تخلو ذرة من ذرات اجزاء ذاتي من ذلك السماع الالهي لحظة
 ولا اقل من ذلك .

واجعلني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة لا رائحة ربوية فيها على
احد من خلقك .

وتجلى لي يا الهي بمقام الاستواء الجامع لل مراتب الحقية الالهية كلها
 حتى اعطي كل مرتبة الهية حقها من نفسي .

وتجلى لي يا الهي بسر توحيد الذات المطلسم في آية الانانية الموسومة :
 انا الله لا اله الا انا فاعبدني .

وتجلى لي يا الهي يا ذا الجلال والاكرام فاجد لذة الوحي الالهي مني الي
 دائماً ابداً سرمداً منزهة ان يلحق بها او يقرب منها لذة في جميع
 الوجود بحيث لو وضع منها قدر رأس شعرة على جميع العالم لمام بعضه
 ببعض ، من غير ان تفارقني تلك اللذة لحظة ولا اقل منها حتى اكون حقاً

الهيبة في نفسي .^(١)

من اين للعامّة الذين يصيحون في الحلقات ويرقصون ان يتفهموا مثل هذه الروحانيات ، ويتذوقوا مثل هذه الالهيات ؟ بل من اين لمشايخ الطرق والسادات المتصوفين ان يدركوا معاني شيخهم الاكبر في « الاستواء الجامع للمراتب الحقيية الالهية » وفي « آية الانانية الموسوية » و « بسر توحيد الذات » و « بانسان العين الكمية الالهية » ؟ انهم لو ادركوا مقدار ذرة من مقاصده ومعانيه في هذه الحقائق والنشوقات لفروا من الحلقات هاربين ، وراحوا افراداً ساكنين فانتين ساكنين . ان بشراً يصبو الى اقلب الالهيات بل الى ذروتها ويتغنى ان يكون انسان عين الله لتستوي عنده مراتب الحق كلها ، فيرى في كل مرتبة ، في كل دين ، في كل مذهب ، صلة الهية فيعطيها حقها من نفسه . ان مثل هذا البشر العظيم لينفع في حياته الناس ، ولا ينفع بعد موته غير افراد من الناس بل بضر كثيراً في ما يقام له من التكيات وما يسود باسمه من الجزيات .

اجل ، وقد بضر اشد الضرر بفلسفة في الزهد والفقر تصلح للزاهدين ولا تصلح للام والشعوب الا اذا عمدتهم اجمعين . ولعمري انها حتى في كليتها وشمولها تخالف الناموس الطبيعي الذي جعل في العمل خلاصاً للانسان ونعمةً وبمنا . بعرق جبينك تأكل خبزك انها حقيقة اقتصادية والهية معاً . ولكني انا الكسلان اتفلسف في الزهد وقد اكون صادقاً في زهدي بمقتدياً بالنبي القائل : لكل نبي حرفة وحرفي الفقر والجهاد . وقد اكون كذلك فصيحاً بليغاً ، فاكتب رسالة اسمها « كيمياء اليقين » كما فعل سيدي الاير احمد بن ادريس ، فابرهن فيها ان طلب الرزق حرام ، واجبي بالشواهد الدينية ، والاحاديث النبوية ، والنوادر والملح اثبت ما اقول واستغوي به الناس ، فاظلم امة كاملة بمجديث من الاحاديث النبوية : — لو ركب الانسان الريح وهرب من رزقه لركب الرزق البرق وادركه حتى يدخل فيه .

(١) كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ١٢-١٥

ما اجمله والطفه حديثاً ، وما اقرب الموت من حقيقته . قد ينجو بها امرؤ وتهلك بها امة جمعاء . اني اذا اخترت لنفسي الفقر والزهد اخطى . اذا استخاضت منها قاعدة ليسلك بموجبها الناس او مثلاً يتمثلون به فكيف بي اذا قصصت نعيماً لطريقي مثل هذه القصص اللطيفة . كان امرؤ يصلي في المسجد و يزمه دائماً ليل نهار . فسأله الامام : من اين تأكل ؟ فقال له : من ملك السماوات . فقال : وهل يدلي لك بالقفة ؟ فاجاب : نعم . فاخذته الامام الى بيته ودلاه في البئر وذهب الى السوق . وكانت امرأة الامام وخادمتهما وامامهما اكلة طيبة هممتا باكلها ، فطرق الباب طارق نخبأت الاكل في البئر . دلته بسلة فوتمت على الزاهد فتناولها واكل هنيئاً . دلى له الاكل ملك السماوات . اجل ، رزقك يتبعك كالظل . كنز المؤمن ربه . قد وعد الله العباد برزقهم والله صادق بوعده . . . ان الاهتمام بالرزق اذن تكذيب لله . ها هنا قلب الجود في ما التوى من الاسلام ، وموطن الضعف والجمول في معظم المسلمين .

ولكن في هذا الكتاب الصغير الكبير ، كتاب الاحزاب والاوراد ، غير رسالة « كيمياه اليقين » العجيبة التي يستوقف عنوانها المبشر الانظار ، وبفكه فخواها الابرار والتجار ، ويساعد كذلك من يبغى في الصوفية والزهد مسلماً صالحاً قويمًا ان فيه كذلك « الحزب السيفي » وقصته اغرب ما فيه .

قد عرفتك ايها القارىء تعريفًا سطحيًا بالمجيدري العالم الشنقيطي الذي جمع « سيدنا احمد بمولانا عبدالوهاب التازي » . وازيدك الاث به علماً . يظهر ان روحية المجيدري كانت مزدوجة اي مركبة من روحيتي الانس والجن . ويظهر انه كان يباري الدباغ بالاسفار في عالم الغيب بقظسة ومنامًا . فاجتمع هناك بكبير من كبار الجن الذي كان رفيقًا لسيدنا علي رضي الله عنه . من المعلوم في التاريخ ان عليًا حارب الجن وغلبيهم ثم اصطحب بعض المؤمنين منهم في جهاده اخوانهم الكفار . ومن اولئك الصحابة قطب الجن الققائي الذي كان لعلي كاخضر ابي العباس للنبي . هو الققائي الشهير بعينه الذي اجتمع به

المجيدري فلقنه « الحزب السيفي » عن الامام علي . ثم تلقاه السيد احمد عن
 المجيدري بروايته التامة وحرفه الواحد . اللهم افتح لنا .
 ان الفرق بين هذا الحزب وبين غيره من الاحزاب يحملنا على تفضيل
 الخضر في الرواية والحديث . بل فيه ما يحبط من قدر الانس والجن واسطة ولا
 يزيد الامام علياً والسيد الادرسي رفعة وفضلاً . فيه من مرادفات الادعية
 والمحامد ، والطلبات والاستغاثات ، ما نجده في غيره من الصلوات . وفيه من
 التسخط والغضب على الاعداء والاستغائة بالله عليهم ما يروعك ويزعزع فيك
 لاول وهلة الايمان بالصالحين الايرار . ولكنك اذا تبصرت قليلاً بطمأن بالك
 وترى في دعوات السيد الساخط عين الصواب . خذنا بحلمك في ما نسئع .
 ان من يستحسن شيئاً ليرغب فيه . فلو كان السيامي او التاجر او الجندي او
 الكاهن او الطبيب او المحامي يدعو على اعدائه دعوات سيدي احمد لقلت :
 كفر بالله . ولكن المحنون بالحقيقة الكلية ، المحذوب اليها بجمعيته ، ومن صح
 ايمانه ، وصدق يقينه ، وكرمت اخلاقه ، وسمت اشواقه ، وتنزهت عن اللؤم
 والجشع والانانية والكبرياء والنفاق اعماله ، وكان مجاهداً في سبيل الفضائل
 الروحانية والخلقية كلها ، ان هذا الرجل يشتهي ان يطهر العالم والناس من
 اضدادها .

وان اعداء مثل هذا الرجل لاعداء الحقيقة والصدق والامانة والايمان
 والشرف والنزاهة وكرم الاخلاق . فيحق له ان يستجير منهم بالله وان يسأله
 تعالى — وصاحب هذه الرحلة كذلك من المستجيرين السائلين — ان يباعد
 بينه وبينهم كما باعد بين المشرق والمغرب . وفوق ذلك ، نعم ، واكثر من ذلك :
 اخطف اللهم ابصارهم بنور قدسك ، واضرب رقابهم بجلال مجدك ، واقطع
 اعناقهم بسطوات قهرك ، واهلكهم ودمرهم ندميراً ، كما دفعت كيد الحساد عن
 انبيائك ، وضربت رقاب الجبابرة لاصفيائك ، وخطفت ابصار الاعداء عن
 اوليائك ، وقطعت اعناق الاكاسرة لانقيائك واهلكت الفراعنة ودمرت الدجاجلة
 لخواصك المقربين وعبادك الصالحين . . . اللهم بك نصول على الاعداء ، واياك

نرجو ولاية الاحباء والاولياء والقرباء امين .^(١)

هذا في كتاب الاحزاب ، ويتلوه من المحامد ما لا تضاهي ورعاً وانسانية ما جاء في اوله اخص منها المحمّدة الثانية وهي جامعة مستوفية ، وجيزة بليغة . هي روح المحامد كلها .

الحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم اعلم ، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم اعلم .
ولكن السيد احمد بشر كريم صادق اللمحة في حالانه كلها فقد كانت له قترات من الحياة فيها الظلام اكثر من النور ، والبؤس اشد من الجور ، فخرج لذلك من التعميم الى التخصص ، ومن الحمد على ما لا يعلم الى الشكوى مما هو معلوم محسوس . اجل ، وقف مرة في « كنف الله وجواره » بعدد مثل ايوب الصديق المصائب والافات والامراض والمفاسد كلها ، ولم ينس الفالج والباسور ، ولا استثنى وحشة القبور .

هذا ما في « الحزب السيفي » الذي تلقاه الادريسي عن الميودري عن قطب الجان الفقائي عن الامام الاكبر رضي الله عنهم اجمعين .

ولكنت وقفت ما هنا في التعريف لولا حاشية « لبعض الواجدين من اهل العمل المحققين » التي تذكرنا بالمتنطعين والمشعوذين . قال المذكور في كلامه عن حزب آخر^(٢) : ان المثاريرة على الدعاء السيفي معه مؤثر للثروة والغنى ، وهو بدونه لا يخلو من الرجعة والفقر . اي انك اذا قرأت الحزب المغني وحده تفتقر واذا قرأت الحزبين تغتني . فما اشبه هذه الشروط بل هذه الرشوات في الاوراد والاحزاب بالمغفرات والاجور عند المسيحيين . انها والحق يقال لافات التقوى وسبائت الصلوات .

اسألك اللهم بنور عظمتك ذاتك الذي لا يحتمل ظهوره احد غيرك .

(١) كتاب الاحزاب والاوراد صفحة ٦٦

(٢) الحزب المغني لسبدي اربيس القرني . ولم يذكر شيئاً من مصادره الانسية او الروحية او الجنية .

لولا لطفك بحجبتك النورانية لا احترقت صور الكون كلها .
ان دون الله عز وجل سبعين حجاب من نور وظلمة وما تسمع نفس
شيئا من حس تلك الحجب الازهقت .

ما قرأت في الاستعارات الصوفية ، وما سمعت من انغامها ، وما شاهدت في
صورها ، اجمل من « حس تلك الحجب » وقد حركتها النسام الربانية فهست
امرارها همسا في الاكوان .

واسألك بسر ذاتك الذي اضمحلت فيه حقائق انبيائك والمرسلين
وطاشت بجماله الباب ملائكتك الكرويين ، وانعدمت فيه معارف اوليائك
واصفيائك المقربين ، حتى تاه الكل في الكل ، وتخير الكل في الكل . . .
ان تخرجني من شهود كل شيء سواك . . . فتنفجر ارض طبعي كلها
عيونا عشقية . . . هنا وهناك . . . وراء الورا ، بلا وراء ودون الدون
بلا دون .

وهذه في نظري اجمل الازهار الروحية في روضة الصلوات الصوفية ، اذا
فاز بها السالك ، كان المالك هنا وهناك . كلمة اخرى قبل ان اختم هذا الفصل .
لو ارتقى كل السالكين الى هذه الدرجة من الادراك الروحي والتذوق الالهي
لبطلت حلقة الذكر . واذا لم يرتقوا مخلفات الذكر كلها لا تفيد .

الفصل السابع

الادارة في عسير

الرسالة الروحية - الحكم في عسير في أيام ابراهيم باشا المصري - انتشار
 الوهاية - نورة الاهالي على الحكم المصري الحجازي - انتشار الطريقة
 الاحمدية - خروج المصريين من البلاد - حكم الشريف حسين - رجوع
 الاتراك سنة ١٨٤٩ - امام صنعاء والاساكن البحرية - الادارة واشراف
 ابي عريش - زيارة المقام في صييا - الادارة في مصر والسودان - النزوح
 بالجواري العبيد - فساد الدم والملك - السيد محمد الكبير - اخلاقه - مصادر
 قوته - معاهدته مع الانكليز - احتراجه واعداه - الترك والزيود -
 ما كسبه بعد الحرب - الصوفي والسياسي ومصدر القوة والضعف فبهما -
 علي بن محمد الامام الحالي - شجرة بيت ادريس .

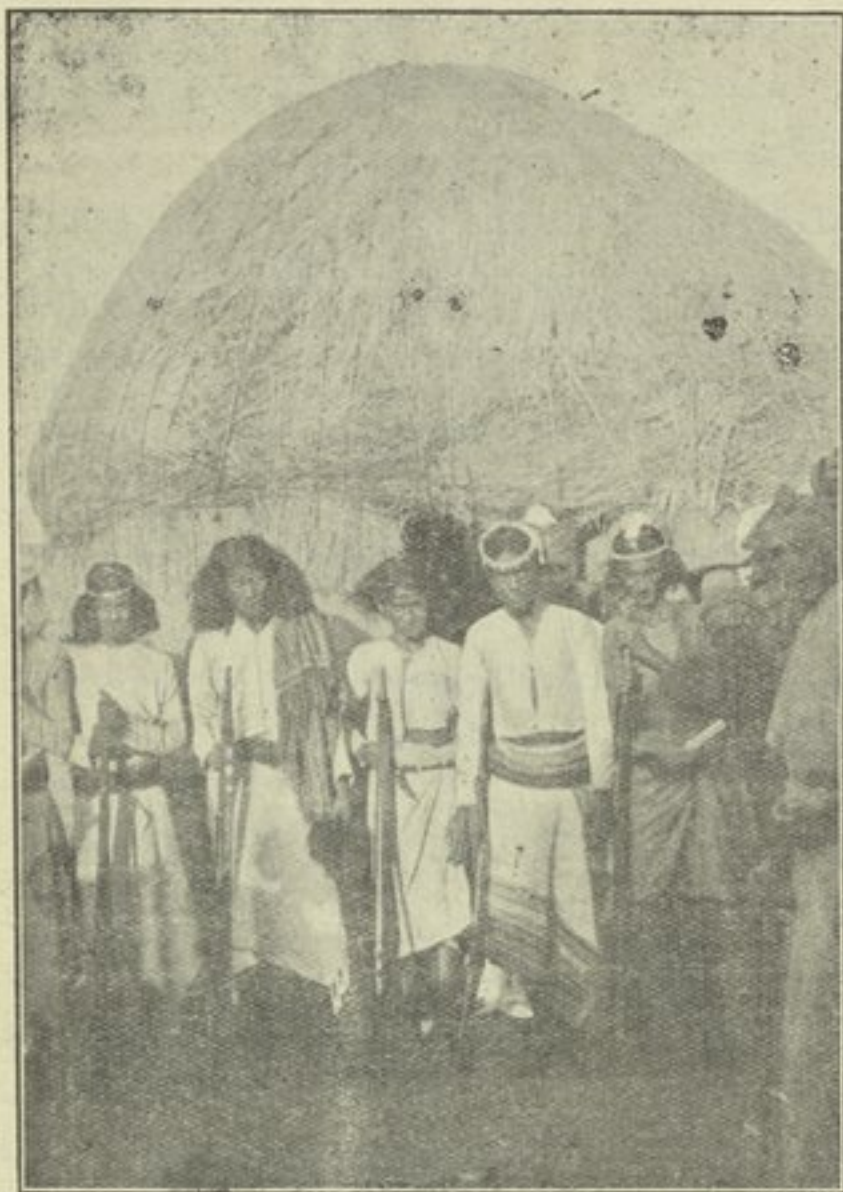
واجعلني يا الهي لك عبداً محضاً عبودية خالصة .

لا رائحة ربوبية فيها على احد من خلقك .

احمد ابن ادريس

ان الرجل الذي توفي سنة ١٨٣٧م في صييا . فكفّن بكفن التقديس
 وشيع الى القبر ولياً ، لم يبع سيادة على احد من الناس . ولم يحلم على ما اظن
 واعتقد بملك عالمي ادريسي في البلاد العربية او خارجها . ولكن من ضريحه ،
 وقد امسى مقاماً ومزاراً ، مدت يد السيادة وهي تحمل رسالة ظالما سمعها العرب ،
 خصوصاً البدو منهم ، واذعنوا لها . ولا غرو والدين عندهم اساس الملك في
 الدنيا ، والسبب الاول في خرابه لو انهم بفظنون . يموت الرجل الصالح الا بر
 الذي لم يرغب في غير العبودية لله الخالصة ، المجردة من الربوبية على احد من
 خلق الله ، فيرفع الى مقام الاولياء ، و يؤخذ من ضريحه حجر الزاوية لملك
 عربي جديد .

كانت تهامة وعسير يوم توفي السيد احمد بن ادريس في حكم مضطرب لا
 تركياً يعرف ولا مصرياً . ومع ان البلاد من القنفذة حتى الحفا كانت في حوزة



بعض عساكر الادرسي

امام بيت من القش

ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير الذي احتلها بجنوده سنة ١٨٢٦ باسم الباب العالي . فالاهالي على الرغم من الاحدى عشرة حملة التي حملها عليهم من الطائف ومن البحر ظلوا نافرين منه تأثرين عليه .

ومن اسباب ثورتهم على المصر بين والحجاز بين ان كثيرين منهم ، اقتداء بزعيمهم ابي قحطبة ، انتحلوا المذهب الوهابي وكانوا من انصار الامير سعود الكبير الذي استولى على الاقطار العربية كلها . وقد كانت انتشار الوهابية في تهامة احد الاسباب في نجاح الطريقة الاحمدية . بالمقاومة تظهر القوى الكامنة في المذاهب وفي الجماعات . ولكن السيادة الروحية المغربية فازت نهائياً على السيادة الوهابية . لان « توميب » الناس يومئذ في تهامة لم يكن غالباً عن اعتقاد بل كرهاً للحكم الشريف الذي كان يوماً تركياً ، يوماً مصرياً ، يوماً عربياً ، ودائماً حكماً ظالماً جائراً .

استمرت هذه الحال عشرين سنة . وعندما قررت الدولة ان تسحب جنودها من تهامة وعسير سنة ١٨٤٠ م^(١) كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من امراء العرب ، هم الشريف محمد بن عون في مكة الذي كان يساعد ابراهيم باشا في حملاته على تلك البلاد ، والشريف حسين بن علي بن حيدر من اشرف ابي عريش الذين كانوا يحكمونها ، والامام الزيدي في صنعاء الذي كانت تهامة سابقاً في حوزته وجزءاً من بلاده . فاتفق ابراهيم باشا يومئذ مع اقدر الثلاثة وادهام وهو الشريف حسين فسلمه زمام الحكم في تهامة ، على ان يدفع سنوياً الى الدولة قيمة من المال .

كان الشريف حسين في حكمه ظالماً ، وفي سياسته مراوغةً مستبداً ، يطمع بالاستيلاء على اليمن كله وبأخراج الانكايذ من عدن . فنشبت بينه وبين امام صنعاء حرب استمرت بضع سنين تناوبته فيها الهزيمة والنصر ، فوقع مرة في يد الزيود اسيراً ، وبسط بعدئذ سيادته على اساكل تهامة كلها حتى الحنا ، فأنت من جورده ومظالمه الناس .

(١) في الفصل الثاني من القسم الرابع في هذا الجزء بيان الاسباب في الجلاء .

ثم عادت الدولة سنة ١٨٤٩ تحاول الاستيلاء على اليمن وعسير ، فنزلت جيوشها بقيادة توفيق باشا في الحديدة واسترجعت الحكم من الشريف حسين الذي عاد الى مقره في ابي عريش .

ومن غريب ما يعيده التاريخ من حوادثه ان امام صنعاء كان يحارب يومئذ ليسترجع الاساكل البحرية من الشريف حسين كما يحارب اليوم ليسترجع الحديدة من الادريسي . وكان الانكليز يومئذ كما هم اليوم مندبذين بين الاثنين اي بين حاكم الاساكل وحاكم الجبال .

نزل توفيق باشا في الحديدة ، وبسط شيئاً من حكمه في تهامة ، وتقدم بجيوشه الى صنعاء كما اسلفت القول في الفصل السادس من القسم الثاني من هذا الكتاب . وقد كان اليمن الاعلى اهم ما ينبغي في خطة الاستيلاء ، فعادت تهامة الى ما كانت فيه من الاضطراب لا يحكمها فعلاً لا الاتراك ولا اشراف ابي عريش . فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال السيادة بين المتداعيتين حكماً روحياً ، بل حكماً حقيقياً ، انتشرت كلمته وتعددت رسله شمالاً وجنوباً في البلاد .

جاء الناس من اليمن ومن تهامة وعسير يزورون المقام في صبيا ويتبركون . وكان السيد محمد بن الولي الجديد مقياً هناك نثنازه عوامل الدنيا ونوافل الدين . ولكن المقام صار عرشاً ، وصار سيد المقام تدريجاً سيد الاقوام ، فسرت في مجاري القديسات السياسة ، وشرع ابناء ادريس يناهضون مرأً وعلناً اشراف ابي عريش حتى تغلبوا عليهم . ثم حاولوا بواسطة العشائر ، ابناء الطريقة الاحمدية الجديدة ، ان يتغلبوا على الاتراك فلم يفلحوا في بادى الامر . ولكنهم استمروا يستثمرون تلك السيادة الارثية التي اصبحوا بسببها اثبت قدمها ، وابتعد نفوذها ، واوسع جاهها من سائر اعدائهم في البلاد . وقد تجاوز ذلك الجاه عسيراً فوصل بالمهاجرة الى مصر وبلاد المغرب .

جاء ابن ادريس مهاجراً من الغرب ، وراح ابن ادريس مهاجراً من

بلاد العرب . ولد للسيد محمد ولد دعاه عبد المتعال فلما شب سافر الى مصر وتزوج واقام هناك في قرية الزينية قرب الاقصر . وولد للسيد عبد المتعال عدة اولاد سافر بعضهم الى المغرب فتزوجوا من بيت السنوسي هنالك واقاموا في القيروان . ان لهم كذلك بيوتاً في الزينية وفي ارجو بالسودان . اما في عسير فمنهم اليوم ثلاثة هم السيد مصطفى والسيد السنوسي والسيد العربي ابنا عبد المتعال . وقد حافظ هذا الفرع من بيت السيد الاكبر على مقامهم وسلبتهم فلم يتزوجوا من غير بيوت الاكفاء والاقربان .

اما جدم السيد محمد فقد استرسل الى اهوائه فاساء الى شريف ارثه . بل ان فعلته التي اضررت ولا شك بسلبته لتجاوز الاساءة لانها حدثت وهو لا يزال في ظل ابيه الاير ، قريباً من اثاره القدسية . قلت في فصل سابق كلمة في اختلاط الشعوب جنساً ولوناً بالمزاوجة ، وقدمت شهوداً احياء على بعض نتائجها . ان من يحب بيت ادريس ويغار على خيره واسمه ليأسف جداً لما بدا من السيد محمد الاول رحمه الله وما كان عمله ليستوقف الانظار ، ويمحزن الانصار ، لولا مقامه الديني والمدني ، لان من يقتنون الجوارى في الحجاز وعسير ويتزوجون بهن حتى من الاشراف كثيرين . الا ان من كان بعيد النظر حكماً يدرك ان البيت الشريف الطالب للسيادة والملك لا يسلم بين شريفين كبيرين ، شريف مكة وشريف صنعاء ، اذا كان لا يحافظ على شرفه في دمه ونسله .

اتدى السيد محمد بالسادة زملائه فتزوج بجارية سودانية ولدت له ابناً دعاه علياً ، فكانت بداية الدم الاسود في سليلة بني ادريس بعسير . ثم تزوج السيد علي بفتاة هندية هي ام السيد محمد الثاني فلم يصلح في خطأ ابيه شيئاً ظاهراً . ومع ان هذا الولد الهندي الام ، السوداني الاب انجب ونبغ في بيته ، فلا العجوبة ولا النبوغ يصاحبان ما تفسده السياسة بسبب النخاسة في ملكه .

ولد السيد محمد الذي يستحق ان يدعى الكبير في صبيبا سنة ١٨٢٦ (١) وحي به شاباً الى مصر فدخل كلية الازهر وتخرج فيها . ثم سافر الى كفرة

(١) توفي في نيسان سنة ١٩٢٢

بالمغرب فقرأ هناك على السيد السنوسي ، وجاء منها الى السودان فاقام في ارجو
بدنقلمه ، وتزوج بابنة الشيخ هرون الطويل شيخ الطريقة الاحمدية هناك .
رسا وتزوج في بلاد السود بلاد ابيه وجدته ، لانه لم يكن في دمه وهياته ما
يوقفه الى غير ذلك . ولكن نفسه الكبيرة الشريفة ابت عليه الخمول والاستعباد .
وكانت الاسفار قد زادت بعلومه ومداركه ، فكبرت معها المطامع واستيقظت
قواه فشد للرحيل .

عاد السيد محمد من دقله الى عسير ، الى مسقط رأسه ، الى قاعدة ملك
جله في ذلك الحين صوري او متزعزع ، فكانت الفوضى ضاربة في البلاد اطنايبها ،
وكان الترك جنوباً يحكمون حيثما يستطيعون ، ويستغرون رؤوسا العشائر
بمشاهرات لا يدفعون غير اليسير منها . فاقتلبت عليهم اصحاب الديون واستألمهم
الادريسي اليه . وقد شاهد غيرهم من المشايخ يتشاغبون ويتفانون فاستفاد بما هم
فيه ، واستعان بزعيم على اخيه . حتى ساد اكثرهم فثبت كل كبير في قومه ،
واقننى بامام صنعاء فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة . ثم مد سيادته
شمالاً وشرقاً الى الجبال فجمع عدة الخاذا و بطون من العشائر تحت لوائه الذي
رُفع برهة عند حصن أبيها وعلى حدود حاشد وبكيل .

ولكن نجم السيد محمد لم يعلُ وبتلاؤاً في مياء آل ادريس الا خلال
حربين بين الدولة العثمانية ودول الافرنج ، اي حربها سنة ١٩١٢ مع ايطاليا
ثم اشتراكها في الحرب العظمى على الاحلاف . فقد كان في الحربين خصم الترك
اللدود ، والحلف الذي لا ينقض العهود . اخذ من الايطاليين سلاحاً فاستخدمها
ناراً وسياسة على عدوها وعدوه . واخذ من الانكليز مالاً وسلاحاً فخدم الاحلاف
في الجزيرة خدمة ، وان صغرت ، لا تشوبها الاطاع ، ولا يفسدها الخداع .
وقد كان لا يزال له غير الاتراك عدواً . فخارب هذا العدو كذلك بما جاء من
الخليفتين . ولكن انتصاره على الزيود في ذلك الحين كان بعد انتصاراً على الاتراك .
ان من فضائل السيد محمد ثباته منذ بداية امره على مبدأ واحد . فقد كان
عربياً صمياً ، جسوراً في سبيل ما يبغيه ، يحالف اية دولة كانت على اعدائه

الترك ومن كان حلفهم من امراء العرب عليه . فما تذبذب في مبدأه ، ولا تحول عن عزمه . حازب الاتراك وحليفهم الشريف وصديقهم الامام فكان في الغالب منتصراً ودائماً عزيزاً . لا انكر ان الاحوال كانت حليفته ، ولكنسه سلاحها من لدنه بالعزم والمضاء .

ومما يجعله الافرنج والعرب ان السيد محمداً كان اول من انضم الى الاحلاف من امراء العرب ، واول من حمل في البلاد العربية على دولة الترك حليفة الالماني . فقد عقد معه الانكليز بواسطة حكومتهم في عدن المعاهدة الاولى في نيسان سنة ١٩١٥ التي بموجبها تعهدوا ان يقدموا له السلاح والمال ، ويحموا اساكل بلاده من التعديت الخارجية . فباشر في الشهر التالي القتال . خرج ابن عمه السيد مصطفى في اثني عشر الف مقاتل على الاتراك فدحرم دحرات متواليات ، ووصلت جنوده شرقاً الى قرب صعدة وشمالاً في تهامة الى القنفذة . ولكن الادريسي بعد ان استولى عليها في ١٠ تموز سنة ١٩١٦ اخلاها للحملك حسين اكراما لاصدقائه الانكليز الذين عقدوا معه معاهدة ثانية في كانون الثاني سنة ١٩١٧ لتعلق بجزيرة فرسان وكان قد اخرج الحامية التركية منها واستولى عليها .

كان السيد محمد حنيفاً ذكياً ذا حنكة ودهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من زعامات وشقاكات ، بالزرايق مثلاً على الاتراك ، وبالشوافع على الزيود ، وبالعشائر على الاشراف ، وبالانكليز على الجميع . وكان له عون كبير في ارثه الروحي ضاعف نفوذه الشخصي وزاد ذكاه الفطري لمعاناً .

ان مثل هذه السياسة الروحية المدنية المتوكلية في معظم شأنها على الانكليز لا تستغرب من امير يعد في البلاد دخيلاً ، وهو في تجهيز العساكر والدفاع عن نفسه يحتاج دائماً الى المسال والدلاح . اما خراج عسير فلا يتجاوز المئة الف ريال اي اثنا عشر الف جنيه شهرياً ، منها ثلاثون الف ريال من الحديدية^(١)

(١) اي ان خراجه السنوي نحو مئة وخمسين الف جنيه ، منها ١٥ في المئة عشور اي حبوب وغيره و ٨٥ في المئة ذهب وفضة .

يبد ان جنده لا يتجاوز في ايام السلم الخمسمئة نفر وهو يقوم اذ ذلك مقام الشرطة في البلاد .

ولكن الادريسي يستنفر في الحرب القبائل بواسطة المشايخ والمقدمين فيلبه ثلاثون الف مقاتل ويزيد ، وهم يحاربون على الطريقة الاولى حرب البدو .
 يجي رجال كل قبيلة او بطن او نخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسي ما يحتاجون اليه زبادة ، ويمدهم بالدخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية . ولكن الغنائم هي الجاذب الاكبر في حروب العرب كلها .
 لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر . اما الامير الكرم الذي بغدق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على زملائه في السياسة ، والمنتصر على اعدائه في الحروب . ولم يكن في سلاح السيد محمد الادريسي وقواته في حروبه كلها امضى من هذا السلاح اي الكرم . فقد كان يحسن كذلك الى الكثيرين من السباهلة والمشايخ الذين يؤمنون صيبا من بلاد المغرب ومن مصر .

دعوتيه بالكبير ، وهو لا مشاحة اكبر من حكم في عسير من بني ادريس ، بل هو مدنيا سيدهم الاكبر كما ان جده السيد احمد اميرهم الاكبر روحيا . وفي الاثني ، الصوفي والسيامي ، مصدر القوة والضعف في الحكم الادريسي . قد تكون العبارة مبهمه ، فيفهم منها ان مصدر القوة في واحدة من تلك القوتين ومصدر الضعف في الاخرى . ليس هذا ما اريد . ان في الاساس الديني لهذا الحكم قوة تعززه في البداية وتضعفه في النهاية ، تعززه في دور التأسيس والنشوء ، وتخذله في دور التوسع والاستيلاء . ولا بد في الدورين من التطور ، ولا بد في التطور من التفكك في العناصر المذهبية . اي ان حكما مثل حكم الادريسي يضعف في التوسع ، يرق في الامتداد ، لان اساسه المذهب واساس المذهب الطريقة . والطريقة لما مقام قد تصفو في جواره ولكنها تصد وتعمم كلما بعدت عنه . وها هنا لعمرى فشل الصوفي .

اما السياسي فمصدر الضعف فيه ، وقد ذكرت مصادر القوة في السيد محمد ، انما هو في الدم الذي تخلل صفاء النسل وسلامة النسب في بيته . وليس نبوغه

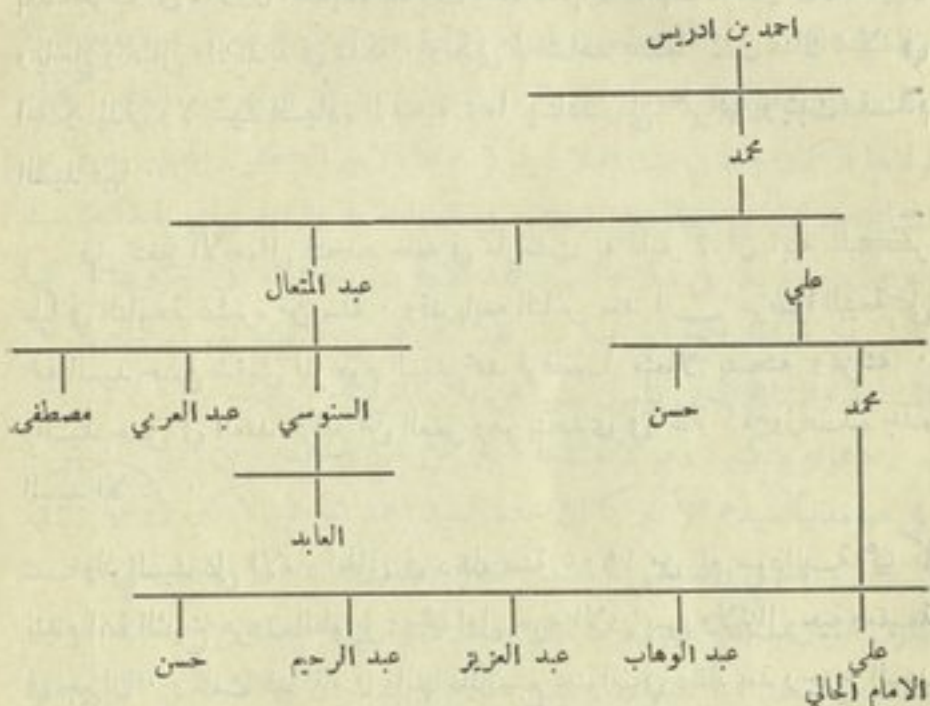
وكبر اخلافه بجمعة على ما اقول . فلو كان المرء شاعراً او صوفياً او فلاحاً او
تاجراً لما هم لونه وشكله ولما اثر الدم في حياته ومقاصدها . ولكن في الملك وفي
السياسة ترى ذلك في يد اعدائه من الحجج القاطعة عليه . خدمت الحروب
الاجنبية مقاصد السيد محمد فانسع ملكه وما ازدادت شوكته . فقد كانت قبل
الحرب حدوده جنوباً بين ميدي والأحيّة عند سيل يدعي وادي العين ، فامتدت
بعد الحرب الى ما دون الحديدية فدخلت هذه المدينة ومعها اللحيّة والصليف
وباجل وعبال والزيدية في ملكه . ولكنني لم اشاهد عندما كنت هناك ، لا في
الحكم المدني ولا في السيادة الروحية ، ما يساعد على عمرانها ويثبت قدم
السيد فيها .

فهل تتغير الاحوال فتخدم خلفه في ما ضنت به عليه ؟ ان ابنه البكر
عليّاً في التاسعة عشرة من سنه . وقد بايعه الناس بعد ان عرضوا البيعة على
عمه السيد حسن شقيق المرحوم السيد محمد فرفضها متعللاً بصحته وعزلته .
والسيد حسن في العقد الرابع من العمر وهو يتحدى في سلوكه وزهده جده
السيد الاكبر .

ولد السيد علي الامام الحالي في دقله سنة ١٩٠٥ من ام سودانية هي كما
تقدم ابنة الشيخ هرون الطويل . وهي اول حرم الادريسي ولا تزال حية ومقيمة
في جيزان . وكانت قد اقامت وابنها عليّاً سبع سنوات في دقله بعد رجوع السيد
محمد منها ، ثم جاء بهما السيد مصطفى سنة ١٩١٢ الى صيبا ، فقرأ السيد علي فيها
الكتاب والحديث واللغة ، ونشأ في ظل ابيه متشرباً مبادئه في السياسة
والوطنية . ان العارفين هناك وفيهم سلطان لحج يثنون عليه ويقولون انه على
جانب كبير من النباهة والهمة . اما المقربون اليه ففهم رفيق صباه وصديقه
الحكيم السيد العابد السنوسي الادريسي المولود في مصر المقيم في جيزان . والسيد
العابد شاب اديب ، عصري الروح ، ذكي الفؤاد ، له آراء حديثة صائبة في
عمران البلاد سيتوفق ان شاء الله في قربه وقرب ابيه من حضرة الامام الى

تحقيقها^(١) وللسيد علي اربعة اشقاء هم عبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الرحيم .
هو لاء الثلاثة من امهات حبشيات متوفيات . ثم حسن الصغير وامه كذلك حبشية
ولا تزال في قيد الحياة .

هاك شجرة هذا البيت الحاكم في عسير



(١) لم يتوفى السيد العابد ولا ابوه ولا عمه السيد مصطفى ولا الامام الشاب ومن
تبقى معه من العشار في دفع اغارات الزبود في ربيع سنة ١٩٢٥ . فاستولوا باسم الامام
يحيى بن حميد الدين على المدينة كما تقدم وعلى الاساكن البحرية الاخرى . واستمر بعد
ذلك الحكم الادريسي مضطرباً منزحاً الى ان تنازل الامام علي عن الامارة لعمه الامير
حسن الذي عقد وجمالة ملك نجد والحجاز الملك عبدالعزيز ابن سعود معاهدة بمكة في
سنة ١٩٢٧ شبيهة بالمعاهدات التي كان يعقدها بعض امراء العرب والانكليز اي ان لها
هو ما معناه : سنحيك بشرط ان تسمع وتدعن .

الفصل الثامن

على ظهر الباخرة

ثيابي المتنورة - رفيعي المحزون - الوداع - الرفيق الجديد - الحر والبلبل
والأمواج ساكنة - بوينجرة الفهوجي - جثث المسافرين - شيء ينعش -
اصوات تذبذب النوم - الفجر الفضاح - لا خوف على من ينام بين الحلك
والخارطة - رمان انكليزي كريم - يهدينا الباخرة - يحيي الى المائدة مثلنا
في نياحه الرسمية - «وخلعت نظلي أكراماً لكم ايها الافاضل» - شاطلي تهامة -
جزيرة قران - الحجاج - السيد الحضرمي - ضجيج بعد نصف الليل -
الريان يساوم العبيد ويؤدهم - الترية الشرقية والترية الانكليزية

جاء الجواب من حضرة الامام مرحباً بنا ، ورسد في مياه الحديدية ذلك
اليوم باخرة وجهتها جيزان ، فأثرناها على السيارة التي استعمرت معيطة
وقمنا نتأهب للسفر بجرأ ال العاصمة . لكن التأهب لا يشغل كثيراً من
اصبح في ملابسه وحاجاته اخف من الجندي في تهامة . ان قصة ثيابي قصة
مخزنة . نثرتها في الطريق برأ وبجرأ . تركت الرسمية منها في مصر - ومن
غير الانكليزي من عباد الله يحمل ثوبه الرسمي الى البادية ؟ ثم تركت الشتوية
منها في جده ، والصيفية في عدن ، وها انا في الحديدية افخر الدراويش
والسالكين بما ارتقيت اليه من القناعة والبساطة والحكمة . اجل ، وما فضل
المسافر اذا كان لا ينتفع بشي من عادات البلاد واهلها ؟ خرجت من القصر
في قيافتي الحجازية احمل عصاي وفوطه فيها ما لا يستطيع حتى السالك ان
يستغني عنه .

اما رفيعي الجديد - وقد يسأل القاري - عن الرفيق الاول ، عن القسطنطين .
فالجواب واجب قبل ان نستأنف السفر . فجمعت في الحديدية بفراق القسطنطين .
فقد وصله كتاب من جده فيه ان الوزير الشاعر في الديوان الهاشمي لم ينظم
بيتاً في غيابه ، وان الفارسي الفيلسوف في القشلاق لم يسحب السيف مرة من

نصابه ، وان نظارة الطيران مكسرة الاجنحة ، والطيارين يانسون ، وان مدير
الميناء هجر الشراع وراح يرعى الابل ، وان الشريف الايطالي الذي استودعه
ماله فر هارباً ، وان « توتو » كلبته المعبودة ، وقد اضناها الشوق والنوى ،
مشرفة على الموت . فلولم يكن من نكبة جدة في غيابه غير ما حل بتوتو لكني
بها نكبة تستوجب رجوع الرفيق الزعيم في الحال .

جاءني صباح يوم والكتاب بيده ، والدمعة تترقرق في زاوية عينه ، وهو
يقول : اعذرني يا امين . اود ان ارافقك في الرحلة كلها . ولكن توتو
— اقرأ — اقرأ ما يقوله الطبيب . توتو في حال الخطر . ولا عزيز في الدنيا
كما تعلم اعز عندي منها — هوذا المركب في الميناء . ساركب اليوم فاراها بعد
يومين اعذرني يا امين .

ثم نادى خادمه وبدأ يجمع ثيابه . فقلت أو لا يبقى المدني معي ؟ فقال
الولد وهو يثب من رأس الدرج الى اسفله وثبة واحدة : وأمي ، انا مشتاق الى
امي ! مبالغاً على عاداته في الضم والتشديد . اطال الله بعمر امك يا مدني ،
وحرس الله توتوك يا قسطنطين ، يا من لا يبالي بما يفعل ويقول باعدو نفسه في
بعض ما يراه ويهواه . رأيتك ذات يوم عائداً من الباخرة تحمل رزمة كبيرة ،
كل ما وجدت في خزانة القيم من الدخان ، ما قد يكفي عشرة رجال شهراً .
فظننت انك لنوي المتاجرة في الحديد بالسكاير . ولكني سمعتك نقول : قد لا
يرسو في الميناء باخرة اخرى في هذا الاسبوع .

كنت اشفق عليك منها ، ايها الرفيق العزيز ، وكنت اري لك الخير
الجم في نجد ، اجل ، كنت ابغي تأديبك هناك ، وفطمك عن هواك . فياليتك
دمت رفيقاً لأراك « تسط » في بلاد الوهابيين اذا داومت التدخين . فما
شأنك الان وتلك الامتاف التي كانت تلبو الواحدة الاخرى في فمك ؟ وكنت
تدخن في اول الرحلة المعطرة الذهبية الفم ، فصرت تدخن ، لهفي عليك ،
ما لو شمت رائحتها « توتو » لأعني عليها . وانت الشاعر الذي لا يسر بغير
الجميل من منظور وملحوس ومشروب ومشعوم . فاسأل الله ان يعصمك

دائماً من كل مكروه ، ومن كل هوس يشوّه النفس ، وانّ يمكنك دائماً من تلك المعطرة الذهبية النعم ، ويعلمك فوق ذلك الحكمة والاعتدال ، دمت محروساً في كل حال ، رفيق الحقيقة شقيق الخيال .

اما الرفيق الجديد فيحمل في اسفاره بدل الدخان سجادة الصلاة ولا يقتدي ظاهراً بالسالكين في سواها . فقد كان معه كذلك من الامتعة والحقائب ما لا يليق بالفلاسفة ، وخدام هو من السادة ، ليفرش له السجادة . وكنت انا في ذي الابهة جزءاً منها افتش على رفيقي الصوفي فلا اجد غير الوكيل السياسي ، واغرب ما في حاجاته ومواعينه سجادة الصلاة .

خرجنا من القصر فاذا بثلة من الجنود العارية في الباب رافقتنا الى الرصيف . وكان هناك وجهاء المدينة والمتوظفون في انتظارنا للوداع ، لوداع الوكيل المحترم ، وانا في معيته عباءة وعقال ليس غير . فمأسرني ذلك لان البشرية آتذّر تغلبت فيّ على الصوفية . ثم سمعت فضل الدين يزجر العساكر والمودعين . لم يشأ ان ان يرافقه في السنوك الى الباخرة ، فلستأنست بذلك وحمدت الله . لا بد ان يظهر التصوف في صاحبه ، في كنيته او اشارته ، ولو في الدقيقة الاخيرة من ساعة الرسميات والترهات .

وكان الهواء ساكناً ، والحر من شمس النهار كامناً فيه ، والبحر رهواً ، وضوء القمر عليه كالكفن يكفن الامواج فاشغل النوتيون المجاذيف ، ووصلنا بعد ساعة الى جانب بويخرة لا صوت فيها ولا حركة ، ولا نور غير ذلك الاحمر الضئيل في رأس الدقل . فنادى احد رجالنا الربان فلم يجبه ، ثم نادى وكرر النداء فنهض احد النوتيين يفرك عينيه ، ثم نهض آخرون وبادروا الينا يسبون ويزجرون . - « لسنا بلصوص يا كلاب انزلوا السلم لحضرة الوكيل » فانزلوا السلم واعتذروا ، فصعدنا الى ما هو اشبه بمركب فخم منه بباخرة .

مشينا بين جثث بشرية عارية هامدة قضى الحر والليل اللزج عليها فلصقت بعضها ببعض ، ونامت نوم الاموات بين البضائع وفوقها ، تحت الالغام وعلى الصناديق ، في الاقدار ، في كل مكان . صعدنا سلباً اخر الى ما يسمى

الدرجة الاولى فرأينا في الغرفة المفتوحة ابوابها اناساً نائمين نوم الاطفال .
 ما افاق نداؤنا احداً منهم . ثم نزل الربان وهو انكليزي حليق في ثوب النوم
 فسلم على الوكيل واعتذر . فاستأنست بصوته المومي ، الى ما في نفسه من
 التهذيب والكياسة . ثم نادى احد الخدم فكفر عن اهماله بان امر لنا بزجاجة
 من السودا باردة وبكأس من الوسكي . فشربنا وشكرناه ، ورغب في الحديث
 فحدثنا . فكان انتقالنا في ساعة الى شي ، من المدينة مستحب ، وادب في ربان
 باخرة مستغرب .

وكأنه احس بما تسلل الى الاجفان فنهض ينقدمنا الى ظهر الباخرة ، الى
 كنفه الخاص ، حيث الاسرة العسكرية ، فمنا كلنا تحت القبة الزرقاء . وليس
 بيننا وبينها غير حجاب واحد هو الشراع . ساعة فقط . ثم ضججات وقرععات ،
 واصوات تزعج الاموات ، وسلاسل تُشد ، وابواب تسد ، وحبال تن ، وجرس
 يطن ، وصوت الربان فوقها يحرك العبيد والحديد . سرت الباخرة ، وهدأت
 الاصوات والضججات ، فعدنا الى ما يشبه النوم وانبلج بعد قليل الفجر على وجوه
 صفراء ، وعيون فيها الذبول والعياء .

اول ما شاهدته قرني دولاب الربان ، ووراءه ولد في ثوب ازرق على صدره
 نيشان ، يقرأ الحُك ويدير الدفة . وكان الربان واقفاً قبالة وراء طاولة عليها
 الخارطة البحرية . فقلت في نفسي : لا خوف على من ينام بين الخارطة والحك .
 اما الولد صاحب الثوب الازرق والزنار الاحمر والنيشان فهو من الذين
 ورثوا الحرفة عن اجدادهم . هو من سائلة اولئك البرتغاليين الذين فتحوا الهند
 قبل الانكليز ، ولكنهم لم يثبتوا فيها اعزاء . فقد كان الجزويت في استنثارهم
 عوناً للانكليز عليهم . اما ابناؤهم اليوم ، وقد اختلط دمهم بدم الهنود وسلم
 شي ، من دينهم الكاثوليكي ، فهم يقيمون على شواطئ البحر الهندي وبدعون
 غوا Goa و يستخدمهم الانكليز في كل الوظائف النوتية ما سوى العالية منها .
 ذكرت النيشان ، وما هو الا تطريز بالخيط الاحمر والاصفر بطرزون به
 قصانهم ، كل لنفسه في ساعات الراحة من العمل . ما رأيت في النوتيين

انظف ثوباً ، واخف حركة ، والطف شكلاً ، من ولد الـ « غوا » ابن الهند والبرتقال .

كشفت الفجر عن البويخرة وركبها فكان فضاءً . هالك رهطاً كرهط الحجاج في اشكالهم والوانهم واجناسهم وقيافاتهم وعدم اكترائهم بما هم فيه من ضيق وحريق وقذارة . كل يهتم لأمره ، لما يلزم المؤمن ويتحتم عليه ساعة الفجر . هذا يصلي ، وذاك يدق البن . هنا امرأة تنفخ بالنار ، وهناك شيخ يفضل فناجين القهوة ، واخر يدخن المداعة . هذا يعد اكياسه ، وذاك يلبس ثيابه . وهناك فوق زناويل التمر شاب احكم بين رجله مرآة صغيرة وهو يلف عمامته على رأسه لفاً هندياً بتأني الفتاة التي تجلس الى المرآة تزين شعرها . والى جانبي سابر الغور يرمي بحديدته الى القعر ويسحبها منادياً بالانكلبرية : سبعة ، ثمانية ، عشرة ونصف ! فلا تزال قريبين من الشاطي ، شاطي . تهامة الموحش العقيم ، ولا يزال رفاقي نائمين ، الا فضل الدين . فقد كانت تلك الساعة من المصلين .

ان الباخرة التي نحن فيها مسافرون ، وقد صنعت في بلاد الانكليز ، هي من بواخر القهوجي المشهور في عدن والبحر الاحمر ، صاحب صديقنا خان باهادور الفيلسوف الحديدي . والقهوجي اسم لشركة من « عبدة النار » نوتيوها كما ذكرت من الـ « غوا » النصف المسيحيين ، ور بانها معاونه والمهندس من الكفار التي صنعت الباخرة في بلادهم . هذه شركة ملاحية شرقية هندية ، ولكنها لا تستغني عن الانكليز مديرين لبواخرها . وهذا الانكليزي ، وقد اعتاد ان يأمر في الشرق ، لا يتمتع من حال توجب عليه الائتار باوامر المنود اسياده . قال الربان هاي : كنت قبل الحرب اسيّر باخرة في البحر الاتلنتيكي محمولا خمسة وعشرون الف طن . وتراني الان على رأس هذا المركب العجيب اخدم القهوجي الفارسي بخمس ما كنت اقاضاه من شركة انكليزية . وما العمل ؟ حامض القهوجي احسن من مر البطالة في بلادتي ولكنني احب العرب واحترمهم . ما رأيت شعباً هادئاً في السفر كرىماً ، على ما تراهم فيه ، مخلداً

الى السكينة ، جلوداً قنوعاً سكوتاً مثل العرب .
 نزلنا الى المائدة في ثيابنا الرسمية ، انا في قميصي البدوية و ارداني مربوطة
 حول وسطي ، وفضل الدين في سرواله الهندي وقلنته تصل الى ركبتيه .
 وجاءنا الربان هاي ، بارك الله فيه وفي ذوقه ، حافياً يلبس « البجاما » اي ثوب
 النوم . جلسنا الى المائدة وهو يقول : خلعت نعاني اكراماً لكم ايها الافضل .
 اهلاً وسهلاً بكم الى بيت القهوجي ، بل الى بيتكم . الباخرة لكم ، تأمرون
 فيها بما تشاؤون .

كذلك كنا نجتمع الى المائدة ورئيسها هذا الانكليزي المهذب الفاضل
 الذي رأته عيناه احسن من « افريقيا »^(١) باخرة واحسن منا ركبا . وهو دوماً
 لا يرى غير الحسن في الناس . وما كان في حديثه مرة مستهجناتاً ، بل دائماً
 مفكهاً مفيداً . الرسميات ؟ ربطنا في عنقها صحيراً ورميناها في البحر ، فبدت
 لذلك الباخرة الصغيرة وفضل الربان هاي ، ونحن في كنفه على الظهر في عزلة
 الامجد وعزم ، بدت كيختنا الخاص ، لا نتكلف فيه شيئاً يزعج اوسي ،
 ولا نضطر الى اجهاد النفس حتى في لبس النعال . بدو متحضرون ، برايرة
 متحدثون ؟ اي وايبك . انما هذه هي اللذة الصافية الحقيقية في الاسفار
 البحرية .

كنا نسير في مضائق خفية وظاهرة قرب الشاطي . بين جزر صغيرة لا
 اسماء لها ، الا قمران وهي اكبرها . ولها في جنوبي البحر الاحمر من الاهمية
 ما للطور في الشمال ، لان فيها محجراً صحياً للحجاج القادمين بجزراً من
 الشرق ، من الهند وجاوه ومن العراق وايران ، فيمرجون عليها للتطهر في
 رواحهم ومحيثهم ، قبل الحج وبعده ، فننقاضهم السلطة الانكليزية رسماً مدة
 الثلاثة الايام التي يقيمون فيها . وجلالة الملك حسين يحتج على الرسم ، وعلى
 الثلاثة الايام ، وعلى محجر قمران ، وعلى الجزيرة كلها بحذافيرها . لا لزوم لها
 وعندنا جزيرة ابي سعد . هذا صحيح . ولكن في قمران مركزاً لا سلكياً

(١) اسم الباخرة

افادنا ، ومعمل تلج انعشنا ونمن في الحديدة . وهما يفيدان وينعشان كثيرين
غيرنا ، فلا نشارك جلالة الملك اذن الا في قسم من احتجابه . لا نطلبوا
الحجاج بدفع الرسوم .

وها هي الجزيرة الى شمالنا ونحن نسير بينها وبين الشاطي . وها هي الخارطة
على منضدة الربان لني . بالاعماق المختلفة تحتنا وحولنا . من هو با ترى اول من
سبر هذا البحر العربي ، البحر الاحمر ، وغيره من بحار الشرق ؟ من ذا الذي
ركب الامواج والاهوال ومد يده الى مكان اليم يستطلع اسراره ، ويكشف
للتوحي اخطاره ؟ من ذا الذي قاس المد فيه والجزر وحدد الطرق بين الصخور
الكامنة تحت المياه ؟ من ذا الذي فتح سبل البواخر وامتها في الليل بالانوار ؟
هو الانكليزي ابن البحار وسيدها . ليعترف بفضل كل من سير باخرة في
البحر الشرقية ولجا الى علومه ليسلم من الاخطار .

اجل ، قد تستغني شركة بواخر شرقية عن الربان الانكليزي . ولكنها
لا تستغني مما كانت عظيمة عن خارطات الانكليز البحرية . هب ان دولة بريطانية
العظمى تفككت غداً وتقسمت ، وعادت انكثرة كما كانت في عهد السكون
الاولين ، حكومة صغيرة وامة مثل جزائرها حقيرة ، فهي تظل غنية بعلومها
وبرجالها . ولا خوف وايم الله على امة عندها العلم وعندها الرجال . لا ترتاب
ايها القاري . العزيز بما اقول ان الانكليزي الحقيقي هو مثل هذا الربان الذي
يسقط من عرشه ويظل مليكاً باخلاقه في احط الحالات الاجتماعية واحقرها ،
مليكاً يعمل ليومه ، ولا يأنف ولا يشمخ ولا يكابر . بل يعمل العمل المفروض
عليه مجدداً مخلصاً نزيهاً .

كان معنا في الدرجة الاولى رجل من حضرموت ينام في الغرفة لا على الظهير
ولا يؤاكننا . رجل طوبل القامة ، حسن الطلعة ، قوي البنية ، مفتول الساق .
وهو من سادات صيوان ، مدينة العلم في ذاك القطر ، ومن ادبائها ، حاد الذهن ،
فصيح اللسان . حدثته فحدثني متنازلاً متكافئاً ، وما كان في ما باح به ليخرج
من دائرة التكتم والتأدب . الا اني علمت من تلو يحانه انه عالم من العلماء وخطيب

من خطباء حضرموت المشهورين . وهو ينظم كذلك الشعر . قرأ شوقي وحافظ
ابرهيم والمنفلوطي والبستاني وغيرهما من شعراء وادباء مصر وسورية ، ولم يسمع
بالريحاني الا مؤخراً في عدن .

— سمعت ان الاستاذ جاسوس للانكليز .

— قد يكون ذلك .

— وكيف يتخددع به امرأونا يا ترى ؟

— العصمة لله .

— صحيح . ولكنني سمعت كذلك انه رسول الملك حسين وفي خدمته وانه

مع ذلك لا يحسن اللغة العربية .

— كثيرون حتى في الحجاز من لا يحسنون اللغة العربية .

— صحيح . وفي حضرموت كذلك .

— وهل انت مسافر الى جيزان ؟

— ان وفق الله .

وكان قد اخبرنا الربان ان السيد من تجار حضرموت ، حسب ادعائه ، وانه
مسافر الى ميدي . ولكن رفيقنا من عدن اخبرني انه رآه في دار الاعتماد هناك
ببغية مقابلة معاون . ثم علمت انه من زعماء الحزب الكثيري في حضرموت
القائم على الحزب القبطي وسلطانه ، وانه جاء ليرفع قضيته الى الانكليز في عدن
والى السيد في جيزان . اما فضل الدين الذي يعرف السادة من رأتحتهم فقال اذ
رأى الرجل : هوذا سيد شحاذ . كثيرون مثله يبيثون الى جيزان ليمدحوا
الامام ويستجدوه . وعند ما نزل مساء ذلك اليوم في ميدي ظننت فضل الدين
متحاملًا فقلت : بل هو تاجر كما قال الربان . فاجابني هو شحاذ كما اقول .
وسيرجع وسترى . قد قدر الله ان يكون الرجل رفيقنا الى جيزان ومنها ،
فسيسمع القارى عنه ومنه في ما بعد .

ميدي بنت الحرب ، اي انها نشأت في اثنائها وهي اكبر مدينة تجارية
اليوم بين الحديدة وجيزان . بيد انه لا وكالة لشركة القهوجي فيها فيضطر

الربان ان يقاوم العمال الذين يجيئون لنقل البضاعة من الباخرة الى البلد ويدفع
اجورهم . واكثر هؤلاء من العبيد والمولدين . هذه كلمة تمهيد لما افص عليك .
نمت تلك الليلة على عادتي فاستفتت نصف الليل لاصوات تلج وتضج وقد اختلط
اللسانان فيها ، الانكليزي والعربي ، وتناكرا .

— يا اولاد الزنى تجيئون في هذه الساعة من الليل تساوموني ؟
عرفت من الصوت ان الربان يتكلم . ثم — وهي الكلمة العربية الوحيدة
التي يحسنها — امش ، امش .

وكان الربان الثاني وهو رجل ضخم الجثة عريض الصوت قد استفاق مثلي
وسمع زميله يتسخط ويسب . تخاطبه بصوت عريض ناعس مطاط .
دعهم يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى غدارون . ثم الربان :
يا تنانة العبيد ، يجيئكم رزقكم فلا تقبلونه الا بشروط . امش ، امش ! والا
اكثر رؤوسكم . اذا كان القهوجي يعبد النار فهل يحق لكم ان تسرقوه ، يا تنانة
العبيد يا اولاد الزنى ! اذا كنتم لا تشتغلون بروبية واحدة مثل العادة — امش .
ثم الربان الثاني وهو يقلب في سريره من جنب الى جنب ويئن : دعهم
يا قبطان وعد الى سريرك . اولاد الزنى ، انا اعرفهم ، غدارون .
الربان : ما في شغل لكم . امش . الباخرة تسافر هذه الساعة . امش .
زعيم العمال — على ما ظننت — باللسان الانكليزي المنفجع : يشتغلون
يا قبطان كما تريد . يشتغلون بروبية واحدة . انا الكفيل .

ثم سمعت الربان وهو عائد الى سريره يقول : اذا كان الانسان يعبد النار
فهل يحق لهؤلاء العبيد ان يسرقوه .

ولكن العبيد قبلوا ، شكراً لفضبه وامانته ، ان يشتغلوا بروبية واحدة نهاراً ،
فباشروا عملهم في الليل واتموا قبل الفجر . هذه هي الحادثة التي ايقظتني تلك
الليلة فسلبني العبيد بعد ذلك ، في ضجيج العمل والقرقعة ، الراحة والنوم . ومع
ذلك قد كنت مسروراً بما علمت . لا اظن ان شركة القهوجي التي لا يزعم
يقظتها الدائمة شيء في البر والبحر تعرف ان ربان احدي بواخرها يدافع عن

مصلحتها هذا الدفاع . ولا اخذن ان الربان هاي ، وانا اعرف شيئاً من طباع امثاله الانكليز ، يخبرها ويمن عليها . فهو يعمل ما يعتقد وواجباً عليه وبسكت . في صباح اليوم التالي جاءني فضل الدين يقول : قد عاد السيد . هو سيد شحاذ كما قلت لك .

فقلت : هل علمت بمحدث الليل البارح — هل سمعت الربان يتسخط على العبيد ؟

فقال : سمعته وشكرته باسم القهوجي . لو كان السيد ربان هذه الباخرة لما كان يتزحزح من سريره في تلك الساعة اكراماً لاحد من الناس . — ولكن تربية السيد شرقيه وتربية الربان انكليزية . — نعم ، والشرق كله في حاجة الى التربية التي نقدر العمل وتفرض في العامل مبادئ الجد والامانة والنزاهة والاخلاص .

الفصل التاسع

جيزان

القلعة - المدينة - الذهب والفضة - جيزان في ايام الحرب - المناجزة -
 الزوار - الى السدة الادريسية - الاستقبال العسكري والسياسي - في مجلس
 الامام - « غرار رحمة الرب » - « هل ملك اميرك اليوم من الجنود ؟ » -
 « هل الاميرك بين دين ؟ » - الاقتراع والانتخاب - قصة جورج واشتعالون -
 استحسان السيد محمد واعتراضه - سؤال في الجغرافية - قصة لم تقص -
 محاسن السيد محمد - اجتماعنا به في الليل - الحر في جيزان .

وصلنا الى جيزان بعد الظهر ساعة الجزر ، فانكشفت امامنا ونحن في
 السبوك بقعة من الارض سوداء بين الشاطي ، والماء لا يمكن المرء اجتيازها الا
 حافياً مشحراً . فلاقانا الى حد الجزر رجال يحملون الكرامشي او بالحري الامترة
 التي تشبه العنقريب ، فانزلونا واجلسونا فيها ، وحملونا على مناكبهم الى البر في شبه
 السبخة التي كانوا يفرقون فيها الى الركبة . وهناك استقبلنا بعض الجنود
 والمتوظفين يتقدمهم السيد العابد ابن السيد السنوسي الادريسي الذي رحب بنا
 باسم حضرة الامام ومضى وايانا الى القلعة القائمة على ربوة خارج البلدة قرينة
 منها ومن البحر . والقلعة هذه نصفها قديم هندسته يمانية ، اي انه ضخم البناء
 رفيعه صغير النوافذ قليلها ، والنصف الاخر جديد بناه السيد مصطفى الادريسي ،
 واعده للضيافة التي يليق بها . فهو يشتمل على عدة غرف كبيرة ترقص فيها
 الشمس وبلعب فيها الهواء والغبار ، وعلى حوشين الواحد ضمن الاخر ، وحمام
 ومائدة افرنجية ، وسطح مسور جميل .

كنت مما سمعته عن جيزان امثل لتفسي بيتا من القش تقيم فيه ، وجواري
 حبشيات يخدمننا ، وولدانا يقفون فوق رؤوسنا ويايدهم المراوح يروحون . اما
 الجواري فما رأينا غير أثر من آثار ايديهن في الدواوين البيضاء الشريفة ،
 والوسائد الوثيرة اللطيفة ، واغطية الفرش النظيفة . واما الولدان فكانوا واقفين

في الحوش يحملون بدل المراوح البنادق والجنبيات .
 جيزان بلدة قديمة في تهامة تكاد تبعد عن ابي عريش شرقاً بعدها عن صيبا
 شمالاً . فهي من البلدين رأس المثلث الزوايا على البحر الذي يحيطها كالملال
 من ثلاث جهات . بلدة صغيرة لا يتجاوز سكانها الستة الاف نفس ولكنها
 كانت في الماضي على ما يقال اكبر مما هي اليوم واوسع عمراً . بناها احد المحسنين
 الى الانسانية ليقرّب ابناء الجبال من البحر والرزق ، احد المحسنين المدفونة
 اسمائهم في اثارهم . على انه لم يبق من مؤسس جيزان واثاره غير اسم البلد الذي
 يحمله العارفون الى كلمتين جا وزان اي جاء الزائن ، من اسس المدينة وزينها بخلق
 الله . ولكننا لا نعرف من هو ولا نتيقن ان ما شيده وزينه كان في مكان
 جيزان اليوم او في غيره من سبخات تهامة .

نظرنا اليها وهي من القلعة شمالاً فاذا هناك مجموعة اكواخ من القش هرمية
 الشكل يتخللها بيوت من الحجارة شبيهة بمعايد الاقدمين ، مربع سطحها اصفر
 من مربع اساسها . وبينها مفردات وثرابات من النخيل ، وحولها ذاك الخط الذي
 يحيط بها كمنعلة الفرس ، وهو ازرق ساعة المد ، اسود ساعة الجزر ، اصفر في
 ساعات الشفق والغروب . وفي الساحة الكبيرة بينها وبيننا قفص من القش يأوى
 اليه احد الحرس في النهار . وفي الجهة الغربية من الساحة المسجد الجامع ، وهو
 بناء صغير ذو مأذنة متواضعة وابوان تحتله الشمس طول النهار . ووراء القلعة ،
 او بالحري القصر شرقاً بجنوب ، قلعة اخرى تشرف على البلد والبحر ، فيها
 بعض المدافع وحولها المتاريس .

مررنا بيننا الجديد ، وهو احسن ما في جيزان مركزاً وبناء ،
 واستأنسا بمشاهد من نوافذه لا ابهة فيها ولا جلال . ولكنها توميء كلها
 الى حياة بشرية بسيطة ، اجمل ما فيها ، من وجهة فلسفية ، القناعة والصبر
 والسكينة والاطمئنان . على اني من وجهة اجتماعية اقتصادية ، حرت في امر
 اصحاب هذه الفضائل القدسية . حرت في امر اهل هذه البلدة وموارد
 رزقهم .

عندما رسونا في مياه جيزان كانت اول ما دنا من الباخرة سنبوك يحمل صاحبه بعض الرسائل واكياساً صغيرة ثقيلة ، اكياساً عديدة فيها الذهب والفضة . فسألت الربان هاي عما اذا كان لمصرف عدن فرع في جيزان . فضحك ثم قال : اني اعجب لهذا الامر . من اين يجيء الذهب الى هذا البلد ؟ وفي كل سفرة نحمل منه اكياساً الى عدن .

اجل ، ان في جيزان ذهباً وفضة ، وان كنت لا ترى فيها سوقاً او اثراً ظاهراً للتجارة . وان في جيزان ستة الاف نفس تجياً وتحمداً لله ، وان كنت لا ترى حولها بقعة ارض خضراء . فمن اين يجيئهم الرزق وكيف يتاجرون ويثرون ويتمكنون من تخزين اموالهم ذهباً وفضة في المصارف بعدن ؟ سؤال بديه حري بالجواب .

كانت جيزان في سنتي الحرب الاوليين المدينة الوحيدة في تهامة المفتوحة للتجارة . وكانت القسم الغربي من شبه الجزيرة او جله يستقي من مواردها . فكانت ميناؤها ميناء البلاد كلها . ثم انتقلت التجارة الى ميدي . اما اليوم فجيزان هي احدى عاصمتي الادريسي ، وهذا اول مصادر الخير فيها . هي نقطة دائرة خصبة انحأوها ، غضة حواشيتها . يؤمها الناس من المغرب الاقصى ومن مصر ومن اعالي عسير ومن المدن جنوباً وشمالاً في تهامة ، فيجيء معهم الرزق ، التجارة والكسب والخيرات . يحمل الخنطة اليها تجار ميدي وابناء الجبال ، ويحملون من معادنها الملح ومن شواطئها البضاعة التي تجيء بها بواخر القهوجي والسنايك . جيزان مركز توريد وتوزيع . جيزان مورد تجري اليه الاموال من هذه الجهة ومن تلك ، فتتوزع منه الى الجهات كلها . وهكذا تعيش جيزان من لا شيء . يرى ، وتضيف فوق ذلك السادات والعربان ، وتغدق على كل محترم كسلان . اما سيد هذه الحركة الخفية ، وقطب تلك الاريجية ، فهو السيد الادريسي .

جاء رسوله بعد ساعتين من وصولنا يدعونا اليه ، فركبنا « موتر » السيارة ومسرنا في اسواق البلدة الضيقة والصبيان يركضون وراءنا ويصبحون

حتى وصلنا في المنحنى الغربي منها الى ريوه تشرف على البحر يحيط بها سور كبير . استقبلنا خارج السور فرقة من الجنود الادريسية اصحاب الشعور المنفوشة ، والصدور المكشوفة ، والبنادق المشوفة . لاضباط من الترك ها هنا ولا صوت الزامل ولا البرزان ^(١) نزلنا من السيارة ومشينا بين صفين من الجنود الى بوابة حارسها موآد عمليق سآم وبده على رأسه وادخلنا آمنين ، فاذا نحن في حوش كبير وبين آخرين من الجنود . مشى فريق منهم الى باب دخلناه فاذا بقيتم مولانا واعوانه يسلمون ويرحبون . حآوا محل الجنود فنقدمونا الى حوش ثالث واستقبلنا عند بابه وزيراً حضرة الامام وحاشيتها فدخلنا وايام الى رواق صغير ، وقفنا فيه عند باب كبير ، فخلعنا نعالتنا هناك ودخلنا الى المقام الشريف المنيف ، الى قدس الاقداس والتقديس ، الى مجلس مولانا الامام ابن ادريس .

وما المكان غير بضعة ابواع اخرى من ارض الله وسقفه القبة الزرقاء . وهو محوط باربعة جدران عالية في احدها باب يقضي الى بيت الحرم ، وفي الثاني باب اخر يدخل الامام ويخرج منه ، وفي الثالث ثالث هو باب المسجد الخاص . اما الساحة ففي وسطها منصة تعلو قدماً واحداً عن حاشيتها مفروشة بالسجاد والدواوين المرتفعة والمساند . هوذا المجلس الشريف والمقام المنيف ، وفي صدره حضرة الامام جالساً ، ووراءه عبد يروح له بمبرحة كبيرة من الخوص .

وقف لنا ورحب بنا ترحيباً جميلاً . فسلم على الدكتور فضل الدين سلام الامامة على احد المقرئين منها ، قبله في وجهه ، وسلم علي مصافحاً ، ثم امر لنا بالجلوس على ديوان قربه . وكان في المجلس ساعته السيد السنوسي والمفتي وقاضي القضاة وغيرهم من اصحاب الوجاهة والعلم .

رايتني لأول مرة امام سيد من السود ، امام عبد يسود مليوناً من العرب ، وفيهم الوف من السليلة النبوية . وفر الثقرز لأول وهلة في نفسي

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحة ٩٠

ولكنه لم يكذبكم مسترسلاً حتى ارتحمت الى حديثه وملت اليه ، فرأيتني رويداً رويداً مكبراً الرجل معجباً به . كانت السيد محمد بن علي بن محمد بن احمد ابن ادريس ، رحمهم الله اجمعين ، جاحظ العين صغيرها ، رفيع الجبين ، دقيق الانف ، ضخمة الشفة والرقبة ، مستدير الوجه ، نحيف اليدين ، عريض المنكبين ، طويل القامة ، شديد البأس واللهجة والغضب . لم يكن فيه من ملامح العبيد البارزة غير فمه ، وشكل وجهه ، ولونه الشديد السواد . وكان فيه من اثر الجنس السامي الآري — اسلفت القول ان امه هندية — ما ذكرت ، اي الانف والجبين واليدين . وكان يلبس النظارات المصبوغة لضعف في عينيه ، ويجلس متربعا على الديوان ، ويتكلم بصوت عال فيه بعض الغنة ، وله في الوقفات اشارة تمكن خاصة به كأنه يجير الالف والهاء ثم الهاء والالف ليثبت ما يقول .

شكرته على ما لقيناه في الطريق منذ دخولنا بلاده من الخفاوة والضيافة والاكرام ، فقال : هذا ما نبغيه ، وهو قليل في جانب ما تسعون اليه . انتم تسيحون في البلاد العربية لخيرها وخير اهلها ، وتقاسون المشقات من اجلهم ومن اجلنا نحن حكامها . فستحقون اضعاف الاكرام الذي تشكرونا عليه . ولاشكر يا حضرة الاديب على الواجب .

فقلت : وانا كذلك اقوم في رحلتي بما اعتقده واجباً علي . اني اشعر بامولاي بان في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب . اظن ذلك ، بل اعتقد به . نعم ، وان كثيرين في بر الشام من قحطان ، من بني غسان ، مثلي . فقال السيد وهو يرفع النظارات عن عينيه : ونعم النسب . غسان ربحانة العرب . ونحن نحترم كل عربي صميم يعرف الواجب عليه ويقوم به من قحطان كان او من عدنان . نحن يا حضرة الاديب عرب قبل كل شيء ، ونغار على اصغر صغائر الامور الوطنية من المطاعم الاجنبية والسياسة الاوروبية .

ثم انتقل فوراً الى اميرك . كأنه لم يشأ ان يكون الحديث ساعتئذ في الموضوع الذي لمس حاشية من حواشيه . وكانت سؤالاته تدل على انه عالم ببعض شؤون تلك البلاد الا انه لم يطالع تاريخها . قصصت عليه قصة نيويورك

واصحابها الهنود الاولين وبيعهم المدينة من الاوروبيين بشيء من الودع لا
تتجاوز قيمته الخمسة وعشرين ريالاً . فسر جداً بها وسألني قائلاً : وهل ملك
اميرك اليوم من الهنود ؟

فقلت كلمة في الجمهورية الاميركية ورئيسها . فقال : وهل للامير كيين دين ؟
فاجبته قائلاً : شيء من الدين ، نعم . ثم سألتني وكأنه كان يستدرجني الى امره
اراده ، لانه كان عالماً بما في اميرك من الاديان .

— وهل الكاثوليك هناك اكثر من البروتستانت ؟ — وكم عددهم اذن ؟

— لا يقل عن عشرة ملايين ،

— كثير . وما تأثيرهم في السياسة ؟

— يزداد نفوذهم يوماً فيوماً .

— وهل يكون رئيس البلاد منهم ؟

— ليس ما يمنع ذلك شرعاً او في القانون الاساسي . ولكن الحكم في البلاد

للاكثرية وبالاقتراع .

فاستزادني ايضاحاً في طريقة الاقتراع والانتخاب وكانت بعني الكلام

ويتأمله ويهز برأسه من حين الى حين استحساناً .

— ولكنهم يبدلون اموالاً كثيرة في انتخاب الرئيس . افما كان خيراً ان

يعطوه ربعها راتباً وبقيموه ملكاً عليهم ؟ فيوفروا ملايين من الريالات .

— كان جورج واشنطون يا مولاي رئيساً اولاً وثانياً — هي القصة التي

كنت اقصها على امراء العرب وفي مجالسهم ، وصرت انجمل ان ارددها . « ما

هربنا من الملوك لنقيم منا ملكاً علينا » كلمة قالها جورج واشنطون الاول والاخير ،

ابو الجمهورية ، اعجب بها كل من سمعها في الجزيرة . اما السيد محمد فقال : امرنا

نحن العرب غير امر الامير كيين . اذا رفض اميرنا الامارة فعشرون حوله في

الميدان يطلبونها ويتنازعونها ويحتربون من اجلها . على الامير الحاكم اذن

وهذه حالنا ، مهما تعددت تكاليف الملك واشتدت صعوباته ، ان يقف مكانه

ر كالجندي ويقوم بواجبه دفعاً للفوضى ، وحقناً للدماء .

ثم انتقل مرة اخرى فوراً ، وما كان اسرعه انتقالا وابعده ، فسألني سؤالاً جغرافياً : وهل اميركه بعيدة عن خط الاستواء ؟

— اميركه الشمالية من حدودها الجنوبية تبعد عن خط الاستواء يا مولاي خمسة عشر يوماً في البحر . واميركه كلها ، اي قارة العالم الجديد ، هي شطران ، الشطر الاكبر شمالاً والشطر الاصغر جنوباً من خط الاستواء .

وهل يمكن الوصول الى روسية عن طريق اميركه ؟

— بجرأ من سان فرنسيسكو الى اليابان ثم الى سيبيريا فروسية ، نعم .

— نعم هذا ولكن هناك طريق اقصر . بين اخر بر اميركه واخر بر

روسية مضيق ، ا تذكر اسم ؟

— مضيق بيرنغ .

— نعم ، مضيق بيرنغ ما هي المسافة فيه بين البرين ؟

وها هنا رأيت نفسي في مضيق من البحث . ما جال قط في ذهني اني سأسأل مسائل جغرافية في مجلس الامام لا استطيع الجواب عليها . ولا تأهبت لمثل هذه المباحثة المزعجة . فقلت : لا ادري . ولكنني اظن وكان ظني بعيداً عن الحقيقة . ولا عجب . ان اخر عهدي بمضيق بيرنغ يوم كنت ادرس الجغرافية في مدرسة ليلية بنيو يورك ، وكان استاذنا يقول بين المزح والجد : من يجيد السباحة يمكنه ان يسبح من اميركه الى روسية .

لكنني لم اتذكر القصة الا بعد خروجنا من مجلس الامام ، فتأسفت جداً . ولت ذاكرتي ووبختها لانها لا تلبيني ساعة يلزم ويليق وتعيدها الى الذهن ساعة لا تفيد . ونسيتني قصة افككه حضرة الامام بها ثم قلت في نفسي : سأقصها في المقابلة الثانية ان شاء الله . ولكن الامام لم يذن بعدئذ من الموضوع . ولا انا ، والحق يقال ، تذكرت القصة الا مرة واحدة وذلك لما كنا نتباحث في المعاهدة بينه وبين الملك حسين . فكيف يجوز ان اوقف البحث لاقص قصة مها كانت مضحكة ؟ هل اقول له : على ذكر بني عائض يا مولاي ، او على ذكر التنفذة اقص عليك قصة مضيق بيرنغ ؟ حالت السياسة والذاكرة دون القصة

ورغبتي الشديدة في قصها فلم يسمعها السيد محمد .
 خرجت من مجلسه وفي من الرجل تذكارات كلها حب و إعجاب ، وفي اليوم ،
 وانا بعد سنتين اعيد ذكرها ، لا تحرك في غير الإعجاب والحب . فيصح اذن ان
 اقل الى القارىء كلمة من مذكراتي في جيزان .

اول ما يروقك ويظربك من السيد محمد لسانه العربي الفصيح
 المجرد عن الاصطلاحات واللهجات المحلية . ثم وقفاته في الحديث وكنته
 — اما — في التمكن والتثبيت . واول نظرة في مواهبه و اخلاقه
 تربك انه ذكي الفؤاد شديد العارضة ، حصيف حكيم ، وهو ساذج ، كريم
 الاخلاق . لا اثر للروحانيات في وجهه . ولكن قياس الفراسة الذي يصح
 في البيض قلما يصح في السود . ان في الولايات المتحدة عبيداً يسرقون
 الدجاج وعبيداً لا يحميون بغير الكتاب المقدس والسيد المسيح — جاء في
 المزمور الواحد والخمسين : طهرني بالزوفى فاطهر . اغسلني فايض اكثر
 من الثلج . وهم يؤمنون بكل الانبياء . بكل شيء . اذا خبرت احداً
 منهم في رئاسة الجمهورية وقيثارة داوود بفضل القيثارة ولا غرو
 قد تكون روحانية السيد محمد اذن كامنة لا تظهرها كلمات اللغة
 وسبأ الوجوه ، لا تظهرها غير الاعمال . واني متيقن انه لو كانت في
 الولايات المتحدة لساد الملايين من السود هناك .

نظرة ثانية : اصف الى ما تقدم ان السيد محمد الادريسي صريح في
 حديثه ، صادق في ما يقول ، ساذج في ما هو دون معقوله ومعلومه .
 كبير الخلق والقلب . يميل الى السلم والائتلاف . . . احسن ما في العبد
 قلبه اذا حسنت اخلاقه . واكبر ما في السيد محمد قلبه ولا غرو
 تعددت الجلسات والاحاديث التي كان قطب دائرتها اولاً الملك حسين
 والوحدة العربية وثانياً الامام يحيى والصلح . وكان اجتماعنا دائماً ليلاً لان الحر
 في جيزان لا يأذن ابداً بالتجوال او باقل الاعمال نهياراً . فنكنا بحكم الشمس
 والبحر ، والميزان دائماً فوق المثة « فارنهييت » في الظل ، نستسلم الى ما تبطل

فيه الحركات كلها ، الا حركة التنفس . وهذه تضعف فنقف احياناً نستغيث .
ولكننا كنا نحمد الله مرتين في النهار على حمامين باردين بكرة واصيلاً ونكفر
ليلاً عما نهمله عمداً او في حال الانحاء من المحامد .

خبرت الحر في اماكن كثيرة ، من المكسيك الى عدن والعراق ، فما وجدت
حراً جامعاً محاسن الحر كلها وفي اعلى درجة منها مثل حر جيزان . ان الشمس
ها هنا قريبة جداً منك . كأنها على الارض تشتمل فتترسل اشعتها عكساً الى
كبد السماء . بل كأنها حبيبتك تشاركك في الحياة فتجلس على ركبتيك تقبلك
في فمك قبلة تدوم اثني عشرة ساعة ولا تنقطع . واذا ما نظرت اليها وانت تلجأ
الى الماء منها تراها ترقص في هواء كأنه حجاب من الشاش الهندي الابيض
فتبدو اشعة الشمس فيه كخيوط الفضة ساعة الظهر ، وكالوهج الاصفر ساعة
الاصيل فترفع يديك الى عينيك لتقيهما سهامها الذهبية .

اما الرطوبة ، وها هنا يشترك البحر والشمس عليك ، فلها لون يجيئها من
يدي المد والجزر ، ولها جسم من كرم العناصر في نهامة ، ولها رائحة هي بنت
الطحلب والسبخة والملح ، ولها فوق ذلك خاصة في الهيام تلصقها بك اذا دنت
منك . فهي كورق الغراء الحلو تجذب الذبابة اليها فتعلق بها . بل هي
كثوب يلبسه البحر وقد رآك تنزع كل ثيابك من اجل معبودتك الشمس ،
فتلبسه كرهاً وانت تستهي فوقه ثوباً من الامواج . لله موجة تعبد اليك
الحياة . ولكنك في القلعة ، في القصر ، ضيف محترم . والامواج تحتك للفتيان
والفتيات يلاعبونها ، فلا يليق بك في ذي البلاد العربية التي يرم فيها الاحترام
غيوماً ، ما يجوز للصبيان .

الفصل العاشر

بين الامامين

ساعة الاكل . والرأس المقطوع - ساعة الاستقبال . والحبل والليل - السيد
والملك حسين - « المسئلة بيننا وبين الشريف قرية ميسرة » - ابن سعود -
المخالفة الرابعة - الاتراك - « حاربناهم واخرجناهم من البلاد » - الامام
يجيى - « كنا واباه متعاهدين » - قصاصة من ورق - كتاب من الامام الى
الادريسي - « وهذا اليكم كتاب اخ الى اخيه » - كتاب من الادريسي الى
الامام - « وقد انكشف الحال عن برائتنا من كل دسيسة » - الفرق بين
الامامين .

كننا في القلعة نحوم على الظل حوم الفراش على النور ، فننتقل من غرفة
الى غرفة ، ومن رواق الى رواق ، انقاء وجه الشمس . وما كنا نخشى مثل
ساعة الظهر خطبا ، ساعة يجيى الخدم من بيت السيد السنومى وعلى رؤوسهم
الاطباى ، وفي مقدمتهم طبق عليه غطاء ، وتحت الغطاء الرأس المقطوع .
فنجلس الى مائدة شيخها هذا الذي كان منذ ساعة حيا وقد حشي بالارز
والبيض والزبيب ، وفي الوسط الرأس بنظر عطفك اليك . انجلني والله وحب
الي التنحس في مذهب الهندوس .

والحق يقال انني مللت اللحم ، خصوصا في مثل ذلك القيتظ ، وكنت
اشتهي بعد سف شي . من الارز بقعة خضراء ارعى فيها . واشتهي قبل كل
شي الماء فاجده في النعارة فاترا ، فاصبه في الكأس فاذا هو اصفر اللون ،
فانمض عيني واشرب باسم الله . اما كرم الادارسة فما كان ليخل قطعاً بقاعدة
الضيافة عندهم - فوزه كل يوم . اعذق الله عليكم ايها الافاضل ، وبارك الله
فيك يا جيزان ، بركة تشمل من اجل اسبادنا بني ادريس آله لتصفية الماء
ومعملاً للثلج .

- هات المروحة يا ابكر .

يدخل السيد ابكر ويده عدة مراوح وعلى لسانه خبر ما سر فضل الدين ..
 - قل له الحكيم نائم . ليجثني نصف الليل .
 ثم يدخل الحاجب . الشيخ الشنقيطي يبغي التسليم على الاستاذ .
 - صل على النبي . هات القميص والعباءة يا ابكر .
 وكان فضل الدين يدفع عني احياناً مؤونة المقابلات في النهار .
 - قل للشيخ ان الاستاذ لا يستقبل الا ليلاً - بعد نصف الليل .
 كذلك تنعكس الحياة في تهامة . نقعدها الشمس ، ننهكنا ، فيجيثنا الليل
 فزعماً وبوقظنا القمر . ساعة من الفرج - . الا انا والحق يقال لم تكن لنسر
 بشيء مرورنا بكلمة الحاجب : جاءت الخليل . والخليل من حضرة الامام ومعها
 رسول يدعوننا اليه . فنركب ونسير في ضوء القمر فننتعش ، ونحضر مجلس الامام
 فستأنس ، ونواصل السعي في سبيل السلم ، فالالفة ، فالتضامن ، بين ثلاثة من
 ملوك العرب .

- المسئلة بيننا وبين الشريف^(١) - الكلام لحضرة الامام - قريسة
 ميسرة . نحن اولاده ، نحترمه ونجمله . ولكنتنا نطلب منه ان يبادلنا الاحترام .
 قال تعالى : وشاورهم في الامر ، اذاً ، ليسألنا ، ليشاورنا . نعم ، هو لنا بمثابة
 الاب ونحن ابناؤه الراشدون . عندنا حكمة ، اذاً ، حكمة في الدين وفي
 السياسة . وعندنا قوة . القبائل في يدنا . . . والله لا تمر اربعة اشهر على
 المعاهدة الا نكون اصلحنا الامر بينه وبين ابن سعود فتسير القوافل آمنة الى
 مكة والمدينة . . . ان عند الشريف الحرميين ، ونحن نبذل انفسنا من اجل حب
 الحرميين . لا خير في حياة المسلم اذا كان لا يغار على الحرميين ويسعى دائماً في
 المحافظة عليهما .

اغتنمت الفرصة عند ذكره ابن سعود فقلت : اذا اصلحتم بين جلالة الملك
 وسلطان نجد فهو ولا شك يسعى ليصلح بين سيادتكم وبين الامام يحيى .
 فيتم اذ ذاك الاتفاق الرباعي ، او المحالفة الرباعية ، وهي كما اظن حجر الزاوية في

(١) اي الملك حسين .

الوحدة العربية .

فقال سيادته : هذا كلام حق . ولكن الامر بيننا وبين ذلك الرجل ^(١) بعيد .

— وليس على الله يا مولانا امر عسير .

— نعم صدقت . وما نحن يا حضرة الاديب بعيدين مما نروم . ولكن ذلك الرجل أضر بنا ، أضر بنا والله ضرراً جسيماً . ونحن نفعناه . وكان نفعنا مجرداً عن كل ضرر وغش . اما نحن والملك حسين فقد كان الضرر والنفع بيننا مناساً ومنه . لذلك ترى الامر قريباً بيننا العرب خداعون غدارون .

كان يردد رحمه الله هذه الكلمة كل مرة يجي . على ذكر هذا الرجل ، اي الامام يحيى ، في المقابلات الاولى . ولكنه عندما تحقق مقاصدي غير لهجته .

— نحن اول من حمل على الاتراك في الحرب الكبرى ، اول من انضم الى الاحلاف . اما هو فاتفق والترك وانسحب الى شهاره واقام هناك بعيداً عن ساحة القتال . اي خير جاءنا نحن العرب من الترك ؟ اية منفعة تفعلونا بها ؟ نحن حاربناهم قبل الحرب ، وحاربناهم اثناء الحرب ، وسنحاربهم اذا عادوا الى بلادنا . نحن كنا نحاربهم في تهامة انزدهم عن ابن حميد الدين . اوقفناهم مراراً في زحفهم عليه . دفعناهم عنه فراح يعقد واياهم صلحاً وراء ظهرنا هذا في اثناء الحرب . اما قبلها فكنا واياه متعاهدين . عقدنا محالفة لمحاربة الاتراك وطردهم من اليمن . ولما جاؤوا يبرون في بلادنا ليضربوه من جهة الشمال اوقفناهم وقلنا لهم : كيف تقبل وبيننا وبينه عهد الله . وصل الترك بعدئذ الى صنعاء فهموا بضر بنا من وراء ، من الجبال ، فلم يمنعمهم ابن حميد الدين ، حليفنا صنو عهدنا . كأن العهد عنده قصاصة من ورق .

وفي كتابين اطلعت عليهما الواحد من الامام يحيى الى السيد والثاني جوابه

ما يزيد سياسة الرجلين بياناً ، وعقليتهما جلاءً . ^(٢)

(١) اي الامام يحيى بن حميد الدين .

(٢) بعد دخول الاتراك الحديدة وخروجهم منها واستلام الادريسي زمامها سعى بعض رجال الامامين في عقد الصلح بينهما . وقد ذكر الامام يحيى اسماء ثلاثة من رسل السلم والوفاق .

في كتاب الامام الى « الصنو السيد العلامة » بعد السلام مقدمات ادارية في تاريخ المفاوضات ووسائنها^(١) ثم انه يرحب بسعي كل من يرجو الله في دفع الدسائس الاجنبية « وصون هذه القطعة العربية اي اليمن من تدخل الاجانب، وعدوان يحدث من اي جانب » .

واعلموا يقيناً ان ليس لنا غرض ولا مقصد في غير القيام بخدمة الله بالقلب واليد واللسان . والله لولا ان نرى تحتم القيام علينا بالدفاع عن عادية الكافرين على هذه الاصقاع لما حركنا ساكننا ، ولما اظهرنا كامننا . ونصرح لكم بانه معا بينكم وبين الدول من الروابط والسلم بما لهم من المقاصد الضارة بالاسلام والمسلمين وما يرومون من التسلط العام والسيطرة الشاملة على كل من قعد وقام ، وبانهم لا يدفعون الاموال والدخائر الا مقابل غرض عظيم يعدون الاستفادة منه لدولتهم وملتهم . ولم يحملهم على اظهار عدواننا الا عدم المساعدة منا لهم في بعض البلاد اليمنية . ولولا ذلك لما كان بيننا وبينهم ما كان وما سيكون . قد انصفتم بما اوضحتموه لشرفي من القيام بالعدد والتحرر والتشهير لدفاعهم ومنعهم وحربهم في البر والبحر^(٢) وذلك هو الغرض المقصود . ولكن بقي امر وهو هل لهم من حجة يمتحنون بها ويجعلونها ذريعة لهم الى مقصدهم الجيئ من ادعاء الحق في اي جانب لهم من اليمن . وهل لكم من فكاك من تلك الرابطة يزول به كل وسيلة لهم الى اي تجاوز .

(١) تاريخ الكتاب ٣٥ جمادي الثاني سنة ١٣٣٩ والاشارة الادارية فيه هي : بعد وصول قتيب حسن بن معقل وانفاقه (اجتماعه) بالقاضي عبدالله الفخري واطلاعها على ما بيد شرفي والعرض علينا . . .

(٢) اي الانكليز . وفي هذه الجملة اختلاف على ما قيل لي وقصد سبي . لان شرفي لم ينطق بهذا الكلام او بمثله ولا السيد الادريسي ولا احد خاصته . ومن ابن الادريسي ان يجارب الانكليز برأ وبجراً . فضلاً عن انه كان يومئذ صديقهم وحليفهم . اما القصد منها فظاهر . وقد كان الادريسي يخشى تقرب الانكليز من الامام كما كان يسمى الامام ليبعد بين السيد والانكليز . . .

المؤمل من صداقتكم مع كتابنا هذا ان لا تكتمونا شيئاً . فانه لا محجاً
بعد بوس ، ولا عطر بعد عروس . وانتم اعرف بسياسة الدول ومساكنها
الى الوصول الى اغراضها بما تبرمه من متلونات الحيل . وهذا اليكم كتاب
اخ الى اخيه للنظر في ما يعز الاسلام والمسلمين ويدفع كيد وضرر
الكافرين

وختم الكتاب انتحاب مجد السلام الغاير ، واستنهاض المسلمين على جهاد
الكفار الذين « تسلطوا بانواع التسلطات الخبيثة على المسلمين فصاروا لا يملكون
مستقلين قياد انفسهم . ولكونها الاهواء عمت فأعمت ، ولو عقل المسلمون وعملوا
بما امر الله به انخ . »

اما جواب السيد محمد بن ادريس الى « الجناب الشريف والمقام المنيف »
الصنو العلامة الامام يحيى بن حميد الدين فبعد حمد الله والسلام يعلمه بوصول
كتابه مع النقيب الشرفي ويؤكد له ان بغيته المقصودة وضالته المنشودة « ان
نرى انفسنا على محكم الاخاء والوفاق مع جميع الامة فرداً فرداً . فضلاً عن
هو مثلكم ممن ضمننا وضمه رحم العلم والنسب »^(١)

ولو نظرنا الى ما جرى من الحوادث حتى كاد لم يكن هناك رحم
توصل ، ونفوس بين يدي الله مما تقبل وتُسئل ، فدعا الاخ اخاه الى حكم
السيوف والسنان ، بل كره عليه بما هو انكر من ذلك من وخزات القلم
واللسان ، لظال الشرح وتمادي الحال . ولكن حيث اوجب تعالى على
الكافة ان يكونوا اخواناً ، وفي الحق اعواناً ، فلا مخلص لنا ولكم لدى
الباري من الحججة ، الا ان نسلك واضح طريق هذه الحججة اما ما
اشتم اليه في ما بيننا وبين الاجانب فلوراجعت التاريخ بالنظر لما قد
مضى بيننا وبين الطليان وقبيلهم بمددنا بما علمتم ثم وقع الصلح بينهم وبين

(١) « من ضمننا وضمه رحم العلم والنسب » . اما العلم فلا مشاحة ان السيد محمد كان
صنو حضرة الامام بالعلوم الاسلامية والفقه واللغة . واما النسب فقد طعن الزيدون به طعناً
يثبت ما قلته في التسري واختلاط دم السود بدم الاشراف في فصل سابق .

الترك فأنكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة^(١) . بل ظهر للعموم ما
اجراه الله على يدنا من الخير المعلوم^(٢) لاتضح لكم الحقيقة الحاضرة
وعرفتم المثل السائر : ما اشبه الليلة بالبارحة . وفي الجملة ما حالنا وحال
اهل اليمن الا كما قال حجة الاسلام :

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم اجد لغزلي نساكاً

ان الله تبارك وتعالى اذا فتح باباً للخير فلا راد لفضله . واما ما طلبتم
البيان فيه عن اليمن وما ترمي اليه السياسة الاجنبية فمن المعلوم انها
لما قامت الحرب الاوروبية اعلنت دولة بريطانية بمساعدة العرب اذا
ارادوا الاستقلال دون ان تتدخل في شيء من شؤونهم . ولكن من
الاسف انهم على اراء متفرقة واهواء مختلفة . ومرت هذه الفرصة وكادت
تمر ولم يرفعوا اليها رأساً . . . على ما نشهده الان في الاختلاف وعدم
الانتباه ، لما يرفع شأنهم ديناً وسياسة . اثبتوا على انفسهم عدم الرشد
فاحقرتهم اعين العالم وصاروا عرضة لانحطاط قوميتهم من بين سائر
الامم . فلا حول ولا قوة الا بالله . ومثلكم على وفور من العلم والسياسة ،
وبجمل من المعالي والرئاسة ، فلا يخفى عليكم كيف يكون لم شعث هذه
الامة ، وما هو الاقوم عند الله طريقة في زوال هذه الغمة ، وحسبنا

(١) « انكشف الحال عن براءتنا من كل دسيسة » عندما تعاهدوا ايطاليه اتهم بدسيسة
يراد منها ادخال الاجانب الى البلاد العربية . قالوا ، هذا اجنبي — والزيود يحسبون
الادارة دخلاء في اليمن — ويتواطأ والاجانب علينا . فكان انه اخذ مال الاجانب وسلاحهم
واستخدمها في محاربة اعدائه الاتراك . اما الايطاليون ، وهم في الشاطي . الافريقي من
البحر الاحمر قبالة الادريسي ، فلم يظأوا ارض تهامة ، ولا اثر لنفوذهم هناك اليوم . سم آتهم
التهمة نفسها عند ما دخل الانكليز الحديدة ، وما عتصوا ان خرجوا منها .

(٢) « اجراه الله تعالى علي يدنا » كل امراء العرب او من قام منهم بعمل خطير ناغم
يقول هذا القول : سخرنا له الله ، وفيه تواضع وتفوق . فالرجل الكبير متواضع لانه لم
ينسب كبير عمله الى نفسه بل الى الله الذي اجراه على يد صده . في هذا الادعاء يقول
ضمننا للناس ، لو لم اكن عظيمكم وزعيمكم لما خصني الله بهديكم واخترني آله لخبركم .

الفصل الحادي عشر

المعاهدة

العلة بين الضعيف والقوي — النفع السوي المتبادل — سياسة الانكليز بعد الحرب — السلاح والمال — السياسة الجديدة ' لا مشاهرات ' ولا دسائس ' ولا تجسس ، ولا ارهاب — الامتيازات الاقتصادية — البحث في المعاهدة — نقطة خلاف تختص بالانكليز — حجة السيد وحجتي — رغبتي في خدمة الملك حسين — نص المعاهدة وشرح بعض بنودها .

من طبع الضعيف وان كان مستقلاً ان يوالي الغني ويستنصر في اموره القوي . ومن مظاهر القوة ان الضعيف في مكانه ويثته هو غالباً اقوى منها في غير مكانها ويثتها . فالقوة وفيها الحكمة تستعين بمثل هذا الضعيف فيقوى بها وتنتفع به . وما دام الانتفاع متبادلاً متساوياً ، وهو لا يكون كذلك الا اذا كان في الفريق شيء من الوجدان ، فالولاء بينهما امر طبيعي . اما اذا اختلف التوازن في المنفعة ومالت كفة الميزان فهناك السيادة الفاسدة اجنبية كانت ام وطنية ، من القوي كانت ام من الضعيف . هناك الاستيلاء والاعتصاب والظلم والاستبداد . وبكلمة اخرى ان القوي القليل الوجدان يستخدم الضعيف لمنفعته الخاصة فقط ، يضمه اليه فيبتلعه او يستعبده . والضعيف ، الضعيف الوجدان ، يخادع القوي و يوافق فيكنسب بعض القوة التي يسيء استخدامها ، فلا ينفع نفسه نفعاً يذكر ولا ينفع احداً من الناس . هذه حقائق في الحياة تنطبق على ما يمثليها في السياسة وفي الملك .

كان السيد الادريسي يدرك امرين في حياته جوهرين ، اولها انه قوي في ذاته ، وثانيهما ان ملك الادريسي ضعيف بين اقوياء هم اعداؤه . بديهي اذن انه ، وهو الطموح الحكيم ، اذا عرف قوياً يروم الولاء والاه واستنصره على الاعداء . وكذلك كان . جاء القوي عدو الاتراك — ابطالية ثم انكتره — المرء في ايام الحرب ابعده عن المخائلة والخداع منه في ايام السلم ، فنفع

الادريسي وانتفع به . ها هنا قوة وضعف فيهما حكمة ووجدان ، وفي اتحادهما نفع سوي متبادل .

اما بعد الحرب فانقلبت الحال ، وساءت الاعمال . امست حليفة السيد ولا قصد لها ظاهراً في بلاد العرب غير نفوذ تمده الى مقامات السيادة ، لغرض مجهول كثر المتكهنون به وقل المدركون ، دون ان تبذل شيئاً مما كانت تبذله اثناء الحرب . زد على ذلك انه كان لها في الحرب عدو حقيقي معروف ، وليس لها الان غير اعداء سياسيين . فاستمرت على سياسة الغموض توالي هذا الامير طناً وتفاوض عدوه مراراً حتى ساء حالها ، وساءت اعمال رجالها .

وبودي ان يعود الفریقان ، الانكليز واصدقاؤهم العرب ، الى شيء طبيعي عادل في العلاقات السياسية والولائية تكون الفائدة فيه متبادلة متساوية . الا ان ذلك لا يكون الا بالسياسة القومية الصريحة من قبل الانكليز ، وبالصدق والنزاهة والاقبال على الحسن من التمدن الاوروبي من قبل العرب . كانت انكلترة تقدم في الماضي السلاح والذخيرة وتدفع الاموال فتسيطر بواسطتها على الرجال ، فانتفعت منمنعة محلية وقتية ، وما كسبت بوجه الاجمال من العرب غير المقت والاحقار . ولعمري انها في ما كسبت غير مظلومة . فقد افسدت باموالها الامراء واهلكت بسلاحها العشائر ، وهي لا تزال تسمى في نفوذها وثبوت سيادتها في البلاد العربية على تلك الطريقة القديمة . وهذا لا يكون بعد كل ما تغير وساء من الاحوال . فالسيد الادريسي نفسه لم يذعن لمثلها الاذعان التام حتى يوم كان يقبض مالها ويلجح العشائر بسلاحها . وكثيراً ما كان يردم في ما يقترحون خائبين « لم يربط الانكليز احد مثلي . انا رقصت الانكليز » . سمعته يردد هذه الكلمات مراراً في حضور وكيل انكلترة السياسي صديقي محمد فضل الدين . ومما كان من زعمه فلا احد ينكر ان السيد كان عربياً حراً صمياً بأبي التسيطر الاجنبي كما ياباه غيره . ملوك العرب الكبار ، الا انه لا يرى الضرر والكفر في موالاته اجنبي ينتفع به . اما الانتفاع اثناء الحرب فعرفناه . فماذا عسى ان يكون في ايام السلم ؟

حبذا دوام العلاقات اللواتية بين امراء العرب وبين انكلترة . ولكنها لا تدوم كما قلت على الطريقة القديمة . لا ولاء متبادل ولا اكرام حقيقي مع التذبذب والتجسس ، والدسائس والارهاب . ان الحكمة كل الحكمة والخير كل الخير للفريقين في خطة جديدة مجردة عن السياسة وحب السيادة التي لا طائل تحتها . واذا كان لا بد من السياسة الى حين فحبذا فيها تلك الصراحة البعيدة عن ال « لا » وال « نعم » معاً ، وعن الختل والخداع .

اني لا ارى في هذا الزمان غير التجارة والاقتصاديات والعلم سبلاً قويمية الى الولاة الاكيد بين الامم وفيه النفع المتبادل الدائم . انا تاجر معكم ، ومنتجكم الامتيازات ، وناذن لكم ببناء المستشفيات مثلاً والمعاهد العلمية ، ونؤمن لكم فوق ذلك طريق الهند من البحر الاحمر ومن الخليج ونحافظ عليها ، فتمدونا في مقابلة ذلك بالمساعدات الادبية والسياسية والمالية التي من شأنها ترقية البلاد وتعميرها واحياء موارد الرزق والثروة فيها ، وتعفونا من الوكيل السياسي والمعتمد والمتدوب او تستبدلونهم بالقناصل ، فتستقيم العلاقات بيننا وتصفو موارد الثقة والوداد (١) .

هذا ما اشرت به شفاهاً واشير به كتابة على الدوام ، وقد كان السيد الادريسي من رأيي . فلما وصلنا ونحن نبعث ذات ليلة في المعاهدة بينه وبين الملك حسين الى بند يحدد علاقة الامير العربي بدولة اجنبية قال : ولا بأس من ذكر انكلترة في المعاهدة ، بل يجب ذكرها . فقلت : وان كنت من رأي سيادتكم في تفضيل انكلترة على سواها من الدول الاوروبية فلا استحسن ذكر اسمها في المعاهدة بينكم وبين جلالة الملك حسين . ولم اكنتم السبب وجله سياسي في ما دعاني الى مخالفته ، بل صرحت برأيي ، وكان فضل الدين حاضراً الجلسات كلها ، دفاعاً عن القضية العربية والقصد الاكبر فيها ، وهو

(١) في معاهدة جدة التي عقدت في ١٢٠ يار سنة ١٩٢٧ بين جلالة ملك بريطانيا العظمى وجلالة ملك نجد والحجاز برهان ساطع على ان الحكومة البريطانية بدأت تعمل بهذه السياسة الجديدة السديدة التي تشترك فيها المصالح العربية والانكلتزية وتتساوى فيها الحقوق والواجبات .

تآلف ملوك العرب وتحالفهم في سبيلها . فقد كان الملك حسين ناقماً يومئذٍ على الانكليز ، وكان الامام يحيى حرباً عليهم ، وانا ابغى عقد معاهدة بينهما وبين الادريسي ، فكيف السبيل الى ذلك واحد الثلاثة يقيد نفسه بانكثرة ويسجل في بند من بنود المعاهدة تفضيله اياها على سواها من الدول الاوروبية . فقلت مصرأ :

خير لكم يا مولاي ولانكثرة ان لا نذكرها في المعاهدة . واني لا اري ما يوجب ذكرها هنا خصوصاً في معاهدة بينكم وبين امير عربي آخر .

كنت افكر دائماً بالملك حسين الذي رغبت في خدمته خدمة حقيقية تقرب امرء العرب منه وتربطهم بالمعاهدات واياها ، خدمة تفيده اكثر من ارساله الوفود الى انكثرة وجنيف ، وكانت هذه الرغبة تشير بما افعل واقول . ولم يكن الامام يحيى ولا الادريسي مغبوتاً في عمل مجرد عن الاغراض السياسية والذاتية كلها . نخفت ان يفسده ذكر انكثرة ، فيرفض الملك ان يوقع المعاهدة بسببها وينكر الامام كذلك مساعي الملك في سبيل الصلح بينه وبين الادريسي . لذلك دافعت عن نظريتي بكل ما عندي من حجة وبقين . ودافع السيد عن نظريته لا اعتقاداً فقط على ما اظن ، بل رغبة بالمحافظة على صداقة الانكليز . فلما خرجنا من المجلس تلك الليلة هنأني فضل الدين وقال : قد نلت من الامام ما لم ينله احد قبلك .

جاءت المعاهدة وليس فيها ذكر بريطانيا العظمى ولا كلمة تشير اليها . وكان الانكليز مع ذلك راضين بها . مما دل على ان انكثرة لا تعارض في عقد معاهدات ولائية اقتصادية — دفاعية كذلك — بين امرء العرب اذا وُفق الامرء الى من يسعى في هذا السبيل سعياً فيه نزاهة ووطنية حققة ، ثم شيء من الاعتدال والانصاف .

وها اني اثبت من هذه المعاهدة ما يختلف في موادها عن المعاهدة بين الملك حسين والامام يحيى .
التمهيد واحد في المعاهدتين .

المادة الاولى : البلاد العربية اقصاها وادناها بلاد اسلامية لا تقبل التفرقة والتجزئة وانفكاك بعضها عن بعض من حيث الجامعة الدينية والقومية والوطنية واتحاد اللسان . وليس المراد من عدم قبولها التفرقة تغيير اشكال اماراتها الموجودة وتحويل امرائها وحكامها المشهورين المعلومين الذين يتولون ادارة شؤونها واعمالها وسياسة داخليتها . وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية ^(١) وتوحيد السياسة على وجه يرضاه الله ونصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تحل باستقلال البلاد العربية ^(٢) على ما سيعرف من المواد الالية .

المادة الثانية : يعترف جلالة الملك لسيادة الامام الادريسي بالامامة ويعترف سيادة الامام لجلالة الملك بالملك ^(٣)

المادة الثالثة : يختص جلالة الملك بسياسة ماتحت ادارته في الحجاز وغيره داخلية وخارجية . ويختص سيادة الامام الادريسي بادارة بلاده الداخلية والخارجية . وليس لاحدهما ان يعقد معاهدة اجنبية في ما يتعلق بادارة الثاني من البلاد ، ولا ان يتدخل بادارة داخليتها لا خاصة ولا عامة ^(٤) الا بعد المشاورة والاتفاق بينهما . واذا فعل احدهما شيئاً من ذلك او عقد مقابلة اجنبية في ما يتعلق ببلاد الاخر منفرداً فلا يعتبر ما فعله

(١) قبل السيد محمد بالنس الذي قدمته وهو هذا ، وانما المطلوب اجتماع الكلمة القومية راجع شرح هذه المادة في معاهدة الامام صفحة ١٩٢ من هذا الجزء .
 (٢) راجع الشرح في معاهدة الامام صفحة ١٩٢ من هذا الجزء .
 (٣) كان قد اعترض الدكتور فضل الدين على هذه المادة لان المادة الثالثة تقي بالعرض المطلوب . فقبل حضرة السيد اعتراضه . ثم جاءني منه مع نسختين من المعاهدة الرسبية هذه الكلمة : بعد اهدائكم التحية الزاهرة . صدرت نسختان احدهما بدون مادة الاعتراف بالامامة والملك حسبما اعترض جناب الحكيم البارحة لانتنا نظرنا لذلك بعدئذ معنى صحيحاً . وفي الاخرى تلك المادة . فلنكم الجبار في اية النسختين اردتم .
 (٤) كان قد اصر الامامان بالوقوف عند هذا الحد فاقتنعتهما باضافة الجملة الشرعية بعدها اي « بعد المشاورة والاتفاق بينهما » الى اخر الجملة اي « فلا يعتبر ما فعله ولا يعتمد عليه » والعرض منها تقيدهم في ما يمهّد السبيل الى الوحدة العربية .

ولا يعتمد عليه . وليس لاحدهما تقض مقابلة سابقة لتاريخ هذا الاتفاق من الطرف الاخر في ما يتعلق بخاصية عاقدها وبلادها ، ولا تعتبر في بلاد الثاني الا اذا تم الاتفاق على ذلك . ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين على الوجه المعتدل حتى يصلح كل فريق الجهة التي اليه ويعد بها المعدات اللازمة وقت الحاجة للطرفين ^(١) ولو كانت جرت المذاكرات بالوافق مثل ما جرت الان قبل سنة تقريباً لتمكن الجميع من اختبار الحدود المعتدلة وما يترتب عليها من الفوائد المشروحة اعلاه . حيث كان لا حائل بين الجوارين ولا منازع آخر بينها . اما الان بالنسبة للحدود فيكفي حصول التزام ثابت من جلالة الملك حسين لعدم الاعتراض في مسألة لواء عسير على فرض ارتفاع المنازع الاخر منه بالكلية ^(٢) او ارضائه بجزء لا يحول بيننا وبين جلالة الملك حسين في الجوار . وهذا يقتضي ان تقوم بسعي الاصلاح بينه وبين السلطان عبدالعزيز ابن سعود ^(٣) لاجل تمييز حدود معتدلة بين الاطراف الثلاثة .

المادة الرابعة : الاتفاق على مدافعة من اراد الاعتداء على احد الطرفين . وهذا حق المسلم على المسلم . والكل منا يبحث في تلك الحادثة والسعي فيها بما يمكن من الاصلاح سواء كان مما يرجع الى الخارج او المعارض في الداخل . فاذا لم يكن الا مجرد الاعتداء والبغي فيلزم كل من الفريقين المناصرة لصاحبه . ويلزم الامداد بقدر ما يمكن من مال او

(١) ما يلي اي من « ولو كانت جرت المذاكرة » الى اخر المادة ، اضافها السيد محمد . فارتأت ان تضمن في كتاب خصوصي الى جلالة الملك لانها جملة شرحية لا اساسية ، فلم يستحسن رأبي وامر ان تكون جزءاً من هذه المادة . وفي ذلك دليل اخر على سلامة نية السيد وتساعله رحمه الله .

(٢) يراد بهذا المنازع ابن سعود سلطان نجد وهو محتل مدينة ابها التي كانت قاعدة لواء عسير في الماضي .

(٣) ولا شك ان السيد الادريسي كان قد فاز بسعيه هذا الشريف لما كان بينه وبين سلطان نجد من الثقة والولاء .

الفصل الثاني عشر

جوارٍ و سادات

أئب ابليس في عاصمة ابن ادريس — اخبار العاصمة — الجارية المجرمة والسيد
 العادل والقاضي الذي نبتت في قلبه ريحانة الرحمة — ابو فراح — الدقليات
 الحسان — وفد ابن سعود — المناقشة بين الوهايين وعلما شتقيط — « لا
 تشعلوها يا ابنا نجد » — السيد الحضرمي — فصل الشعاذة عند السادة —
 الأتراك يعتقون الجوارى والعبيد — السبارة تسير — شجر الشورى —
 مظهر من مظاهر المد — سيد من الاماجد — مبدى — سوق الرقيق —
 « يلزمنا جارية للاستاذ » — سنوك الجوارى المنتظر — سيد من غير
 الاماجد — ضللنا الطريق في الليل — اللحية — السراب — الصليب —
 معادن الملح — القطن — آخر فرقانا في الرمل — السائق اصيب بدوار —
 السيد الحضرمي يقرأ الفاتحة — النجدة من القرية — بنت الجن

وقف الحاجب في الباب يقول : الحاج محمد . فنهض فضل الدين واستوى
 جالساً على الديوان . ومن هو الحاج محمد ؟ هو في عاصمة ابن ادريس نائب
 ابليس . درويش وجريدة اخبار وحجام ، وطبيب بطبيب العيون ، وبتاجر
 بالدر المكنون ، ويمارس كل الفنون . هو من مراکش ، جاء مثل كثيرين
 من اخوانه الى بلاد السيد حاجاً ، وبقي فيها ينتقل مع الامام فيعيش في
 ظله المغذي للروح والجسد معاً . والحاج محمد جبار ، يكسّر بيده الحجارة .
 صاغتته مرة واحدة وصرت بعدئذ اكتفي بالسلام من بعد عشرة اقدم .
 اعجب بتلك اليد ، يد ولا محالب البهيموت ، كل اصبع منها نبوت ، وهي مع
 ذلك يد ساحر ، يدها الى ادق اعضاء الجسم البشري الى العين فيشفيها —
 بشهادة الدكتور فضل الدين — من الآلام . يقبض السكين ، وبغيرها وغير
 الله لا يستعين . وما فشل مرة في عملية من العمليات ، ولا عصته العيون
 والحدقات .

لكن ذلك لا يؤهله لآكرام فضل الدين الذي كان يستقبله ولا يستقبل غيره
 في النهار . دخل يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، فجلس على الارض ، طوى
 نفسه على السجادة امامنا ، وبدأ باسم الله .
 — سافر الـ « مؤتر » الى صبيا منذ ايام وعاد اليوم كاملاً بكل اجزائه
 والحمد لله . وحضرة القاضي فيه سالماً متعافياً باذن الله . وقد وفق بين
 السيد وجارية من جواريه جاءت تشكوه الى مولانا . ولدت هذه الجارية
 ابنة فلم تعش يوماً كاملاً . فعول السيد على بيع الجارية فاحتجت معتصمة بالشرع
 والحق في جانبها لانها ، وقد ولدت له ولداً ، اصبحت زوجة شرعية . ولكن
 السيد يقول : هي جارية نجس ، جارية جانبية . لو انها ولدت ابنة حية لما استحقت
 ان ارفعها الى مقام الزوجة فكيف وهي تخبثني بالاموات . جانبية تستحق فوق
 البيع الذبح . ولكنني ارحمها واييها فقط . فقال القاضي ، وقد نبئت في قلبه
 ريحانة الرحمة : بمثلك وانت من اهل البيت بليق العدل وبليق الخنان . فقد قال
 صلى الله عليه وسلم . قال : نسبت يا دفتور الحديث . ولكن القاضي اقنع السيد
 فدخلت التقوى والخنان الى قلبه . فقاطعه فضل الدين قائلاً : نار الجحيم في
 قلبه . فقال الحاج : ولكنه رحماً يا دفتور . قال لها : ساشرفك بينرتي مرة
 اخرى فاذا جثتني بولد ذكر حي كان لك ما تريدن . والا اتبعتك بابنتك .
 قبلي يد القاضي ، وركبته ، ورجله . واشكري الله على مجيئه . وجيزان تشكر الله
 على عودته سالماً في الـ « مؤتر » .
 رفع الحاج محمد رأسه ومسح بطرف قميصه العرق من جبينه ثم طوى نفسه
 ثلاث طيات — اليديه على كعبيه وصدره على ركبتيه — ومسد عنقه نحو فضل
 الدين وهمس قائلاً : سيدخل عم مولانا الامام على فتاة اخرى . ابو فراخ
 يعني شراه فرخة سوداء . وزاح امس يستأذن صهره . وراحت المسكينة الى الامام
 تبكي وتستغيث . فقال الامام الى عمه الشائب : لا اسمح لك بها الا اذا كتبت
 كتابك عليها . اخذت ابنتك بالكتاب والسنة فكيف احل لك ما لا احله
 لنفسي . فقبل ابو فراخ بذلك وسيدخل الليلة هذه الليلة على الفرخة الدقلية . .

لا والله ما رأيتها ولكني سمعتهم يقولون انها اجمل ما جاء من وراء البحر .
درة سوداء .

ورقع الحاج رأسه وصعد الزفرات ثم قال : والسيد . . . عافاه الله وحجب
عليه . جاءته إحدى جواريه بولد . . . ابعده الله الدنقلبات عن بيت اسبانا .
فرخة سوداء ، رأس البلاء ، في كنف ادريس . الادارسة يا دكتور يذبجون
انفسهم ولا يذبجون سود الفراخ .
ضحك الدكتور وامر له بالقهوة فشرب الحاج ومسح بقميصه العرق من
جبينه ووجهه واستأنف الحديث .

— سيرجع غداً وفد ابن سعود . اعطى مولانا كل واحد منهم كيساً
وكسوة . وقد كانوا ليلة البارحة في المجلس الشريف فتناشوا وعلماء شنيق في
التوحيد والاولياء . خفت والله على الشناقطة من هؤلاء الوهابيين . تذكر الرجل
الذي ذبح ابنه في ابها لانه اقترى على زوجة ابيه وفر هاربا الى صيبا ، فقبض
عليه فيها وسجن بامر من الامام . جاء كتاب من عامل ابها يقول فيه : ارسلوا الجاني
الينا . انتم لا تحسنون القصاص . شرائعكم لا تنفع . عندكم محاكم وتأجيلات
وتعويضات ورشوات . حيلوه علينا عندنا السيف . وامس قال احد هؤلاء
الوهابيين : لا يظهر الاسلام من الشرك الا السيف . وهو حججهم الوحيدة .
من يصلي الى العظام في القبور ويستغيث بالاشجار والحجار يشرك بالله ،
يكفر بالله ، والكافر يقتل . فرد عليه احد علمائنا بقوله : وانتم تستغيثون
بالنبي ، انتم كذلك مشركون . فقال الوهابي : نذكر النبي اجلالاً ولا نستغيث
به ابداً . فقال علمنا الذكر والاجلال يتضمنان الاقتداء ، والاقتداء هو ضمناً
النداء ، وفي النداء الاستغاثة . فقال الوهابي : هذا ابهام وكفر الابهام اشد
من الكفر الصريح . دامت المناقشة ساعتين فدخل اذ ذلك مولانا فقال :
لا تشعلوها يا ابناء نجد . وجادلهم بالتي هي احسن . ثم قال والانكليز مشركون
وليس علينا ان نهديهم الى الدين الخنيف . . . من آمن بالله وباليوم الاخر وعمل
صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم « الاية » ونحن اصدقاء الانكليز . نخلص لهم منا

داموا مخلصين لنا ، وانتم في نجد كذلك ان الله يهدي من يشاء . هذا ما قاله مولانا الامام . وقف الحاج محمد هنيئة وقد عمد الى طرف قميصه فرها اولاً وثانياً على جبينه ثم دنا من فضل الدين هامساً : سنبوك جوارر يصل الى ميدي بعد يومين . ثم مال بوجهه الي وقال : السيد الحضرمي يسلم عليك .

كنت قد نسبت رفيقنا في الباخرة . وها ان الحاج محمد يثبت ما قاله فضل الدين . — قرأ السيد قصيدة في مجلس الامام يمدحه فيها فامر له مولانا بمئة ليرة ، وهو عائد معكم في ال « موتر » الى الحديدية .

وثب فضل الدين لهذا الخبر عن الديوان مستعيذاً بالله . ثم دعاني وهو واقف امام الشباك لاشاهد ما شاهده في ذلك الحين فرأيت في الرواق الخادم ابكر — السيد ابكر — وحوله بعض ابناء قريته جاؤوا يسلمون عليه ويقبلون يديه — هذا سيد ولكنه خادم مخلص . لا بأس اذا قبل يده ابناء بلده . ولكن في السادة الشعاذ واللص والزاني والقاتل والمتاجر بالرفيق . والناس يقبلون ايديهم وركابهم . ان مراوغة^(١) مدينة السادة ، كلها سادات وفيها من كل من ذكرت . ينزل السيد الى السوق حاملاً السلة فيملاها مما يحتاج اليه خضر وحبوب ولحم وحلوى ، دون ان يدفع غرشاً واحداً . ولا احد يقول : لا . ولا احد يجراً ان يمنع رزقه عنهم . وفي اشهر رجب ورمضان وشوال يخرج السادة يشحذون . رمضان والشهر السابق واللاحق ، هذا فصل الشعازة عند السادة . جاء في الكتاب : وأنذر عشيرتك الاقربين ، فمن ينذرها اليوم ؟ عادات وخزعبلات وقبايات يبرأ منها الاسلام . اذا تزوج السيد ابنة من غير آل البيت وولدت له ابناً فمن الواجب عليها ان تقبل يده وركبته ورجله كل يوم لانه سيد ولانها من عامة الناس . وابنها يحقرها ، ينظر اليها نظراً الى العبد . مثل آخر : سيد عنده جارية وخادم متزوج بامرأة حرة . فزوجة الخادم تحقر جارية السيد ولا تحترمها ولو صارت امماً وزوجة شرعية . وكثيراً ما يحدث في مثل هذه الحال ان السيد يبيع الجارية من خادمه ويكرهه

(١) مراوغة هي على مسافة عشرين ميلاً شرقاً من الحديدية .

على طلاق زوجته فيتزوج بها . فساد لا يطهره غير الجحيم . . . من فضل الاتراك
انهم كانوا يعنقون الجوارى والعبيد ويعطونهم شهادات العتق . وكانت السادة
يوم كان الترك في البلاد يعتبرون هذه الشهادات . اما الان فلا قيمة لها . . . ولا
تظن ان سادات حضرموت ارقى من سادات اليمن . هذا واحد منهم عرفناه
رفيقاً وسيرافقنا مرة اخرى اعوذ برب الفلق .

ولكننا علمنا بعدئذ ان حضرة السيد سبقنا الى ميدي وسيرافقنا من
هناك . فقال فضل الدين : والحمد لله الذي دفع عنا بعض البلية . ركبتا السيارة
صباحاً بصحبنا جندي من جنود الامام ، وهو سيد من سادات اليمن الاعلى
يناهز الستين عمراً ، دقيق الانف والتم واليدين ، حليق الشارب ، ابيض
الملحية ، بهي الطلعة ، لطيف الحيا . جلس بعد ان سلم الى جنب السائق ،
وبندقيته بين يديه فسرنا نبغي ميدي التي هي على مسيرة ستين ميلاً من جيزان .
وكان السهل الذي رحنا « نموتر » فيه كبلاد حرب كله درب . مررنا بمعدن
ملح هو للحكومة قرب قرية تدعى مضايه . ولم يكن في الارض حولنا ما
يريح النظر من السبخات غير شجر الشورى الذي كانت صفوفه تمتد اميالاً الى
جانب الشاطي . كانها جدار اخضر قائم بين البحر والسهل . اما قشر هذا الشجر
فابيض مثل عوده والمتكسر منها شبيه بالعظام يجمعه العرب حطباً . واما الورق
الشبيه بورق الغار فيرعاه الغزلان . كنا نرى اسراباً منها عادية ، شاردة ، نافرة
من كل ما تحرك في تلك الارض سواها .

وفي تهامة مظهر من مظاهر المد غرب . ان مياه البحر تجري تحت
الارض ، خلال شقوق في التربة رملية ، فتسرب الى مسافة خمسة اميال في
بعض الاماكن . ، وتظهر فوراً في السهل بمحيرات مالحة ، تجف في الصيف
مياها فتبدو سبخات موحلة لزجة اذا علفت السيارة فيها استحبال على غير الجمال
جرها منها .

عجبت لسكوت السيد قدامي وتأدبه . سألته سؤالاً فأدار بوجهه واجاب
بصوت لطيف ولغة فصيحة انه من عرب حاشد ، من الحوارث فيهم ، وان

جبال حاشد هي كالحلقة حولم . نعم ، هو زيدي ولكنه منذ عشر سنين « في خدمة هذا الامام » اي الادريسي . بعد ان اجاب سؤالي امال وجهه وسكت . أعجبتني من الرجل محاسن ثلاث فيه ظاهرة - حسن طلعته ، وحسن منطقته ، وحسن ادبه . وهو سيد زيدي . بل هو سيد من الاماجد ، شريف حتى اطراف انامله كما يقول الانكليز . وفيه برهان جلي على ان في التعميم ضللاً . اجل ، ان في السادة كما في طبقات الناس كلها ثلاثة رجال ، الشريف طبعاً ، والشريف وراثته ، والذي لا شرف له .

وصلنا الى ميدي التي هي على مسيرة ساعتين في السيارة من جبزان قبل ان يشتد حر الشمس ، فاقمنا فيها يوماً نستطلع احوالها ونستكشف اسرارها . اما الاسرار فهي والحريم في بيوت القش الهرمية ، واما الاحوال فاول ما يظهر منها اناس اكثرهم من السود والمولدين بزدهمون في اسواق تبارهم فيها اروائح والافذار .

ولكن للاشغال ، للصناعة والتجارة ، اثرأ باهراً فيها لا تجد مثله حتى في الحديدة . ذلك لان ميدي اليوم هي كجبزان في اثناء الحرب العظمى ، وقد كانت المدينة الوحيدة على شاطي ، البحر الاحمر الغربي المفتوحة للبواخر والتجارة فتسير القوافل منها الى العقبة ، عقبة اليمن ، فجبال عسير ، وفي السهول شمالاً الى جده . اما تجارة ميدي فاكثرها بالسلاح و بالرقيق و بالتهريب . اذا احتاج امام صنعاء مثلاً الى الذخيرة والبنادق يشتريها في ميدي او يطلبها لترسل عن طريق ميدي . واذا اراد احد تجار الحجاز ان يهرب بضاعته فلا يدفع عليها رسوم الجمر ك يستجلبها الى ميدي ، ومنها برأ الى جده . واذا اراد احد السادة شراء جارية حسنة يجي . الى ميدي فلا تفضل خطاه ومناه . وانك لتجد فيها اللؤلؤ ودهن السمسم الذي يعصرونه بين حجارة تدبرها الجمال ، والبنديات السافرات اللواتي ينفرن من آلة التصوير نفور الغزلان . ولا غرو وشهرة ميدي هي في المحرم الممنوع ، اي في الرقيق والسلاح ، وسهام الملاح . ان الدكتور فضل الدين في صفته الرسمية والخصوصية هو رقيب المتاجرين

بالرقيق وعدوم الاشد . اخبره الحاج محمد المغربي بان سنبوكاً من الجوارى يصل
قريباً الى ميدي فباشتر عند وصوله البحث والاستقراء . جاء احد « اصدقائه »
من تجار الرقيق مسلماً . فسأله كيف السوق ؟ فقال : واقفة يا حكيم .
— يلزمنا جارية للاستاذ .

— غرضك يا حكيم على الرأس والعين . ولكن لا يوجد اليوم . لا والله
ولا واحدة .

— ولا عند اصحابك ؟

— لا والله السوق واقفة . لم يدخل ميدي سنبوك واحد منذ شهرين .
— غرض الاستاذ عزيز لدينا . فنش ولو على دقلية . والتمن برضيك .
— سنبدل الجهد . غرضكم يا حكيم وغرض الاستاذ على الرأس والعين .
راح ولم يرجع . وجاء اخر فكانت اجوبته تومي الى ريب في نفسه بحسن
نية الوكيل . فانكر بتاتا .

— لا جوارى في ميدي ، ولا احد يتاجر بالرقيق اليوم . لا والنبي ولا
احد يشتري .

— وها من يشتري ويدفع ما تشاء . هات لنا ولو سودانية .

— توكل على الله غرض الحكيم نشتره بعيوننا .

وراح كذلك ولم يرجع . ثم جاء رجل طويل القامة ، طويل الشارب ،
اجش الصوت ، جاحظ العين ، فسلم سلام الاحباب وتربع على الديوان .

— ستري قريباً ما يسرك يا حكيم . والله ما نبغي الا خدمتكم وخدمة
مولانا السيد . لا يوجد جارية واحدة اليوم في ميدي . نظفنا البلد . والتجار
كلهم يلعنوننا . لا بهم والله اذا كنتم راضين . اول سنبوك يدخل ميدي نحن
ورجالنا نخرجزه باسم مولانا ونعلمكم بذلك .

وقد علمت بعدئذ ان الرجل من اكبر تجار الرقيق في تهامة . له قصر كبير
بين ميدي والحديفة يستخدمه لتهرب الجوارى والسلاح . والرجل عالم بقصد
الحكيم ويظن انه يخادعه . على انه ينجح احياناً في ما يمتثال به . فاذا حجز

سنبوكاً مرة في السنة ومسلم من فيه الى الحكومة يشتريهن بعدئذ بواسطة احد رجاله و يأخذهن الى القصر .

سأله فضل الدين عن السنبوك المنتظر وصوله فقال : بعد شهر في الاقل .
صاحبه سافر البارح الى جيبوتي ^(١) عيننا عليه ، كن مطحمن البال .
وقد يكون « صاحبه » احد رجاله . عرفنا بعدئذ انه كان صادقاً في بعض ما قال . ولكن الرجل لم يسافر الى جيبوتي . ان في هذا الخبر بداية حادثه يجي .
ذكرها في الفصل الثاني .

زلنا الساعة الثانية بعد نصف الليل الى الساحة لتركب السيارة فلقينا هناك رفيقنا السابق السيد الحضرمي وهو ينتظرنا .
وضع الخادم ابكر امتعة سيده في السيارة عند ارجلنا وأحكم بيننا حقيبة جاءت شبه مسند استندنا اليه . ثم اشار فضل الدين الى السيد ان يجلس جنب السائق . فابى وقال : ارفعوا هذه الحقيبة فاجلس معكم .
فضل الدين : يد الاستاذ تؤلمه وهو يحتاج الى شيء . يسندها اليه . تفضل اجلس قدامنا .

السيد : مثلي لا يجلس جنب السائق .
فضل الدين يتلو الفاتحة ، والسيد يحوقل ، ثم : اجلس او نمشي . فهز السيد رأسه ، فامر فضل الدين السائق بالسير ، فرفع السيد امتعته الى السيارة وصعد الى جنب السائق وهو يتلو الفاتحة . فقلت انا مع الاثنين : اهدنا السراط المستقيم .

والظاهر انه لم يكن فينا احد ممن انعم الله عليهم . اذ ان السيد هو سيدُ برج النجوس فنجذبنا كئنا اليه في تلك الساعة وحجب عنا سواء . بل اعمانا فبننا لا نعرف في السماء نجماً تهدي به . ضللتنا الطريق ، وبقينا ساعة ندور في سهل كله درب مثل بلاد حرب ، ولا اثر فيه يرى لدواليب هذه السيارة المباركة التي لم تزل طفلة في البلاد . بعدنا في الدوران ثم عدنا فدنونا من

(١) مدينة على ساحل بلاد الحبشة جنوباً وهي مستعمرة فرنسية .

ميدي ، فمن الله علينا برجل هدانا السراط المستقيم . ثم ضلنا ثانياً وثالثاً قبل ان نصل الى حبل ، وهي القرية التي فيها قصر التاجر بارقيق ، وعدنا انفاقاً او وحيماً الى اثر الدواليب المتقطع الذي كان يبدو ويختفي في نور القمر الضئيل .

وصلنا الى اللحية عند شروق الشمس ، فالفيناها كالحديدة حافلة بآثار القنابل الايطالية والانكليزية ، لانها ضربت مرات من البحر في الحرب الايطالية التركية وفي الحرب العظمى . الا انها لا تزال على شيء من العمران في ابنتها الكبيرة ، وفي اسواقها التي لا تشبه اسواق ميدي بالروائح والافذار ، ولا بالناس وحركة الاشغال . هي قريبة من البحر ولا تزال الكياسة التركية بادية في بعض ارجائها ولا سيما في دائرة الحكومة ، حيث استقبلنا بعض الافاضل من عسير ومن الحجاز كانوا سابقاً في خدمة الدولة ، منهم رجل له ابن في الرويس كان حاضراً ليلة الوليمة والرقص التي احياها جلالة الملك حسين اكراماً لي فكتب الى ابيه يصفها . ومما قال : وكنا ساعة الفجر لا تزال نرقص حول النار . هذا اجمل ما سمعت في وصف تلك الليلة التي وصلت اخبارها الى اليمن .

اما سكان اللحية ، وفيهم الصومالي والسوداني والموآد ، فلا يتجاوز عددهم اليوم الخمسة الاف وهو خمس سكانها قبل الحرب . وفيها ثكنة مجهزة وقلعة متهدمة ، واخرية كما قلت كثيرة . فقد كانت في اخر الحرب العظمى هدف الرصاص والنار من البحر ومن البر ، لان عساكر الادريسي بقيادة ضابط انكليزي كانوا مخندقين خارج المدينة ، وكانت ابو حلق على مسيرة ساعة منها جنوباً ، في يدهم . فتجيشهم الذخيرة والمؤونة والماء كذلك من المراكب الحربية . وما عم ان تغلب الاسطول الانكليزي فخرج الترك من المدينة ودخلت عساكر الادريسي اليها . وبعد قليل وصل الى تلك البلاد خبير الهدنة فأرخبه الانكليز هكذا : ١١ - ١١ - ١١ ، اي ان الخبر وصل الى اللحية في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر من

سنة ١٩١٨ كان السيد مصطفى يومئذٍ نائباً عن ابن عمه الامام والدكتور فضل الدين طبيباً في الجيش الادريسي . فنزل بعض الضباط الانكليز الى البر يعيدون معها للخبر السعيد . احتفلوا بالنصر وبانتهاء الحرب في بلاد لا تنتهي والاسفاه فيها الحروب .

استأنفنا السير صباح ذاك اليوم فمررنا ونحن قريبون من الشاطي . بالتحفة وهي قرية صيادين ، وكذلك بالخبز التي لم يكن فيها ساعتئذٍ غير الاولاد . فخرجوا جميعا يلاقوننا ويركضون ليسابقوا السيارة . وظل بعضهم وهم يشبون كالغزلان سائرين معنا بضع دقائق ، فنقمقروا الا واحداً ادهشنا في ثباته وعدوه . ثم سمعناه يقول للسائق : دآء دآء ، اي على مهل . كأنه اراد ان يرافقتنا بل يسابقنا الى الحديدية .

سمعت السموات والارض طلبه الولد ، فوقفنا فجأة ، وقفنا تماماً . غرقت دواليب السيارة في الرمل ، فخرجنا كنا الا السيد الذي ظل جالساً ، وجاء الولد بساعدنا فدفعناها الى الامام . اخرجناها مع من فيها من الرمل وعدنا الى محالنا وفضل الدين يقول : والحمد لله يا سيد . فاجاب بلا خجل ولا اعتذار : والحمد لله .

دع السيد يادكتور واستقبل السراب . هوذا السراب ، وقد تراءى لنا بعيداً فظنناه لاول وهلة احدى تلك البحيرات المألحة التي تنسرب اليها مياه البحر ، او لساناً من البر امتد اليه . وكانت اكواخ القرية تنعكس في السراب فيشبه ظلها ظل الاشجار — ظلل في المياه ، ولا مياه ولا ظلل . اما لون السراب فكان اشبه بلون السماء منه بلون البحر . لذلك كنا نرى قرية ابن عباس كأنها واحة في وسط البحيرة او بستان معلق في الفضاء ، تحته وفوقه السماء . ولما دنونا منها بدت اكواخاً لا ريب فيها ، وكانت المياه اي السراب المحيط بها يتقهقر ويصغر كلما تقدمنا حتى غاب رويداً رويداً عن الابصار .

بعد ان اجتزنا ابن عباس غرقنا ثانية في الرمل ، فخرجنا ندفع ونجر ، والسيد في مكانه لا يتزحزح . فرجوتاه ان يتفضل فينزل في الاقل فتخف

علينا المصيبة ، ففعل متردداً . وما كادت رجله الشريفه تطأ الارض حتى
تحركت الدواليب وجرت السيارة باسم الله ، فركض السيد وراها وهو يظن انها
ستستمر جارية .

وصاننا الى الصليفي المشهورة بملحها . وقد كانت قبل الحرب عامرة بشركة
انكليزية منحتها الدولة امتيازاً لاستخراج الملح من ارضها . انها لقرية
جميلة قائمة على طرف هلال من البر في البحر ، والهلل ذبل ضلع ابي
جبل يمتد شرقاً الى الزيدية في سفح جبال اليمن . خطر لي ونحن نجتاز هذا
الجبل الضيق الطويل ، هذا الضلع في الارض ، خاطر قد بهم الانكليز
والامامين اذا كانوا حقاً يبعثون الصلح . ها هنا الحدود الطبيعية في تهامة
بين اليمن وعسير ، بين امام صنعاء وامام جيزان . فتكون الزيدية وما دونها
جنوباً للزيود ، وتكون الصليفي وما دونها شمالاً للادارسة . والجبل فاصل
بين الاثنين .

تغيرت التربة دون ذلك الجبل جنوباً فقأت فيها السبخة وكثرت الرمال .
وقلت كذلك المياه المالحة وبدت هنا وهناك ، في النبات والاشجار ، دلائل الماء
القراح . فهاك السلم والاب والعشر والتخل . وهاك دلائل الاجتهاد في بقعة
من القطن شاهدنا غيرها في الطريق بين دير البحري وعجلانه . تبارك الماء
العذب ولكن الرمال كنا قد علقنا ثلاث مرات اخرى فيها وما كان
السيد يشرف الارض برجله الا بعد ان ندعوه رسمياً ونرجوه .

انصف النهار واشتد القيظ الى درجة يكاد لا يحتملها حتى ابنا البلاد ،
فكنا ونحن نساعد السيارة على عدوها الرمل نحس بالنار تحتنا فتحرق
ارجلنا . وكان السيد الحضرمي يزيد بالطين بلة في سلوكه يغيظ حتى الاولياء .
فضل الدين ، ويده على السيارة ورجلاه مثل دواليبها في الرمل المحرق :
يا سيد يا ابن النبي تعال ساعدنا والاتبقي هنا . فنزل هذه المرة السيد ولبس
نعله وجاء على مهل يعيننا فوضع يده على السيارة وهو يقرأ الفاتحة كأنه يريد
تسييرها باللمس والصلاة . فازدادت السيارة تمرداً ، وفضل الدين غيظاً ، فقال :

سيادتك مثل السراب ، بل السراب احسن لانه يسر العين .
 كنا ساعتئذ في اشد حالنا أصيب السائق بدوار فوقع مغشي عليه ،
 وكنت انا اقع كذلك من شدة القيظ والعياء ، وفضل الدين وحده يعالج السيارة
 ويستعين بالله من برج النحوس . فارسلنا السيد الصالح ابكر الى تربه اقرب
 قرية منا يستنجد رجالها ، فعاد بعد ساعة ومعه بعض الاقوياء من العرب
 وال سود يرأسهم قزم جبار سلم علينا فاضمحكنا ، وحرك السيارة فادهشنا وملاً
 قلوبنا ابتهاجاً .

— السلام عليكم وعلى بنت الجن . هل تبغون تكسيرها او تسييرها . اذا
 تبتم الى الله نكسرها وننزلكم عندنا وتركبون غداً الهجين مثل المؤمنين .
 خلصونا مما كنا فيه ، بارك الله فيهم ، واخذ الصغير البخشيش فنقاسمه
 ورجاله وودعنا قائلاً : احمدوا الله وتوبوا اليه . ولا تقعطوا الحمد ما دمتم في
 بنت الجن هائمين .

ما كدنا ننهي من الحمدلات حتى بدأنا بالحوقلة . وكان السائق لا يزال
 متأثراً مما اصابه ففاصت السيارة للعرة العاشرة وعلقت الدواليب و — قم
 يا سيد !

فقال السيد المحترم : لا اقوم ولا انزل حتى نصل الى الحديدية . فقلت ،
 وكانت شعلة الغيظ قد اضطربت في ايضاً : ستنزل هنا وتبقى هنا . ان من
 يراك يظنك قوياً نشيطاً ولكن لا قوة فيك لا جسدية ولا روحية ،
 يا لضيعة النسب .

لم يجب الرجل بكلمة . وظل ساكتاً حتى وصلنا الى الحديدية فودعنا هناك
 واعتذر عما بدا منه .

وبعد يومين جاء الخادم يقول : رأيت السيد الحضرمي في السوق
 والتجار الحضارمة يمشون وراه بعيد بن عنه ، وهو يمشي ويهز كتفيه كأنه
 حاكم البلد .

ثم طلعت انه من كبار سادات صييون ومقامه هناك شبيه بمقام اسقف

عندنا . فمثلت لنفسي اسقفاً رفيقنا في السيارة نجلسه جنب السائق ، ونستعينه
على جرها من الرمل ، وتقول له فوق ذلك : انت مثل السراب . بل السراب
احسن منك لانه يسر النظر . فاسفت لما بدا ، ووددته رفيقاً مرة اخري لا كافر
عن ذنب كان فيه ، سامحة وسامحنا الله شريكاً كريماً .^(١)

(١) جاءتني جريدة عربية تطبع في جاوه وفيها مقال طويل كتبه احد الحضارمة هناك
يدافع فيه عن هذا السيد الحضرمي ، كبير قومه ، وفخر السادة العلماء ، ويطعن علي طعنات
عجيباً ، كسف الربط فيه كل اثار العلم والادب في صيرون . ولكن الكاتب لم يتصد لنفي
شيء مما جاء في هذا الفصل والفصل السابق من اخبار السيد المعترم .

الفصل الثالث عشر

تجارة الرقيق

المراقبة في البحر الاحمر - الحكومة الانكليزية في عدن - الحكومة الافرنسية في جيبوتي - سلطان تاجورا - بلاد الحبشة - مصدر التجارة - رئيسها الاكبر - حديث مع الوكيل في عدن - الشريعة تقيد الوجدان - في الحجاز يحللون النخاسة - الحكومة الحجازية تقاومها ظاهراً - حادثة المدينة - الوكيل يحاول توقيف السنوك وتخليص الارقاء - الحكومة تأذن بنزولهم الى المدينة - كتاب الى عامل المدينة - الارقاء يساقون ليلاً الى ميدي - آيات قرآنية واحاديث نبوية تأمر بالاعتاق - التبعة على السادة والاشراف .

ايما رجل كانت له جارية فأدبها

واعنقها وتزوجها فله اجران .

حديث شريف

كنت انكر وجود النخاسة في العالم اليوم ، فبحثت هذه البلاد ورأيتها بعيني . كنت اظن ان التجارة بالرقيق محرمة وممنوعة شرعاً في هذا الزمان فغاب في البلاد العربية ظني . كنت اؤمل ، على فرض وجود الرقيق والنخاسة ، ان تكون الحكومة ناهضة للامر متعقبة المجرمين ، ساعية في محق هذه التجارة المستنكرة ، الاثيمة ، فوجدتها في الحجاز وفي عسير نائمة واسفاه او متناومة ، او عاجزة . بل وجدت الحكومة احياناً حليفة الاشقياء .

اما الحكومة الانكليزية بعدت فلها بعض الفضل في المراقبة في البحر الاحمر ، وفي ما تحجز بواخرها الحربية احياناً من السنايك حاملة الرقيق . ولكنها لا تكمل عملها . فهي بعد ان تحجز السنوك تطلق سراح العبيد والمستعبدين معا . او بالحري تعيد العبيد اذا شاؤوا الى بلادهم وتبعث الناخوذاه والنوتيين الى جيبوتي لتحاكمهم هناك الحكومة الافرنسية .

والحكومة الافرنسية الجيبوتية رعاها الله تحمي اكبر تجار الرقيق في بلاد الحبشة اي سلطان تاجورا^(١) . اما هذا السلطان الدقلي المستقل الذي لم اتشرف بزيارته فالذي يظهر من امره هو انه ابعد نظراً واكبر دهاء من الذين يحمونه . هو سلطان ، نعم . ولكنه كذلك عامل حاذق ، وتاجر ماهر ، يحب المال كثيراً ، وله في احرازه حرفتان غير « التسلطن » واحدة شريفة وهي السكافة - ليس في تاجورا من يحسن صنع النعال مثله - والآخرى ٠٠٠٠ تباركت ثمرة بطنك ايتها الحبشية . اذا كسدت النعال عند السلطان فلا تُنفذ الجوارى ولا تكسد سوقهن .

ان لسموه في بلاد الحبشة رجالاً يبيئونهم دائماً بمن يتعاونون او يخطفون او يستغفون من البنات والصبيان ، وهو يبيعهم من تجار الحجاز وعسير . الى تاجورا اذن لا الى جيبوتي يبيي ، تاجر الرقيق ، فيرحب به السلطان الاسكاف ، ويفتح له الكيس ، فيملأه التاجر ذهباً وفضة ويعود بسنوك الى بلاد العرب ملؤه الجوارى والعييد . قد قيل لي ان الحكومة الجيبوتية الافرنسية تقام السلطان الدقلي ارباحه في هذه التجارة المستنكرة . ومما لا ريب فيه انها تحسن معاملته وتكرمه وتجاهله . دعاه مرة الحاكم الافرنسي لينزل بضعة ايام ضيفاً عليه في جيبوتي ، فقبل السلطان الدعوة .

جاء الى جيبوتي يزور الحاكم فاستقبل استقبالاً يليق بمقامه وانزل في قصر نغم فرش ورياشه من باريس . تحدث السلطان نفسه ان هؤلاء الافرنسيين تجار مثله ويربحون من بلاده ارباحاً كثيرة . فلماذا لا يقتدي بهم ؟ اغتم السلطان هذه الفرصة الثمينة فدعا تجار المدينة الى القصر ، وباعهم كل ما فيه من فرش ورياش ، ووضع المال في كيسه وعاد الى قاعدة ملكه .

ان تاجورا اذن مصدر التجارة بالرقيق ، وان سلطانها ، وهو تحت الحماية الافرنسية ، سلطان تلك التجارة . افتعجب بعد ذلك من فساد المدينة الغربية في الشرق ونفور الشرقيين منها ؟ حدثت وكيسل المعتمد في عدن بالامر فقال (١) تاجورا مقاطعة حبشية مستقلة شرقي جيبوتي شبيهة بالنواحي التسم المعية حول عدن

ان لا حق لهم من وجهة شرعية بمعاينة النخاسين لانهم غالباً من بلاد لا سيادة لهم اي للانكليز فيها . فقلت : ومن جهة ادبية ، ومن جهة دينية ، ومن جهة محض انسانية ؟ اذا جردنا المدنية الغربية من الادب والتهذيب والحب الانساني فلا يبقى فيها ما يؤهلها للسيادة يوماً في الشرق . واذا المعتمد مثل بنخاس من تهامه او من الحجاز او من اليمن فامر بشنقه في ساحة عدن ايقظ ان السيد الادريسي او الملك حسين يحتج عليه ؟ واذا احتج ملوك العرب كلهم انظن ايها القاري ، ان العالم المتتمد ينصرهم في هذا الامر على الانكليز مما كانت حقهم الشرعي ؟ اينصرهم العالم والنبي نفسه بأمرهم باعتراف الرفيق ؟ اني انصر كل من يسعى في محق النخاسة وان تجاوز حدوده الشرعية على من يحميها او يتغاضى عنها وان كانت حكومته مقدسة .

ان في الحجاز من يملون ويحبذون النخاسة ومنهم من بأسف انها غير مستمرة وبلعن المراقبة الانكليزية الا اني سمعت ان الملك حسين يستنكرها وينهي عنها وان حكومته تسعى في مقاومتها واستئصالها . فشرعت ابحت لا تثبت الامرين . لا ريب ان جلالة الملك حسين يستنكر العبودية وهو اعلم الناس بما جاء في القرآن وفي الحديث بشأن الرفيق والاعتناق . ولكن حكومته واسفاه هي يوماً نائمة ويوماً متناومة . وقد تأكدت انها تشارك النخاسين في ما تفرضه ضريبة على كل رفيق يدخل جده .

حدثت انها حجرت ذات يوم سنوياً من سنابيك الاثم والعار بما فيه من جوارر وعبيد فأوترهم واحسنت معاملتهم ثم - ماذا ؟ قد اطلعت على نسخة من تقرير الوكيل البريطاني في جده وفيه ما يلي : قيل ان الحكومة باعت الارقاء على حسابها . والحقيقة انها اذنت ببيعهم على حساب اصحابهم ، واكتفت بتحصيل الضريبة المفروضة اي خمسة وعشرين ريالاً على كل رفيق ييجي . النخاسون بالعبيد اما بجزراً في السنابيك واما برأ من ميدي . وقد اطلعت القاري ، على شيء من حال النخاسة في تلك البلدة واسمعته كلام بعض النخاسين وهم يخادعون الانكليز والحكومة الادريسية . على ان احد السادة قال لي واثبت قوله

بعض المتوظفين ان الحكومة واقفة للنخاسين بالمرصاد . بالمرصاد ؟ بعد وصولي الى الحديدية حدث حادث يدل على احد امرين ، اما ان الحكومة تقف بالمرصاد وتنام ، او انها لا ترصد الا عندما يكون الجو صافياً ، فلا ترى اذ ذاك ما يشغل البال .

اعود الى يومي قاتل منها ما يلي :

الحديدية في ٢ يوليو ١٩٢٢ — ٣ ذي القعدة ١٣٤٠

دخل على الوكيل مأمور الميناء يقول : سنبوك جوار رسا في الميناء والناخوذاه ورجاله دخلوا البلد . وقد اعلنا ايضاً انهم سائررون الى ميدي وانهم لم يرسوا في الحديدية الا لبيتاعوا بعض الزاد .

الوكيل : قل لمدير الشرطة ان يحضر حالاً .

بعد عشر دقائق حضر المدير .

الوكيل : هل علمت بسنبوك الجوارى الذي في الميناء ؟

المدير : نعم .

الوكيل : وكيف تأذن بدخول الناخوذاه ورجاله الى المدينة ؟

المدير : معهم اذن يا سيدي من الحكومة .

امر الوكيل مدير الشرطة ان يحضرهم امامه . فاحضرهم بعد نصف ساعة وكان ينقدمهم رجل طويل القامة ، شديد الوطأة ، حاد النظر ، دخل المكان كأنه سيده وتقدم الى الوكيل فصاحه مصاحفة الاقران وجلس على الدبوان . من الرجل ؟ هو من كبار الموظفين في الحكومة الادريسية بميدي الذي اشار اليه تاجر الرقيق هناك ، جاء الحديدية خصوصاً ليلاقي السنبوك المذكور ويرافقه محافظاً الى مقره .

بعد استنطاق الناخوذاه علمنا انه جاء من تاجورا ، وان معه اربعة وعشرين رقيقاً منهم عشرة صبيان والبقية بنات يتراوح عمرهن بين الثامنة والثالثة عشرة ، وان صاحب « المال » — البضاعة — سبقهم الى ميدي . وما هم الا ماجورون مأمورون . اما اذن الحكومة فيها هو المحافظ بنفسه .

ها هنا انتهت صلاحية الوكيل السياسية ، ولكنه طيب وله كذلك صلاحية طبية . فسأل الناخوزاه ان يحضر الارقاء ليفحصهم قبل ان يدخلوا المدينة . فوعد ان يجي بهم بعد الظهر .

تكاد تكون الحديدية اليوم منقطعة عن العالم ، والسبيل الوحيد الى المراسلات البرقية هو بواسطة سنوك الى جزيرة قران ، اي ست ساعات في الريح الموالي ، ومنها بالاسلكي الى عدن . صدر الامر باعداد السنوك للسفر ، وولى الاصيل ودنا الغروب ولم يبر الناخوزاه بوعدة على انه جاء في المساء يعتذر ، فلم يتمكن من شدة النوم والريح من انزال العبيد الى البر ولكنه سيحضرهم صباح الغد - « والله يا الله » وأشار بيده الى السماء .

وكان قد كتب الوكيل الى عامل الحديدية الكتاب التالي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قد بلغني ان بالقرب من ميناء الحديدية اليوم سنوكاً يحمل عدداً من الجوارى والعبيد ، قيل خمسة وعشرين ، جاء بعض تجار الرقيق بهم من الشاطي ، الافريقي . وهم متوجهون الى ميدي قصد التجارة . وقد سمعت ايضاً ان الحكومة الادريسية اباحت لهم ذلك ، الامر الذي استغربه جداً ، فحنت الفت اليه نظر سيادتكم وأعيد ما قلته مراراً ان التجارة بالرقيق ، فضلاً عن انها مذمومة في الكتاب الكريم بل منهي عنها ضمناً ، فضلاً عن ان الدول المتقدمة وفي مقدمتها بريطانيا العظمى تمنعها منعاً باتاً ، فهي تشين الاسم الادريسي وتضرر بالحكومة الادريسية اديباً وسياسياً ضرراً جسيماً . واني في طلبي من سيادتكم ان تحلوا المسئلة محل الاعتبار والاهتمام افصح عن عقيدتي وعواظني كمسلم وعن رغبة الحكومة البريطانية التي امثلها . اما السنوك المذكور فاملي ان تتخذ الحكومة الطريقة السريعة الفعالة لحجزه ومعاينة ناخوزاه و بقرته وتجار الرقيق فيه ، ثم تعتق اولئك البنات والصبيان من الامر . فان في مثل هذا العمل تزيد الحكومة الادريسية اسمها شرفاً

وعدلها عدلاً ، وتبرهن على رغبتها وقوتها في تنفيذ احكامها المبنية على
الشرع الكريم . وفقكم الله الى ما فيه خير الجزاء .

محمد فضل الدين

معمد بر بطانية السيامي

جاء الجواب ، فلم يكن مرضياً ، على ما فيه من عذر ووعد وتأكيده ، اما
الجواب الحقيقي فاليك من يوميتي :

في ٣ يوليو — ٤ ذي القعدة

جاء مأمور الميناء هذا الصباح وفي وجهه خبر مفرح . ثم جاء مدير الشرطة
وفي وجهه ما يثبت الخبر . نعم انزلوا الجوارى والعبيد ليلاً خارج المدينة وجاء . . .
« احد متوظفي الحكومة في الحديدية » فاختار من الجوارى واحدة واشتراها .
ثم سافوا الباقيين وهم حفاة عراة برأ الى ميدي .

سألت وسذاجة الجاهل في سؤالي : وهل اعدوا لهم الركائب للسفر ؟

فاجاب المدير : اعدوا لهم يا سيدي السياط .

امش — امشوا . وهم يمشون حفاة عراة من الحديدية الى ميدي ، مئتي ميل
في شمس تهامة وقبظها . وانك اذا وقفت دقيقة في تلك العلريق في نصف النهار
تتحرق النار نعلك وتحرق رجلك .

رحمكم ايها السادة انتم اعيان الحجاز ووجوه اليمن ، انتم حياة التجارة
بالرقيق ، انتم امل النخاس الاكبر ومورد رزقه ، انتم الطالبون ، انتم الراغبون
في الاستعباد . فاذا كنتم حقاً مسلمين فعودوا الى كتابكم واقروا عفا الله عنكم
ما جاء في سورة النساء وسورة المائدة من النصح بالاعتناق الجزئي المتدرج ، ثم
في سورة البلد وسورة التوبة وفيها الامر بالاعتناق التام .

وهل من يأمر بالاعتناق التام بروم دوام العبودية في العالم ؟

ايما رجل كانت له جارية فادبها فاحسن تأديبها
واعتقها وتزوجها فله اجران — حديث شريف .
ولا يقل احدكم عبدي أمتي وليقل فتايي
وفتاتي — حديث شريف .

فهل من يدعو الى المساواة يحلل الاستعباد والنخاسة ؟ انه لمن العار
ايها السادة ان تنادوا بالحرية والاستقلال ، وتدعوا البر والاحسان ، وتفاخروا
بالعلم وحب الانسان ، ثم لطمع بالخدمة مجاناً او لغرض في النفس تستعبدون
في هذا الزمان من هم مثلكم من طينة واحدة ، ولا عذر لكم في ذلك ، ولا ما
يحلله او يبيحه لا ادباً ولا شرعاً ولا ديناً . واذا اتخذتم الاية — وما مآلت
أيديكم — حجة وسلاحاً فإنكم تحتجون وتسلحون بالحرف على المعنى ، وبالعرض
على الجوهر ، وبالحال ، وقد زال ، على الحقيقة . تسلمون بظاهر الامور وكل ما
فيها من جوهر وقصد شريف هو ضدكم ، يشهد على جهل فيكم ، او على علم
افسده حب الذات .

اجل ان اكثر الدين يقتنون العبيد اليوم لمن الاشراف والسادة والاعيان ،
فلا اظنهم يجهلون ان النبي اراد محق العبودية تماماً بالطرق الممكنة في زمانه .
فنهى عن ظلم العبيد ، وامر بتعليمهم ، وبالاحسان اليهم . بل امر باعتاقهم
وجعل الاجر في الاعتاق اجرين بل اضعاف الاجرين .

ايما رجل اعتق امرءاً استنقذه الله بكل عضو منه
عضواً منه من النار — حديث شريف .

افلا ذكركم يا اسيادي ، وانتم تفاخرون بانكم من السليبة النبوية المباركة ، ما
جاء في الكتاب ؟ افلا أنصتم الى الحديث الشريف ؟ افلا اقتديتم ولو في هذه
بالنبي ؟ اليكم صحيح البخاري ، اقرأوا فيه الفصل في الاعتاق وفضله .
دخلت جارية على عائشة فقالت اشتريني واعتقيني . فقالت عائشة : نعم .
فقالت الجارية : ولكن لا يبيعونني حتى يشترطوا ولاءي . فرفضت عائشة . ولما

علم النبي بذلك اغتاض جداً وجاء الى عائشة يقول : اشترىها واعتقها ودعهم
يشترطون ما شاؤوا .

فهل من يقول هذا القول ويعمل هذا العمل يحلل العبودية والنخاسة ؟
ان من يستعبد الناس لا يستحق الحرية . ان من يتاجر بالرقيق في هذا الزمان
لا يستحق لقب انسان . وان من يشتري الرقيق يفادي بشرفه ويفقد كرامة
نفسه . اجل ، وان امة لا تستنكر النخاسة ولا تنهض عليها فتصحقها لأذل في
عين الله من لا يعرفون الله ، واحظ في نظر العالم المتتمدن من يعبدون الحجارة ،
ويأكلون لحم الانسان .

الفصل الرابع عشر

خطوات الى الوحدة

كتاب الى الملك حسين - والامر شوري بينهم - اصلاح ذات البين -
حسن نية الادريسي - تمييز الحدود بين الحجاز وصير واليمن - بريطانية
العظمى - المداخلات الاجنبية - الخطوة الاولى الى الوحدة - كتاب الى
وزير الخارجية - الاتفاق مقدمة لازمة للوحدة - توحيد النظام العسكري
والسياسة الخارجية - التفرقات الاسلحة - المهود القومية - صندوق
التوفير من مال الزكاة - لماذا لم يوقع الملك حسين على المعاهدة

ودعت الحديدية بعد تلك الحادثة التي دونت في الفصل السابق . بل ودعت
تهامة آسفًا لما كانت من ختام رحلتي فيها . على انه لو حدثت قبل سفري الى
جيزان ، وكانت فاتحة الاشجان ، لما اخطني كنت فزت بما ابغيه من عقد
معاهدة بين السيد والملك . وكيف افوز ومثل هذه الحوادث ، بل هذه المآثم
التي تقترف تحت عين الحكومة ، تثير السخط والغيفظ ، وتضعف فوق ذلك
العزم واليقين في من يسعون في سبيل الامة وعمرانها . ولا عمران وربك مع
نخاسة ، ولا رقي مع رقيق .

بيد ان لنا في من يشعرون شعورنا في البلاد العربية ويرون رأينا املاً
بمحق تلك التجارة المعيبة واستئصال شأفتها . ان اقرب السبل الى ذلك انما هو
العزم في الحكومة ، والوجدان في السادة والاعيان . ثم اتفاق بين الملوك والامراء
الحاكمين على المؤازرة في مقاومتها ومحققها . ولكنك سعيت في اضافة بند في هذا
الموضوع الى المعاهدة لو كان لي سابق علم به . فعسى ان ما فاتني لا يفوت
غيري ممن سيقترفون الاثر ، ويسعون في انجاح العمل ان شاء الله .

قبل سفري من الحديدية ارسلت المعاهدة الى جلالة الملك حسين مشفوعة
بالكتاب التالي :

صاحب الجلالة العظمى ايده الله .

حي الله مولاي الملك بالخير والسعادة . اما بعد قد ارسلت كتاباً مع الصديق قسطنطين في الشهر الماضي فعسى ان يكون حاز موضوعه استحسان جلالتم . والان ، وقد عدت من جيزان ، اسارع الى الكتابة بخصوص المعاهدة التي تباحثنا فيها وتم الاتفاق عليها .

ان في سيادة السيد الادريسي قلباً كبيراً ، وله نظر في الامور غالباً ثاقب ، وعنده لجلالتم من الاخلاص ما لا غبار عليه . من حديثه الذي علق في ذهني : المسئلة بيننا وبين الشريف قرينة سهلة (١) وقد اطلعني سيادته على نسختين من معاهدة او تمهيد لمعاهدة كان النظر فيها سابقاً مع السيد السقاف . فاضفنا بعض ما جاء فيها الى المعاهدة التي كتبتها وعرضتها على سيادته . ثم اضاف سيادته اليها ، بعد تكرار البحث والمداولة ، المادة الخامسة وما جاء في المادة الرابعة ابتداءً بر « وكل منا يبحث في تلك الحادثة ويسعى فيها بما يمكن من الاصلاح » الى حد « مجرد الاعتداء والبغي » وما جاء في المادة الثالثة بخصوص الحدود ابتداءً بر « ويلزم على هذه المادة فصل الحدود بين الفريقين » الى اخرها . وقد استصوبت رأي سيادته بخصوص اصلاح ذات البين قبل العدا ، وبالنص في مسئلة الحدود على هذا الشكل اي التمهيد من جلالتم بعدم الاعتراض في لواء عسير الى ان يتم بينكم « تمييز حدود معتدلة فاصلة بين الاطراف الثلاثة » وعسى ان يكون الاربعة كذلك . فاني اعتقد ان حضرة الامام يحيى رغبة بالنسوية ايضاً اللهم اذا جئناه من باب يأمن اليه . وان مفتاح هذا الباب بيد جلالتم الان . اما ما اضيف الى المادة الثالثة بخصوص الحدود فما هو الا الاساس للعمل .

بقي مسألة اخرى . كان قد اضاف سيادته بنداً بخصوص بريطانية العظمى وحاجة امراء العرب الى موالاتها وصدقتهما . فبحثت وسيادته

(١) راجع الحديث في الفصل العاشر صفحة ٢٩٧

في الموضوع وصرحت برأيي الذي يختلف مبدئياً عن رأيه ، وقد تضمنت في المادة الاولى من المعاهدة في قولنا « وتصلح به احوال البلاد من غير مداخلة اجنبية تحتل باستقلال البلاد العربية » وقد اقتنع سيادته بقولي ان ينبغي ان يكون الولاة والاعتماد من الامور المعروفة والمتفاهم فيها بيننا ، لا من الامور المسجلة في المعاهدات الرسمية . فتنازل عن تلك المادة . اني مقدم المعاهدة لجلالتكم بصحبها كتاب من سيادة الامام و آخر من السيد السنوسي . فعمى ان تنال استحسانكم فتوقعوها قريباً وتعيدوها مع الوفد الى جيزان . لست ارى بامولاي غير هذه الطريقة الى تحقيق امالنا في الوحدة العربية . لان الحقيقة الثابتة التي لا يماري فيها من كان عارفاً باحوال الجزيرة هي ان امراءنا اليوم ، وان كانوا يميلون الى الاتفاق ، لا يزالون متنافرين متشاقبين . وقل كذلك متحاربين . فينبغي اذن ان تكون الخطوة الاولى خطوة سلم وولاة بين الاقرب والاكفاء ، يتبعها ان شاء الله خطوات فيها ما تنشده من وحدة سياسية قومية عربية . واني لأسعى طاقتي في هذا السبيل . ولكن لا نجاح لعمل لا يشارك فيه ذو الامر ذوي الاراء . فالامر الان لجلالتكم . ولا اشك انكم ستسمعون ؛ وسيكفل سعيكم بالنجاح ، في اصلاح ذات البين بين السيد الادريسي والامام يحيى ، كما انه سيعي هو في اصلاح بينكم وبين ابن سعود . وفقنا الله الى عقد محالفة رباعية في الجزيرة قريباً . ابدكم الله في المساعي الوطنية الشريفة .

المخلص لجلالتكم

الحديدة في ٢٤ شوال سنة ١٣٤٠

وكتبت الى صاحب الاقبال وزير الخارجية صديقي الشيخ فؤاد الخطيب

ما يلي :

عزيزي الشيخ فؤاد .

السلام عليك ، عسى ان تكون بخير ، وان يكون وصلك كتابي السابق الذي ارسلته مع العزيز قسطنطين . وها انا اذا اكتب اليك الان بخصوص معاهدة اخرى تباحثنا والسيد الادريسي فيها وتم الاتفاق عليها . وقد ارسلتها الى جلالة الملك حسين مصحوبة بكلمة صريحة بشفع بها علمي واخلاصي . لا بد من الصراحة في الامر . ان الاتفاق بين امراء العرب مقدمة لازمة للوحدة السياسية . والاتفاق لا يكون الا اذا تنازل كل امير عن بعض اشيائه . انتم في الحجاز تبغون الوحدة العربية ونحن نبغيها . والامراء الذين حدثتهم ببغونها . ولكنهم حراس على استقلالهم ، وهم يخشون نفوذاً يظنون انه سري اليكم وتمكن منكم . قد ازلت هذا الظن من صدورهم ودافعت في مواقف عديدة عن جلالة الملك . اظن ان قسطنطين اخبركم بذلك ، وبما اصلحته من سوء الظن في القنصلية الاميركية بعدن .

يتي ان اقول هذه الحكمة . لا تطالبوا الان بتوحيد العام ، وتوحيد النظام العسكري ، وتوحيد السياسة الخارجية . لا . ولا بالاعتراف بان جلالة مولانا الحسين هو ملك العرب ، لان ذلك مبتسر . وقد يفسد ما هو الزم في البداية . ان الوحدات هذه درجات في سلم الرقي القومي السيامي ، ولا بد ان تصلوا اليها وتصدوها . الحكيم يا شيخ فؤاد لا يكره صاحبه . عليك اذن وعلى الامير زيد ان تمعنا النظر في المسئلة وتبدلا الجهد في اقناع جلالة الملك حسين اذا كان لم يقتنع بما كتبته اليه .

قد يكون عقد هاتين المعاهدتين امراً بسيطاً ، ولكنه مهم اذا اعتبرناه مقدمة لخطير الاعمال . ومن الزم الاشياء التي ينبغي ان تصحب هذه المعاهدات التلغرافات اللاسلكية . فقد تباحثت والسيد الادريسي خصوصاً بذلك ، وهم مستعدون ان يقوموا بنفقات آلة تركب في جيزان او في صبيا . اني افضل صبيا . وسنبحثون ملياً في الامر عندما تؤمرون

جيزان ، والمعاهدة بيدكم وقد وقعها جلالة الملك حسين . اما انكثره فهي على ما علمت راضية بمثل هذه المعاهدات ، راغبة فيها . واما ما قد يتبعها من عهود قومية فذلك من شأن امراء العرب لا من شأنها . فتمت وسائل المواصلة بوجود ممثلين للامامين في مكة ووجود التلغراف اللاسلكي بينكم كلكم لتفوقون ان شاء الله الى تقرير امور اخرى مهمة في التوحيد السيامي العربي .

وعندي ان من اهم المواد في هذه المعاهدات المادة التي تختص باذخار قيمات معلومة من المال كل سنة لتصرف في المستقبل في الانشآت العمومية المشتركة اسبابها ومنافعها . في هذه المادة اذا عمل بها بداية الاستقلال الاقتصادي الذي بدوره لا يتم استقلال سيامي في هذا الزمان . وفي رسول هذه الفكرة اثبها في ديوان كل امير وكل سلطان عربي . صندوق توفير من مال الزكاة ، هوذا سر استقلال العرب ومفتاحه اذا كانوا يفقهون . صندوق مشترك يصرف منه بعد عشر سنين مثلاً في مد سكة حديد بين الحجاز و ع . ير واليمن . واذا احتاج حكام البلاد الى اخصائين من الاجانب يستأجرونهم ويدفعون اجورهم من اموال عربية ، ويشتررون ما يحتاجون من مواد وادوات باموال عربية . فلو كانت المعاهدة بين الملك والامام وبين السيد والملك محصورة في هذه المادة ومادة الدفاع والمناصرة فقط لكفى بها الان خيراً ونفعاً للجميع ، وقعوها اذن . وفقكم الله واطال بقاءكم .

صديقكم المخلص

.....

ها هنا تنتهي مهني السياسية في اليمن وعسير .

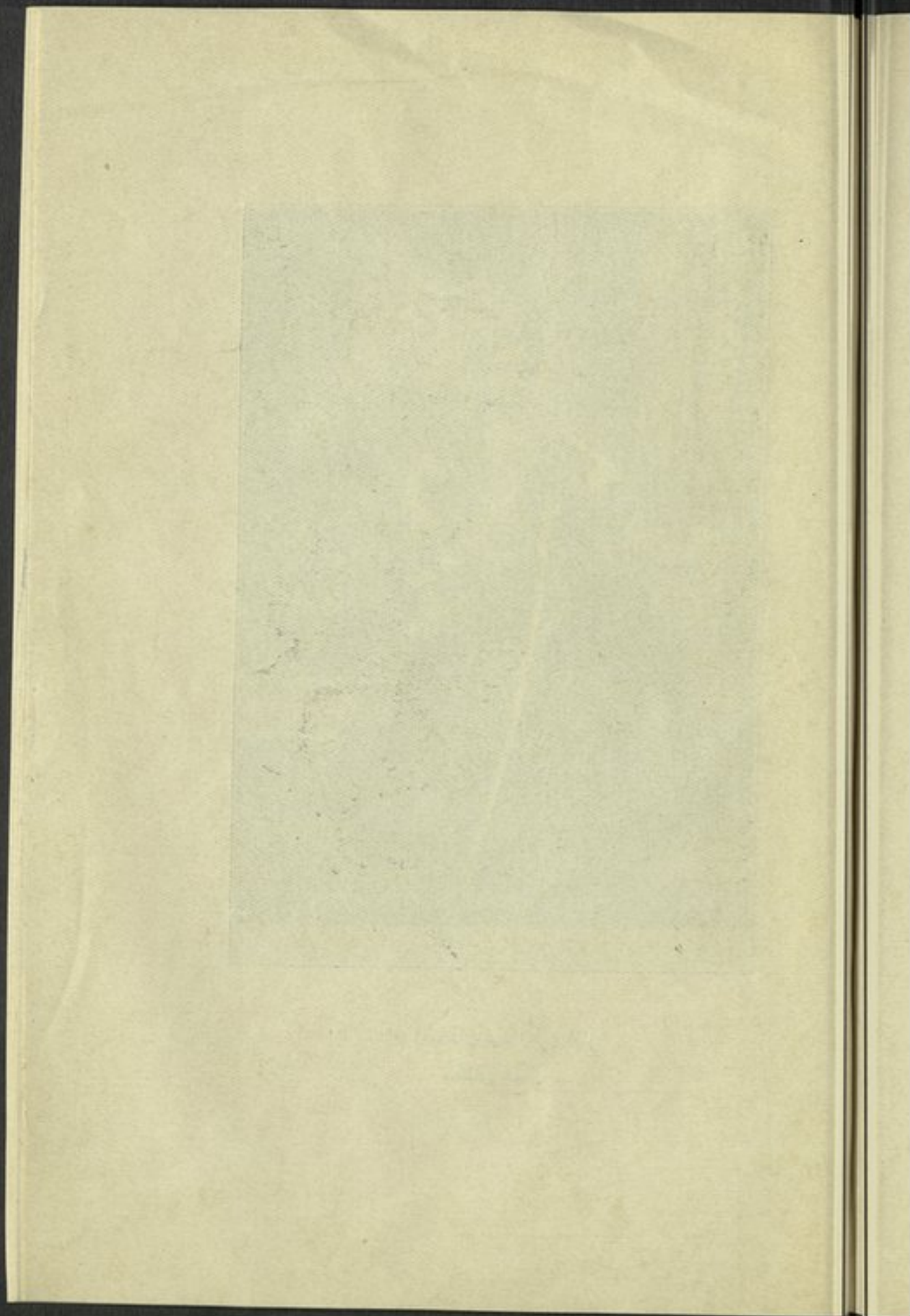
رغبت في خدمة الامام بتقريب قضيته من فهم الانكليز ومصالحتهم ، وبتقريب الانكليز من عقلية الامام ، وبتمهيد السبيل الى الصلح بينه وبين الادريسي ، فاقترحت ان يعقد مؤتمر يتبادل هو وخصومه فيه الاراء ويتعارفون

ويتفقون ، فابي حضرته لاسباب ادر كها ولا سبيل الى تدار كها ان الامام
طامع بالاستيلاء على اليمن كله ، وهو طامع كذلك ، على ما اظن ، باللقب الذي
لا يعترف به للملك حسين .

ورغبت في خدمة الملك حسين بعقد معاهدتين تربطان الحجاز واليمن
وعسير في البداية ولو بخيوط من حرير ، لاعتقادي ان جلالته يمثل فكرة عربية
قومية شريفة . فلم يوقع واحدة منهما ولا اظنه استحسنهما لاسباب ادر كها
ولا سبيل الى تدار كها . لم يعترف الامام يحيى ولا السيد الادريسي بان جلالة
الملك حسين هو ملك العرب^(١) . ولكنهما مدا اليه يد الولاة والمؤازرة فرفضها .
من هو حجر العثرة اذن في سبيل النهضة العربية ؟

انتهى القسم الثالث

(١) كان مبدأ هذا الهاشمي في الحياة هو مبدأ ذاك البطل في رواية ابنه ، كل شيء
او لا شيء . وقد حكمت نهايته بعد ثلاث سنين مثل نهاية البطل في الرواية : لا شيء .
— الا التزم له ولا له ولكل مرديبه . اني متيقن — واظن ان كل من له شيء من العلم
الحوادث العربية بعد الحرب يشاركني هذا اليقين — انه لو وقم الحسين هاتين المعاهدتين لما
نكبت تلك النكبة في حريف سنة ١٩٢٤ . راجع تاريخ نجد الحديث ، صفحات ٣٠٤-٣١٧





سمو السلطان عبد الكريم فضل
سلطان الحج

الجزء الثاني
من كتاب

القسم الرابع -

الحجج

والنواحي التسع المحمية

الحجج

والنواحي التسع المحمية

هدورها : جنوباً ساحل البحر العربي من باب المنذب الى بلحاف بالقرب من النقاء الخطين الثامن والاربعين من الطول الشرقي والرابع عشر من العرض الشمالي . شرقاً حضرموت . غرباً البحر الاحمر . شمالاً البلاد التي يحكمها الامام يحيى . وقد قلقت جيوشه بعض الحدود القديمة بينه وبين اصحاب الحماية .

ساعزرا : نحو الفين وخمسمئة ميل مربع .

سطنزرا : نحو ثلاثمئة الف نفس .

اهم فبالزرا : العبادلة واليوارفع وآل فضل والموالق والحواشب والصبيحة .

اهم بلدانزرا : شقره والحوطه وبلحاف على البحر العربي . ولحج وأبين وأنصاب ومسيبر وحبان .

مذاهبزرا : السنة ، شوافع وحنفيون . الشيعة ، جعفريون واماعيليون وزيديون . وفي عدن اليهود والهندوس والنصارى . وفي القبائل داخل البلاد من لا يزالون على العادات الجاهلية لا يعرفون الاسلام .

الفصل الاول

التالوث المادي في عدن

المبدأ المرن في السياسة الانكليزية - درجات المرونة في البلاد العربية - ريقة
 تسر وريقة تخنق وريقة لا تضر - المعاهدات والمشاهرات والتدخلات -
 « انت تبغي الاستقلال ، انت مستقل ، ونحن ندفع لك المال لتعاقظ علي
 استقلالك » - النياشين ومدافع الترجيب - بعثة افرنسية تزور عدن سنة
 ١٧٠٩ - مدن كما شاهدها المسيو لاروك - عدن اليوم - شعوب
 واديان - التواهي اي القسم الاوربي - التالوث المادي - البرق والنور
 والبخار - الاستثمار والاستثمار - الاورويون اعداء بعضهم لبعض -
 الدفاع عن عدن - المبدأ التجاري في الدفاع - المال ارض من الرجال -
 من هو الكاسب من يدفع المشاهرات ام من يقبضها ؟

قال المستر لويد جورج مرة ان المبدأ المرن في السياسة هو اصلح المبادي
 لحل المشاكل الخارجية والاستعمارية . لا تكن فاسياً فتكسر . ولكننا نظلم
 الانكليز اذا ظننا ان هذا المبدأ هو دائماً مبدأهم في البلدان التي يحكمونها خارج
 الجزائر البريطانية . اما في البلاد العربية فلا ريب ان المرونة هي غالباً روح
 سياستهم قولاً وعملاً . وقد يتخللها في الازمات اطلاق مدفع او في الاقل
 مناورة بحرية ، فتعود السياسة بعدئذ الى مجاريها الملتوية المائعة .
 ان من يمعن النظر في بلاد العرب واحوالها الجغرافية والسياسية
 والدينية ، وفي ثنثت امورها واختلاف نزعاتها ، يرى بعض الحكمة في خطة
 سياسية تمتد الى كل مكان دون ان تنقطع او يعتريها شيء من الضعف . مدعا ،
 مطها ، من عدن فتصل الى صنعاء رقيقة لطيفة . مطها من الكويت فتصل الى
 ما وراء الدهناء ، ومن شرقي الاردن فتصل الى الجوف ، فتداعب اطرافها
 الوهاية وتتعاق بانامل ابن سعود . مطها من الحديدة فتتعقد في صبيا ، ومن
 جدّه فتلتوي وتندق ولا تنقطع حتى في ظلال الكعبة . ولكل مطة خطة ،

يدتمط اسلوب خاص بصاحبها في اللين ربات لكل الرؤوس ، والسوائل تدخل في كل الكؤوس .

ان اجلى ما هنالك من مظاهر المبدأ المرت هو ما يصنع في دار الاعتماد بعدن من الربات السياسية . هذه ربة تسر ، وهذه ربة تخنق ، وتلك تؤلم ولا تضر ، وبينها كلها درجات في الضغط والارخاء ، في الربط والحل ، توجيهها احوال اليمن الاسفل والعشائر القاطنة تلك الانحاء . كيف لا وفي سلاطينها من لا يلبس غير الفوطة ، يستر بها عورته ، ومن هو في لبسه وفرش بيته واخلافه وتهذيبه من ارقى امراء العرب . اجل ، ان بين الاثنين درجات في الوحشية والتمدن لا يمكن الحاكم الذي لا يهجمه من الامر غير الحكم والمصلحة ان يشملها كلها بنفوذه ، ويقيدها بحكمه ، الا اذا عمل بقاعدة لويد جورج السياسية .

ولهذه القاعدة مظاهر شتى ، اولها المعاهدات الولائية ، ثم المشاهرات المالية ، ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجيء الى عدن من السلاطين او يسافر منها ، ثم الالقاب والنياشين ، ثم التحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك او عكس ذلك ، فالتدخل في السياسة المحلية عند انتخاب او تعيين احد الحكام . واخيراً ، بل يصح ان يكون الاخير اولاً ، المحافظة على استقلال كل سلطان وامير ، عملاً برغبتهم وبمصلحة بريطانيا العظمى . نعم ، ما من امير وسلطان او شيخ قبيلة الا ينبغي الاستقلال التام ، ولا بأس اذا قيد بمشاهرات وبهدية كل عام . هذه لعمرى بلية العرب الكبرى التي توافق مصلحة الانكليز الكبرى . وكأني بهم يقولون للامير العربي : انت تبغي الاستقلال . انت مستقل . نحن نعترف بذلك وندفع لك المال لتحافظ على استقلالك . نحن لا نبغي الا ما نبغيه وهذا عهد الولاة والحماية . ولكن في هذا العهد الربة التي تخنق ، فيه البند المشهور : لا يحق لسلطان او الامير ان يتعاهد وأحد زملائه او ان يبيع او يأجر او يهب شيئاً من بلاده الى احد امراء العرب او الاجانب او يمنح امتياز دون ان يستشير ويستأذن الحاكم في عدن .

هي سياسة التفريق ولا شك^(١) وسياسة الاستيلاء والاستئثار كذلك . فالانكليز وهم اسيااد عدن ونواحيها لا يفتون غيرهم من الاوربيين هناك ، وامراء العرب يعاهدونهم على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهباً وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى السلطة من جند وسلاح . كلمة الانكليزي وعهده : سنساعدك يا حضرة الامير لتحفظ استقلالك فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج .

اما الحماية فامرها عجيب وفيها غالباً تنعكس الآبة ، فيحمي العرب الانكليز لا الانكليز العرب . لذلك هم يستحقون في الاقل المشاهرات . ومنهم «اصدقاؤنا المخلصون المحبون» الذين حازوا من ملك انكلترة وامبراطور الهند لقباً^(٢) او رتبة ونيشاناً فتطلق لهم المدافع ترحيباً وتوديعاً في عدن .

هذه خطة الانكليز في عدن والنواحي النسع المحمية ، وهي تختلف عن خطتهم في عسير مثلاً بعض الاختلاف ولا تلتئم اساساً بخطتهم في العراق . وبين هذين الطرفين في القاعدة المرنة ، بين عدن وبغداد ، مظاهر اخرى في المرونة سترها في الكويت وفي البحرين .

كانت عدن منذ خمس وثمانين سنة من املاك الدولة العثمانية اسماً وفي حوزة سلطان لحج فعلاً ، وكانت قبل ذلك اي قبل ان تأسست سلطنة لحج في حكم ملك اليمن او امام صنعاء تفاخر المدفن بمجدها والاساكل البحرية

(١) كانت سياسة حاكم عدن الاول القائد هينس Capt. Haines مبنية على القاعدة ، غرق تعدد . لان الحكومة او بالحري ادارة شركة الهند يومئذ لم تشأ ان تمدد بما يحتاج من الجنود لحماية عدن فاذا قامت على الانكليز احدي القبائل كان الحاكم يشير قبيلة اخرى عليها . « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر الى جنود بريطانية » . « وان كان هدر الدماء مما يؤسف له فمثل هذه السياسة تقيد الانكليز في عدن لانها توسع التلة بين القبائل » . هذا ما كتبه ادارة شركة الهند الى الحاكم هينس نقله الكرنل جاكوب في كتابه « ماوك العرب صفحة ٤٥ »

(٢) النباشين الانكليزية التي تمنح الانكليز والاجانب في الشرق الادنى والوسط تنعصر برتئين K. C. I. E. اي Knight Companion of the Indian Empire و K. C. S. I. اي Knight Companion of the Star of India

بتجارتها . فقد جاءها في سنة ١٧٠٩ م بعثة افرنسية تجارية تبغي التجارة بالبن ،
يصحبها رجل اسمه لاروك ، كتب كتاباً صغيراً يصف فيه تلك الرحلة ^(١) .
فعرّفنا هذا الاجنبي بعدن العربية في ذلك الزمان ، وبما كرمها الكرم الاخلاق
الذي ارسل عندما ابصر مراكب الاجانب رجالاً من قبله يستقبلونهم ويرحبون
بهم ، وخدامين يحملون اليهم الزاد والحلوى والمرطبات .

اقام الافرنسيون في عدن بضعة اسابيع شاهدوا فيها ما لا يشاهده السائح
اليوم . قد كانت في تلك الايام عدن العرب والتوحيد ، بل عدن الشرق
الصميم ، الرقيق الجانب ، الكرم الخلق ، العزيز الشأن . والفضل لكاتب تلك
البعثة المسيو لاروك في وصف المدينة وصفاً ثبت جله صورة حفرها على النحاس
رسام هولندي في ذلك الزمان . رأيت الصورة وقرأت الكتاب ، فقلت : اين
ارميا ينثر الاشعار في نذب الديار ؟ اين سورك الذي كان يطوق الجزيرة باعدن ؟
واين قصورك تفوق قصور ابن ذي جدن ؟ واين حماماتك الجميلة المرصوفة
بانواع الرخام ، المزدانة ببقية من عمد الاصنام ؟ واين مساجدك ذات القباب
البيضاء والزرقاء ، والمآذن الدقيقة البناء ؟ واين آثار ادبائك وشعرائك ، ومن
كان يمشي سامد الرأس تحت لوائك ؟ بل اين تلك اللغة اليوم من رطانات
وطمطمانيات سرت من الشرق ومن الغرب اليها ؟ بل اين تلك الروح روح
قحطان ، وتلك المكارم مكارم عدنان ، وذاك المظهر الشريف النقي مظهر الوحدة
القومية ، تزينه الفصاحة والفروسية .

قلت ان عدن تلك الايام كانت عدن العرب والتوحيد . ولا اريد بالتوحيد
الدين فقط بل اللغة ايضاً والجنس . اما الوحدة الجنسية فكان قد شملها شيء من
خليط المتنود الذين هاجروا الى هذه الزاوية من البلاد العربية قبل ان
الانكليز . كان البنيان ^(٢) في عدن يوم جاءتها البعثة الافرنسية ، والمسيو لاروك
يذكرهم في كتابه ويقول انهم يهود المدينة اي التجار والصارفة فيها . وكان

(١) Voyage dans l'Arabie Heureuse par La Roque.

(٢) بنيا في لغتهم اي صاحب حانوت والبنيان فينبيقو الهند كثير الاسفار والاتجار.

العربي اليافعي الزبيدي بكرمهم ويتخذ له منهم الاخداث ، ويحسن اليهم كل الاحسان ، وهو لا يدري ان ابناؤه في المستقبل سيكونون من خدامهم وخدام من جاءوا كذلك من المغرب .

اما عدن اليوم فمدينة الشرك هي لا مدينة التوحيد . مدينة عمومية لا اوربية ولا شرقية ولا عربية . مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية . هي من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق ، ومن الوجهة التجارية مركز توريد وتوزيع مهم في البحر العربي ، ومن الوجهة البحرية العمومية هي مستودع فحم لبواخر العالم التي تجري بين الشرق والغرب ، وهي فوق ذلك وقبل كل ذلك المستودع الثالث للبواخر الانكليزية في الطريق بين الجزائر البريطانية والهند . اما المستودعان الاول والثاني ففي جبل طارق والسويس .

ان المدينة تقسم قسمين عدن الفحم والحصون والسياسة وتدعى التواهي ، وعدن التجارة والموتقات وتدعى كعب اي المعسكر . في الاولى وهي على الشاطيء دار الاعتماد والقنصليات وبيوت الضباط والمتوظفين والانزال ، وبعض المخازن التي تباع فيها بضائع الشرق والغرب الرديئة باسعار غالية . وفي الثانية وهي وراء الجبل على مسافة خمسة اميال ، في فم البركان ، او ما كان بركاناً في قديم الزمان ، وفيها اربعون الفاً من السكان من كل شعوب الارض والاديان . فيها المسلم الذي يصلي الى الله ، والفارسي الذي يصلي الى الشمس ، والبنياني الذي يصلي الى الاوثان ، والمسيحي مكرم الصور والصلبان ، والامماعيلي صاحب الزمان ، واليهودي مسيح الذهب الرنان . وفيها من يغسلون ويكفنون امواتهم ومن يجرقونهم ومن يحملونهم الى برج السكينة لتأكلهم النسور والعقبان .

كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون . اما بيوتهم فواحدة لا تعرف اعربية هي ام هندية ام اوربية ، واما اديانهم فهي كالاشجار والادغال في الغاب ، وهم في ظلالها لا يتغيرون ولا يتطورون . الزاهرون والزاهرات والشائكون والشائكات . قلت ان يوم زار المسيو لاروك عدناً لم يكن فيها غير الاسلام وحفنة من اليهود والبنيان . اما اليوم ففيها من المذاهب الدينية

مئة مذهب ومذهب تعيش كلها في ثم البركان ، بسلام وامان . وليس فيها غير واحد من المذاهب السياسية ، تصونه النقية ، وبعرزه الدينار والقوة ، هو مذهب الاحتلال . والتاجر ، وطنياً كان او اجنبياً ، هو دائماً مع الحكومة . او بالحري لا يهجمه من الحكومة غير الامن والنظام . ومهما قيل في حكومة عدن الانكليزية فالامن والنظام ركنان فيها ثابتان .

تدعى عدن الثانية المعسكر لان فيها التكنات وقسماً من جيش الاحتلال . وهي في حلقة من الجبال السحبا . يكال فننها حصون قديمة مهجورة لان الانكليز يستغنون عنها اليوم بالمراكب البحرية . اما اشهر ما فيها من الاثار ما تبقى من ظل مجدها الغابر فهي اسداد الماء ^(١) تلك الاسداد المبنية في مضيق متحدر بين جبلين ، بناءً متيناً محكمًا ، محفوراً بعضها في الصخور . سد فوق سد ، يصب الواحد مياهه حين يمتلي في السد تحته ، حتى تفضي بعد امتلاء عدة اسداد الى الخزان الاخير القائم عند سفح الجبلين . ولكن هذه الاسداد وهي من اجمل الاعمال الهندسية في العالم ، لا تمتلي لقللة الامطار الا مرة او مرتين في كل بضع سنين .

وفي النواحي اي عدن السياسة دائرة اشغال هي ام من كل ما ذكر هناك . بين تلك الرئي المكالة بالحصون الحديثة ، المتصلة بعضها ببعض بواسطة الاتفاق ، رابية لا علاقة لها مباشرة بالحروب او بالسياسة . رابية عامرة نيرة منيرة ، بيوتها كلها حديثة بناءً وهندسةً ، ومهنةً سكانها ام من المهن الرسمية كلها . هي قرية قائمة بذاتها فيها المطعم والحانة والنادي واسباب اللهو والرياضة والراحة جميعها . واليها ومنها تمتد الاسلاك ، اسلاك السحر الحديث ، سحر العلم والعمل . من الشرق وجزر الشرق الكبيرة ، من استرالية والفيليبين ، من افريقية واوروبا ، من قارات الارض تجري امواج السحر في اسلاك العلم والعمل . فتمههم وتظن

(١) تاريخ هذه الاسداد مجهول . فن المؤرخين من يقول انها بنيت في القرن الخامس للمسيح ومنهم من يعود بها الى الف وخمسمائة سنة قبل المسيح . وما لا يختلف في امرها انها كانت مهدومة عند الاحتلال الانكليزي فحفرت ورمت سنة ١٨٥٦ وانها تسم ثمانين مليون جالون من الماء .

في اعماق البحار ، وتبرق تحت الماء على صدر اليبس ، ونورها كامن في السلك ،
والسلك في القماش ، والقماش في القار ، والقار في الحديد . هي انباء العالم ، انباء
التجارة والسياسة والاجتماع ، يحملها البرق تحت الامواج فتصل الى عدن ، الى
تلك الزبرة المهمة فيها ، الى مركز البرق هناك . ثم تنتزع منه كما تنتزع اليه
امواجاً . فتربط الامم الشرقية بالغربية ، وتقتضي على المسافات بين المعاملات
 والمراسلات ، تحصرها في سلك نصفه يمتد من تلك الراية شرقاً وجنوباً ، والنصف
الآخر غرباً وشمالاً . وهذا السلك هو حياة الاتصال بين الشرق والغرب ، بل
هو حياة التجارة واحد اركان المدنية والعمران .

لا شك ان في العالم دوائر برق اكبر من تلك التي في عدن . ولكن ليس في
العالم على ما اظن اهم منها . اقطع ذلك السلك ، او وقف العمل على تلك الراية ،
اسكت المنة آلة التي تدندن ليل نهار هناك ، فتعود البحار الى ظلمها القديم
واستبدادها في المسافات ، وتسمى قارات العالم القديم كلها ، آسية واوروبه وافريقية
واسترالية ، وكل منها في عزلة الجزر او الجبال ، لا صلة بينها غير تلك التي يحملها
الرسول او البخار .

اجل ان شركة التلغراف في عدن لاحدى ايدي المدنية والعمران . وهناك
في تلك الالهام والركام ، على شاطئ البحر بدو سوداء ولكنها في العمران
بيضاء ، هي يد الفحم والبخار . وفوقها وفوق المدينة نور وهاج ينير الميناء ليلاً
ويدبر حركة البواخر والمراكب بانواره الملونة . هوذا ثالوث عدن المادي . عرش
البرق على هذه الراية ، وعرش النور على جارتها ، وعرش البخار على الشاطئ ،
فوق ركام الفحم العالية . ان فيها كلها حياة يكبر الغربيون اسبابها ولا يزدريها
باطناً الشرقيون . وكيف يزدرونها وهي في بلادهم تحيي التجارة والبحارة فيها !
ليطفاً نور تلك المنارة ، منارة عدن ، فتصطدم وتغرق المراكب في البحر . لنقل
ابواب شركات الفحم فنقف وتبطل حركة البواخر بين الشرق والغرب ، ولنقطع
اذ ذلك آخر صلة حديثة بين القارات كلها .

ها هنا اذن في اسلاك البرق وفي اسباب البخار اهمية هذه الزاوية الجنوبية

من البلاد العربية . ومعلوم ان اساس الاثنين العلم والاجتهاد . وسياج الاثنين
الامن والنظام . يستطيع سلطان الحج او امام صنعاء ان يوجد الامن والنظام
ويوطدهما في عدن ؟ أو يستطيع اذا فوض اليه امرهما ان يحافظ عليهما ؟ لا اظن
ان احداً من ابناء العرب مها صفت وطنيته وكبرت همته يجيب اليوم بالايجاب .
أو يستطيع العالم اليوم شرقاً وغرباً ان يستغني عن البرق والبخار ؟ لا اظن ان
رجلاً عاقلاً يجيب بالايجاب . وهل يريد الشرق ان يستقل كل الاستقلال
فيقطع الصلات كلها بينه وبين الغرب ؟ لا اظن ان احداً من الشرقيين مها
غالى بالوطنية يجيب بالايجاب .

لا بد اذن من البرق والنور والبخار في عدن . ومن يد تديرها وتحافظ
عليها وتحميها . واليد اليوم انكليزية . وقد تكون غداً يابانية او عربية . لكن
الغد لله . يهنا اليوم ويهم العالم اجمع ان تبقى هذه المحطة الكبيرة ، هذه الصلة
المهمة ، في كنف الامن والنظام . ولو كان في ذرة من اليقين ان الامام يحيى
يستطيع ان يقوم مقام الانكليز لما فضلت احداً وطنياً كان او اجنبياً عليه . اني
أسف ان الروح العربية تقلصت في عدن وانمحللت ، وانه ليحزني ويحزنك ايها
القاري . العربي العزيز ، وقد اشرفنا على شيء من مجد غابرها ، ان نراها في يد
الاجانب . ولكننا في زمان سيده المال ، وحاكمه الاقتصاد ، ومديره الاول
العلم . وليس عندنا من الثلاثة ما يؤهلنا اليوم لوظيفة صغيرة في معمل هذا
الزمان الاكبر .

لنعديل حتى في انفسنا . لنقل الحق ولو كان علينا . ان عدنا محطة في طريق
العالم ، وان للعالم كله مصلحة فيها . وما استأثر الانكليز اذن فهم ولا رب
مقيمون ببعض الواجب عليهم . وان العرب انفسهم لينتفعون بحكم فيه الامن
والنظام . على اننا نبغي من الانكليز اكثر ما يشاهده السائح في اليوم الاول من
اقامته في عدن . نبغي منهم العدل الذي اشتهروا بحبه وبتعزيزه في بلادهم .
نبغي منهم الانصاف الذي هو من مزايا الشعب السكسوني . نبغي منهم الاحتمام
لما فيه تعمير البلد وصحة اهله في اجسامهم وعقولهم - المحافظة على شيء من

الروح العربية — مدارس تعلم الناشئة لغتهم واداب بلادهم — ماء يصلح للشرب^(١) . مضى على الانكليز في عدن خمس وثمانون سنة وهم لا يزالون يستخدمون الانسان والقربة لرش الاسواق .

قلت الانصاف ، هناك مثلاً واحداً من آفاته . في عدن صيارفة وتجار عديدون يتاجرون بالاوراق المالية والنقود ولكن ليس فيها غير مصرف واحد هو فرع من فروع مصرف الهند — الانكليزي — المشهور . وهذا المصرف لانه الوحيد يستبد بالتجار استبداداً يعرقل التجارة ويضعف اسبابها . قد شكوا كثيرون منهم الامر الى القناصل على مصرف اميركيا او افرنسيا او ايطاليا . يفتح له فرعاً هناك بواسطةهم فيخفف بالمناظرة استبداد مصرف الهند واستثنائه . ولكن دون ذلك صعوبات ظاهرة وخفية ، والحكومة عدن ولا ريب يد فيها . اني لا اري عذراً لمثل هذا الاستثناء الذي يعد صغارة في الاستعمار . بيد ان من العدل ألا أفرد الانكليز بالذنب واخصصهم دون سواهم بالتهريب . فالفرنسيون في جيبوتي مثلاً والاطاليون في مصوع هم من هذا القبيل مثل الانكليز في عدن . قد لا تجد تاجراً واحداً انكليزياً او ايطالياً في جيبوتي فكيف بمصرف غير افرنسي ؟ وقد لا تجد عاملاً افرنسياً او انكليزياً في مصوع فكيف بمصرف غير ايطالي ؟ ان هذه الروح الاوروبية الصغيرة في التجارة والاستعمار ، وان شئت فقل روح الاستثناء والاحتكار ، لمن اول اسباب الانهطاط الاوروبي في الشرق . فاذا كنت لا تطيق اخاك الاوروبي مزاحماً ، اذا كنت تضن عليه بفرصة يفتنمها فيستثمرها مثلك في بلاد غريبة ، فكيف تطيق الوطني او تحسن به الظن في الاقل ؟ وبأي حق والحال هذه تطلب منه الثقة والاحترام ؟ اني مخلص لك ايها الاخي الاوروبي في ما اقول . قد يطبعك الشرقي ويخدمك ،

(١) المرافق في عدن لا تزال من الطراز القديم . والماء وهو مالح 'بجر من بحر في شيخ عثمان ويوزع بهراميل تجرها الجمال . والطرق وهي دائماً في حاجة الى الاصلاح والانارة لا تزال على الطريقة القديمة . اما عذر الحكومة في ذلك كله فقلة المال .
هارلد جاكوب في كتابه ' ملوك العرب ' صفة ٢٦٢

ويكون لك جاسوساً على اخيه ، ولكنه في قلبه يكرهك ويحتقرك . وليس هو وحده المسؤول المعلوم . عد الى نفسك ايها الاخ الاوروبي وفكر في ما اقول . اني ابغى لك ولاين الشرق خيراً في بلاده . مشتركاً ، متبادلاً ، متساوياً .

لكن روحك ايها المستعمر لا تعجب المتصفين من الامتين . كما في اسمك نقول : جئنا هذه البلاد وفتحناها وعمرناها وليس لغيرنا الحق ان ينتفع منها وفيها انتفاعنا . هذه هي روح الاستعمار الاوروبي في عدن وفي جيبوتي وفي مصوع ، وقل ان شئت في الهند وفي الجزائر وفي طرابلس الغرب . وهي الروح التي تفسد على الشرقي اهم مظاهر الحكم الغربي اي الادارة والنظام . فحبذا الحكمة في اطعاعهم تلتطفها ، وحبذا الحصافة في استئثارهم تخفف من عواقبه الوخيمة . لست ممن يغمضون عيونهم ويضربون ، ولا ممن يولون المغرب وجوههم ويكرهون . ولكنني اخشى والله على الاوروبيين من يوم يعم فيه البلاء فينهض الشرق - الشرق العاقل والشرق المجنون ، الشرق المتعصب والشرق المتساهل - ينهض نهضة واحدة على المدينة الاوروبية كلها ، بحذافيرها ، لانه لا يرى فيها غير سيئاتها ، غير الشره والشهوات ، والاستئثار والمنكرات . بودي اذن قبل ان تآزف تلك الساعة ان يعدل الاوروبي ويعقل الشرقي ، فيتفاهم الاثنان ويأثلفان ، وينتفع الواحد بالآخر ومنه .

قلت ان الامن والنظام في عدن ركنان ثابتان ، ولا شك ان الانكليز قد بذلوا في سبيلهما شيئاً من القوة جسدياً . مقرونًا بمثلها من السياسة والدهاء ، ثم بتضحيات من مال ورجال ليس في الامم الاوروبية اكرم منهم فيها واسبق منهم اليها . بيد ان احتلالهم عدن واستيلائهم على النواحي المجاورة لها لا يخلوان من الحيف والاجحاف والخداع . لا يتكر ان الامن والنظام من الامور الجوهرية الاساسية ولا تقتصر اهميتها على الانكليز وحدهم بل على العالم اجمع . ولكن الاسباب اذا اكتشفت تشين ، والسبل اذا ادركت تستثير كوامن الوجد والغضب . من المشهور عن الانكليز انهم في سبيل مقاصدهم كرماء ، ولكنهم ايضاً حكماء . اذا بذلوا المال بعدون ما توفر عليهم من الرجال . واذا دفعوا المشاهرات بتقاضون

بدلها الإيرادات .

قد علموا عند احتلالهم عدن بأنه يجب حمايتها جيش كبير بقيم فيها . ولكن ادارة شركة الهند يومئذ فضلت تلك الخطة التي تقدم الكلام عليها . ثم عندما استلمت الحكومة البريطانية زمام الامور في الهند ، واستخدمت بعض القوة في تأييد مركزها في عدن ، رأت انها تحتاج الى قوات بحرية وبرية تقيم فيها دائماً . وقد تعجز مع ذلك عن الحماية اذا لم يكن لعدن منطقة كالدرع بصونها من تعديات العرب الذين يحيقون بها من الجهات الثلاث اي من الشرق والغرب والشمال ، ويحاربون كالقروود ، ويعتصمون بالجبال . فاتخذت لذلك سياسة لين تدعمه الشدة ، وبأشرت المفاوضات ، وابتاعت من الاراضي ما لم تستطع الاستيلاء عليه بالسياسة ولم تشأ اخذه بالقوة . فتم لعدن الدرع الذي تحتاجه وهو خط يمتد من الغدير على البحر غرباً الى دار الامير شمالاً ، ومنها شرقاً بشمال الى ام العُمد على البحر . ثم اقامت في هذه المنطقة الانكليزية الاستحكامات العسكرية ، وقلت اليها الجنود من الهند ، وظلت مع ذلك في خطر دائم من العرب المحيقين بها ، من الصبيحة والحواشب واليوافع وغيرهم .

فما العمل اذن ؟ قد يكفنا الدفاع عن عدن الف ليرة في الاقل يومياً اذا فرضنا انه يتعين علينا ان نقيم فيها دائماً عشرة الاف جندي . وقد يكفنا الدفاع عن المنطقة التي ظنناها درعاً منيعاً الف ليرة اخرى . ولكنني اقف عند حد في النفقات لا يتجاوز نصف هذه القيمة ، اي الف ليرة كل يوم ، واقترض ان الحكومة الانكليزية تستطيع بذلك ان تدوخ العربان وتؤدبهم ، وتستولي على بلادهم فتدخلها في منطقة الاحتلال . ولكنها تضطر عندئذ ان تضاعف قواتها العسكرية ، فتضاعف النفقات ، لتدفع عن هذه المقاطعات غارات عرب الجبال من زيود وشوافع شرقاً وشمالاً . النتيجة : اننا كلما توغلنا في اليمن زادت النفقات والاضطراب . فالولاء اذن خير من العداة . على ان لا بد لنا من قوة ترهب بها اولاً من نبغي ولاءه . فاذا كسرنا هذا الامير ، ونكنا بذلك الشيخ ، ثم صالحنا ووالينا وبذلنا المال مشاهرات ، كان لنا من الصداقة والاذعان ما نريد .

وكذلك كان . مرت على عدن بعد احتلالها سنون فادت فيها انكثرة بكثير من المال والرجال . حاربت القبائل ثم عاهدت امراءهم واحداً واحداً . ضربتهم ، وفرقتهم ، واقامت الحدود بينهم ، ورفعتهم الى مقام السلاطين ، واشترت صداقتهم بالمشاهرات المالية . وما هي تلك المشاهرات بالنسبة الى نفقات الحرب والدفاع ؟

اليك جدول الحساب الثاني . في المنطقة المحمية تسع ولايات او امارات او سلطنات . فلو فرضنا ان كل امير يتقاضى الانكليز اربعمئة روية كل شهر وهي اكبر المشاهرات ، اذا استثنينا مشاهرة سلطان لحج ، وان في كل امارة زعماء ، رجال الامير او اعداءه ، يتقاضونهم كذلك مثل هذه القيمة ، فيبلغ ما تدفعه عن ولاء الامراء التسعة ورجلهم سبعة او ثمانية الاف روية كل شهر اي خمسمئة ليرة انكليزية ^(١) . فلو دفعت هذه القيمة يومياً لا شهرياً لتوفر عليها ضعفا او في الاقل مثلها كل يوم . واذا فرضنا ان في الافتراضين ، اي حساب الجيش وحساب الامراء ، بعض المبالغة فهي دون الحقيقة لا فوقها . ان النسبة بين الاثنين في كل حال لا تتغير ولا تتخل . عشرون الف جنسدي للدفاع يقوم مقامهم عشرة امراء او سلاطين . هذه هي النسبة الاساسية . من الكاسب اذن ؟ أمن يدفع المشاهرات ام من يقبضها ؟

انها من الانكليز سياسة العزم ، نتلوها سياسة الحكمة اي المبدأ المرن المقرون بالقاعدة التجارية في الاشغال . وهم لامراء تجار لا يبارون ، كما انهم ساسة مخنكون . فاذا خيروا بين نفقات الجيش والمشاهرات يختارون الثانية ولا غرو . انها ، اذا اعتبرنا مصلحة انكثرة اولاً ثم العالم الذي تهمة محطة المواصلات البرقية والبخارية ، لصفقة غائمة . اما اذا اعتبرنا مصلحة العرب فيعترينا الاسف والغم لانهم الخاسرون في كل حال ، الخاسرون وان تضاعفت الاموال .

(١) راجع لائحة المشاهرات في آخر هذا الجزء .

الفصل الثاني

من اجل شركة الهند

المسئلة الشرقية — انكلترة تدافع عن الدولة العلية — خوفها من محمد علي باشا —
معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ — اخراج ابرهيم باشا من سورية ومن اليمن —
شركة الهند — مستودع للفحم — عدن — احتلالها سنة ١٨٢٩ — معاهدة
الانكليز مع سلطان لحج — بنودها — المبدأ المرن — « انت صاحب الامر
ونحن نتولى تنفيذه عنك » — توسيع حدود عدن — كيف اشترى الشيخ عثمان —
طريقة لا يجلها الانكليز في بلادهم — والشيخ عثمان لا تكفي — توسيع المنطقة
المتحلة — كيد وقيد ومشاركة .

لا يزال اولو العلم يذكرون ، بالرغم عن عاديات الحرب الكبرى وذاريات
مؤتمر لوزان ، تلك المسئلة المشؤومة في سياسة اوروبه والشرق الادنى التي تعتبر
في اذبالها اكبر السياسيين ، بل تحطمت في طواحينها اكبر الاحلام ، وأفسدت في
ظلالها احسن المقاصد والنيات ، فكان انتفاع كل امة منها وبسببها بالنسبة الى ما
فادت به من الشرف والوجدان . الا وهي المسئلة الشرقية . ولا يزال اولو العلم
والانصاف يذكرون كذلك ، على الرغم من انقلابات كان للدهر فيها اليد الكبرى
— قلت الدهر واريد الحوادث التي تسيطر على الرجال والامم — وعلى الرغم من
صيحات الهند التي اختلطت فيها اصوات « الخلافة » باصوات ال « صَوَارَج »^(١)
وعلى الرغم من تهليل في اقرة والاسنانة ، ومناجزات في دوائر السياسة يكابر
الديك « المغالي » فيها الاسد البريطاني ، ان انكلترة في مقدمة الدول واحياناً
وحدها كانت تدافع دائماً عن سلامة الدولة العثمانية . ولم يكن دفاعها لينحصر
في الكلمة المنشورة والمقولة بل كان يتجاوزها الى السيف والمدفع والاموال .
بيد انه لم يكن مجاناً لوجه الله .

(١) صوارج Swaraj كلمة هندية يراد بها الحكم الذاتي المستقل او ما يدعى في انكلترة
Home Rule

ليس القصد من هذه الكلمة ان اجدد ذكر تلك المسئلة السياسية الخطيرة التي يظن الناس ان قد حل 'عة'دها مؤتمر لوزان . وانما قصدي ان اعود بالقارى الى تسعين سنة مضت فاقص عليه قصة لتعلق بعدن وبشركة الهند الشرقية ، وبدفاع بريطانيا العظمى عن الدولة العثمانية .

من الحقائق البارزة التي كانت تشغل الدولة والانكليز في تلك الايام ان محمد علي باشا بواسطة ابنه ابراهيم كان قد استولى على سورية واحتل من البلاد العربية عسيراً وتهامة وجزءاً من اليمن . فسعت الدولة ان تخرجه من هذه الاقطار فلم تفلح . ورأت انكثرة ان مطامع محمد علي باشا في البلاد العربية لا تلتئم بمصالحها ، لاسيما ما كان يتعلق منها بالهند وبشركة الهند الشرقية ، فامتسقت الحسام ، او بالحري حركت الاسطول دفاعاً عن الدولة ، وكانت هي العامل الاكبر في اخراج المصريين من البلاد السورية وفي انسحاب ابراهيم باشا من اليمن .

ثم عقد مؤتمر لندن فأبرمت في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ معاهدة كادت تفضي الى الحرب بين فرنسا وانكلترة ، أعيدت بموجبها سورية الى الدولة العلية وأثبت محمد علي في ولاية مصر . واكن قضي على محمد علي في مصر كذلك لو فازت في ذلك المؤتمر السياسة الافرنسية التي كانت تحشى مقاصد الانكليز الخفية . لم تكن تلك المقاصد يومئذ غيرها اليوم ، وقد كشف الزمان عنها الحجاب ، وحققت بعضها الحوادث . فما قد افتتحت طريق البر من مصر الى سورية ، فالعراق ، فالهند .

اما الطريق التي كانت تستوجب الاهتمام مباشرة فهي طريق البحر . وقد كانت انكثرة في تلك الايام ، ايام البخار الاولى ، تفتش عن مكان في البحر الاحمر الى البحر العربي يصلح لان يكون مستودعاً للفحم لتزويد البواخر في طريقها الى الهند ومنها . فرأى رجال الشركة الهندية الشرقية ان عدت اصلح مكان لهذه الغاية ، وظلوا عشرين سنة يحومون عليها ويسعون بالمعاهدات وبالسياسة ان يرفعوا فوق فلاحها العلم البريطاني . وكان ابراهيم باشا وهو في تهامة

بينها كذلك ويخاير سلطان لحج بخصوصها . اوجس الانكليز خوفاً من ابراهيم
فاقترت مصلحتهم بمصلحة العثمانيين واتحدوا سياسة عليه .
كتب رئيس الوزارة الانكليزية يومئذ اللورد بالمرستون الى محمد علي باشا
سنة ١٨٣٨ يقول ان لا حق له في البلاد العربية فيجب ان يسحب جنوده
منها . ثم عقد معاهدة مع الدولة تخول الانكليز الاتجار في المالك العثمانية ، وطلب
منها عدن لتكون لم مركزاً تجارياً في تلك الانحاء . على انهم كانوا يبعونها
مستودعاً للفحم كما قلت . وما هي اهميتها للدولة في كلا الحالين ؟ عدن ، ابن هي
عدن ؟ وراء ثلاثة بحار ، في آخر البلاد العربية ، تبعد التي ميل عن الاستانة ،
ولا سيادة حقيقية للدولة فيها .

منح السلطان عبد المجيد الفرمان . ولكن شركة الهند الشرقية كانت تعلم
ان السيادة الحقيقية في عدن هي للعرب وان الفرمان وحده لا يكفي . فينبغي
للاحتلال حادث يتذرعون به . كانت المراكب الانكليزية تمر في تلك الايام
بعدن للمتاجرة فحدث ذات يوم ان مركباً شراعياً غرق هناك فسطا عليه العرب
ونهبوه ، فبعثت ادارة الشركة القبطان هينس^(١) على مركب حربي في ثلاثمئة من
الجنود يطلب التعويض ، فجاء الى عدن وفاوض السلطان ، سلطان لحج ، الذي
كان مقبلاً فيها ، فابى سموه ، فاحتج الانكليزي بالفرمان ، فاستشاط السلطان
العربي غيظاً . ومن هو سلطان العثمانيين ؟ وهل يهب بلاداً ليست له ؟

ضرب القبطان هينس عدن في ١٩ ك ٢ سنة ١٨٣٩ فامر السلطان الحامية
بالدفاع ، فحدث بينها وبين الانكليز قتال لم يدم طويلاً . سلم العرب ، ولكن
سلطان لحج في ازدرائه الخط الهايوتي ومقاومة الفاتحين تمكن من عقد معاهدة
معهم حفظت له بعض حقوقه ، وقطع الانكليز معه عهداً بان يدفعوا له تعويضاً
عن الاحتلال ستة الاف ريال مسانحة ، كانت بداية تلك المشاهرات التي تبلغ
اليوم نحو مئة الف روبية .

احتل الانكليز باسم شركة الهند الشرقية قسماً من عدن يدعى التواهي

(١) Captain Stafford Haines راجم الشرح في صفحة ٢٤١

ولم تكن يومئذ غير اعشاش لصيادي السمك ، لا يتجاوز سكانها الستائة نفس .
وظل السلطان مقيماً فيها مدة قصيرة فقط اذ قلما يقوم الى جنب السلطة الانكليزية
سلطة اخرى وطنية او اجنبية ، فتراخت العلاقات بين السلطان ووكيل بريطانية
عظمى ، فحدث قتال ثان كان للانكليز رغبة فيه - بقول عرب عدن : كاد
الانكليز كيدهم المعروف - فانصروا على العبادلة ابي قبيلة السلطان واخرجوهم
من النواحي واستولوا على عدن استيلاء تاماً . منذ ذلك الحين لم يأذنوا لسلاطينهم
ان يكون لهم في عدن بيت ولو صغيراً . ثم جددت المعاهدة التي من شروطها :

اولاً : ان يعترف السلطان بسيادة الانكليز ويقبل حمايتهم في مملكته .

ثانياً : ان تكون البلاد مستقلة في داخلها استقلالاً تاماً .

ثالثاً : ان تكون المقابلات بين العرب والسلطان رأساً دون تدخل
الانكليز . « قد كان هذا التدخل احد اسباب الخلاف بين الفريقين »

رابعاً : ان يكون له الحق بان يصدر ما شاء من القوانين في بلاده .

خامساً : ان لا يعقد معاهدات مع الاجانب (امراء العرب لا يعدون من
الاجانب)^(١)

سادساً : ان يكون له راية خاصة وجند وحق بمنح الالقاب والرتب .

سابعاً : ان تكون بوابة عدن الحدود بين المتعاهدين وان يكون ما دونها بما
فيه بلدة الشيخ عثمان من املاك سلطنة الحج .

ثامناً : ان لا يجوز لاجنبي التملك في الحج او الدخول اليها بدون اذن من
السلطان تعطيه الحكومة البريطانية .

اخبط تحت الكلمات الاخيرة مني لالفت النظر اليه خصوصاً . تأملها ايها
القارى . ان فيها مثلاً للقاعدة المرنة في السياسة . لم يقل الانكليز : بدون

(١) قد تدرجوا من هذه القاعدة الى قاعدة اعم ، فصار الامير العربي المستقل في
نظرهم كالامير الاجنبي ، فلا يحق لامير آخر عربي ان يعقد معه معاهدة دون ان يستشير
ويستأذن حكومة « جلالة الملك » .

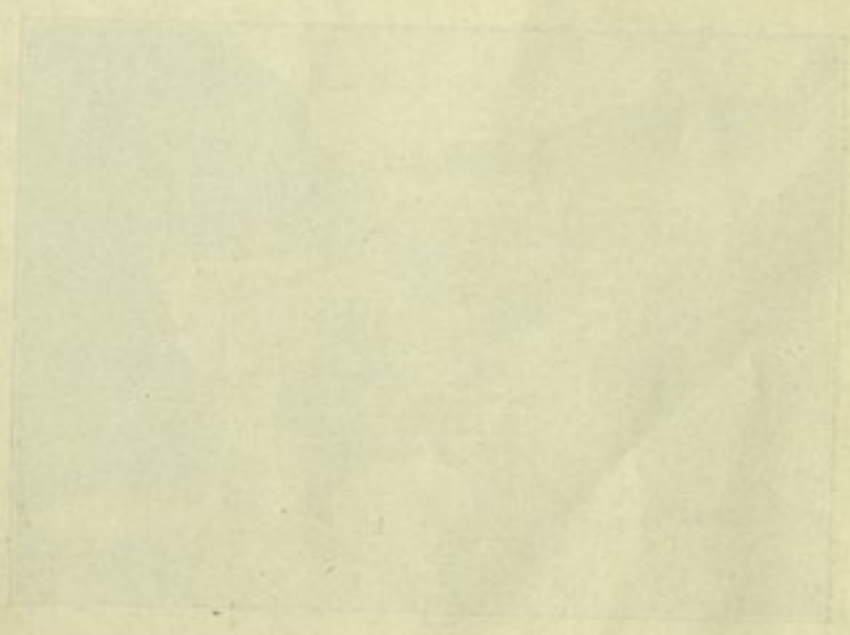
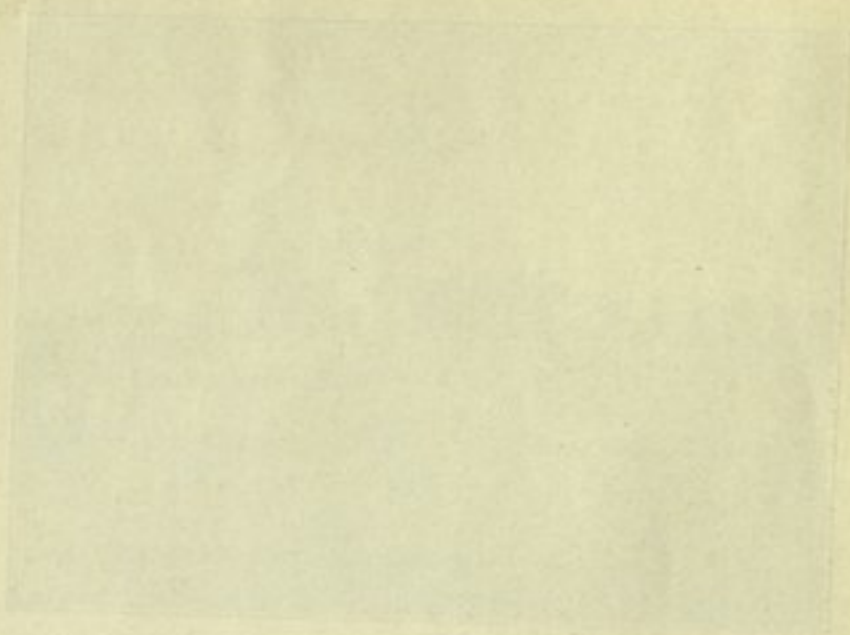
اذن تعطيه الحكومة البريطانية ، وهي حقيقة الحال ، لانهم يتحاشون ان يسوا
 كرامة السلطان . فمطوا البند ليبرر السياتين ويرضي الفريقين . انت يا صاحب
 السمو صاحب الامر . ولكنتنا نحن خدامك نتولى امره ، نتوكل عنك في اعطاء
 الاذن . وهو لان كذلك . اذا وصل السائح الى عدن وشاء زيارة سلطان الحج
 يتحتم عليه ان يقوم بواجبين : اولهما ان يكتب كتاباً الى سموه يستأذن بالزيارة
 والثاني ان يطلب الاذن رسمياً من دار الاعتماد . فاذا كان هناك من مانع يعلمون
 سموه بذلك ويرفضون الاذن عنه . والا فيمنحونه ويمددون وقته وصلاحيته ،
 فلا يتجاوز حامله حدود الحج ولا يقيم فيها غير ايام معدودة .
 اشرنا في الفصل السابق الى صعوبة الدفاع عن عدن اذا كانت وحدها
 البلدة المحتلة ما لم تخصصها الحكومة بفيلق وبعض المدرعات فيضطرون اذ ذاك
 الى مكان تقيم الجنود فيه . وبكلمة بسيطة ضاقت دونهم عدن فسعوا في
 توسيع الحدود . ولكنهم اكتفوا ببضعة اميال شمالاً وفيها بلدة الشيخ عثمان ،
 فطلبوها من السلطان فرفض طلبهم . قالوا : نشترها ، فقال : لا . قالوا : هي
 لازمة ، فلم يكثرث .

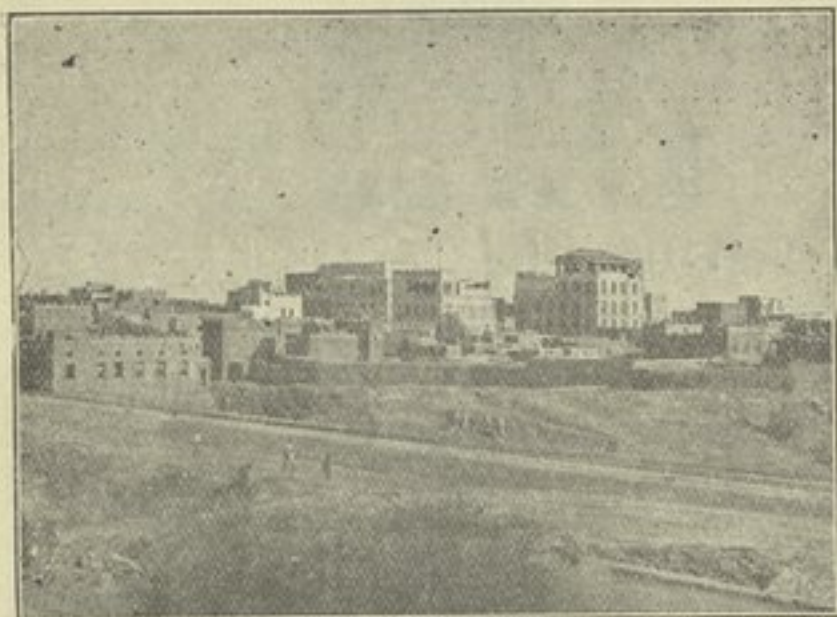
فلجأت اذا ذاك دار الاعتماد الى وسائل لا تحملها الحكومة البريطانية في
 بلادها . كان للسلطان شقيق يحب المال اكثر من حبه الشيخ عثمان وكانت لهذا
 العبدلي يد في ادارة امور السلطنة ، معززة بثقة اخيه . فنقرب الانكليز منه
 وتم سنة ١٨٨٢ الاتفاق بينهم وبينه سرّاً على التنازل عن الشيخ عثمان في مقابلة
 مبلغ قدره عشرون الف ريال ، اي اربعون الف روبية ، اي الفان وخمسمئة
 ذهب انكليزي . فامضى صك البيع بالنيابة عن اخيه السلطان ، فاعتبره
 الانكليز صكاً شرعياً وحددوا بموجبه حدودهم التي شملت تلك القرية وهي على
 مسافة عشرة اميال من عدن .

اما السلطان فلما علم بالامر طرد اخاه من البلاد وصادر املاكه وحرمه
 حقوقه في الامرة المملكية . ولكن ذلك لم يؤثر في خطة الانكليز وسياستهم .
 دخلوا الشيخ عثمان واقاموا فيها حامية قوية لم يستطع السلطان ولا خلفاؤه ان

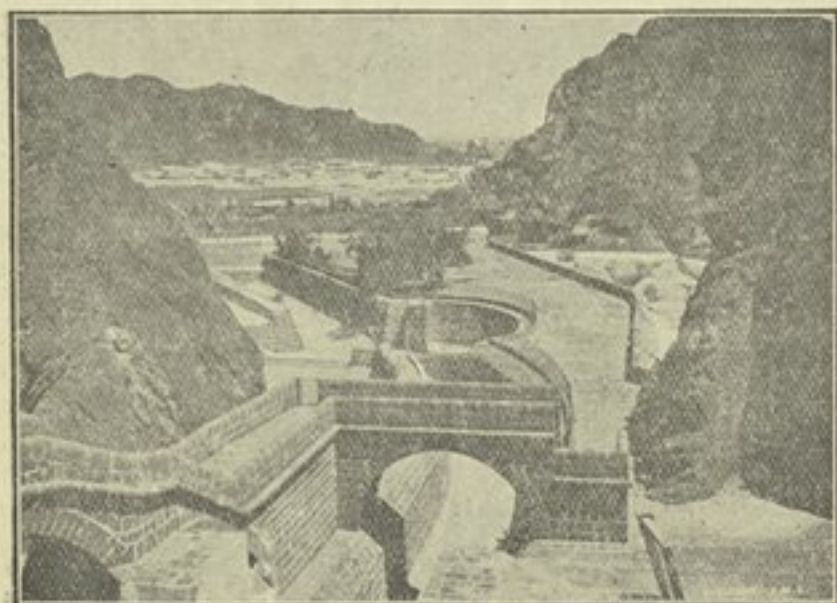
يقاوموها . ولم يكن احتجاجهم الدائم على شرعية البيع ليجدي نفعا ، فرضوا بعد مدة بقسمة الجبار فيهم ، وعقدوا معاهدة جديدة مع الانكليز قبلوا فيها ان تكون دار الامير ، وهي قرية تبعد نصف ساعة عن الشيخ عثمان ، الحدود الفاصلة بين الحج وبين الحكومة المحتلة .

ومنذ ذلك الحين حتى اليوم لم تضطر هذه الحكومة في الدفاع عن عدن الى توسيع الحدود مرة اخرى ، فلا يزال جمرك السلطنة اللحجية في دار الامير . اما الشيخ عثمان فقد اصبحت بلدة عامرة بالعسكر الهندية والخانات ، وبالصوماليات السافرات ، وبانواع الموبقات . وفيها كذلك مقام الولي حاتم بحر ، وبساتين اغنيا ، عدن ، وجنيئة حيوانات سكانها غزال وخنفة وسعدان .





الحوطة عاصمة الحجاج



الاسداد في عدن

الفصل الثالث

سلاطين لحج

مؤسس سلطنة لحج — اصل العبادلة — السلطان محسن بن فضل العبدلي —
 المعاهدة بينه وبين الانكليز — السلطان فضل بن علي بن محسن — ارضكان
 الملك الاربعة — السلطان احمد بن فضل — اتفاقه وامام صنعاء علي الاتراك —
 المفاوضات السرية بينه وبين الادريسي — الملك حسين نصير الاتراك — السلطان
 احمد اول من سمى في سبيل الوحدة العربية — سفره الي مصر — الزراعة
 في لحج — السلطان علي بن محسن بن فضل — ابن عمه المعسن المصلح محسن
 بن فضل — السلطان الحالي — تحسين علاقته مع الانكليز — المفاوضات بخصوص
 معاهدة جديدة — مطامع العبادلة في النواحي التسم — طريقة الوراثة وتدخل
 الانكليز — العقال وانتخاب السلطان .

في سنة ١٧٠٩ ، عندما جاءت البعثة الافرنسية الي اليمن ، كان حاكم
 عدن مستقلاً عن امام صنعاء . وبعد ست وعشرين سنة من ذلك الحين استولى
 علي عدن اول سلطان من سلاطين لحج . كان هذا الرجل قائداً من قواد الزبود ،
 طامعاً بالسيادة والمجد ، منساهلاً علي ما يظهر في الامور الدينية . اقامه امام
 صنعاء عاملاً علي اليمن الاسفل فتوسع بالاجازة الامامية واقام نفسه حاكماً
 مطلقاً مستقلاً ، بل اقام نفسه سلطاناً . وبما ان عرب البلاد التي استولى عليها
 من الشوافع ، فلا يعززون حاكماً زيدياً ولو اطاعوه ، نبت من اجلهم وفي سبيل
 مطامعهم مذهب اجداده ، واتخذ المذهب الشافعي سراطناً الي النجاح قوياً . هو
 مؤسس سلطنة لحج .

ثم خلفه في الحكم امرأ من عرب العبادلة الذين اشتهروا بالشجاعة
 والعدالة ، وبجهم الزراعة التي هي حتى اليوم مصدر ثروة لحج الصغيرة وموضوع
 اهتمام سلاطينها . والعبادلة من اليمن الاعلى ، زيديو الاصل كما تبين بمتون
 بنسبهم الي عرب حمدان .
 من سلاطين لحج اربعة مشهورون ، اولهم محسن بن فضل الذي احتل

الانكليز عدت في عهده . وقد كانوا عقدوا في سنة ١٨٠٢ اول معاهدة ولائية تجارية مع والده السلطان احمد فاستمرت مرعية الى سنة ١٨٢٧ ، فنقضها السلطان محسن عندما ادرك مطامع الانكليز الذين كانوا يبحثون في تلك الايام عن مكان في البحر العربي يصلح مستودعاً للفحم . ولكنه غلب في نهاية امره فاضطر ان يعقد واياهم معاهدة عندما احتلوا عدت سنة ١٨٣٩ كما اوضحت في الفصل السابق . ومن بنود تلك المعاهدة بندان لا ترى لها غير الاثر الضئيل في المعاهدات الحديثة ، اولها : ان لا يحق للاجنبي ، وان كان موظفاً بريطانياً في حكومة عدن ، ان يدخل الى الحج بدون اذن من سلطانها ، والثاني : ان من يرتكب جرماً من الانكليز او من رعاياهم في البلاد يحاكم بموجب شرائعها .

قبل الانكليز في البداية بهذين البندين ، ثم سعوا في توسيع الحدود الشرعية شيئاً فشيئاً ، فعدلوا البند الاول بل نقضوه باضافتهم اليه تلك الكلمة الاعتيادية ، فقالوا : لا يحق لاجنبي ان يدخل الى الحج بدون اذن سلطانها والاذن يطلب من دار الاعتقاد بعدن . وقد اسسوا محكمة قاضيها مسلم هندي فقضت على البند الثاني الذي يختص بمحاكمة الاجانب .

كان السلطان محسن غيوراً على استقلاله ، توافقا الى السيادة الواسعة النطاق ، محسناً الى العشائر ، محباً للعلم والعلماء . ولكنه كان متقلباً في سياسته ، يتربص الفرص لتحقيق مقاصده التي لم تتفق يوماً واحداً مع مقاصد الانكليز . غلبوه اولاً وثانياً ، في سنة ١٨٣٩ عندما احتلوا النواحي وفي السنة التالية عندما حاول ان يخرجهم منها ، فدارت عليه الدوائر وكان هو من الظاعنين . اخرجوه من عدن ولم يأذنوا بان يكون له بعدئذ بيت فيها . ولا اذنوا بذلك لاحد من خلفائه كلهم .

ولكن خلف السلطان محسن لم يساوى الانكليز ولا هم ظاهراً امرهم ، بل ولى وجهه الشمال والغرب فسمى ان يعوض في داخل البلاد عما خسره سلفه في سواحلها . هو السلطان فضل بن علي بن محسن والد السلطان الحالي .

وقد كان باسلاً مقداماً حكيماً ، يقرن البطش باصالة الرأي ، ويرى ، وهو امي ، ان لا عز للملك بغير الثروة ، ولا ثروة بغير الزراعة ، ولا زراعة بغير الامن والعدل . فسعى في سبيلها كلها سعياً شريفاً . امنشق الحسام وكان منتصراً في غزواته كلها ، فاستولى على الحواشب ، ويمكن نفوذ العبادلة في العشار ، واكتسب بسياسة الصدق والعزم ثقة الانكليز واعجابهم . ولكنهم غلبوه بسياسة اللين ، بالقاعدة المرنه ، فاعاد الى سلطان الحواشب ملكه بعد ان استولى عليه بضع سنين ، فاستحكمت بعدئذٍ العلاقات بينه وبين عدن والمُسَيْبِير^(١) . حكم السلطان فضل ثلاثين سنة وكان في حكمه عادلاً حكيماً ، فسن شرائع لا تزال حتى اليوم مرعية لتتعلق بالزراعة ، وبادارة الاوقاف ، وبتهييل صلات العشار بعضها ببعض .

اما خلفه السلطان احمد بن فضل بن محسن ابن عم السلطان الحسالي وقرين سلفه السلطان محسن في الدكاء . وحب العلم والعلماء ، فقد كان اشد حنكاً ودهاء من اسلافه ولكنه لم يكن مثاهم كريماً . احترمه الانكليز ظاهراً وتعمدوا في معاملته ما كان من خلقه اي التكتم والمواربة .

وقد كان بين السلطان احمد والامام المنصور والد الامام يحيى صلة ولاء اوت الى اتفاق سرى بينهما ، من شأنه مقاومة الترك والنزعة التركية في اليمن . ولم يقف السلطان احمد عند هذا الحد في مناوئته الاثراك ، بل مد يد الولا والعون الى السيد الادريسي فكان سراً عضداً له في عسير ، وارسل الى الشريف حسين وهو يومئذ امير مكة دعوة للانضمام اليهم ، او الكف في الاقل عن مساعدة الاثراك على امام صبيا وجيزان^(٢) .

(١) المسبِير هي عاصمة سلطنة الحواشب .

(٢) كان الادريسي في تلك الايام خارجاً على الدولة ومهدتاً بموءامرة تركية شريفة زبديه . فسعى السلطان احمد ان يقاومها ويدفعها باتفاق او حلف عربي قلم يفر بذلك . جاء عزت باشا الى الحجاز في اذار سنة ١٩١١ يستنجد الشريف على الادريسي فالتجده بجملة يقودها نجلاء الاميران جداهه وقبيل . وكتب الى السلطان احمد يستنصره على عدو الدولة ويسأله ان يسمي في سبيل الصلح بينها وبين الامام يحيى . ولكن سياسة السلطان احمد كانت يومئذ مخالفة لسياسة الشريف حسين .

هوذا السلطان احمد عدو الترك واول من سعى على ما اعلم في سبيل الوحدة العربية . فقد دعا امراء العرب الى مؤتمر عام يعقد في احدى عواصم الجزيرة للنظر في مصير الامة العربية وتوحيد كلمتها وسياستها . ولكنه ، بعد ان ارسل مشوره الى الامراء ، عدل عن عمله لاسباب مجهولة . وقد تكون الحرب التركية الايطالية احد تلك الاسباب ، لانه تغير في سياسته وفي عواطفه بعد تلك الحرب تغيراً سريعاً مدهشاً .

كما جئت على ذكر الاتراك في البلاد العربية اراني مكبراً السيد محمد الادربسي وثبانه في مبداءه وجهاده . فقد كان الامام يحيى عدو الاتراك فصار صديقهم في الحرب العظمى . وكذلك كان سلطان لحج السلطان احمد بن فضل ، فتحول في الحرب التركية الايطالية عن سياسته ومبادئه ، كانه لم يسعَ مرأً وجهراً في نقويض السيادة التركية في البلاد العربية . وقد كان من امراء العرب الذين ساعدوا الدولة بالمال ايضاً ، فدعي لذلك الى مصر ليقابل مندوبها السامي رؤوف باشا ، فلبى الدعوة ، ونادى من القاهرة بحمل وساماً من اوسمة الدولة ، ويحمل ايضاً غراساً من ارض الفراعنة .

ان للسلطان احمد مساعي مبرورة في تحسين الزراعة في لحج . فقد جلب الاغراس من مصر ومن الهند وكان في اهتمامه بها مثالاً للفلاح عالياً . وقد كان شغفاً كذلك بالاوسمة ، فصك منها باسمه وشرع بمنحها الناس من عرب وهنود وانكليز . ثم باشر تنظيم المالية والجمرك فسن قوانين عديدة ، حالت دون تنفيذها الحرب العظمى . لا مربة في القول انه كان سلطاناً كبيراً ذاهمة قعساء ، وذكاء ودهاء . هو السلطان الزراع السيامي ، بحب الابهة والاشجار الغربية . ولكنه لم ينجح في دار الاعتماد نجاحه خارجها .

وما كان في خلفه ما يومي الى التوفيق والتحسين من هذا القبيل . كان السلطان علي بن محسن بن فضل سلف السلطان الحالي رجلاً ورعاً نقياً يحترم علماء الدين والسادة الاشراف احتراماً جزيلاً ، ولم يكن له ارادة تستقيم وتشتد في السياسة والرئاسة . ولكنه لم يهتم لادارة الملك فانكل في ذلك

على ابن عمه محسن فضل شقيق السلطان الحالي .

كان السلطان محسن^(١) اديباً ذكي الفؤاد ، عصرياً في آرائه واعماله ، محباً للإصلاح وال عمران ، عالي الهممة ، بعيد النظر ، شديد البأس ، ثابت العزم والارادة . فباشر في ايامه القصيرة اصلاحات كثيرة في الجندية والمالية والمعارف ، ولكن الافكار لم تشأ ان يكملها بنفسه فتوفي في عدن عقيب الهدنة عن اثنين وثلاثين ربيعاً . ان مثله من امراء العرب الشديدي النزعة الى القومية العربية ، الراغبين في تعليم الناشئة على الاسلوب الحديث ، الساعين في تحقيق امالمهم الوطنية العالية ، ليؤسف على موتهم في ريعان الشباب . وقد وقف السلطان محسن ثروته كلها على اثناء مدرسة عصرية ومستشفى وصيدلية في الحوطة ، فتأسست المدرسة وسيتم قريباً بناء المستشفى بفضل السلطان الحالي .

هو السلطان عبد الكريم فضل العربي الصميم في حديثه واخلاقه ، ولا اقول في ملابسه التي هي هندية اوروبية . اما ملامحه العربية فمثل اخلاقه وحديثه لا غبار عليها . هو نحيل الجسم ، عصبي المزاج ، مستطيل الوجه ، دقيق الانف ، غائر العين ، وفي الخامسة والاربعين من العمر . لكنه يظهر اكبر من ذلك لما في وجهه من تجعد وقتام ، ولما فاساه اثناء الحرب من الشدة والاحزان . وهو مثل اخيه الباسل وابيه سلطان لحج الكبير يكره النفوذ الاجنبي ويسعى سعياً هادئاً سلمياً في مقاومته وتقويضه . ولا عجب اذا كان من مساعديه ان يستعيد بعض الحقوق التي نالها السلطان فضل ابوه فاضاعها من خلفه .

على ان السلطان عبد الكريم يفتقر الى شيء من شدة ابيه وطموحه ، ومن نشاط اخيه وعزمه . فهو والحق يقال اقرب الى الادب والزراعة منه الى السياسة والادارة . له ذوق في الموسيقى ويحسن بعض الاحسان العزف على البيانو . وله رغبة في المطالعة فيهم خصوصاً بتاريخ العرب والاسلام . وهو

(١) كل اعضاء الاسرة المالكة يلقبون بالسلاطين ، وهم يدعون السلطان الاكبر « الوالد المالك والسلطان الأمان » .

مثل السلطان احمد شغف بالزراعة يقضي ساعات من يومه في بساينته . لذلك قيل فيه على ما اظن انه قليل الاكتراث ضعيف الارادة . وقد يتخلل عزمه ، وهو عصبي المزاج ، فترات يسي . الناس فهم اسبابها ونتائجها . ومن مزاياه انه يحترم الرأي والحريّة الفكرية في الناس . اما علاقته مع الانكليز فلمدارة اظهر ما فيها . على ان له في دار الاعتقاد مقاماً محترماً وكلمة مسموعة ، فيستشيره اولو الامر في كثير من المسائل التي تختص بالعشائر واحوال البلاد الداخلية .

اب في حج على صغرها نهضة في التعليم تذكر ، وهي على صغرها سيدة النواحي التسع المحمية ، سيدتهم ادبياً ومعنوياً وفي بعضها سياسياً ايضاً . فان ام السلطان عبدالكريم من البوافع ، وبينه وبين العوالمق ولواء وثيق العرى ، وله على الصبّاحة والحواسب سيادة لا بد ان تمتد الى سواهما .

اما الامارة في حج وفي النواحي التسع فهي انتخابية لا ارثية . لذلك تقدم السلطان عبدالكريم اثنان من اخوته بعد موت ابيه السلطان فضل . ولكن الانتخاب اي المباينة هي من قبل الخاصة فالمبايعون هم المقسال^(١) اي حكام البلدان الذين يعينهم السلطان فيجتمعون مع رؤساء العشائر لينتخبوا ولي العهد الذي يجوز ان يكون من غير الامرة المألوفة . ولا شك ان هذه الطريقة تفتح ابواباً واسعة لتدخل الانكليز في شؤون البلاد وسياستها فيولون عليها من الموالين لهم من يشاؤون .

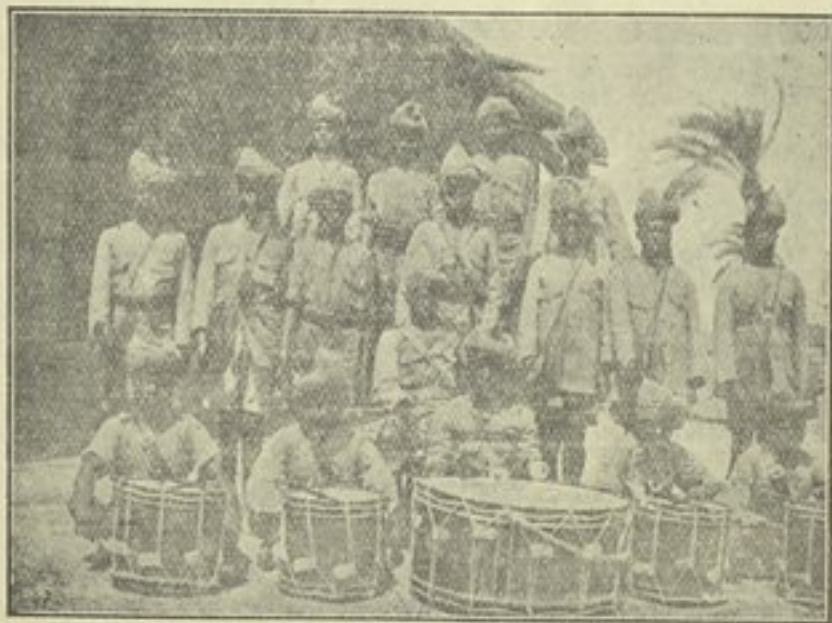
اما ولي العهد فهو ينتخب في عهد السلطان الحاكم فيصبح منذ ذلك الحين مقيداً بالسياستين ، سياسة حج وسياسة عدن ، ورهين الارادتين ، ارادة المعتمد و ارادة السلطان التي قد تكون ، وان كانت وطنية ، جائزة مثل الاولى . هوذا موطن الضعف والخلل في تلك الحكومات العربية الصغيرة كلها . لا اقول ان الانكليز اخترعوا هذه الطريقة في الارث ووضعوا قواعدها ، ولكنهم ولا شك ينتفعون بها انتفاعاً يضر بين هم اصحابهم وحلفاؤهم واصحاب البلاد التي احتلوها .

(١) حاكم الولاية او ما يمثّلها يدمى في اليمن عاملاً وفي نجد ميراً وفي هذه النواحي حاقلاً .

جذالو ساعدوا اذن في تغيير هذه الطريقة فيكنسيون حب الناشئة
 العربية الراقية وثقة اولياء الامر في البلاد . ولا اظنهم يفقدون في ذلك شيئاً
 من حقوقهم الشرعية او من نفوذهم الصالح المفيد . اما غير ذلك من حق او نفوذ
 فهو يضر بالانكليز اليوم اكثر من ضرره بالعرب . اجل ، ان الحقيقة البليغة
 الرائعة التي يجب ان نتديرها اليوم وزارة المستعمرات بلندن او دائرة الشرق
 الاوسط في تلك الوزارة هي هذه : كلما قل تدخل بريطانيا العظمى في شؤون
 الامراء الوطنية والخاصة تعزز مركزها لديهم . وكما تقلص نفوذ الانكليز في
 داخل البلاد ازداد في السواحل . او بالاحرى كلما امتنعوا ، حكمة ونزاهة ،
 عن مد يدهم الى ما وراء حدودهم المعروفة ثبتت قدمهم ضمن تلك الحدود . ولا
 اظنهم يفتنون اكثر من ذلك .



سمو السلطان احمد فضل شقيق السلطان عبد الكريم



جوقة لحج الموسيقية

الفصل الرابع

لحج في الحرب العظمى

جزيرة الشيخ سعيد — ضربها واحتلالها — احتجاج الامام يحيى — زحف الاتراك على عدن — الجنود الانكليزية تتقدم الى الشيخ عثمان — تأخير النجدة الانكليزية — الامير لواء علي سعيد باشا يفاوض سلطان لحج — وقعة الدكيم — تدمير لحج — وصول النجدة الانكليزية في الليل — اطلاق النار خطأ على السلطان ورجاله — الاسرة المائة في عدن — لحج وعدن تتهددان وتسالمان — تركي كريم التجار — وما جزاء الاحسان الا الاحسان .

في باب المنذب ، على مقربة من رأس البر اليمني ، جزيرة صغيرة تدعى الشيخ سعيد ، قد جاء ذكرها في تقارير عدن الرسمية اثناء الحرب ، وسيجيء ولا شك ذكرها في المستقبل في تقارير وصكوك لا يطلع عليها غير القليل ممن تهتمهم امتيازات النفط والمعادن .

هذه الجزيرة هي اليوم في حوزة الامام يحيى بن حميد الدين ، وقد كانت اثناء الحرب في يد الاتراك تابعة للساحل الجنوبي الغربي الذي يتصل ببلاد عرب الصبيحة . وعندما انضمت الدولة العثمانية الى الدول الوسطى ، وشهرت في تلك الحرب الضروس السيف على الحلفاء ، قررت القيادة في اليمن الزحف على عدن . فلما علم بذلك الانكليز اوقفوا ثلاثة طوابير من الجنود في البحر كانوا مسافرين من الهند الى السويس ، فضربوا في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ الشيخ سعيد ليدمروا الابار والحصون والمستودعات فيها . ولكنهم لم يستطيعوا ، لشدة الانواء ، النزول الى الجزيرة فنزلوا الى البر^(١) قريباً منها في رحى مدافع البواخر

(١) قد انضب هذا الاعتداء الامام يحيى فاحتج عليه . فكتب اليه الكرنل جاكوب المعاود الاول يومئذ في دار الاعتدال يقول : ان الضرورة الحربية حملتهم على ضرب الشيخ سعيد وان ليس لهم في ذلك قصد خفي او سياسي ، وان جلاهم قريباً عن تلك الناحية ثبت ما يقول . — ملوك العرب . صفحة ١٥٩

الحربية ، فنقهقر العدو الى داخل البلاد . ثم دمر الانكليز قلعة تربه وغيرها من الحصون في تلك الناحية ، وغنموا بعض المدافع فظنوا انهم اوقفوا الاتراك في الزحف على عدن . نعم ، اوقفوهم سبعة اشهر ، فعادوا اذ ذاك الكرة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلوها ، ومشت جنودهم من ماوية الى الحج تقصد الهجوم على عدن .

وكانت السلطة الانكليزية فيها قد احتاطت للامر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، فامرّت بنقل الحامية من عدن الى الشيخ عثمان ثم بالتقدم الى الحج . جاء في التقارير الرسمية : « ان شدة الحر وقلة الماء وفرار الهجانة المأجورين اخرت الجنود في الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » .

على ان طليعة الجيش وصلت مع ذلك الى محبتها في ذلك اليوم ونازلت الاتراك خارج الحج قبل ان تصل الجنود اليها ، فدارت الدائرة على الانكليز ، فنقهقروا عن الحج مهزومين ، فدمرها الاتراك في ٥ تموز سنة ١٩١٥ ونهبوها . ثم زحفوا على الشيخ عثمان فاحتلوها في اليوم التالي .

ولكن النجدة التي وصلت بعدئذ الى عدن اخرجت الترك من الشيخ عثمان في ٢٠ تموز ، فعادوا الى الحج وتحصنوا فيها ، وظلت شردمات منهم في أم العُمد والوهط ، فحاول الانكليز مراراً ان يخرجوهم منها فلم يتمكنوا من ذلك الا بعد ان انجدهم عشائر العرب التي استنجدها . ولكنهم لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ ان يخرجوا الاتراك من الحج . فظلوا فيها الى نهاية الحرب .

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية في الغرب من اخبار تلك الزاوية العربية القصية ، وليس فيه كلمة عن نكبة الحج وعماسل بالامرة المملوكة وبسلطانها حليف بريطانية العظمى . فحُث اروي الخبر كله كما سمعته وتثبتته من مصادر شتى هناك .

في السنة الثانية من الحرب اي في صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية في اليمن خمسة وثلاثون طابوراً ، اي نحو خمسة عشر الف جندي ، اكثرهم من السوربين . وكان منهم قسم في ماوية تحت قيادة الامير لواء علي سعيد باشا

الجر كسي الذي سعى ان يضيف اليه قوة من العربان . كان سعيد باشا كريم الأخلاق جواداً ، فاحبه العرب وانضم الى جيشه بضعة الاف من الحواشب واليوافع والصبيحة^(١) فعول اذ ذلك على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير اشغال الانكليز هناك . وبما ان لحج ، وهي في طريقه ، سلطنة مستقلة بعث الى سلطانها يستأذنه بالمرور ويعدده بالمحافظة عليه وعلى ملكه . فابى السلطان علي لانه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها . ما اشبه لحج واللحجيين من هذا القبيل بالبليجيك واهلها : ليست بلادنا بدرب يجتازها المتحاربون .

خرجت جيوش سعيد باشا من مأوية وسقطت على لحج ، فاستنفر سلطانها الورع بعض العشائر المجاورة فأنجدوه ، وخرجوا وهم بضعة الاف يلاقون الاتراك وهم ضعفهم عدداً واضعافهم عدة . فاصطدم الجيشان قرب الدكيم ، على مسافة عشرة اميال من لحج ، فانهمزم اللحجيون . ولذلك اسباب ثلاثة — اولاً : لم يكن معهم من عتاد الحرب غير القليل . ثانياً : لم يكونوا على شيء من النظام . ثالثاً : لم يتجنهم النجدة من الانكليز الا بعد الهزيمة . وقد جاء في التقارير الرسمية ان لابطاء تلك النجدة ثلاثة اسباب ايضاً . ولكن هناك سبباً آخر غير التقيظ وقلة الماء وفرار الهجانة . فقد سمعت في عدن ان الجنود الهندية عصوا يومئذ ضباطهم لانهم كرهوا ان يحاربوا اخوانهم المسلمين . والحقيقة التي لا ريب فيها انهم ابطأوا في الانجاد ثم انهزموا .

عندما دخل الاتراك لحج كان السلطان علي وامرته لا يزالون في القصر يدافعون عن انفسهم ، فاضطروا ان يخرجوا منه عند ما بدأت الحجارة تتساقط عليهم من الجدران التي كانت تحترقها القنابل ، فبادروا في العسق الى الفرار ووجهتهم الشيخ عثمان . اما الجنود البريطانية فكانوا قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحجيين ، فالتقوا بالسلطان وامرته تحت جناح الظلام ، فظنوه من كشافة العدو ، فاطلقوا عليهم النار ، فقتلوا عدداً منهم واصيب السلطان علي

(١) وقد كتب الى الامام بحسى يطلب منه المساعدة فلم يلب الامام طلبه كما تقدم . بل ان الامام كما قال سعيد باشا عندما سلم الى الانكليز ، كان يارض رأيه في الزحف على عدن .

برصاصة في رجله ، فنقل الى عدن وتوفي من اثر الجرح هناك ^(١)
 دخل الاتراك الى الحج فدمروا قصور السلاطين ونكلوا باهل المدينة ، ففر
 الى عدن من سلم من الاميرة المالكة وكثيرون من الاهالي . وعندما خلف
 السلطان عبد الكريم السلطان علياً كان من اول اعماله انه احتج احتجاجاً شديداً
 على حكومة الانكليز لانها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين اجداده ، فقبلت
 حكومة لندن الاحتجاج وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية فيها .
 اقام السلطان والاميرة المالكة في عدن مدة الحرب كلها ، وهم يستعينون على
 الدهر بما كانت تدفعه الحكومة لكل منهم ، في حين ان املاكهم وقصورهم
 وبلادهم كانت في حوزة الاتراك يستمعون بها وبخيراتها . حتى اصبح هؤلاء في
 غنى عن الامداد والتموين من مركز القيادة العثمانية في داخل اليمن . بل كانوا
 بعد ان استقر امرهم في الحج على شيء من اليسر وجانب من الامن والاطمئنان
 يستغرب مثله في ايام الحرب بين المتحاربين .

والسبب في ذلك بعد الفريقيين على ما اظن عن ساحة الحرب الكبرى وعن
 مركز حكومتيهما . كان الجنود والضباط بسمعون ولا شك بويلات تلك الايام
 واهوالها ويحمدون الله لما بينهم وبين تلك الويلات من المسافات . فلما امن
 الانكليز على مركزهم في عدن والشيخ عثمان تركوا الحج للاتراك . ولما امن الاتراك
 على الحج ونواحيها تركوا عدن للانكليز . فنع كل بما ملكت يده ، وكلمت
 القنائة بكرم الاخلاق .

اجل ، بينما كانت رضى الحرب تطحن الانسانية في شمالي فرنسا وتتلأ
 الارض هولاً وقبوراً ، كان الترك والانكليز في هذه الزاوية المباركة من اليمن
 السعيد يتبادلان المعروف والاحسان . وكان للقائد الجرکسي سعيد باشا الفضل
 الاكبر في ذلك بشهادة الانكليز انفسهم . اما العرب فلا يزالون يذكرونه حتى
 اليوم بالفخر والاعجاب .

(١) « اتنا في امالنا مسؤولون عن وفاة السلطان علي المبصرة » . هارلد جاكوب
 في كتابه ملوك العرب ، صفحة ١٦٧

قلت ان شيئاً من اليسر عاد الى لحج بعد نكبتها لان الاهالي والعساكر
 شرعوا يزرعون ويشغلون ، فازدهت بالاخضرار والثمار تلك البقعة الخصبة التي
 تسقي من فرعي وادي دُبن . اما عدن وهي في ثم البركان فلا ترى فيها ولا في
 جوارها ورقة خضراء . فتبادل القائدان السلام ، ثم الكلام ، ثم : — هذه
 بقولنا نرسلها اليكم كل يوم على الرأس والعين . فشكر الانكليز الترك قائلين :
 وهذا الارز والسكر لكم منها ما تبغون . وهذه فوق ذلك السكاير . فهتف عسكر
 الدولة : ليحي الانكليز .

كذلك تم الصلح بين الاحلاف والدول الوسطى ، اءو بالحري بين ممثليهم
 في عدن وفي لحج ، قبل ان انتهت الحرب بسنتين . ولما اعلنت الهدنة دخل علي
 سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالا جميلا .
 دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور .

الفصل الخامس

التمدد الحديث في الحج

اثر من الاثار في تاريخ البخار - بين عدن والحج - وفد المرجين - ملابس
 اللحجيين الزاهية - سمو السلطان - ردهة الاستقبال - صحب البخاري
 والفونوغراف - وزير السلطان السيد علوي الجفري يفوه بكلمة - السير
 كروس فنصل اميركه يلقي خطاباً ' يقوه بشرين كلمة وكلمة - سلطان
 متمدن - الموسيقى العسكرية تصدح بالنشيد الاميركي - مائدة السلطان -
 غرفة ' البلياردو ' - في البساتين مع شاعر وسلطان - اشجار الحج - شاعر
 الحج وفلسوفها - ولي العهد الصامت - المدرسة الفضلية - المدافع والاقاب -
 عرب الحُجُور - خناجر الحج - البخاري والسواك وعائشة - البخاري
 وصندوق الزجاج - نالوث الحرية في الحج .

كتبت بعد وصولي الى عدن كتاباً الى صاحب السمو السلطان عبد الكريم
 فضل ارغب اليه في التشرف بزيارته . وكتبت بواسطة قنصل اميركة الى دار
 الاعتماد استأذن بذلك . فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مرحباً بي ، ثم
 جاء في بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنه اذن باسمي واسم رفيقي واذن
 اخر باسم القنصل الذي شاء ان يرافقنا .

ركبنا من محطة عدن قطاراً عسكرياً ، خطه ضيق وعرباته قديمة ، جيء به
 من الهند ، وقاطرته اثر من الاثار في تاريخ البخار . فرقصت بنا وهي تخرج
 وتفرقع في ارض سبخة قريبة من البحر ، ومرت باكام من الملح هناك مستخرج
 منه ، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها . ومنها الى دار الامير ابي
 الحدود بين عدن والحج ، ثم 'صبر' ، فجلاجل ، فنوبة الهراني ، فالخوطة .
 وكلها ما عدا العاصمة ودار الامير اسماء لاكواخ من القش والبن يتخللها شيء
 من شجر الاسل واميال من القفر الذي تهب فيه رياح البادية وهي تحمل السموم
 والموت من الربع الخالي . ويمتد خط الحديد من الخوطة الى مكاتب بعد ستة
 اميال عنها يدعى الخُداد .

اما المسافة بين عدن والحوطة فلا تتجاوز العشرين ميلاً . اجتزناها
بساعتين - حتى البخار يستشرق في الشرق - ووصلنا الى العاصمة بخير
وسلامة ، فرحب بنا في المحطة ولي العهد واخو السلطان وغيرهما من
القصر ، وهم في ملابس تدهشك منها لاول وهلة الالوان الزاهية البهيجة ، ثم
شكها الذي يختلف عن ملابس البدو والحضر في اليمن وفي الحجاز . ما ذكرني
الحجبي في موطنه المخططة التي تصل الى الركبة وعمامته الطويلة الذؤابة بغير
الاسكتلندي اذا لبس ثوب عشيرته اي التنورة الملونة والقبعة ذات الريش .
ولكن السلطان احمد وهو قائد الجيش يلبس مثل اخيه السلطان
المالك عبد الكريم ، الا ان له شغفاً بالالوان الباهرة . رأيت اول مرة في
بنطالون ابيض ضيق حول الساق ، وفوقه معطف الى الركبة اسلامبولي الشكل ،
الا انه من الحرير الازرق المخطط ، بشرطه زنار وافر مشدود الى وسط نخيل ،
وفي الزنار خنجران هائلان مرصعان بالحجارة الكريمة ، وعلى رأسه عمامة صفراء
حمراء زرقاء . ملفوفة في شكل هرمي - هي الموضة ، عند اعيان الحج - وطبي
اضلعه ما ينافض كل ذلك اي روح عصريته حتى الكفر . سنعود الى السلطان
احمد بعد ان نقابل سمو اخيه .

ركبنا من المحطة في سيارة اوصلتنا الى القصر نجف الى استقبالنا عند
الباب سمو السلطان ، وهو يلبس فوق ثيابه الافرنجية عباءة بنية ، وعمامة ملونة
هندية ، ومعه حاشيته ووزيره الاول السيد علوي الجفري . ثم صعد بنا الى
ردهة الاستقبال في الطابق الاول ، وهي رحبة انيقة جليلة ، يدخل اليها نور
الشمس في جلباب من التقوى يلبسه اياه الزجاج الملون في النوافذ - كأنه من
بيت الصلاة عند المسيحيين - وتلطفه السجف البيضاء المخزومة كأنها من
قصر انكليزي . ان في هذه القاعة مجلسين افرنجياً وعربياً ، فرش الاول غربي
الشكل الا انه من صناعة الهند ، تحتل زاوية منه آلة الفونوغراف ، وفرش
الثاني دواوين عربية تفتعها المساند والوسائد . وهناك بين المجلسين طاولة عليها
مجلدات ضخمة هي شرح البخاري ، ذلك السفر الجليل المدهش ، الفريد في بابه ،

الممتاز بالشروح الثلاثة للكلمة النبوية ، اي شرح 'شرح الشرح' ولا يجوز
ذكره بغير الاجلال كامل الاسماء ، فهو القسطلاني على صحيح البخاري ،
والخزرجي على القسطلاني ، والامام النووي على الخزرجي

— وهوذا يا صاحب السمو المستر كروس C. M. Cross قنصل اميركة في عدن .
فرحب سموه به واجلسنا ، اكراماً له على ما اظن ، في المجلس الاول الرسمي الذي
يستقبل فيه ضيوفه الافرنج . ثم تعطف فاحلنا كنا محل الاحل والاحباب على
الدواوين العربية التي تبعدنا عن الفونوغراف وقرئنا من البخاري .

— كان قنصل اميركة السابق صديقنا يزورنا من حين الى حين . ولكم ما
كان له عندنا من الحب والاكرام . قال هذا السلطان ، وكنت انا الترجمان
فسررت بالقنصل لانه قليل الكلام . شكر سموه وسكت . فاستلمت اطراف
الحديث شاكراً ، ونشرت منها المألوف في السلام والتبجيل ، ثم المعروف من ظاهر
سياحتنا ، فواقفتني عند هذا الحد كلمة من السيد عاوي شوقت الي حديثه .
وهو لطيف الابدانة ، براق العين ، فصيح اللسان ، يستأنس به جلوسه من
بجرد النظر اليه . ولكني عرفت انه الوزير الاكبر وانه اهل لذا المقام العالي لانه
مثل القنصل الاميريكي قال كلمته وسكت .

— مقاصدكم شريفة يا حضرة الفاضل وقد عرفناها .

فاضاف السلطان عبد الكريم الي ذلك كلمة اخرى لطيفة : وسيزيدنا
الاستاذ معرفة ان شاء الله . زيارة مثله لا تنقضي في جلسة واحدة . ثم سألنا
عن صحة الملك حسين ، فكان دور القسطنطين ، الذي اجاب بما يسر المحبين ،
ويريح بال المعجبين برجل مكة الاكبر . ثم مال سموه الي القنصل فقال : يجب
ان تغض النظر يا حضرة القنصل . ليس عندنا ما يلبق بكم ويشرفنا في نظر
الامة الاميركية العظيمة غير حبنا لكم واخلاصنا .

ترجمت الي اللغة الانكليزية هذه الكلمة وفيها جميل التواضع واللفظ
فادهشني من المستر كروس جوابه الذي تجاوز الكلمتين قال لافض فوه : سأقل
كلام سموكم الي حكومتي واحب ان اقول بالاصالة عن نفسي ان في العرب

فضائل كثيرة تشرفهم في نظر الامم الغربية .
 هناته بعدئذ بحسن جوابه وحسن سلوكه . ومن ادري باخواني
 الاميركيين مني ؟ فقد كنت اخشى منه سكوتاً يسيء او كلمة توجب الشرح
 والتفسير . وهو مثل اكثر الاميركيين لطيف كريم في ما يفعل اكثر منه
 في ما يقول .

بعد ان شربنا القهوة نهض السلطان وتقدمنا الى الجهة الاخرى ، الى المجلس
 العربي قائلاً : هذا بيتكم . ربما انتم تعبون . وراح يتبعه حاشيته الى داخل
 القصر . جلسنا نحن الثلاثة وفي كل منا شيء . يأتي الكتان .

— سلطان عربي في ثياب هندية افريقية .
 — سلطان كريم حكيم .

وقال المستر كروس : سلطان متمدن .

وستدهشك من تمدن هذا السلطان اشياء اخرى كثيرة . هذه مجلة عربية
 من مصر ، وهذه جرائد من القاهرة ومن الاسكندرية ، وهذه في ألواح الفونوغراف
 اغاني مصرية واناغيد انكليزية ، وهوذا يا مستر كروس النشيد الوطني الاميركي
 تسمعك جوقه لحج العسكرية ! سررنا بالنشيد الاميركي لانه كان من اجمل
 آيات الترحيب والاكرام . والحق يقال ان ما من احد يزور لحج الا ويعجب
 بذوق سلطانها الذي تفصح عنه مجالسه ، ومائدته ، وسياراته ، وخيله ، وكتبه .
 انك لترى اشياء من الشرق والغرب مجتمعاً غير متنافرة في قصور لحج ، وتجد
 حتى في ازالة الضرورة الطريقتين الشرقية والغربية .

نمنا في الاسرة ضمن الكلال ، وجلسنا والسلطان الى مائدة تعددت وتنوعت
 الوانها ، فكان الطاهي شرقي خدم في مطبخ نزل اوروبي ، وشربنا التنبك في
 المداعة الهندية الشكل الطويلة القوام والي^(١) وركبنا السيارة بصحبنا ولي العهد
 واحياناً السلطان نفسه او اخوه السلطان احمد الى خارج البلد تشرف على بساينها
 الا ان الدهشة الكبرى كانت في غرفة « البلياردو » وفيها طاولة انكليزية

(١) المداعة الارجية والي التريش

كبيرة اعدت عليها ذكرى ايام كنت في هذه اللعبة هائماً مبرزاً .
 اما محاسن لحج ومستغرباتها فاكثرها في قصور الامراء وفي البساتين ،
 وللسلطان عبد الكريم عناية خاصة بالاثنين . اجل ، انك لتجد الشرق والغرب
 مجتمعين حتى في الاشجار . فهذا التفاح الشامي في جوار العَـحَب الهندي .
 ولكن الزراعة ، على اهتمام سلاطين لحج وشغفهم بها ، لا تزال في طور النشؤ .
 مشينا صباح يوم وسمو السلطان الى احد تلك البساتين فكانت اول ما اوقف
 النظر منا رجال يحفرون بئراً كما لو كانوا في ايام عاد وثمود . فما المانع من
 استخدام الآلات البخارية ونفقاتها مثل اجرة العمال ان لم تكن اقل : ان
 ارض لحج صالحة للآبار الارتوازية . وهي مع ما يجري فيها من مياه وادي
 دُـبـن تحتاج الى هذه الابار لان نهري الوادي يجفان في الصيف فلا تكفي الارض
 اذ ذاك مياه الصهاريج .

ها هنا وجدنا النقص في اسباب الزراعة واحياؤها ، فان ارض لحج خصبة
 جداً . ويمكن ان يزرع فيها القطن الذي رأينا قليلاً منه في البساتين اذا بني
 سد في طرفها الشمالي على مرتفع من وادي دُـبـن تصب مياهه في الصيف فيسقي
 الارض المزروعة كلها .

— اظن ما تشكوه يا مولاي من صغر ثمر العَـحَب ناتجاً عن امرين عدم
 التلقيح وقلة الماء .

— ولكن عمبنا في لحج على صغره اطيب من عمب الهند .
 والعمب اي Mango والحِثاء Papaya من الاشجار التي لا ترى في غير
 المناطق الحارة . مشينا في ظلها الوارفة وسموه يعرفنا بما ينبت في لحج وما يزرع
 في البساتين .

— هذا السَـحُـر الذي يذكره الشعراء .
 فقال رفيقنا الامير صالح وهو شاعر :
 كأنني غداة البين يوم تحملوا لذي سمرات الحلي ناقف حنظل
 ومنه الشوكي العربي واللاشوكي الهندي .

— وهذه شجرة تعطي قطناً انخر من القطن ودود الحرير نسميها شجرة
« الفطن الحريري » . هي تشابه في طولها ونحوها شجر الحور .
— وهذا العُشْر الذي يستخرجون منه البارود .
فقال الامير صالح : وكان عود الكبريت عند الاقدمين .
وهذا الأَسَل صديق الابل .
قلت : وهو شبيه السلم .
فقال الامير الشاعر :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
ولكن شاعر حج وفيلسوفها ، الذي لا ينظم ولا يكتب كلمة للنشر ،
انما هو السلطان احمد فضل . قال لي ذات ليلة طال فيها السمر وما
ذوي غصنه :

— وما التعصب وما المذاهب كلها ؟ بلية الامم والله ونكبة الاوطان . لو
كان العرب يعقلون لعلموا ان خلاصهم ها هنا لا ها هنا « و اشار الى رأسه
ثم الى قلبه » نعم ، ان العقل — وانت يا حضرة الاستاذ ادري بما قاله شاعر
العرب الكبير ابو العلاء المعري — ان العقل مصباح الحقيقة . والحقيقة
اساس كل عمل صالح ثابت مفيد سياسياً كان ام دينياً . اما القلب فغالبا
ضال ، والعواطف مضلة . هذا الزيد يغمس ثيابه وجسمه في النيل لظنه
ان النيل يقبه البرد . والظن يصبح بالممارسة عقيدة . والعقيدة يثبتها الوهم .
والوهم منشأ العواطف والتصور . انا جرّبت النيل لما كنت شاباً فلم يدفع
عني البرد . ولو حكّم كل امرئ عقله في الامور لبان الضلال في كثير منها
مثل النيل ، ولما رأيت هؤلاء الجهال المتنبئين عندنا . وستراهم ، سترى خيرات
« كثيراً » منهم غداً عند الزبود . قد قيل لي ان الزبود ينيلون اجسامهم وثيابهم
حدادا على الحسين . لا يزالون الى اليوم يحدّون على الحسين ! والاجدر بنسا
يا استاذ ان نحدّ على العقل في بلادنا وعلى العلم .
اما السلطان احمد وهو الجندي الفيلسوف ، الخاد المزاج ، الشديد اللهجة

والبأس ، فيجد في قلبه لا في ثيابه . كان يزورنا كل يوم وهو يحمل البناضمة من الورد فيتعش النفس منا ، كما كانت الوان . لابسه تعش البصر ، وكما كان حديثه بنعش العقل والامال . وهو لا يتجاوز الاربعين . له شغف بالعلوم والفنون نادر في تلك الناحية القصية من البلاد العربية . يطالع الجرائد والكتب والمجلات ، ويحدثك في سياسة الامم كما لو كان تزيل القاهرة . وهو من غواة الصيد والتصوير والموسيقى ، فيحسن العزف على كثير من آلات الطرب ويدير الجوقة العسكرية التي اسمعتها الشيد الاميركي . ولكن منه المتعددة لا تبعد عن الحقل والبستان ، فهو مثل اخيه مزارع كبير يحب العمل في الارض بيده . اما رأيه في المدينة الغربية فهو على شديد تزعمته العربية لا يرى فيها الضرر الذي يتوهمه بعض الشرقيين .

— وما ضرنا اذا لبسنا الافرنجي وكانت عقولنا سليمة ووطنيتنا صادقة ؟
اذا كانت قيمتي في هذه العامة وفي هذه الجنبية فلا كانت الجنبية ولا كانت العامة ولا كنت انا .

ان السلطان احمد فضل هو السلك الكبر بائي في لحج . وهناك السلطان الصامت مهدي بن علي ابن عم السلطان الحاكم . وقد يكون صامتا لانه ولي العهد الظاهر المؤيد ، وقل المقيد ، بالسياستين العدينية والمهجية ، الانكليزية والعبدية . قلت : الظاهر ، لان سمو السلطان عبد الكريم ، في ما يسعى اليه من الاصلاح الذي تقدم ذكره ، يأمل ان يكون ولي العهد ابنه الامير فضل ، وهو في السادسة عشرة من العمر يتلقن العلوم واللغة الانكليزية من اساتذة في القصر . اقترحت على السلطان ان يرسل الامير فضلا الى مدرسة في سورية او في مصر فقال انه يرغب في ذلك ولكن الام لا تصبر على فراق ابنها .
— ولكننا سنحضر الى لحج انشاء الله اساتذة من مصر وسورية يعلمون في مدرستنا .

هذا ما قاله لي عندما زرته ثانية بعد رجوعي من اليمن لاهنته بعيد الاضحي . وقد هنأ يومئذ تلاميذ المدرسة الفضلية بما القوه من القصائد والخطب

القديمة الاسلوب العقيمة المعنى . اما كتب التدريس التي امر المعلمين بان يطلعوني عليها فهي مصرية ومنها سورية وكلها حديثة . فاستبشرت بذلك وقلت في كلمة القيتها على التلاميذ ان الحج زاوية اليمن المباركة ، وستصبح بفضل سلطانها زاوية العلم والتمدن . هذا اذا تم ما يقصده من الاستعانة بالاساتذة والاطباء العرب يجلبهم من سورية او من مصر .

وحبذا الانكليز عوناً له في هذا السبيل . حبذا منهم المساعدة في تأسيس مدارس وطنية تعلم فيها اللغة العربية والعلوم الحديثة . حبذا لو انهم يهتمون للتعليم ربع اهتمامهم للسياسة ولكل ما يعزز جانبهم فيها . فقد ساعدوا في تنظيم جيش الحج الصغير ، وسهروا على ارضاء سلاطينها بما يظنونهم اكراماً كبيراً . ومما يضحك في تاريخ علائقهم السياسية والولائية انه « في ١٩ ك ١ سنة ١٨٩٥ قررت الحكومة ان تزيد المدافع التي تطلق لسلطان الحج من التسعة الى الاحد عشر مدفعا . وفي سنة ١٩٠٣ منحت سموه لقب ورتبة « فارس في كوكب الهند » . وهم في رسائلهم يخاطبونه كما يلي : عمدة الامراء الكرام ، وقدوة النجباء الفخام ، سمو السلطان محبنا وصديقنا السيد عبد الكريم فضل بن علي العبدلي كاي . مي . آي . اي . « K.G.I.E. »^(١) وهو يبادلهم هذا الاكرام والتبجيل فيرده اليهم كلمة كلمة . لو ترجمت « عمدة الامراء الكرام وقدوة النجباء الفخام » الى الانكليزية ، وهي لتقدم اسم موظف انكليزي ، اسكانت نفكك وزارة المستعمرات . ولكنها تظل مخزونة في رؤوس الكتاب والمترجمين في دار الاعتماد .

اما العرب فلا يحفلون بمثل هذه الترهات وقلما يعرفونها . فهم يخاطبون سلطانهم بقولهم : السلطان المؤمن او الوالد المالك . واهالي الحج من عرب اليمن والمولدين ، اهم قبائلهم بعد العبادلة العزبي واهل البان واهل سلام . وفيهم الحُجُور من ناحية في حضرموت تدعى حُجُور قرب مكة ، سميرتهم شديدة تضرب الى السواد ، فيظنهم السائح لاول وهلة عبيداً . هؤلاء الحُجُور^(٢)

(١) راجع الشرح في صفحة ٣٤١ (٢) جم حجري

يشتغلون في لحج كل الاشغال الشاقة . في الحقول تجدهم وفي القصور ، يحرثون ويخدمون ويحسنون العمل .

ان الحجري اكبر جسماً واشد ساءداً من اللحجي ، على ان وجه هذا ادق ملامح من ذلك ، وفيه من سباء الذكاء ما قلما تجده في الحجري النشيط . اما الثياب فالحجور يستغنون عنها كلها ما عدا الفوطة والعمامة . وقلما تجد لحجياً اياً كان ومهما بالغ في اللبس او العري ، لا يحمل خنجراً من تلك الخناجر الرائعة المفضضة القبضة والنصاب التي تصنع في لحج . ومنها ما يكون نصابها مزدوجاً بشكل اللامين في « الله » فتظن صاحبه حاملاً خنجرين . ما رأيت في كل من يستغنون عن الثياب في البلاد العربية ويقربون بسمرتهم الى السواد من هو اشد بأساً ، وارهب طلعة ، من حجري يلبس عمامة كبيرة منيلة ، ويحمل خنجراً مزدوج النصاب . انه مع ذلك لثقي .

كنت وسمو السلطان في احد بساينيه خارج المدينة فرأيت الحجري يحرث الارض ، ورأيت بصلي وهو واقف على صندوق كبير في الجو فيه ماء للقاطرة حيث تنتهي سكة الحديد . عامل من عمال الشركة يشتغل في تصليح مستودع الماء ، فأذنت الشمس بالغروب ، فترك عمله ، ووقف مكانه بصلي صلاة المغرب . ان ذلك الجميل ، وان ديناً يستوقف العامل في عمله لينذكر الله لا أجمل .

بيد ان بعد ساعة رأيت الوجه الثاني من ذا الجمال . عند رجوعنا ذلك اليوم الى القصر تناولت مجلداً من صحیح البخاري وفتحته عرضاً فاذا انا في باب المسواك والاحاديث النبوية في المسواك والشروح وشروح الشروح على الاحاديث النبوية في المسواك . أطبقت الكتاب وفتحت جزءاً آخر منه فاذا بعائشة تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعمما كان مسلكه في الغسل قبل الجماع وبعده في الليلة الواحدة ، فخلتني اقرأ مذكرات احدي الخواتين الافرنسيات .

ولما جاء السلطان احمد يزورنا تلك الليلة اشرت الى ما كان من حظي في

البخاري فقال : لو قرأته كله كما قرأه نحن في شهر رجب آسكن حظك احسن .
 ثم قال : البخاري يا حضرة الاستاذ مثل صندوق زجاج يبيثنا من اوروبه .
 صندوق كبير ، كبير جداً ، فيه ست كؤوس او ستة قناديل ملفوفة ، مدفونة ،
 في قنطار من القش . هذا هو البخاري .

است اذكر الان اذا كانت الكلمة هذه للسلطان احمد او للشيخ علي رضا
 السوري الطرابلسي ناظر الجمارك في السلطنة للحجية . كلاهما عريق في المحكمة
 وحرية الفكر والتساهل الديني . الا ان علي رضا ، مثل السلطان مهدي ، سكوت
 لا يحب الظهور . وقلما يعرض فكره في غير مجلس الالفة والاطمئنان . كان من
 حظي ان اجالسه غير مرة ، وان له ولاين اخيه عبد الغني الرافعي فضلاً علي
 ببعض المعلومات في الفصلين الثالث والرابع من هذا القسم من الكتاب

الفصل السادس

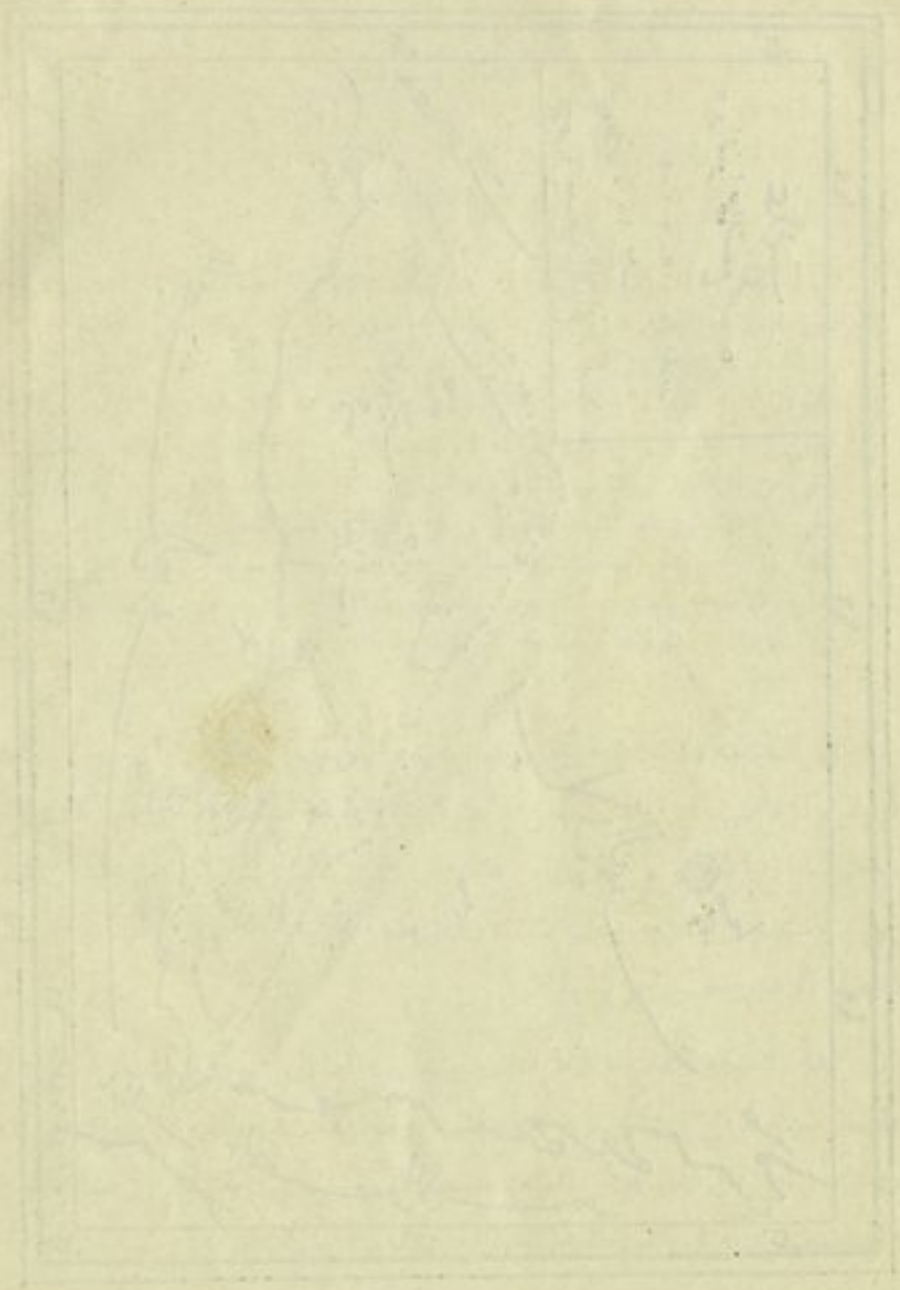
النواحي التسع المحمية

مبدأ الحياة في السياسة الانكليزية - المعاهدات الولاية - البندان او القيدان -
 دور الولاة والعطاء . ولا بأس بالعداء - دور الحماية . ولا بأس بالتكايه -
 « لنا يد على فلان في منصبه » - الصبيحة - آل فضل او الفضلي -
 العوالق - قوم لا دين لهم - الواحددي - عرب لا يعرفون القرآن ولا
 النبي - العوازل - اليواقم دولتان مستقلتان - سلطان اليواقم السطلي
 يعني من الانكليز زيادة في المشاهرة ولقباً ونشاناً - سلطان اليواقم العلبا لا
 يعني من الانكليز غير العبد والمهجران - العلوي - القطيبي - الحواشب -
 العقارب - اقدم السلطنات واصغرهما - الضالم - سياسة الامام يحيى -
 الشيخ الاخرم يهندي - الزيود يطلقون المدافع ترجيباً به - الامام بقندي
 بالانكليز - الولاة ثم العطاء ثم الاستيلاء .

ان السياسة الانكليزية جسم حي يتعمده الساسة الانكليز بالثرية ويساعد
 في نموه الزمان . وانك لتيقن ذلك في كل قضية مهمة ، خارجية كانت او
 داخلية ، اذا اطلمت على تاريخها . فقد اعربت في الفصل الاول من هذا القسم
 عن سياستهم في عدن وكيف نشأت وتطورت ، وازيد القارى . علماً في هذا
 الفصل الاخير ببعض جزئياتها .

بدأ الانكليز عند احتلالهم عدن يعقدون والعشائر عهداً بسيطة تضمن لهم
 الهدنة في الاقل ريثما تهيئهم النجدات . وتدعى هذه العهود عهدود صداقة
 وولاء . اول من عاهدهم من العرب عشيرة العزبي التي هي اليوم من عشائر الحنج .
 والمعاهدة هي آية في البساطة والايجاز . فبعد ذكر اسماء الفريقين نقول :

هذه معاهدة بين الانكليز والعزبي . نحن الان اصدقاء ونتمهد بالسلم
 والولاء . قلوبنا وبغياننا واحدة . الامان الدائم على عدن وعلينا نتمهد به



امام الله . واذا اخذ الانكليز احداً من عشائرنا او اخذنا احداً من الانكليز
فلا يؤذى المأسور او يهان .

في سنة ١٨٣٩ عقدوا مثل هذه المعاهدة مع اليواقع من المنطقة السفلى من
بلادهم ومع الحواشب وغيرهم ، والقاعدة السياسية فيها كلها واحدة : الولا . ثم
العطاء ثم الاستيلاء . فقد تدرجوا من المعاهدة ذات البند الواحد الى المعاهدات
الطويلة ، وفيها كلها تجد اليوم البند الاول المهم الذي يقيد الامير او السلطان او
الشيخ بالانكليز دون سواهم من الامم . اذ لا يحق له ان يفاوض او يرسل دولة
اخرى ، او يعاهدها ، او يقبل مساعدات مالية او غير مالية منها بدون معرفة
بريطانية العظمى واجازتها .
والبند الثاني اهم من الاول :

لا يحق لفلان « الامير المعاهد » ان يبيع او بأجر او يهب او يرهن
شياً من ارضه او ملكه لغير الحكومة البريطانية .
وفي بعض المعاهدات يجمع البندان في بند واحد شامل وهو :

يتعهد فلان « الامير المعاهد » في مقابلة مساعدة مالية ان لا يتنازل
عن شيء من ملكه لغير الانكليز ، وان يدعن لما توجهه السياسة الانكليزية ،
وان لا يقبل مساعدات مالية او غير مالية من دولة اخرى .

واذا اخل باحد هذه البنود يقطعون عنه الراتب الذي شرعوا منذ ذلك
الحين يخصصون به المتعاهدين . كانت هذه الرواتب تافهة في البداية تتراوح بين
العشرة ريبالات والمئة ريبالاً في السنة الى كل امير ، ثم نشأت تزداد مع السياسة
والمصلحة حتى اصبحت الان تتراوح بين الخمسين والاربعمئة روية كل شهر .
اما سلطان الحج ، وهو كما تقدم اكبر المتعاهدين ، فمشارفته تزيد على الثلاثة
الاف روية .

هذا دور الولاء والعطاء . ولكن الانكليز كانوا يتدخلون في بعض الاحابن في شؤون اصحاب المشاهرات ليصلحوا مثلاً بين صديقين متخاصمين من اصدقائهم ، فيورثهم التدخل مسؤولية توجب عليهم الاستمرار . فيستمررون مصلحين ويكتسبون ما لا بد منه من عداا احد المتخاصمين . يقيمون الحدود بين الفريقين ، فينصبون العمد البيضاء الفاصلة ، فيجبي من لا يرضى بتدخلهم ظاناً نفسه مغبوناً ، فيرفع تلك العمد بل يكسرها ، فيقوم جاره الذي رضي بالصلح ، صلح الانكليز ، ويدافع عنها ، فيعاديه ثانية ويقاتله ، ويستنصر عليه اصدقاءه الانكليز ، فيضطرون ان ينصروه بالسياسة والمال وبالرجال ايضاً ليعززوا في الاقل كلمتهم ويثبتوا نفوذهم . فينتج عن ذلك كله تلك الحماية التي لم تكن كما يقول بعضهم من مقاصد السياسة الاولى . ولكنك تذكر ايها القاري . ما كتبه مجلس ادارة شركة الهند الشرقية الى المعتمد الانكليزي الاول في عدن^(١) . هوذا الجسم السيامي الحي الذي يساعد في نمو الزمان .

انتقلنا من دور الولاء الى دور الحماية فاصبح الانكليز حلفاء صديقهم الامير العربي والمسؤولين عن استقلاله وسلامته ملكه . قد تطول مدة الشؤ كما في تاريخ البوافع مثلاً الذين عاهدوا الانكليز سنة ١٨٣٩ عهد صداقة وولاء ، ولم يعقدوا معهم المعاهدة التي امسوا بموجبها تحت حمايتهم الا بعد خمس وستين سنة . وكان النمو السيامي يوجب على الساسة اكثر ما يتعمدونه في البداية ويرمون اليه . فالانكليز في عدن لم يقفوا عند حد التدخل لاصلاح ذات البين بين امير وامير ، بل تجاوزوه الى التحزب السيامي الذي اثمرت اليه في فصل سابق . خذ البرهان من هذه العبارة التي تكثر في التقارير الرسمية التي يرفعها المعتمد الى وزارة المستعمرات :

« ان لنا يداً على فلان في منصبه فقد نصرناه على من كان من امرته ينازعه الامارة » .

اما الذين عاهدوهم من العشائر وساعدوا في تقسيمهم امارات وسلطنات

و بسطوا الحماية الانكليزية عليهم ، فهم يقطنون البلاد التي تدعى النواحي التسع المحمية اي الجهة الجنوبية من اليمن الاسفل . وهاك اسماءها وبعض ما علمته من الثقات عنها .

الصبيحة

النقطة المركزية عدن . فاذا نظرنا غرباً منها نرى قسماً من بلاد الصبيحة التي تمتد على الساحل من رأس عمران حتى باب المنذب . والصبيحة عشائر متعددة منها العاطيبي والبريمي يحكمها الشيوخ والعقال حكماً بدوياً . وهم مشهورون بالغزو والغدر ، بقدر عدد من يحمل السلاح فيهم بعشرين الفا . على ان لا سلطان لهم ولا زعيم كبير ليجمع شملهم او بالحري شرهم . وليس لمشايخهم وعقلم مشاهرات معلومة . لكنهم يجيئون الى عدن كل ثلاثة اشهر مرة او يرسلون اقاتر بهم ليقبضوا الاكراميات التي تتراوح بين الخمسين والمئة روية ، وبعضهم يتناولها بواسطة سلطان الحج .

آل فضل او الفضلي

واذا اتجهنا من عدن شرقاً وتمثلنا اماننا مئة ميل من الارض ممتدة على الساحل من حدود العبادلة « لحج » الشرقية عند ام العُهد الى حدود العوالق الغربية في المقاطن - والبلدتان على البحر - نحيط بملك آل فضل ، الذين هم اقوى العرب واشدهم حول عدن شرقاً بشمال منها . فان لساطانهم عبدالقادر بن حسين الفضلي عسكرياً من قبيلته الخاصة ، وعنده من العشرين الى الثلاثين الفا يحملون السلاح^(١) اما عرب الفضلي فن البدو ، وهم ذوو بأس ومرؤة ، يسارعون الى النجدة ويرغبون دائماً في القتال . وبظهور ان السلطان

(١) يتبع هذا الفصل لائحة في المشاهرات كلها وما يستطعم ان يحشده كل سلطان من المقاتلة وقد يكون الفرق شامعاً بين عدد من يستطيعون حمل السلاح وعدد المسلحين .

عبد القادر يرغب مثل زميله العبدلي في توسيع ملكه ، فقد طلب من الانكليز سلاحاً ومدافع فلم يلبوا طلبه ، والعلائق بينه وبينهم مترامية في هذه الايام . بيد انه لا يزال يقبض المشاهرة وهي اربعة روية ، ولا يزالون يرجون به بتسعة مدافع عندما يشرف عدن .

العوالق

هم جيران آل فضل على الساحل ، وبلادهم اكبر النواحي التسع ، مساحتها مئة ميل ونيف شرقاً ومثلها شمالاً . وهي تقسم الى قسمين العوالق العليا والعوالق السفلى . اما الاولى فيحكم اليوم قسماً منها السلطان صالح بن عبدالله العولقي ومركزه في الانصاب . ويحكم قسماً آخر شيخ يعادل بل يفوق السلطان صالح قوة ونفوذاً ومركزه بشبوم . وهناك بلد اسمها العريقة وميناء هو الحوزة يحكما شيخان مستقلان الواحد عن الاخر ، ومستقلان ايضاً عن شيخ بشبوم وسلطان الانصاب .

في العوالق العليا آثار حميرية كثيرة ما اكتشف غير اليسير منها وفيها مشايخ وعلما يؤثرون المال على الاستقلال ، ويعملون في مقابلة ما يتقاضونه من المشاهرات لتوسيع النفوذ البريطاني في بلادهم . بيد ان ليس بينهم وبين عدن غير معاهدة ولا عقدت سنة ١٩٠٣ .

اما العوالق السفلى فاهلها اصدقاء الانكليز منذ سنة ١٨٥٥ حين عقدوا معهم عهد ولا على ان يمنع السلطان دخول الرقيق من افريقية الى بلاده . ولكنهم مع صداقتهم للانكليز واختلاطهم ، وهم على ساحل البحر ، بالاجانب ، فلا يزالون على شيء يردع من الوحشية . وفيهم قبائل لا يعرفون الديانة الاسلامية ولم يسمعوا بالنبي محمد . وهم يتزوجون بدون عقد نكاح مثل عرب الجاهلية ، وينكحون اخواتهم وزوجات اباؤهم ، ولا يصومون ولا يصلون . سألت مرة في دار الاعتماد عما اذا كانت السياحة في بلادهم ممكنة فاجابوا : نعم ، اذا كانت لا تهتك حيانتك .

ان لسطان العوالق السفلى الخالي ابي بكر بن ناصر مشاهرة صغيرة لا تتجاوز المئة روية . اما عدد من يستطيع حمل السلاح في هذه الناحية الكبرى فيقدر بثلاثين او اربعين الفاً . ولكن عدد من يستطيعون تجنيدهم لا يتجاوز الثلاثة الاف .

الواحدى

هم جيران العوالق شرقاً بشمال ، عاصمة بلادهم حبان ومينائها المعروف بلحاف ، وسلطانها علي بن محسن له مشاهرات وليس له مدافع تكريم وترحيب . ذلك لان عربانه البدو بخلاف عربان العوالق وامرائهم ، ينفرون من الانكليز ويجاولون التفلت من ربة الحماية التي اوثقوا بها منذ سنين . والغريب العجيب في هذه الجهة من اليمن الاسفل ان حبان ، وهي بلدة قديمة ذات ماضى موصوف بالعلم والادب ، ويشبوم ، وفيها اليوم عدد من العلماء ، لا تبعدان خمسين ميلاً عن العوالق السفلى التي لا يزال فيها من العرب من لا يعرفون القرآن والنبي . اما النواحي الاخرى فللاسلام ولسلالة النبي السادة والاشراف مكانة عالية فيها . ولكل قبيلة سيد يسمى منصب هو رئيسهم الروحي فيأخذ منهم النذور ، ويحكم بينهم ، ويستغاث به وبكبار اجداده .

العوازل

اذا عدنا من بلاد الواحدى غرباً فاجتزنا بلاد العوالق عند الخط الرابع عشر شمالاً من خط الاستواء نصل الى الدائنة بلاد العوازل البدو ، وهي في ملئى الاودية الثلاثة رُقوح وذُرَى ومردان ، تربتها خصبة ، ورجالها اشداء . كانت الدئينة في الماضي عاصمة التمرد و « ديرة » العصيان ، فقد رفض العوازل الحماية الانكليزية ، وحاربوا الجنود الذين سعدوا من عدت اليهم فهزمهم وردوهم خامسين . واكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التخلص من النفوذ الاجنبى لان جيرانهم العوالق اصدقاء الانكليز وانصارهم . قيل لي ان يوم خرجوا على

السلطة البريطانية انتقم الانكليز من المقيمين منهم في عدن فاجلوم عنها
بالسياط .

اليوافع

اذا واصلنا السير غرباً عند الخط الرابع عشر من العرض وقطعنا وادي
الرقوح نمر بالطرف الجنوبي من الجبال البيضاء ، وهي بلاد خصبة فيها بضعة
انهار واهلها موالون للانكليز . ثم ندخل في بلاد اليوافع وفيها كما يقال
سبعون الف مقاتل وعدة شيخات مستقلة خلا السلطنتين العليا والسفلى . هي
مثل العوالق تقسم الى قسمين . اما اليوافع السفلى فاكثر اهلها من البدو وهم
منذ سنة ١٨٣٩ اصداق الانكليز مخلصون لهم . ويظهر ان اليوافع ثابتون في
العداء ثباتهم في الولا . فقد كان بينهم وبين جيرانهم آل فضل عداء منذ
١٨٢٣ استمر عشرين سنة ثم بسطت الحكومة البريطانية حمايتها عليهم
سنة ١٨٩٥ فازالت ذلك العداء القديم او كادت . ولكن سلطان اليوافع السفلى
محسن بن علي ناظم على الانكليز اليوم لانهم رفضوا ما طلبه من الزيادة في
المشاهرة . وهو يعني فوق ذلك لقباً يصحبه نيشاناً ومدافع ترحيب مثل الزملاء
والجيران .

اما سلطات اليوافع العليا فضل بن محمد ومركزه الحوطة فلا علاقة له
بالانكليز ولا فضل لهم عليه ، ولا هو يعني منهم غير البعد والمجران . هؤلاء
اليوافع مثل العبادلة اكثر عرب النواحي التسع ثروة وتمدناً ، فيهم من التجار من
تتصل تجارتهم بالهند والجزائر في البحر الهندي . وبينهم وبين العبادلة نسب
وقرابة . واهل اليوافع العليا يفاخرون اقرانهم وجيرانهم باستقلالهم كل الاستقلال
فيقولون : لم يدخل ولن يدخل اجنبي الى بلادنا . اما حكومة عدن فكانت قد
عينت في الماضي احد مشايخ عربان الشعيب ليحافظ على عمود الحدود هناك
براتب شهري قدره سبعة ريالات .

العلوي

هم من العشائر التي لم تتمكن حكومة عدن من ضبطهم واستدراجهم الى الموالين المحميين . فلم يكن بينها وبينهم منذ سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٨٩٥ علائق رسمية ، ولكنها كانت تدفع المشاهرات الى شيخهم بواسطة جارهم الى الغرب سلطان الحواشب . ثم عقدت معهم معاهدة شبيهة بالمعاهدات التي عقدت مع جيرانهم . اما الحماية او الولاة او الصداقة فلا تزال اسمية . وكذلك

القطيبي

وهم مثل الصبيحة قوم غزاة . كانوا في الماضي يغزون الضالع والعلوي ، ويتقاضون القوافل رسوماً ، ويقطعون عند الحاجة الطرق . ثم دخلوا في صف المتعاهدين اصحاب الاعانات ولكنهم ابوا الحماية ، ودار الاعتماد لا تركن اليهم . اما شيخهم الحالي الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ بلاد القطيب والاجعود فقد قاوم الزيود عند ما زحفوا منذ ثلاث سنوات على النواحي التسع يبعثون الاستيلاء عليها كلها . ثم صالحهم لان دار الاعتماد لم تمده بالمساعدة الحربية والمالية التي كان يطلبها ، وصار من عمال الامام يحيى فخره الانكليز . وقد يخسرون بسببه العلويين وغيرهم من المحميين . اما

(١) الحواشب

جيران القطيبي ولحج والصبيحة فهم والعزبي اول من عقدوا مع الانكليز معاهدات . ويحاربون مع من « يملأ كنفهم قروش »^(٢) عندهم من الخمسة الى

(١) راجع الفصل الثاني من القسم الثاني صفحات ٨٧ الى ٨٩
(٢) اشارة الى الكلمة المأثورة في تلك النواحي اوردها بلغتهم . لا نا قبيلة حد ولا حد دولتي « سلطاني من ملا كفي قروش »

العشرين الف مقاتل كما يقال وسلطانهم اليوم محسن بن علي بن مانع . هو الذي كان ولي العهد عندما زرنا اباه في المسمير .

العقارب

قبل ان نتقدم شمالاً لنختم هذا الفصل يجب ان نعرف القارى . باقدم السلطنات المستقلة واصغرهما ، اي سليطنة العقارب ذات القبيلة الواحدة والبلد الواحد . العقارب نخذ من العبادلة اعلنوا استقلالهم في العقد السابع من القرن الثامن عشر ، اي حين اعلنت الولايات المتحدة الاميركية استقلالها . وهي مثل تلك الولايات لا تزال مستقلة عزيزة ، بل هي فريدة في بابها لا زادت عدداً ولا نقصت ، ولا كبرت ولا صغرت . اهلها قانعون بقسمة الجبار فيهم يجمعون شتاتهم وكتتهم في بير احمد مدينتهم الوحيدة بل بلادهم جمعاء ، فيقيمون فيها مطبخين . وما اشبههم بين الانكليز والصبيحة والعبادلة بمملكة لكسمبور قبل الحرب بين المانية وفرنسة والبلجيك . ولكن الحرب قضت على لكسمبور ، ودمرت لحج ، فقربت من سليطنة بير احمد ولم تسمها بشي . من الضرر والويل .

الضالع

بنقلنا البعث في هذه الناحية من الجنوب الى الشمال ، ومن سياسة الانكليز الى سياسة الامام ، لانها تدخل في منطقة اليمن الاعلى ، وهي في الطريق الى صنعاء شمالاً بغرب من بلاد العلوي ، وفيها قبائل متعددة . كان يحكمها الامير نصر بن شايف الذي اجتمعنا به في لحج يوم كنا هناك لأن الزيود كانوا قد احتلوا الضالع واخرجوه منها . ولا عجب اذا استعاد الامام يحيى هذه المناطق التي كانت سابقاً من ملك اجداده . قد قيل ان اجداد مشايخ الضالع من المولدين ، كان اباؤهم من عبيد ائمة اليمن ، ثم استقلوا في طليعة القرن الماضي واقاموا منهم اميراً عليهم .

قد احتل الزيود بلاد القطيب والاجعود ايضاً ، ووصلوا الى الجبال البيضاء ،
فشرعوا ينشرون الدعوة الامامية وينصبون حبال السياسة والاستيلاء شرقاً
وجنوباً حتى بلاد اليوافع وآل فضل . وقد كان الشيخ محمد الاخرم اول من
وقع في حبالهم ، اول من اتبع الهدى .

دعا الزيود الى الضالع باسم السلم والامام فلبى الدعوة بعد ان خذله الانكليز
كما تقدم . ولما دخل البلد اطلق الزيود من اجله ، اقنءاً بحكومة عدن ، اربعة
مدافع ترحيباً واکراماً ، قترنج الشيخ ورفع الادعية للحضرة الامامية بصنعاء ،
فعينه الامام امير الجيش في القطيب والاجعود ، واختصه براتب شهري ، وبربع
العشر من زكاة تلك المقاطعات ، وبالف قدح من الذرة ، وباربعمئة جندي من
الزيود الاشواص ليكنسح النواحي العاصية ويدخلها في طاعة الامام . ولم يكن
الشيخ الاخرم ليقبض من الانكليز غير مئة روية كل شهر . فهل يلام اذا ولي
وجهه شطر صنعاء وعاد الى قديم التبعة والولاء ؟

ان حضرة الامام ، اذا تاير على هذه الخطة ، ان الفائزين بما يبغيه من
الانكليز . فهو يقندي بهم فيحاربهم في اليمن الاسفل بتلك السياسة التي هي
عندهم رأس اسباب السيادة . الا وهي سياسة الولاء والعطاء ثم الاستيلاء .
وتراه لا يقصر حتى في الجزاء والاکرام ، فيرفع الى المناصب العالية المشايخ
والعقال ، ويدفع لهم المشاهرات ، ويخصهم فوق ذلك بجزء من الزكاة . اي دهاة
الانكليز ، ان عندنا المدافع ايضاً نطلقها مرحبين ، باخواننا المسلمين ، ابناء
اتباعنا الاقدمين .

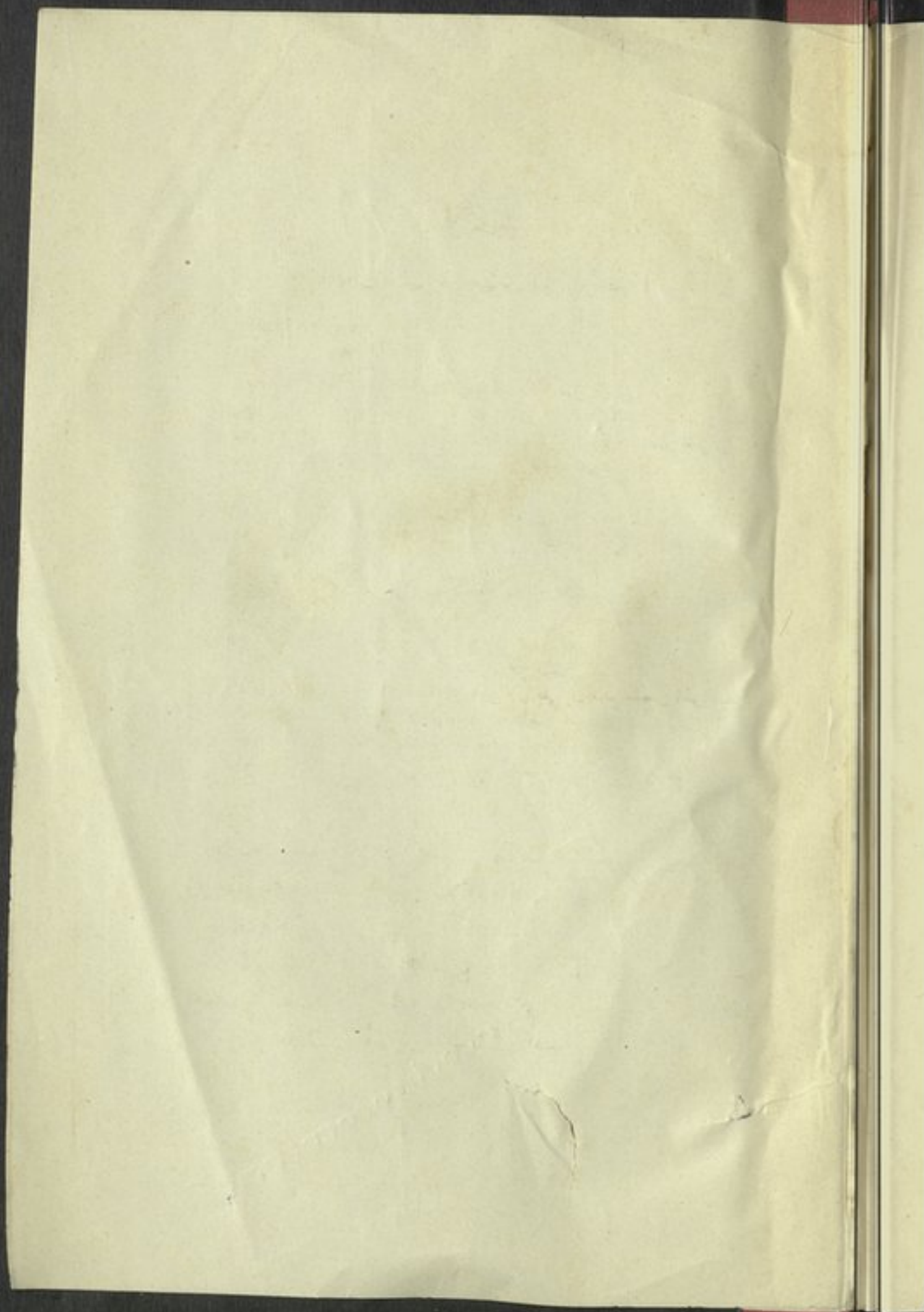
لائحة

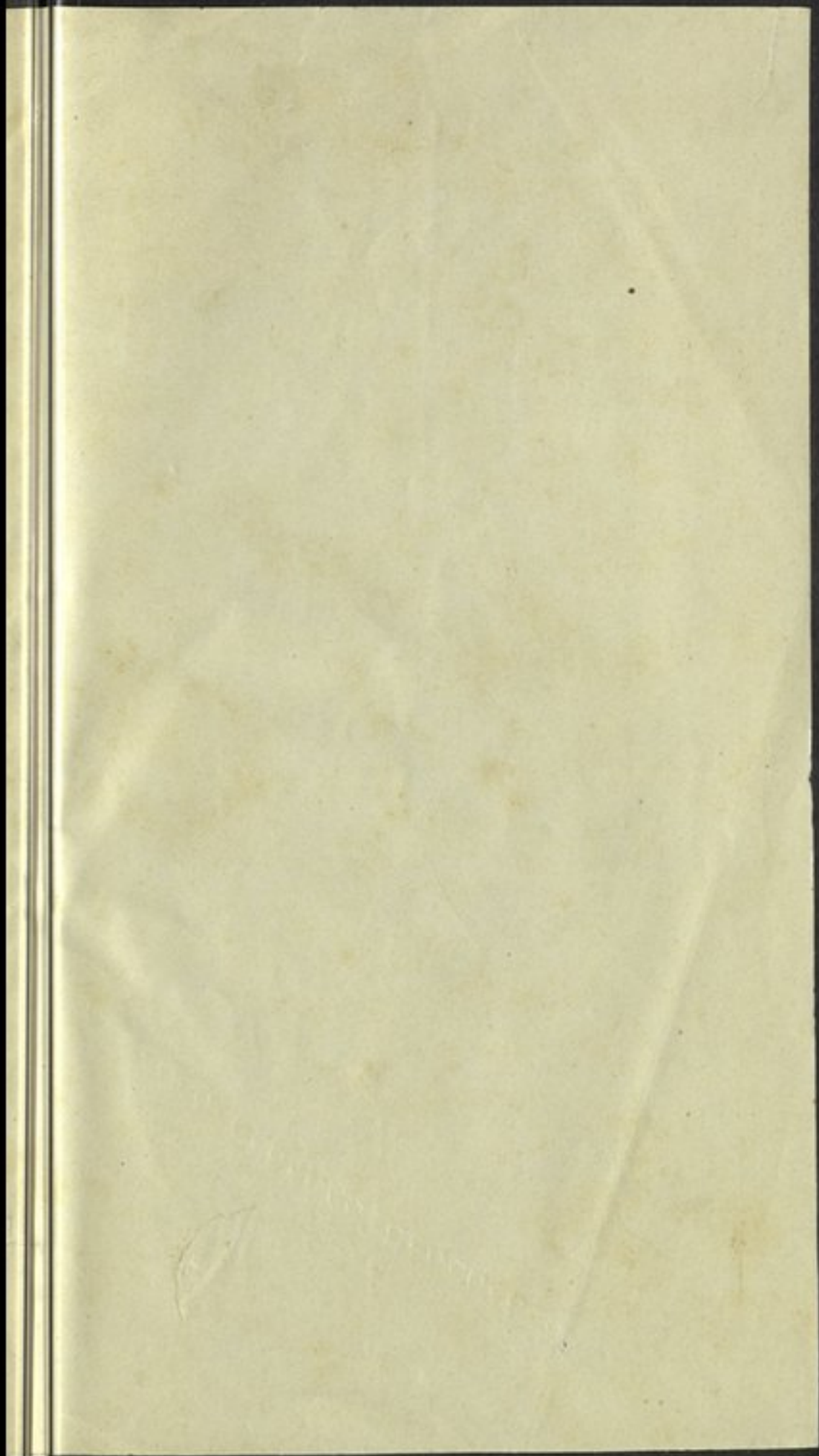
الرواتب الشهرية وجيوش النواحي المحمية

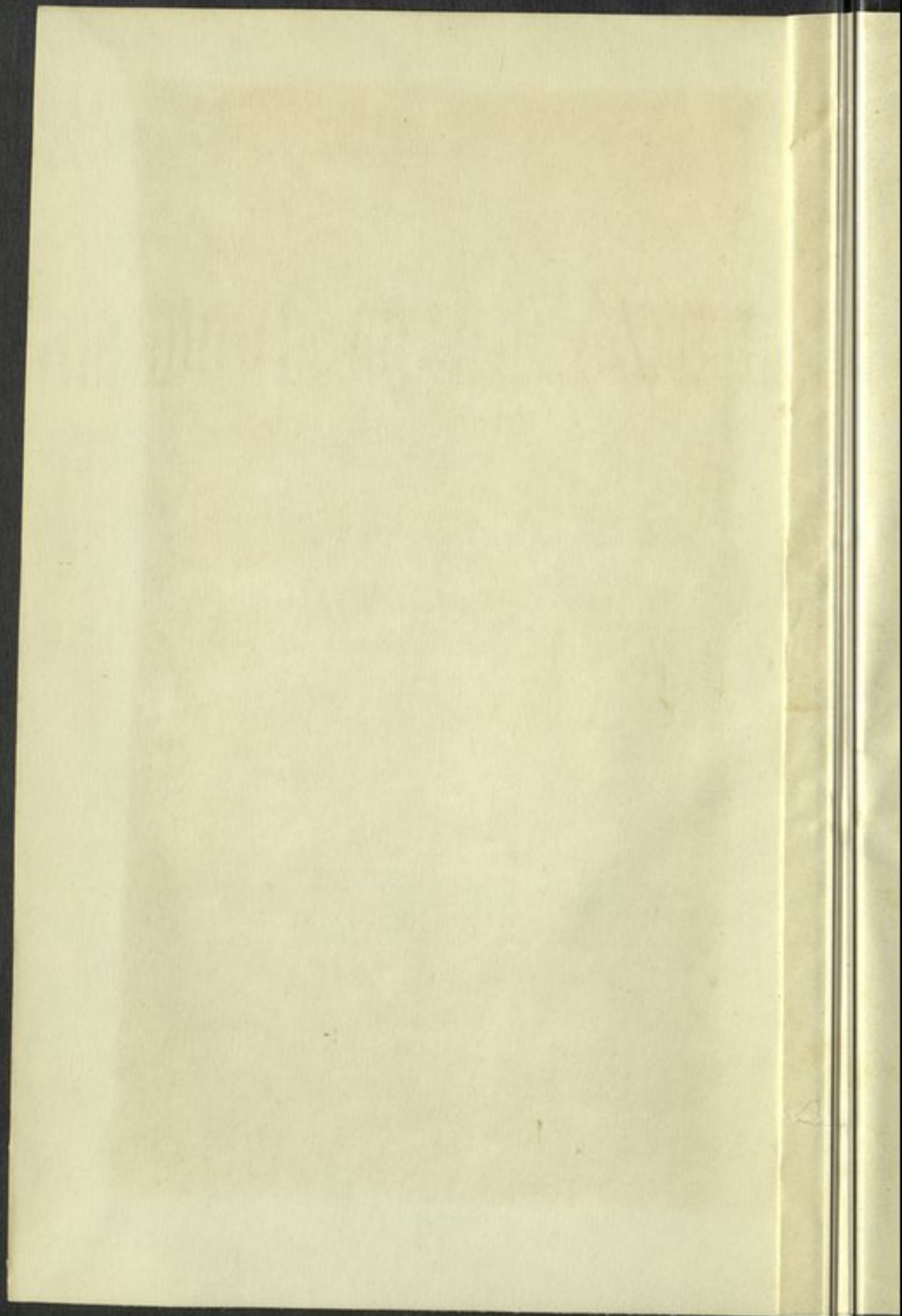
الرواتب الشهري . ما يستقيم ان يحسده		روبية
من الجنود		
السلطان عبد الكريم فضل بن علي سلطان الحج	٢٠٠٠	٢٢٨٠
« عبد القادر بن حسين الفضلي سلطان شقره	١٠٠٠	٢٦٠
« صالح بن عبدالله العولقي سلطان العوالق العليا	٢٠٠٠	٢٥٠
« الشيخ محسن بن فريد العولقي شيخ		٢٥٠
« محسن بن رويس		١٥٠
السلطان ابو بكر بن ناصر سلطان العوالق السفلى	١٠٠٠	١٦٠
السلطان محسن بن علي سلطان بني قاسد	٣٠٠٠	٢٠٠
« صالح بن عمر		٨٠
« ضبي		٨٠
الشيخ سالم بن صالح بن عاطف جابر شيخ ضبي		١٠٠
« ابو بكر طلي شيخ الموسطه		٥٠
« محمد علي محسن	٨٠	
« عبد الرحمن المفلحي شيخ المفلحي	١٠٠٠	٤٠٠
السلطان محسن بن علي بن مانع سلطان الحواشب	١٠٠٠	٣٠٠
الامير نصر بن شايف امير الضالم	٥٠٠	١٠٠
الشيخ محمد صالح الاخرم شيخ قبيلة القطيب	٥٠٠	١٠٠
« عبد النبي العلوي	« « «	« « «
	١٣٠٠٠	٦٠٤٠

ولاصحاب هذه المشاهرات اكراميات ايضاً ، يتناولها بعضهم كل ستة اشهر مرة وبعضهم كل سنة ، تتراوح بين الثلاثمئة والالف روبية . وهناك آخرون من المشايخ والعلماء تخصصهم عدن بمشاهرات واکراميات صغيرة .
 اما السلطان عوض بن عمر القعيطي سلطان مكلاً في حضرموت فيستطيع ان يحشد النجدي ، ولكن مشاهرتة اسمية ، وهي ستون روبية لا غير ، لان آل القعيطي ذوو ثروة كبيرة في حضرموت وفي الهند .

(تم الجزء الاول)







A.U.B. LIBRARY

915.3:R26mA:v.1:c.4

الريحاني، أمين

ملوك العرب أو رحلة في البلاد العرب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01044573



